

سلسلة
المائة كتاب

ثابت الأحمدى الهادوية

بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الإِلَهِيَّةِ

تقديم
خالد الرويشان

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

إصدارات
وزارة الثقافة - اليمن

الهَادِيَّة

بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الإِلَهِيَّةِ

في عالم ينهار فيه كل شيء لا تستطيع الكتابة إلا أن تكون فعلاً ثورياً. لا يصبح الأدب وحده من إنتاج المخيلة بل المستقبل والأمل والوطن، والكتابة المبدعة وحدها لا تصوغ أشكال الجمال والمعرفة فقط بل تبذل المشترك بين البشر، وفيما تريد الثقافة الشمولية أن تنتصر للرؤية الواحدة واللون الواحد، فإن ثقافة المستقبل ملونة بألوان قوس قزح ترفع الإنسان مثل سهم إلى طبقات نجمية تعدّه بالمختلف والمتنوع والجديد.

مروان دماج - وزير الثقافة

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة - ش الشيخ معروف من شارع
شمبليون عمارة ج-وسط البلد
تليفون: +20225743534
البريد الإلكتروني: arweqhghh@gmail.com

رقم الإيداع: 2018/2633

الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-774-149-1

إصدار وزارة الثقافة اليمنية

ثابت الأحمدى

الهَادِيَّة

بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الإِلَهِيَّةِ



الطبعة الأولى
2018

ثابت الأحمدي

الهَادِيَّة
بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الإِلَهِيَّةِ

دراسات

وزارة الثقافة اليمنية
مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر وإعداد إدارة الشؤون الفنية



الأحمدي، ثابت

الهادويّة بَيْنَ النُّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الإِلَهِيَّةِ: دراسات/
ثابت الأحمدي- القاهرة: مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
2018.

ص،سم.

تدمك: 1-149-774-977-978

1-السياسة- نظريات

أ- العنوان

320,01

رقم الإيداع: 2018/2633

إهداء

إلى الشعب اليمني العظيم..
باحثًا عن ذاته الحضاريّة التي كانت
يومًا ما ذروة المجد الباسق، والعزّ الباذخ..

تقديم

خالد عبدالله الرويشان

عندما تفضّل صديقي الباحث المثابر ثابت الأحمدى فطلب أن أكتب تقديمًا لهذا الكتاب، أو فاتحةً لبحثه القيم، وجدّني في حيرةٍ غامضة، ساورتني لبرهةٍ عابرة.. ومبعثُ تلك الحيرة أنّ الموضوع في ظاهره، وكما هو جليّ في عنوانه أقربُ إلى الدراسةِ الفقهيةِ السِّيَاسِيَّةِ المقارَنة، الغائصةِ في تلافيفِ الماضي، والغارقةِ في مآسيه!

وليس ذلك من اهتماماتي في العادة!

لكنّ الحيرة لم تدم طويلاً؛ إذ إنّ صفحاتِ الكتاب الأولى بدّدت تلك الحيرة وذلك الظن!.. وذاك أنني اكتشفتُ أنّ الدراسةَ غاصت - بالفعل - في تلافيفِ الماضي؛ لكنها لم تغرق في مآسيه!

وشتانَ بين الغوصِ والغرق!

ولعليّ هنا أشهدُ بأنّ الباحثَ غاصَ مُزوِّدًا باوكسجينِ نقى ملاً صدره وعقله وروحَه، وتمثّلَ هذا الهواءُ النقيُّ في مصادِرَ ثلاثة:

محبّته الطاغية لليمن أرضًا وإنسانًا.

تقصّي الحقائق موثقةً بمصادرها ومراجعتها.

النظرة "البانورامية" للماضي، واستشرافه من ذروة الحاضر المعاش.. حاضر القرن الحادي والعشرين.

وأبجرتُ مع الغائص الباحث.. وكانت الرحلة نزهةً على مرافئ أمواجه، وشواطئ إبحاره.. ولم تكن المرافئ إلا تاريخ اليمَن الأقدم، ولم تكن البحار إلا حَضارةِ الإنسانِ وتقدمه على ظهر البسيطةِ كلها.

إنّ هذا الكتاب دعوةٌ لقراءة التراث الفقهي والسياسي بلا تعصبٍ ولا شطط. قراءة بعقلٍ يقتات العلمَ والحقيقة، وبروح أنوار القرن الحادي والعشرين.. لا بعقلٍ جامدٍ يقتات ظلمات الماضي أو بروحٍ تعيشُ على الكراهيةِ والأثرة!

إنّ الكتاب - باختصار - دعوةٌ لقراءةٍ ناقدةٍ للماضي من أجل المستقبل.. لا دعوة لتكريس الماضي في الحاضر، والغرق في مستنقعاته وأحوال صراعاته.

احتفى الباحثُ بزید بن علي، باعتباره صاحب فكرٍ ثائر، لا صاحب سلطانٍ جائر، ووصولان مُلكٍ بائر.. زید الذي لم يكن حاكمًا، ولا متسلطًا؛ بل كان زاهدًا ساهدًا، على زُغم معاناته من ظلمِ الدولة الأموية.

وللعدل والإنصاف، فقد كان زیدُ بن علي - وهو الإقرب إلى فكر المعتزلة الثائرين - النموذج الذي كان يجبُ اقتفاء أثره، والمشى على خطاه إبانَ تغيراتٍ وتقلبات القرنين الثالث والرابع الهجريين.

يُمسكُ الباحثُ بهذا الخيط المعتزلي المضيء في الفكر الزيدي الأول، حتى يصلَ إلى ذرى النور في القرن العاشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وما تلاه في فكر العلامة مُحمَّد بن إبراهيم الوزير، والعلامة صالح بن مهدي المقبل، والعلامة مُحمَّد بن إسماعيل الأمير، والعلامة مُحمَّد بن علي الشوكاني.. لقد كانت كواكب ضخمة في مدار الفكر الإسلامي عامة، حتى قيل: إن أعظم علماء الزيدية مُتسنِّنون، وأعظم علماء السنة زيديون! ولعل

هذه المقولة كانت على هدى العبارة الشهيرة الصحيحة "أَنَّ الزَّيْدِيَّةَ سَنَةُ الشَّيْخَةِ، وَشَيْخَةُ السَّنَةِ!"

يُفَرِّقُ الباحثُ بين الزَّيْدِيَّةِ الصَّافِيَّةِ في منابعها الاعتزالية العقلية الأولى.. و الهادوية السياسية الحاكمة.. ويحاول أن ينصفَ الزَّيْدِيَّةَ الأولى مما علقَ بها بعد ذلك أثناء صراعٍ طويلٍ على السُّلْطَةِ في اليمن، بدايةً من قُدُومِ الهادي إلى اليمنِ أواخرَ القَرْنِ الثالثِ الهجري من الحجاز وما تلاه من صِراعاتٍ مئات السنين.. وصولاً إلى القَرْنِ الحادي والعشرين الميلادي.

إنَّ تاريخَ العالمِ في جزءٍ مُهمٍّ منه هو تاريخُ الصِّراعِ على السُّلْطَةِ، واليمنُ كان جزءاً من هذا العالم، وما يزال.. وبالطبع، فإنَّ تاريخَ اليمنِ - في كلِّ الأحوالِ - لم يكن بدعةً في ذلك..

لكنَّ عالمنا اليوم - ونحن في منتصفِ العقدِ الثاني من القَرْنِ الحادي والعشرين - توافَقَ على مجموعةٍ قيمٍ حاكمةٍ أصبحت مذهباً جديداً للعالم كله، يستوي في ذلك الغربُ والشرق، ويدخلُ تحت هذه القيمِ المؤمنون بكلِّ الأديانِ السَّمَاوِيَّةِ وغير السَّمَاوِيَّةِ.. وحتى من غير المؤمنين بأيِّ دين! وأهمُّ هذه القيمِ - التي باتت تحكمُ عالمنا اليوم - أفكارُ الديمقراطيةِ، والعدالة والمواطنة المتساوية، والحقوق الإنسانية التي تكفلها ميثاقُ الأمم المتحدة، وإعلانُ حقوقِ الإنسان.

عالمنا اليوم لم يعدَ عالمَ القَرْنِ الثالثِ الهجري/ العاشر الميلادي.. وما كان موجوداً في الفكرِ السياسيِّ ونظرياتِ الحكم، على وجه التحديد في الأزمانِ الغابرة لا يمكنُ أن يكونَ صالحاً في القَرْنِ الحادي والعشرين تحت أيِّ مسمّى أو قناع.

إذا كانت الأصولُ الخمسة في الفكرِ الهادوي - وهي اجتهادٌ بشري - قائمةً على التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإثبات الإمامة

في آل البيت.. فإنه يصحُّ أن نقول: إنَّ ثمة أصولاً جديدةً باتت تحكمُ العالمَ اليوم، أهمُّها: الديمقراطيةُ، والعلمُ والمعرفةُ الإنسانيَّةُ، والحرِّيَّةُ، والمواطنةُ المتساويةُ، واحترامُ القانون.

ولعمري فإنها حُلَاصةُ أيِّ دين، ولُبُّ أيِّ رسالة، وزُبْدَةُ أيِّ تقدِّمٍ إنساني! لقد أصبحتُ أصولَ عالمنا الجديد. وهي التي وصلَ الإنسانُ الحديثُ على أجنحتها إلى كوكبِ المريخِ بعد أن تجاوزَ القمرَ منذ نصف قرن!

ولا تساورني لحظة شكٍّ أنها هيَّ الأصولُ الخمسةُ الجديدةُ اللازمةُ والواجبةُ لانعتاقِ اليمينين اليوم من رِقَّةِ التخلفِ والصراعاتِ البلهاءِ التي تغتذي دَوْمًا بالظلامِ والفقرِ والجهلِ والأنايَّة.

في لحظةٍ ما، قد يبدو أن اليمينين عالقونَ بينَ ماضٍ لا يُريدُ أن يذهب، ومستقبلٍ يأتي أن يجيء..

لكنَّ الواقعَ ليس بهذه البساطة!

صحيحٌ أنَّ التَّاريخَ يقفُ مُترَبِّصًا خَلْفَ البابِ.. مُتسلِّلاً خَلْفَ النافذة!.. بينما يَرُقُّه أصحابُ البيتِ، متجمهرين، مرعوبين!

وصحيحٌ أنَّ اليمينين اليوم على مُفترقِ طُرُقٍ شديدةِ الخطورة؛ لكنهم كانوا قد قطعوا شوطاً مُهمًّا خلالَ نصفِ قرنٍ فائتٍ نحو تحقيقِ أحلامهم في التواجدِ في هذا العَصْرِ بقميمه الحاكمةِ الجديدةِ في الديمقراطيةِ والمواطنةِ والمساواةِ والمعرفةِ والحرية.. والتقدُّم!

وصحيحٌ أنَّ كفاحَ اليمينين كانَ مريراً، مرارةً تاريخهم السِّياسي الكثيفِ بالصراعِ على السُّلطةِ وظروفِ الظلمِ والظلامِ التاريخيين.. إلَّا أنَّ المستقبلَ كان قد فازَ بمعظمِ جولاتِ الصِّراعِ في هذه اللحظةِ من التاريخ.. لحظةَ القرنِ العشرين.

خمسون عاماً من الكفاحِ نحو الضوءِ في مواجهةِ ألفِ عامٍ على الأقلٍ من ركامِ الظلمِ والظلام!.. ياً للمعركة غير المتكافئة!

لكن الخمسين عامًا تبدو صامدةً حتى الآن! على الأقل في قلوبِ اليمينيين وعيونهم..
ضوءًا لا يخفُّ في قلوبهم، وناظرًا لا تحبُّ في عيونهم!.. يؤازرهم العالمُ كُلُّه بعد أن أصبحَ
قريةً واحدةً، كما يُقال.. قرية تحكُمها منظومةٌ قيِّمٍ واحدةٍ، هي المذهبُ الجديدُ الذي
باتَ يحكُمُ العالمَ كُلَّهُ!

المقدمة

يُقَالُ: إِنَّ تَارِيخَ الْأُمَّةِ الْحَقِيقِي هُوَ تَارِيخُ تَمَدُّنِهَا وَحَضَارَتِهَا لَا تَارِيخَ حُرُوبِهَا وَفُتُوحِهَا، وَإِنَّ الْحُكُومَاتِ النَّاجِحَةَ تَتَفَاخَرُ بِقِلَّةِ فُقَرَائِهَا لَا بِكَثْرَةِ أَعْيَانِهَا. وَإِذَا كَانَ التَّارِيخُ - مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْبَعْضِ - شَخْصِيَّاتٍ وَمَوَاقِفٍ فِي أَدَقِّ اخْتِصَارٍ لِتَعْرِيفِهِ، كَمَا أَنَّهُ عِنْدَ "ول ديورانت" حَدِيثٌ مَا يَجْرِي فِي الصَّفَتَيْنِ عَلَى جَانِبِي النَّهْرِ، فَإِنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ نُضَيِّفَ - أَيْضًا - أَنَّهُ فَنُّ الْمَدِينَةِ فِي أَرْقَى مَظَاهِرِهَا وَأَجْلَى صُورِهَا. وَقَدْ كَانَتْ الْيَمَنُ حَيْرَ مُوَدِّجٍ لِلشَّخْصِيَّاتِ وَالْمَوَاقِفِ، كَمَا كَانَتْ أَرْقَى وَأَبْهَى صُورَةَ مِنْ صُورِ الْمَدِينَةِ وَالرُّقِيِّ الْحَضَارِيِّ فِي تَارِيخِهِ الْقَدِيمِ..

مَنْ يَسْتَفْرِئُ الْيَمَنَ تَارِيحًا وَحَضَارَةً وَمَجْدًا مُؤْتَلًّا، وَمَنْ يَتَأَمَّلُ نُصُوصَ التَّوْرَةِ، وَنُصُوصَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَى الْيَمَنِ تَصْرِيحًا وَتَلْمِيحًا، مُتَرَبِّئًا أَمَامَ مَا يُوضِحُ ذَلِكَ فِي النُّقُوشِ الْأَثَرِيَّةِ وَكِتَابَاتِ الْمُؤَرِّخِينَ الْقُدَامَى، مِنْ مُسْتَشْرِقِينَ وَعَرَبٍ وَعَجَبِهِمْ، يَجِدُ نَفْسَهُ أَمَامَ لَوْحَةٍ بَدِيعَةٍ، هُنْدَسَتْهَا الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي أَوَّلِ صُورَةٍ وَأَدَقِّ تَشْكِيلٍ.. أَمَامَ حَضَارَةٍ هِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ أَقْدَمِ الْحَضَارَاتِ، بِإِجْمَاعِ كُلِّ الْمُؤَرِّخِينَ، إِنْ لَمْ تَكُنْ أَقْدَمَهَا جَمِيعًا. لَا نَقُولُ هَذَا جِزَافًا، أَوْ تَعْصَبًا لِيَمَنِيَّتِنَا بِلَا اسْتِحْقَاقٍ، وَإِنْ كَانَتْ الْيَمَنُ "الْيَمَنِيَّةُ" لَنَا عَقِيدَةٌ وَدِينًا وَمَذْهَبًا، وَمَاضِيًا وَحَاضِرًا وَمُسْتَقْبَلًا، وَكِينُونَةً وَذَاتًا، وَأَوَّلًا وَآخِرًا وَهِيَ

الْكُلُّ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ، رُوْحًا وَعَقْلًا وَوَجْدَانًا.. أَوْ هَكَذَا تَبَدُّو لِي. إِنَّمَا بَعْدَ أَنْ وَقَفْنَا عَلَى مِئَاتِ الشَّوَاهِدِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْأَثَرِيَّةِ الَّتِي تُفَرِّزُ ذَلِكَ.

آلَافُ النُّصُوصِ الْمُسْنَدِيَّةِ، هِيَ مَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ مَبَاضِعُ وَعَدَسَاتِ الْآثَارِيِّينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ مِنْ يَمِينِينَ وَعَرَبٍ وَمُسْتَشْرِقِينَ حَتَّى الْآنَ، وَأَكَادُ أَجْرُمُ بِأَنَّ الْمَطْمُورَ بِسَوَافِي الدَّهْرِ وَعَوَادِي الزَّمَنِ أَكْثَرَ، وَسَلَّ نُفُوشَ جَلَازِرٍ، وَهَالِيفِي، وَكْرِيسْتِيَانِ رُوبَانِ، وَجُودِ عَلِيٍّ، وَمُطَهَّرِ الْإِرْيَانِيِّ، وَيُوسُفِ مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ وَآخَرِينَ سَتُنْبِئُكَ عَنْ أَسْرَارِ وَمَكْنُونَاتِ هَذِهِ الدَّخَائِرِ الَّتِي تَكْتَنِزُ بِهَا كُلُّ رَابِيَةٍ وَسَفْحٍ، وَكُلُّ نَلٍ وَجَبَلٍ، عَلَى امْتِدَادِ رُبُوعِ الْيَمَنِ الْعَظِيمِ بَعْظَمَةِ تَارِيخِهِ، الْمَتَنُوعِ بِتَنُوعِ تَضَارِيْسِهِ، وَالَّذِي لَا يُشَاكِلُهُ صُفْعٌ، أَوْ تُشَاهِجُهُ بَلَدٌ عَلَى امْتِدَادِ الْمُعْمُورَةِ.

آلَافُ النُّفُوشِ.. خَرَجَ مِنْهَا هَؤُلَاءِ بِالْكَثِيرِ، إِلَّا أَنَّ كَثِيرَهُمْ قَلِيلٌ، قِيَاسًا إِلَى مَا لَا يَزَالُ مَجْهُولًا وَعَامِضًا؛ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْبَلَدَ أُصِيبَ بِنَكَبَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ مُتَتَالِيَةٍ، مُنْذُ مِئَاتِ السِّنِينَ وَإِلَى الْيَوْمِ، وَلَا يَزَالُ، حَالَتْ دُونَ مَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِ وَسَرَائِرِهِ الَّتِي يَكْتَنِزُ بِهَا. وَلَا عَزَاءَ لَنَا فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ نَقُولَ كَمَا قَالَ مُبْصِرُ الْيَمَنِ فِي زَمَنِهَا الْأَعْمَى "الْبَرْدُونِي":

عِظَامُ الْأَحْدَاثِ لَا تَخْتَارُ إِلَّا الْأَعْظَمَا

بَعْضٌ مِنْ هَذِهِ النُّفُوشِ فِي بِلَادِ الْيُونَانِ، وَبَعْضُهَا فِي بِلَادِ الرَّافِدِينَ، وَبَعْضُهَا فِي بِلَادِ الْحَبَشَةِ، يَعُودُ تَارِيخُهُ إِلَى الْقَرْنِ الْعَاشِرِ قَبْلَ الْمِيلَادِ. بَلْ لَقَدْ وُجِدَتْ نُصُوصٌ مُسْنَدِيَّةٌ يَمِينِيَّةٌ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، وَهَذَا مُثَبَّتٌ بِالذَّلِيلِ وَالذَّرَاسَةِ لِبَاحِثِينَ لَا يُشَقُّ لَهُمْ عُبَارٌ.

صَحِيحٌ أَنَّ ثَمَّةَ حَضَارَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ أُخْرَى تَأَسَّسَتْ عَلَى مَرِّ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ، كَالْفِرْعَوْنِيَّةِ أَوْ الْبَابِلِيَّةِ، وَكَحَضَارَاتِ الْهُنُودِ أَوْ الصِّينِيِّينَ؛ لَكِنَّهَا - عَلَى عَظَمَةِ شَأْنِهَا - دُونَ

حَضَارَةُ الْيَمَنِ؛ لِأَنَّهَا جَعَلَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي أَسَّسَ قَوَاعِدَهَا وَشَادَ بُنْيَانَهَا آلَةً، كَانَ يَجْرُ نَيْرَ الْعَرَبَاتِ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الْخَيْلِ أَوْ الْجَمَلِ؛ أَمَّا حَضَارَةُ الْيَمَنِ فَقَدْ كَانَ الْإِنْسَانُ وَسِيلَةَ الْبِنَاءِ وَالْعُمُرَانِ وَهَدَفَهَا مَعًا! لَمْ يَبْنِ الْمُلُوكِ الْمَقَابِرَ، لِيَهْنُؤُوا فِي رُقَادِهِمْ مَيِّتِينَ، كَمَا هَنُؤُوا فِي مَعِيشَتِهِمْ أَحْيَاءَ؛ بَلْ بَنَى السُّدُودَ وَاسْتَصْلَحَ الْمَدْرَجَاتِ وَحَفَرَ الْآبَارَ وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ لَا مِنْ قَرَائِنِ الْفَنَاءِ.

وَتُوَكِّدُ لَنَا نُصُوصُ الْمُسْنَدِ التَّارِيخِيَّةِ أَنَّ عِلَاقَةَ الشَّعْبِ بِمُلُوكِهِ تَكَادُ تَكُونُ عِلَاقَةً الْبَدِّ لِلْبَدِّ، لِأَنَّ أَيَّ مُوَاطِنٍ فِي نَظَرِ الْمَلِكِ هُوَ ابْنُ الْإِلَهِ "عَم" عِنْدَ الْقَتَبَانِيِّينَ، وَهُوَ ابْنُ الْإِلَهِ "إِلْمَقَه" عِنْدَ السَّبْئِيِّينَ، وَهُوَ ابْنُ الْإِلَهِ "وَد" عِنْدَ الْمَعِينِيِّينَ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي عَاشَتْ عَزِيزَةً مُكْرَمَةً، تَسَنَّمَتْ أَرْقَى الْمَنَاصِبِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِدِّيْنِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ. وَتَمَّةً "بَلْقَيْسَاتُ" أُخْرُ إِلَى جَانِبِ بَلْقَيْسِ الْمَلِكَةِ الَّتِي طَعَتْ شَهْرُهَا عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، كَمَا تَذَكُرُ النُّصُوصُ. وَهَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي جَعَلَ تَارِيخَ الْيَمَنِ الْحَضَارِيِّ قَدِيمًا شَبَهَ حَالٍ مِنَ الْعَبِيدِ، فِي أَكْثَرِ مِنْ مَرَحَلَةٍ وَهِيَ مِيزَةٌ لَا تُوجَدُ لَدَى آيَةِ أُمَّةٍ أَوْ حَضَارَةٍ. وَحِينَ وُجِدُوا، كَانَتْ حُقُوقُهُمْ مُصَانَةً، وَأَعْرَاضُهُمْ مُحْتَرَمَةً، بِقَوَانِينِ صَارِمَةٍ، حَفِظَتْهَا الدَّوْلَةُ، فَعَاشُوا عَيْشَةً كَرِيمَةً فِي بُيُوتِ الْمَلِكِ وَالتِّجَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ، وَفِي الْمُدُنِ دُونَ الْأَرْيَافِ، كَمَا يَعِيشُ أَيُّ مُوَاطِنٍ آخَرَ.

حَضَارَةُ الْيَمَنِ الْقَدِيمِ أَخْلَاقِيَّةٌ فِي مَبْنَاهَا، إِنْسَانِيَّةٌ فِي مَعْنَاهَا، مُتَأَصِّلَةٌ عَنِ مَنْظُومَةِ قِيَمِيَّةٍ، انْبَنَتْ عَلَى رُؤْيِيَّةٍ مُبْصِرَةٍ، وَأَنْطَوَتْ عَلَى فِكْرَةٍ مُسْتَنِيرَةٍ. الْمَجْدُ - كُلُّ الْمَجْدِ - فِيهَا لِلْإِنْسَانِ أَوْلًا وَآخِرًا.

حَضَارَةُ عَاشَ فِيهَا كُلُّ يَمَنِيٍّ مَلِكًا مُتَوَجِّجًا بِنَفْسِهِ، وَسَيِّدًا عَزِيزًا بِرَأْسِهِ. كَانَ اخْتِكَامُهُ لِلْقَانُونِ طَوْعًا مِنْ وَحْيِ الشُّعُورِ بِالمَسْئُولِيَّةِ المِتَّشَارِكِ فِيهَا، لَا كَرَهًا مِنْ هَيْبِ السِّيَاطِ الَّتِي تَلْفُحُ جِلْدَهُ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ لَدَى الْحَضَارَاتِ غَيْرِ الْيَمَنِيَّةِ.

وإِذَا كَانَتْ حِكْمَةُ الصِّينِيِّينَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَحِكْمَةُ الْهِنْدِيِّ فِي عُقُولِهِمْ، وَحِكْمَةُ الْعَرَبِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، كَمَا يُقَالُ؛ فَإِنَّ حِكْمَةَ الْيَمَنِيِّينَ - وَهُمْ جُزْءٌ مِنَ الْعَرَبِ - قَدْ سَمَلَتْ الْكُلَّ، وَمَنْ يَقِفُ عَلَى تَفَاصِيلِ هُنْدَسَةِ عَرْشِ بَلْقِيسَ، أَوْ مَعْبَدِ أَوَامَ، أَوْ قَصْرِ عُمْدَانَ، يَقِفُ حَائِرًا مُنْدَهَشًا مِنْ تَفَاصِيلِ تِلْكَ الْإِبْدَاعَاتِ الْأَثِيرَةِ الَّتِي تَكْشِفُ الْمُرْتَبَةَ الَّتِي تَوْصَلُ إِلَيْهَا الْعِلْمُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ سَوَاءً مِنْ حَيْثُ هُنْدَسَتِهَا وَتَحْطِيطِهَا، أَوْ مِنْ حَيْثُ هَيَاكِلِهَا وَأَشْكَالِهَا، كَمَا يَنْدَهَشُ مِنْ طَبِيعَةِ ذَلِكَ الرَّقِيِّ الْحَضَارِيِّ فِي الْقَوَانِينِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الَّتِي سَنَّتْهَا الدُّوَلُ الْمُتَعَاقِبَةُ خِلَالَ تَارِيخِ الْيَمَنِ الْقَدِيمِ، حَتَّى لَقَدْ أَخَذَ الْإِسْلَامُ كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الْيَمَنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، مُوجِّهًا بِهَا أَتْبَاعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَزَمَهَا صِفَةَ الْعَالَمِيَّةِ، بِاعْتِبَارِهِ دِينًا عَالَمِيًّا، كَقَوَانِينِ الْعُشُورِ وَأَنْصَافِ الْعُشُورِ فِي التِّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ، وَقَوَانِينِ الْعُقُوبَاتِ بِحَقِّ مَنْ يَضُرُّ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَقَوَانِينِ مَنَعِ الْاِحْتِكَارِ وَالغَشْرِ فِي الْمُضَارَبَاتِ التِّجَارِيَّةِ الَّتِي سَنَّتْ حَضَارَةُ الْيَمَنِيَّةِ قَوَانِينَ رَادِعَةً تَجَاهَ مَنْ يُمَارِسُ ذَلِكَ. نَاهِيكَ عَنِ بَعْضِ الشَّعَائِرِ التَّعْبُدِيَّةِ كَصَلَاةِ الْاِسْتِسْقَاءِ مَثَلًا الَّتِي نَحَدَّثْتُ عَنْهَا نُصُوصُ الْمُسْنَدِ قَبْلَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ بِمِثَاتِ السِّنِينَ؛ أَمَّا عَنِ قَوَانِينِ "سُوقِ شَمْرٍ" الْقَتَبَانِيَّةِ، فَقِصَّةٌ أُخْرَى، وَحَدِيثٌ فَوْقَ أَنْ يُحْكَى.

حَضَارَةُ الْيَمَنِ أَخْلَاقِيَّةٌ، اجْتِمَاعِيَّةٌ، عَالَمِيَّةٌ. وَقَوَانِينُهَا وَتَشْرِيعَاتُهَا الَّتِي أَفْصَحْتُ عَنْهَا نُصُوصُ الْمُسْنَدِ تَكْشِفُ - بِإِلَاءِ عَنَاءِ - حَقِيقَةَ ذَلِكَ. حَضَارَةُ بَعِيدَةٌ عَنِ "نَفْعِيَّةِ" وليم جيمس، أَوْ "تَبْرِيْرِيَّةِ" نيقولا ميكافللي، أَوْ "مَادِيَّةِ" ماركس فِي صِبْغَتِهَا السَّنَاتِيْنِيَّةِ، وَحَمِيعُهَا تَعَامَلَتْ مَعَ الْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِهِ كَأَنَّهَا لَا رُوحَ لَهُ، الْعَلْبَةُ فِيهَا لِلْمَادَّةِ.. مَفْصُولَةٌ عَنِ الْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ؛ لَا بَقَاءَ فِيهَا إِلَّا لِلْأَفْوَى، وَبِقَوَانِينِ تَحْرُسُ ذَلِكَ.

كَانَتْ حَضَارَةُ الْيَمَنِ أَمْوَدَجًا مُتَفَرِّدًا لِلْعَقْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ، بِصِبْغَتِهِ التَّشَارِكِيَّةِ، قَبْلَ ظُهُورِ جون لوك و توماس هوبز وجان جاك روسو، كَمَا كَانَتْ رَمَزًا لِلْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ قَبْلَ

أرسطو والفارابي. ودليلاً للجُمهوريَّة قبل دَعْوَةِ أفلاطون. باختِصار.. حَضَارَةُ اليَمَن إنسانيَّةُ الهوى والمهوى..

مُنذُ الأزلِ واليَمَنُ قِصَّةٌ يَرُوها الزَمَنُ.. فَصَلِّ يَكْتُبُه التَّارِيخُ.. لُعْزُ حَيَّرِ البَاحِثِينَ وَالْمَنَعِبِينَ.. سِرٌّ لِمَا يَكْتَشِفُه أَحَدٌ حَتَّى الآن!

فِي الكِتَابِ المُقَدَّسِ - وَتَحْدِيدًا فِي العَهْدِ القَدِيمِ مِنْهُ - عَنِ اليَمَنِ مَا يَسْتَوْقِفُ القَلَمَ لاسْتِكْنَاهِ كَنَائِزِهِ، وَسَبْرِ أَعْوَارِهِ. وَفِي القُرْآنِ الكَرِيمِ مِنْ سُورِهِ وَآيَاتِهِ - عَنِ اليَمَنِ أَيْضًا - مَا يَكَادُ يُضْفِي عَلَيْهَا مِنْ صِبْغَةِ الإِجْلَالِ وَالاحْتِرَامِ الكَثِيرِ، حَتَّى لَقَدْ تَسَمَّتْ بِهِ، وَبِعَظْمِ أَمَاكِينِهِ سُورٌ بِكَامِلِهَا، سَبَأُ، الأَحْقَافُ، هُودٌ. كَمَا كَانَتْ أَعْلَامُهَا وَمَعَالِمُهَا مَضْرَبَ المَثَلِ فِي العِظَمَةِ والشُّمُوحِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى فُرَيْشِ حَمَاقَتِهِمْ: (أَهْمُ حَيَّرَ أَمْ قَوْمُ تُبَعِّ) الدخان:37.

وَعَنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ فِي سِيَاقِ الحَدِيثِ عَنْ حَضَارَتِهِمْ: (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ) الفجر:8. وَعَنْ بَلْقَيْسَ وَعَرْشَهَا: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) النمل:23.

وَلَمْ يَصِفِ اللهُ - وَهُوَ العَظِيمُ - شَيْئًا بِالعِظَمَةِ غَيْرَ عَرْشِ بَلْقَيْسَ، العَظِيمِ فِعْلًا، وَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ وَصْفٍ! وَأَعَزُّ بِهَا مِنْ شَهَادَةِ! وَأَمَّا ذُو القَرْنَيْنِ - اليَمَنِي بِحَسْبِ وَهْبِ بِنِ مُنَبِّهِ وَآخِرِينَ، وَالَّذِي حَكَمَ الشَّرْقَ وَالغَرْبَ - فَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْتَزَّ بِهِ كُلُّ يَمَنِي وَعَرَبِي. وَدَعَكَ مِنْ أُنَيْسِ مَنْصُورٍ - المِتْحَامِلِ - حَدَّ الهُوسِ وَالجُنُونِ - عَلَى اليَمَنِ وَالْيَمَنِيِّينَ - الَّذِي عَزَاهُ إِلَى شَخْصِيَّةِ غَرْبِيَّةٍ، مُخَالَفًا بِذَلِكَ مَنْطِقَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَشَهَادَاتِ بَعْضِ المَوْرُخِينَ مِنْ قَبْلِهِ بِمَقَاتِ السِّنِينَ. مَعَ أَنَّ إِشَارَاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ وَاضِحَةٌ - إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ - إِنَّ تَأْمَلْنَاهَا بِعُمُقٍ وَرَوِيَّةٍ، وَالَّتِي تُؤَكِّدُ يَمَنِيَّةَ ذِي القَرْنَيْنِ.

وَفِي شَهَادَاتِ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِيِّينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَنِ الْيَمَنِ مَا يُؤْهِلُ هَذَا الْبَلَدَ لِأَنْ
يَكُونَ مَعْبَدَ كُلِّ الْبُلْدَانِ، بِلا مُنَافِسٍ، مِثْلَ هِيرُودَتِ، وَاسْتَرَابُو، وَأَغَاثْرِسِيدَسِ، وَدِيدُودُورِ،
وَجُوسْتَاغِ لُوبُونِ، وَمُولِرِ، وَجُونِ فِيلِي، إِضَافَةً إِلَى الْآثَارِيِّينَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا هُمْ سَابِقًا،
وَعَبَّرَهُمُ الْكَثِيرُ.

وَتَأْتِي مَفْخَرَةُ الْمُفَاخِرِ فِي هَذَا الْجَانِبِ أَنَّ الْيَمَنِيِّينَ - قَدِيمًا - هُمْ أَوَّلُ مَنْ اخْتَرَعُوا
الْحَطَّ وَالْكِتَابَةَ، وَمِنْهُمْ تَنَاقَلَهَا الْفِينِيقِيُّونَ، فَالْيُونَانِيُّونَ، كَمَا تَذَكَّرُ كَثِيرٌ مِنَ الْمِصَادِرِ
التَّارِيخِيَّةِ، الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ؛ وَإِنْ كَانَ فِي النَّفْسِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، لِعَدَمِ اسْتِنْفَاءِ كَامِلِ
الْأَدِلَّةِ الَّتِي تُثَبِّتُ هَذَا، إِذَا مَا أَرَدْنَا تَحْقِيقَ الْمَسْأَلَةِ وَتَقْرِيرَهَا بِتَأَكِيدَاتٍ عِلْمِيَّةٍ صَارِمَةٍ، إِلَّا
أَنَّ ذَلِكَ فِي مَحَلِّ الْوَارِدِ وَالْمُحْتَمَلِ؛ بَلْ الْمُحْتَمَلِ بَيِّنِينَ عَالٍ؛ خَاصَّةً أَنَّ مَنْ يُقَرِّرُ ذَلِكَ هُمْ
مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ غَيْرِ الْيَمَنِيِّينَ، مِنْ عَرَبٍ وَأَجَانِبِ.

وَمَا يَجْزُ فِي النَّفْسِ، وَيُثَبِّرُ الْمَوَاجِعَ - وَمَا أَكْثَرَ الْمَوَاجِعَ فِي بَلَدِي! - أَنْ نَتَقَبَّلَ -
وَبِكُلِّ سُهُولَةٍ - عَلَى أَنْفُسِنَا تَسْمِيَةَ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِجِ التَّارِيخِ سَمَّاهَا الْبَعْضُ الْعَصْرَ
الْجَاهِلِيَّ! وَهِيَ فَتْرَةٌ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ. فَعَنْ آيَةٍ جَاهِلِيَّةٍ يَتَحَدَّثُونَ؟!

وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ إِذَا انْطَبَقَ هَذَا الْمِصْطَلَحُ عَلَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، أَوْ الْقَبَائِلِ، خَاصَّةً مِنْ
عَرَبِ الشَّامِ، بِاعْتِبَارِهِمْ أَهْلَ "وَبَر" أَوْ "أَعْرَابًا" فِي أَغْلِبِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا الْمِصْطَلَحَ لَا يَنْطَبِقُ
- بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ - عَلَى عَرَبِ الْجَنُوبِ "أَهْلِ الْمَدْر" أَيْ الْمُتَحَضِّرِينَ وَالْمُسْتَقَرِّينَ،
بِشَهَادَةِ وَإِجْمَاعِ كُلِّ الْمُؤَرِّخِينَ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

إِنَّ الْبَلَدَ الَّذِي أَذْهَشَ وَخَيَّرَ الْيُونَانَ وَالرُّومَانَ بِشُرُوتِهِ الطَّائِلَةِ، وَمَدْيَنَتِهِ الرَّاقِيَّةِ،
لَيْسَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي شَيْءٍ. وَإِنَّ الشَّعْبَ الَّذِي كَانَ يُزَيَّنُ أَنْيَتَهُ بِالذَّهَبِ، وَيَصْنَعُ سُرْرَهُ
وَأَرَائِكَهُ مِنَ الْفِضَّةِ، وَطَنَافِسَهُ وَرِيَاشَهُ مِنْ أَفْحَرِ الْأَنْسِجَةِ وَالْمَصْنُوعَاتِ، وَيُوشِّي مَنَازِلَهُ

بأفخر الأحجارِ الكريمة، ليس جاهليًا. وقد وصفَ أعاثر سيدس معيشة السبئيين، وصفًا
بديعًا، قائلًا: إنَّ في حياتهم من الرِّحَاءِ والمدنيَّةِ ما يفوق الوصف.

إنَّ البلدَ الَّذي سيطرَ على التجارة العالمية، وبلغت ملاحظته بُحورَ العرب والعجم
ليس جاهليًا.

وإنَّ البلدَ الَّذي استعَلَ كُلَّ سفحٍ ورايية، وكُلَّ جبلٍ وتلٍ في الزَّرَاعَةِ، مُنشئًا
السُدودَ، ومُستصلحًا المُدرجاتِ هُوَ من المدنيَّةِ والحضارةِ بمكان. فكيفَ تنطلي على
أذهاننا مثل تلك المصطلحات!؟

بعدَ هذه الإشاراتِ الموجزةِ عن اليمنِ تاريخًا وحضارةً ومجدًا.. لأبيِّ مُتسائلٍ أن
يتساءل: كيفَ هوى اليمنِ من ذروةِ المجدِ الباسقِ، والعزِّ الباذخِ، هذا المنحدرَ السَّحيقِ
كُلِّه!؟

أقول: مُنذُ عُفودِ عديدةٍ، سابقةٍ لبعثةِ مُحَمَّدٍ بنِ عَبْدِ اللَّهِ - ﷺ - كانتِ اليمنُ قد
بدأت في الانحدارِ الحضاري، رويدًا رويدًا، وظلت كذلك حتى بعدَ انتشارِ الإسلامِ
ودخولها فيه. ذلكَ لأنَّ للحضاراتِ والقُوَّةِ الشعوبِ وأمجادها أعمارًا كأعمارِ الإنسانِ،
تبدأُ بالطُّفولةِ فاليفاعةِ والقُوَّةِ، فالشَّبَابِ، ثُمَّ القُوَّةِ فالشَّيخوخةِ، ووصولًا إلى الهرمِ،
وبحسبِ ابنِ خلدونِ فإنَّ الهرمَ إذا دبَّ في الدولةِ فإنَّها لا تقومُ بعدهُ أبدًا. إضافةً إلى أنَّ
الفتوحاتِ الإسلاميةِ في العراقِ و الشَّامِ وإفريقيَّا والأندلسِ كانتِ قد استنزفتِ ممَّا يُمكنُ
أنَّ نُسبتهِ اليومِ بالقياداتِ المجتمعيةِ الكثيرِ من رجالِ اليمنِ، قادةً وجنودًا، وكُتَّابِ
التاريخِ شاهدةً لبطولاتهمِ التي سَطروها في هذه الأصقاعِ، فكانَ لهذا الاستنزافِ أثره
المباشرِ وغيرِ المباشرِ الَّذي حالَ دُونِ استعادةِ الدَّورةِ الحضاريةِ لليمنِ أو النهوضِ من
جديده؛ بل إنَّ بعضَ المسمياتِ كالقلاعِ والحُصونِ تحملُ أسماءً يمنيةً إلى اليومِ في بعضِ
مناطقِ الشَّامِ والأندلسِ مُذْ ذاكِ الوقتِ. وقد صرَّفتِ هذه القياداتُ جُلَّ اهتمامها من

الشَّانِ الْمَحَلِّيِّ إِلَى الشَّانِ الْعَالَمِيِّ؛ كَوْنُ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ الْجَدِيدَةِ تُشِيرُ إِلَى عَالَمِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ
حَيْثُ وُجِدَ فَتَمَّةَ الْوَطَنِ. وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُسْهَبَ فِيهِ، فَقَدْ يَطُولُ الْحَدِيثُ. وَهَذَا الْجَانِبُ
الْأَوَّلُ..

الْجَانِبُ الْآخَرُ - وَنَقُولُهُ بِكُلِّ أَسَى وَحُرْقَةٍ - أَنَّ بَعْضًا مِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا قَدْ أَسَاءَ لِلْيَمَنِ
وَتَارِيخِهِ إِسَاءَةً بِالْعَةِ، بِقُصْدٍ وَبِدُونِ قُصْدٍ، وَهُمْ مِمَّنْ رَأَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ أَرْقَى،
وَدَمٍ مُمَيَّرٍ، مُتَشَبِّهِينَ بِالْحُكْمِ وَأَدَوَاتِهِ لِمَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ وَمِئَتَيْ سَنَةٍ!

هَذَا النَّظَامُ - وَأَقُولُ النَّظَامَ مِنْ بَابِ التَّجَوُّزِ فَقَطْ - الَّذِي جِئْنَا بِكُلِّكَلِهِ عَلَى صَدْرِ
هَذَا الشَّعْبِ خِلَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ، عَلَى حِينِ غَفَلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، لَمْ يَسْتَطِعْ فِيهَا الْحِفَاطُ عَلَى مَا
كَانَ قَائِمًا مُذْ أَشْهَرَ سَيْفِ الْإِمَامَةِ؛ بَلْ دَمَّرَهُ، وَأَسَاءَ إِلَيْهِ.

جَاءَ الْإِمَامُ الْهَادِي يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ إِلَى الْيَمَنِ وَهِيَ تَعِيشُ حَالَةً مِنَ التَّيِّهِ بِلَا
شَكِّ، وَأَسَّسَ لِنَظَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي الْحُكْمِ، عَازِيًا إِيَّاهَا لِلْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ، مَعَ أَنَّهَا
لَا عِلَاقَةَ لَهَا - مِنْ حَيْثُ مَقَاصِدُهَا الْعَامَّةُ - بِالْإِمَامِ زَيْدٍ أَبَدًا. كَمَا سَوْضِحَ ذَلِكَ بَيْنَ
سُطُورِ هَذَا الْكِتَابِ لِاحِقًا؛ لِأَنَّ الزَّيْدِيَّةَ مَنْظُومَةٌ فِكْرِيَّةٌ مُتَكَامِلَةٌ، نَشَأَتْ وَتَرَبَّتْ بَيْنَ
أَحْضَانِ الْعُقْلَانِيَّةِ الْمُعْتَرِةِ، وَأَرْوَاقِ الْمَدَارِسِ الْكَلَامِيَّةِ الَّتِي مَثَلَتْ النَّوَاةَ الْأُولَى لِمَدَارِسِ
الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا كَانَتْ قَرِيبَةً كَثِيرًا إِلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْأَرْبَعَةِ،
وَخَاصَّةً الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ. أَمَّا مَا جَاءَ بِهِ الْإِمَامُ الْهَادِي فَلَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ
نَظَرِيَّةً سِيَاسِيَّةً لِلْحُكْمِ، كُلُّ مَا يَنْقُصُهَا النَّظَرُ السِّيَاسِي! وَمِنْ هُنَا بَدَأَ الصِّرَاعُ.

وَمَنْ يَتَّبِعْ مَسِيرَهَا التَّارِيخِيَّةَ يَجِدُ أَنَّهَا كَانَتْ قِيْدًا فِكْرِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا، لَيْسَ
عَلَى مَنْ لَمْ يَعْتَقِ فِكْرَهَا، وَحُكِمَ بِهَا كَرَاهًا فَحَسَبَ؛ بَلْ عَلَى أُنْبَائِهَا فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، إِذْ
حَجَرَتْ وَاسِعًا فِي الْاجْتِهَادِ، وَجَعَلَتْ مِنْ نَفْسِهَا دَائِرَةً مُعَلَّقَةً، لَا تَقْبَلُ الْإِنْتِقَادَ أَوْ
الْمَرَاجَعَةَ، حَتَّى بَدَتْ صَنَمًا يُعْبَدُ، إِلَى حَدِّ قَوْلِ الْإِمَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمَزَةَ، وَالَّذِي نَعْتَبِرُهُ

المؤسس الثاني للنظرية بعد الهادي: إننا نهابُ نُصوصَ الإمام الهادي كما نهابُ نُصوصَ القرآن الكريم!

لو كانت هذه النظرية تحملُ قاعدةً فكريةً ببُعْدِ وِطْنِي، إنساني، حضاري، أو رُشدًا سياسيًا - كما يدَّعي أصحابها - لكانَ الإمام الهادي قد استعادَ دَوْرَةَ التاريخ الحضارية من جديدٍ، وأسَّسَ لإمبراطوريةٍ، لها من الرِّصيدِ الحضاري والتَّاريخي ما يُؤهلها للمنافسة العالمية، وبِكلِّ جَدارةٍ؛ لاسيما في شِخصيةِ الهادي من "الكاريزما" ومن التَّجَلُّدِ والصَّبْرِ والإصرارِ ما يعينه على ذلك، كما في الشعب من رُوحِ التَّوَتُّبِ والتَّطَلُّعِ نحو المجدِ الآفِلِ حينها ما فيه.

ليس الهادي - فقط - من رجالات هذه الفكرة وروادها ممن قيَّدتهم النظرية، وكانت بمثابة السَّوارِ أو القِلادة التي أحاطتْ بالعُنُق؛ بل ثمة رجالٌ كبارٌ آخرون في سلسِلة الأئمَّة، كانت لهم سِجنا وطوقا لم يستطيعوا تجاوزه، كالإمام عبد الله بن حمزة، والإمام يحيى بن حمزة، وإن كان الأخير قد حاول التَّمردَ على جمودِ النظرية وصيقِ أفقها، وكذا الإمام المتوكِّل على الله إسماعيل بن القاسم، الذي توخَّدت اليَمَنَ كُلها في عهدِه، ثم المهدي محمد، والأخيران من القاسميين؛ بل حتَّى الإمام أحمد حميد الدِّين، بدعائه السياسي وشخصيته المهيبَّة. كلُّ هؤلاء اجتمعت فيهم من صفات القيادة والدَّهاءِ السياسي ما لم يَحْظَ به غيرهم؛ لكنهم ظلُّوا حبيسي النظرية التي هي - في الواقع - أقلُّ شأنًا من الزَّمانِ والمكانِ، كما أنَّها دُونَ الطُّمُوحِ لِشعبٍ عريقٍ، وحضارةٍ ضاربةٍ بجذورها في أعماقِ التاريخ.

وقد كانت الدولتان الصُّليبيَّة ثُمَّ الرُّسُوليَّة مُودَجًا مُشرِّفًا للدولة النَّاجحة، قدَّمتا من الإنجازاتِ خلالَ فترتَينِ وحيرتَينِ ما لم تُقدِّمه الإمامة خلالَ فتراتِها كاملةً على طولها. كما أنَّهما نالا من الرِّضا الشعبي ما لم تنله كلُّ فتراتِ الإمامة مُجمِعة، وذلك لِعَدَمِ

ارتكازهما على نظريّة عقائديّة صلدة، كما ارتكزت الإمامة على النظريّة الهادويّة؛ لأنّ النظريّات العقائديّة لا تعيش إلا بالقمع والبطش، ولا تكون لها حياة إلا ما دامت ممسكة بسوط القوة. مع الإشارة هنا إلى إسماعيليّة الصليحيين. والإسماعيليّة "ابنة عم" الهادويّة، إن جاز التعبير؛ فكلتاهما شيعيتان، وقد يُشكل التفرّق بينهما لدى البعض؛ إلا أنّ من يلم وإن بالحدّ الأدنى من أدبيّات الفكر الإسماعيلي - تنظيرًا وممارسةً - يجد فرقًا واضحًا بينهما، ففي النظريّة الإسماعيليّة من المرونة الدينيّة والانفتاح السياسي ما لا يُوجد لدى النظريّة الهادويّة، لأنّ آل البيت بالنسبة للإسماعيليّة أهل الكساء الخمسة فقط، ولأنّ آل البيت سواسيّة على الصعيّد السياسي مع أيّ مواطنٍ آخر، فلا امتيازات لأيّ منهم على الآخرين. ثمّ إنّ الممارسة العمليّة أثبتت تقدّمًا ملموسًا لديهم، فكانوا أشبه بالجماعة الدُستوريّة - الاشتراكيّة من وقت مبكر..

ما يزيد على ألفٍ ومئتي عامٍ لا يكاد المتابع يجد شيئًا يُذكر ذا بال، كإنجازٍ تاريخيٍّ أو حضاريٍّ يشفع هذه النظريّة وأبنائها لدى الشعب، مهّمًا حاول الباحث أن يتلمّس ذلك، ولم يكن غير الدم مشهدًا لها، إذا ما استثنينا فتراتٍ محدودةٍ منها، تبارغ - وعلى حجلٍ - بين الحين والآخرٍ أعلامٌ كبارٌ يحقُّ لنا جميعًا أن نفاخر بهم، كنشوان بن سعيد الحميري، وابن الأمير الصنعائي، والإمام الشوكاني والمقبلي، وأخيرًا الزبيري، وكلُّ هؤلاء شبوا عن طوق النظريّة، متجاوزين تهويماتها وجمودها. أمّا لسان اليمّن الحسن بن أحمد الهمداني فلا يمكن أن نعتبه إلا من صناعة مدرسة صنعاء، قبل أن يتحكّم فيها الأئمّة، إضافةً إلى حواضر العلم التي جال فيها كثيرًا، سواء بصحبة والده صغيرًا، أم منفردًا بعد ذلك، كصنعاء - مسقط رأسه -، ثمّ بغداد والبصرة ومكة والمدينة، وما استخلصه من تجاربه وأسفاره الكثيرة، فكان - بحقٍ - فلتةً من فلتات التاريخ، ومع هذا،

فَقَدْ نَكَّلَ بِهِ الْأُئِمَّةَ وَسَجَنُوهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَأَدَّأْفُوهُ الْوَيْلَاتِ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِاعْتِرَازِهِ
بِیَمَانِيَّتِهِ، وَتَارِيخِهِ الْحَضَارِيِّ الْقَدِيمِ، وَهَذَا مَا لَا يَرُوقُ لَهُمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا!!

وَنَحْنُ حِينَ نَنْتَقِدُ مِثْلَ هَذِهِ الْمَسِيرَةِ الَّتِي تُعْتَبَرُ جُزْءًا مِنْ تَارِيخِنَا السِّيَاسِيِّ
وَالاجْتِمَاعِيِّ - مَهْمَا كَانَ الْأَمْرُ - فَلَا نَعْتَبِرُ ذَلِكَ إِسَاءَةً لِأَشْحَاصٍ، أَوْ اسْتِهْدَافًا لِلْجَمَاعَةِ،
أَوْ تَارِيخًا مِنْ أَجْلِ التَّارِيخِ؛ إِنَّمَا نَقِيِّمُهَا لِفِكْرَةٍ، وَنُقَدِّمُهَا لِتَجْرِبَةٍ سِيَاسِيَّةٍ، لَهَا مَا لَهَا، وَعَلَيْهَا مَا
عَلَيْهَا؛ لِاسِيِّمًا قَدْ أَصْبَحَتْ مِنَ الْمَاضِي وَمِنَ التَّارِيخِ.

نَكْتُبُ عَنِ الْمَاضِي بِهَمُومِ الْحَاضِرِ، وَبِتَطَلُّعَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ، لِنَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ
مَاضِينَا، الَّذِي نَعْبُرُ بِهِ حَاضِرِنَا، إِلَى أَشْوَاقِ الْعَدِ الْمَحْلِقَةِ، وَقَدْ اِكْتَوَيْنَا كَثِيرًا بَيْنِرَانِ
الصِّرَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَلَا نَزَالُ، غَيْرَ مُسْتَفِيدِينَ مِنْ دُرُوسِ الْمَاضِي لِلْأَسْفِ، فَبَدَا حَالُنَا
وَكَأَنَّمَا نُدْخِرُ صَحْرَةَ سَيْرِيفِ!

وَفِي كُلِّ فُصُولِ الْكِتَابِ وَمَبَاحِثِهِ الْقَادِمَةِ، حَرَصْتُ عَلَى الْحِيَادِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ، وَعَدَمِ
التَّجَاوُزِ فِي حَقِّ أَحَدٍ، مُوَثَّقًا أَحْدَاثَ التَّارِيخِ مِنْ مَصَادِرِهَا وَمَرَاجِعِهَا، احْتِرَامًا لِلْأَمَانَةِ
الْعِلْمِيَّةِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ احْتِرَامًا لِلْأَمَانَةِ بِمَفْهُومِهَا الْأَخْلَاقِي الشَّامِلِ.

وَلَا أَنْسَى أَنْ أُنَوِّهَ هُنَا أَيْ حِينَ كَتَبْتُ عَنِ النَّظَرِيَّةِ الْهَادِيَّةِ مِنْ هَذَا الْمَنْظُورِ، فَإِنَّ
ذَلِكَ لَا يَعْنِي مُحَاكَمَتَهَا تَارِيخِيًّا إِلَى مَقَائِمِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمِ، فَذَلِكَ مِنَ الشَّطَطِ فِي الْقَوْلِ،
وَلَنْ يَكُونَ؛ لَكِنِّي أَتَكَلَّمُ عَنْهَا فِي الدَّهْنِ بَعْدَادُ، أَوْ دِمَشْقُ، أَوْ الْقَاهِرَةُ، أَوْ الْقَيْرَوَانُ مِنْ
العَوَاصِمِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالتَّمَدُّنِ يَوْمَهَا، مَعَ أَنَّ لَدَى
صَنْعَاءَ أَوْ مَارِبَ أَوْ الْجَوْفَ أَوْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ عَدَنَ أَوْ زَبِيدَ أَوْ الْجَنْدَ مِنَ الْمَجْدِ التَّارِيخِيِّ مَا
يُؤْهِلُهَا لِأَنَّ تَكُونَ كُلِّ مِنْهَا قِيَاسًا إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْعَوَاصِمِ الْأُخْرَى وَاسِطَةً الْعَقْدِ،
وَدَّرَةَ التَّاجِ.

أَخِيرًا.. تَحِيَّةٌ وَفَاءٌ وَتَقْدِيرٌ لِكُلِّ مِنَ الصَّدِيقَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ، الْأُسْتَاذِ حَالِدِ عَبْدِ اللَّهِ
الرُّوَيْشَانَ، وَالْمُؤَرِّخِ الْأُسْتَاذِ حَيْدَرَ عَلِيٍّ نَاجِيٍّ الْعَزِيزِيِّ، عَلَى مُسَانَدَتِي خِلَالَ فِتْرَةِ إِعْدَادِ
هَذِهِ الْمَادَّةِ، وَدَعْمِي بِالْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ وَالْوَثَائِقِ مِنْ مَكْتَبَةِ كُلِّ مِنْهُمَا الْخَاصَّةِ،
وَبِمَلاَحَظَاتِهِمَا الْقِيَمَةَ، وَكُلِّ مِنْهُمَا بِرُوحِ الْأَبِ الْمَحَبِّ، وَالصَّدِيقِ الْوَفِيِّ، وَالْمَرْيِّ النَّاجِحِ
وَهِيَ عَادَاتُهُمَا مَعِي عَلَى الدَّوَامِ، كَمَا هِيَ مَعَ آخَرَيْنِ. كَمَا أَشْكُرُ صَدِيقِي الْعَزِيزِ نَجِيبَ
السَّعْدِيِّ عَلَى دَعْمِهِ الْمَادِيِّ أَيْضًا، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ أَوْلًا وَآخِرًا، فَهُوَ خَيْرٌ مُعِينٌ وَخَيْرٌ نَاصِرٌ.
وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ..

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)

الأعراف: 89.

صنعا 30 مارس، 2015م.

مدخل عام..

اليمن الحضاري في التاريخ القديم

تختلف حدود اليمن قديماً عن حدودها اليوم، كما هو الشأن في كثير من البلدان التي تغيرت حدودها وتداخلت مع غيرها من دول الجوار، لسبب أو لآخر. فهي عند ابن الجاور، يحدّها خليج العجم من الشرق، وبحر العرب من الجنوب، والبحر الأحمر من الغرب، ويسمونه خليج العرب. وأما من الشمال فتحدها البادية وهي بادية الشام والعراق، وبلاد العرب الصحريّة "البتراء" ويدخل في بلاد اليمن على هذا التحديد اليمن وحضرموت والشحر وعمان والعروض، ومعظم الحجاز وثمامة ونجد وغيرها.¹

وقد كانت عند اليونانيين أوسع من ذلك، لأن بعض مؤلفاتهم ذكرت الجزيرة بلفظ اليمن، وذلك راجع إلى أن ازدهار المجد السبئي، ثم الحميري قد تزامن مع ازدهار الحضارة اليونانية؛ لأن اليمنيين كانوا يحكمون الجزيرة العربيّة كاملة، بل يمتد نفوذهم الاقتصادي إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وعلى وفاق تام مع الفينيقيين في الشام، الذين هم أيضاً من أصول يمنية خالصة، ووقفوا معاً ضد الهجمات الاحتلالية التي قام بها اليونان فالرومان فالفرس، كما ذكر ذلك المؤرخون.

وهي عند "غلاسير" النمساوي، كل المنطقة الجنوبية لجزيرة العرب، من عسير إلى المحيط الهندي، ومن البحر الأحمر إلى الخليج.

وقد ذكرتها كتب اليونان والرومان باسم "Arabia flex" وتعني العربيّة السعيدة، وربما قرُن الاسم بمعنى التيامن والتبرك، من اليمن والبركة، لكثرة خيراتها وغزير إنتاجها.

أصل اليمنيين

¹ - صفة بلاد اليمن ومكة بعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن الجاور الشيباني الدمشقي، اعتنى بتصحيحها اوسكر لوففرين، منشورات المدينة، ط:2، 1986م، 39.

لاشك أن اليمينيين - كغيرهم من العرب العاربة - ينتسبون إلى قحطان بن هود عليه السلام، الذي عاش في الألف الثامن قبل الميلاد على اختلاف في روايات المؤرخين، الذين لم يجدوا ما يؤكد ذلك بالدليل القطعي الذي لا يعتره الشك، إلا أن هذا التَّاريخ هو الأقرب إلى الصحة، وليس أمام الباحثين إلا التسليم بصحة هذا التَّاريخ حتى تأتي حقائق علمية جديدة، مستندة على أدلة لا يتطرق إليها الشكوك أو تعترتها الظنون.

وهذا هو النسب الأول حسب العهد القديم الذي ذكر قحطان "يقطان" في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح العاشر، الفقرة 21 فما بعدها: ". . . وأنجب سام، أخو يافث الأكبر أبناء، ومنه تحدر جميع بني عابر. أما أبناء سام فهم: عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام. وأبناء أرام عوص وحول وجائر وماش. وأنجب أرفكشاد شالخ، وولد شالخ عابر. وولد لعابر ابنان: اسم أحدهما فالج، ومعناه انقسام، لأن أهل الأرض انقسموا في أيامه، واسم أخيه يقطان. وأنجب يقطان الموداد وشالف وحضرموت ويارج، وهودورام وأوزال ودقله وعوبال وأبيمايل وشبا واوفير وحويلة ويوباب. وهؤلاء جميعهم أبناء يقطان. وقد استوطنوا في الأراضي الواقعة بين ميشا والتلال الشرقية من جبل سفار. هؤلاء هم المنحدرون من سام، حسب قبائلهم ولغاتهم وبلدانهم وشعوبهم. هذه هي القبائل المنحدرة من أبناء نوح حسب شعوبهم، ومنهم انتشرت الأمم في الأرض بعد الطوفان"¹

ولأن النصوص التوراتية ظنية الثبوت وفقا لمعتقدنا الإسلامي، فإن الجزم بصحة ما ذكر سابقا أمرٌ من الصعوبة بمكان. إنما تبقى في حكم المستأنس به، خاصة إذا ما عضد هذا النص نصوصاً أو شواهد أخرى. والواقع فإن نصوصاً توراتية كثيرة قد عضدتها نصوص قرآنية من كتابنا الكريم، وبالتالي اكتسبت الصحة وهي كثيرة، الأمر الذي يجعلنا نأخذ في الاعتبار بعضاً من بقية النصوص التوراتية التي لم يُشر إليها القرآن الكريم لا نفيًا ولا إيجابًا، ومنها هذا النص. كما أن مثل هذا النص - في الغالب - ليس مما دخله التحريف؛ كون التحريف التوراتي قد وقع في النصوص التشريعية بدرجة رئيسة، أما في نص كهذا فلا جدوى لهم من تحريفه، وغالب الظن أنه من الصحة بمكان.

¹ - التوراة، سفر التكوين، الإصحاح، الإصحاح العاشر، الفقرات 21 : 32.

وإلى هذه السلالة التي ذكرناها آنفاً تنتسب العرب جميعاً، سواء ما عرف بالعرب العاربة أو البائدة، أم العرب المستعربة لاحقاً، إذ ينتسب إليها كل من عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق، وأمم أخرى لا نعلمهم، الله يعلمهم. وما عدا هؤلاء فهم من العرب المستعربة لاحقاً، أو ممن عرفوا بعرب الحجاز، ويعزوهم بعض المؤرخين إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقد قيل في شأنهم كلام كثير، حتى إن البعض نزع عنهم أرومتهم المتصلة بالعرب، وهو كما يبدو غير صحيح، إذ العدنانية "الشمالية" فرع عن القحطانيّة "الجنوبية" التي ينتسب إليها كل العرب، مهما قيل في ذلك..

وإذا كانت اليَمَنُ "البلاد السعيدة" عند اليونان والرومان، فإنها في التوراة، الأرض الغنية، وعند قدماء المصريين الأرض المقدسة ومهد الحضارات القديمة وبلد التجارة، خاصة حضرموت وهي عند المستشرقين بلاد الغرائب، وعند الإخباريين بلاد القصور، أما عند المؤرخ الروماني استرابون فهي بلاد الطيب¹.

وقد قال المؤرخ الشهير فيليبي: "إنني أعتبر بلاد العرب الجنوبية، ومن ضمنها اليمن، هي الوطن الأصلي لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميين، وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغته المعروفة باسم العربية"²

وقد أيد فيليبي فيما ذهب إليه في كلامه السابق، الخبير الأثروبولوجي هنري فيلد، مشيراً إلى "أن اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان في العصر النيولوثي - وهو العصر الحجري الحديث المحدد بين 7000 و 5000 ق.م. - هاجر منهم إلى عمان والخليج، وآخرون إلى الصومال وكينيا وتنجانيقا، وفريق ثالث إلى نجران وسيناء وفلسطين.

كما ذهب الدكتور أحمد فخري إلى أن ثمة هجرات من جنوب جزيرة العرب قد وصلت إلى مصر في الألف الرابع قبل الميلاد، وقد كانوا على قدر غير قليل من الثقافة. كما هاجرت أيضاً إلى بابل،

¹ - انظر: اليمن الخضراء مهد الحضارة، محمد بن علي الأكوخ الحوالي، سابق، ط:2، 1982م. 32.
² - تاريخ العرب قبيل الإسلام، فيليبي، 9.

ولم يَمْضِ عَلَيْهَا إِلَّا قُرُونٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى أَصْبَحَتْ صَاحِبَةَ الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ. مُشِيرًا إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَمْ يَكُونُوا قَوْمًا بَدَائِيينَ؛ بَلْ كَانُوا ذَوِي ثَقَافَةٍ خَاصَّةٍ، وَلَهُمْ نُظْمُهُمْ وَحَيَاتُهُمْ الْاجْتِمَاعِيَّةُ.¹

وحسب جوستاف لوبون، فالعربُ واليهودُ والفينيقيون والعبريون والسوريون والبابليون والآشوريون الذين استوطنوا جزيرة العرب وآسيا الصغرى حتى الفرات، من أصل واحد، ويطلق على هذا الأصل اسم الأرومة السَّامِيَّةِ.²

وقال المؤرخ العربي الدكتور عدنان ترسيبي: "وإننا وإن كنا نجهلُ الشيء الكثير عن المراحلِ السَّابِقَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الْخِصَارَةُ الْيَمَنِيَّةُ قَبْلَ وَصُولِهَا إِلَى تِلْكَ الْحَقْبَةِ الْمَتَطَوَّرَةِ بِعَهْدِ مَلِكَةِ سَبَأِ الَّتِي خَلَّدَتْ ذِكْرَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، فَإِنَّا نَعْلَمُ مِنَ الْخُطُوطِ الْعَرِيضَةِ الَّتِي أَطْلَعْنَا عَلَيْهَا، وَالْخَاصَّةِ الَّتِي عَرَفَهَا الْعَرَبُ فِي الْيَمَنِ تُعْتَبَرُ مِنْ أَقْدَمِ الْخِصَارَاتِ الْعَالَمِيَّةِ، وَأَنَّ بَنِي قَحْطَانَ مِنَ السَّامِيينَ، وَكَانُوا مِنْ قَادَةِ الْحَيَاةِ الْمَتَطَوَّرَةِ فِي بَدَايَةِ مَعْرِفَتِنَا لِلتَّارِيخِ، كَمَا أَنَّ بَعْضَهُمْ وَصَلَ إِلَى سِدَةِ الْحُكْمِ، وَأَصْبَحَ مِنَ الْأَسْرِ الْمَالِكَةِ فِي الْعَهْدِ الْفَرَعَوِيِّ الْقَدِيمِ بِوَادِي النَّيْلِ. وَفِي عَهْدِ حَمُورَابِي فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَلَا تَزَالُ الْأَسْرُ الْمَالِكَةُ فِي بِلَادِ الْخَبَشَةِ تَنْتَسِبُ إِلَى ذَرِيَةِ سَلِيمَانَ وَبَلْقَيْسِ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا"³

معالم خِصَارَةِ الْيَمَنِ

ذَكَرَ الْمَوْخُجُ جُورْجِي زِيدَانُ فِي كِتَابِهِ "التَّمَدُّنُ الْإِسْلَامِي" أَنَّ التَّمَدُّنَ الْعَرَبِيَّ الْقَدِيمَ هُوَ أَصْلُ التَّمَدُّنِ الْمِصْرِيِّ الْقَدِيمِ، وَأَنَّ عَرَبَ الْيَمَنِ الْقَحْطَانِيَّةَ قَدْ تَمَدَّنُوا تَمَدُّنًا لَا تَزَالُ آثَارُهُ مَطْمُورَةٌ تَحْتَ الرَّمَالِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَدَّنَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ، كَمَا كَانَ الْمَعِينِيُّونَ وَالسَّبْئِيُّونَ وَالْحَمِيرِيُّونَ وَاسْطَةُ عَقْدَ التَّجَارَةِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ..⁴

وقال البَحَّاثَةُ الْأَثْرِي الْمُسْتَشْرِقُ "سَانَسُ": إِنَّ الْيَمَنَ سَابِقَةً فِي تَمَدُّنِهَا عَلَى مِصْرَ وَبَابِلَ، وَإِنَّمَا هِيَ الْبِلَادُ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا إِلَى مِصْرَ الْفَرَاعِنَةُ الْعِظَامُ، وَحَمَلُوا مَعَهُمُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ وَالزَّرَاعَةَ.⁵

¹ - انظر: دراسات في تاريخ الشرق القديم، الدكتور أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: 2، 1963م، 124.

² - خِصَارَةُ الْعَرَبِ، د. جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1، 2012م، 64.

³ - اليمن وخصارة العرب، الدكتور عدنان ترسيبي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. د.ن. 9.

⁴ - انظر تاريخ التمدن الإسلامي، جورج زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. 1/16. فما بعدها..

⁵ - اليمن الخضراء، سابق، 204.

ويقول المستشرق عبدالله فيلي¹: "إن مُشاركة أهل بلاد العَرَب الجنوبيَّة في بناء الحَضارة الإنسانية أمر لا يكاد يمكن في وصفه المغالاة.. وقد يحسن بنا أن نذكر أن بلاد العَرَب الجنوبيَّة على أقل تقدير طوال ألفي عام السَّابقة لظهور مُجدِّ قوة من القوى العُظمى على الأرض، لها أعمالها التجارية والفكرية، ثم غدت بعد ذلك من قُطب الرحي من إمبراطورية عالميَّة عُظمى، تم لها بوحى الإسلام ومتابعته، فحملت مشعل المعرفة، متوقدة في عهود كان يغمر فيها الظلام في أوروبا، ولكنها قد نسيت ماضيها، أو انصرفت عن تقدير ما قامت بإنجازه من أعمال في قديمها العتيذ..²

لذا فلا عجب أن يبلغ اليمانيون من الأبهة والمجد والرفاهية أن يعمل أحد ملوكهم، وهو أسعد الكامل على تعبيد الطريق من مقر إقامته في أرض يحصب بظفار "إب حاليًا وتحديدًا يريم منها" إلى مكة المكرمة، بل عمل على "تبليطها" بالأحجار المصلولة إلى هناك، ولا تزال بعض من مقاطع هذا الطريق تُعرف باسمه إلى اليوم، كصلول "خيوان" من بلد حاشد، ونقيل الغولة المطل على البون من همدان، وأيضاً طرِيق أسعد الكامل الذي له بقية اليوم في بلاد عسير!³

ونتناول هنا - على عجالة - بعضًا أو طرفًا من معالم حَضارة اليمَن القديم التي تُعتبر أقدم الحَضارات الإنسانية قاطبة.

1- سياسيا

كانت اليمَن من وقتٍ مُبكر ذات نظام دُستوري، ديموقراطيٍّ عَادل، لم تعرف الطبقيَّة أو الإقطاع أو الاستعباد الذي عُرفت به الحَضارات الأخرى. فقد كان لها نظامُ المجالس السِّياسيَّة على مستوى كل قبيلة، وكان لها المجلس الأعلى الذي يضم مندوبين أو ممثلين عن هذه المجالس، واسمه "المسود" بيده التشريع والتقنين، الذي يصادق عليه الملك عقب الانتهاء من صياغته النهائيَّة. وقد اتخذ الملوك وكبارُ موظفي الدَّولة ألقابًا رسمية مثل التُّبَع، وهو الملك الذي تدين له كل البلاد، فالقيل

¹ - اسمه الحقيقي جون فيليبي، ولتحويل اسمه إلى عبدالله قصة سياسيَّة مرتبطة بالملك عبد العزيز بن سعود رحمه الله..

² - اليمن الخضراء، سابق، 204.

³ - نفسه، 243.

الذي هو في المقام الثاني بعد الملك، يقود الجيوش ويوجه الناس، وثالثهم: الذو. مفرد أذوا. وهو دون القيل مرتبة.¹

وإلى طَبِيعَةَ هَذَا النِّظامِ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قِصَّةِ مَلِكَةِ سَبَأَ بِقَوْلِهِ: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} النمل:32.

قال فيليب حتى، يصفُ تشريعاتِ حَضَارَةِ الْيَمَنِ الْقَدِيمِ، مَفْصَلًا إِيَّاهَا عَلَى تَشْرِيَعَاتِ "حَمُورَابِي" وَتَشْرِيَعَاتِ مُوسَى وَشَرَائِعِ الْحَتِيثِينَ: ". أما شَرَائِعُ عَرَبِ الْجَنُوبِ فَتَمْتَازُ بِصِفَاتِ النَّضْجِ الشَّرْعِيِّ، وَالْبُلُوغِ السِّيَاسِيِّ، وَتَدُلُّ عَلَى نِظَامِ دَوْلَةٍ تَلُوحُ مِنْ خِلَالِهِ أَوْضَاعُ الْحُكْمِ النِّيَابِيِّ، وَرَبْمَا لَمْ يَكُنْ فِي آثَارِ الْقَدَمِ السَّحِيقَةِ مَا يُدَانِيهَا رُقِيًا"²

وقد كانت راية الدَّوْلَةِ اللَّوْنُ الْأَصْفَرُ، وَهُوَ رَمَزٌ لِلنَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ، أَمَا شِعَارُهُمْ فَالنَّسْرُ رَمَزٌ الْقُوَّةِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ. وَعَمَلْتُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ أَوْ الْبُرُونِزِ، مَنْقُوشٌ عَلَيْهَا صُورُ الْمُلُوكِ وَبَعْضُ مِنَ الرَّمُوزِ السِّيَاسِيَّةِ أَوْ الدِّينِيَّةِ كَالنَّسْرِ أَوْ رَأْسِ الثَّوْرِ، رَمَزُ الْخِصْبِ وَالْبَرَكَةِ، أَوْ رَمَزُ الْهَلَالِ أَوْ غَيْرِهِ.

ولهذا النظام السِّيَاسِيُّ الْمَتَوَازِنُ وَالدَّقِيقُ اسْتِطَاعَ الْيَمَنِيُّونَ أَنْ يَهْزَمُوا أَعْتَى قُوَّةَ جِبَارَةِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فِي الْعَامِ 23 قَبْلَ الْمِيلَادِ مَتَمَثِّلَةً فِي الْحَمَلَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الرَّومَانِيَّةِ الَّتِي ابْتَلَعَتْ بِلَادَ الشَّرْقِ كَامِلَةً، بِمَا فِي ذَلِكَ بِلَادُ الشَّامِ وَمِصْرَ، وَمَا أَرَادَتِ السَّيْطَرَةَ عَلَى طَرِيقِ الْبُخُورِ فِي الْيَمَنِ مَرَّقَتِهَا الْقَوَاتِ الْيَمَنِيَّةَ شَرَّ مُزَقِّقٍ، وَهَزَمَتْهَا شَرَّ هَزِيمَةٍ حَتَّى وَلَّتِ الْأَدْبَارَ عَلَى أَطْرَافِ مَارِبَ، وَاعْتَبِرَتْ عَوْدَةَ بَعْضِ قَوَاتِهَا سَالِمَةً - بَعْدَ أَنْ فَرَّتْ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ - غَنِيمَةً فِي حَدِّ ذَاتِهَا!

لقد حكم السبئيون إلى جانب جنوب الجزيرة العربيَّة - أيضًا - بلاد الحبشة، التي كانت جزءا من الممالك السبئية، وأن ملكة سبأ كانت تحكم البلدين معًا، ولهذا يعتبر ملوك الحبشة أنفسهم من سلالة سليمان وبلقيس عليهما السلام.³ وهناك نقوش مسندية تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد.

¹ - يرى البعض أن هذا التقسيم كان في الفترة الحميرية، وهناك تقسيمات أخرى بمسميات غير هذه في الفترات التي قبلها.

² - اليمن وحضارة العرب، سابق، 73.

³ - هذا المعتقد أساسه توراتي المصدر، وفي كتاب الشيطان والعرش تفاصيل هذا المعتقد، الذي يرسيخ الفكرة لدى هؤلاء فعلاً أنهم من سلالة سليمان وبلقيس. ويعتقد المستشرق غلاسير - وهو المتخصص في تاريخ العرب القديم وآثارهم - أن الأحباش ساميون، هاجروا إلى إفريقيا فيما بين عامي 370 و 378 ميلادية.

ويشير الباحث توفيق السامعي إلى أن الأمريكيين قد "وجدوا خطوطاً قديمة، مثل الخطوط اليمينية والكنعانية في جنوب ولاية كولورادو الأمريكية، تعود لحوالي 800 عام قبل الميلاد، وذلك عام 2000م، وظلت هذه الأبحاث قيد السرية حتى الآن. ولئن صحّت هذه المعلومات فإن اليمينيين هم أول من سكن أمريكا أو اكتشفها على الأقل"¹

"وذكر الأصفهاني أن "تُبّع" كان حاكماً من حمير، فتح "الحيرة" وضرب "سمرقند" واسمه "أسعد أبو كرب" وأنه كانت ألقاب الحاكم في بداية تلك العصور "مكرب" وقد ذكر حمزة الأصفهاني ستة عشر تُبّعاً أو ملكاً، أولهم "الحارث الرائش" وآخرهم ذو نواس، وخلف هذا "ذو جدن" وهو آخر التبابعة الأعباش..²

ومما يؤسف له أن كانت عملتنا اليمينية إلى منتصف القرن الماضي؛ بل إلى ما بعده بعقد ونيف هي العملة النمساوية التي ضربت في القرن الثامن عشر في النمسا، وقد كانت معطلة هناك يومها، فاشتراها الإمام من النمسا، وجعلها عملته الرسمية، مع أن اليمينيين قد صكوا العملات قبل ذلك بألاف السنين!

2. اجتماعياً وثقافياً

لا توجد أمة من أمم الأرض أشادت النصوص الدينية السماوية من تورانية وقرآنية بماثرها العظيمة في التشييد والبناء والعمران وهندسة الشدود واستصلاح الأراضي الزراعية كاليمين (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُوثُونَ) الشعراء: 128.

لقد نحتوا في صخور الجبال بيوتاً وقلاعاً، حتى إن الصخر بدا في أعين حَلْفِهِم اليَوْم كأنه العجين اللَّيِّئُ في أيديهم يشكّلونه كما يشاءون. وفي هذا قال الشاعر:

عمرت حمير تشيد قصورا
من رخام وممرر وسلام

¹ - توفيق السامعي، صحيفة الناس، 24 نوفمبر، 2014م

² - اليمن وحضارة العرب، سابق، 19.

نشرت في ذرى الهوا إلى النجم
فَنظنن بالعمى والغمام
تخذوا الصخر في الجبال بيوتا
بمموها بقوة وعرام
فإذا ما نظرت آثارهم قلت
أراني رأيت ذا في المنام

وقد كان اليمانيون أول من أقاموا ناطحات السحاب في شبام حضرموت، من خلال بيوت اللبن، وفي صنعاء من الأحجار وما قصر عُمدان إلا آية من آيات الإبداع والجمال، يعجز الواصف عن نفسه؛ حيث كان عشرين طابقاً، بعضها فوق بعض، وبين كل سقفين عشرة أذرع، وقد بُني بالجرانيت والرخام، وأطبقت سقف أعلى طبقة فيه برُخامة واحدة شفافة، يمكن للرائي من خلالها إذا مرَّ به الطير أن يعرف العُراب من الحدأة وهو تحت الرخام. وكان للقصر أربعة أوجه، وجه مبني بحجارة بيض، ووجه بحجارة سود، ووجه بحجارة خضر، ووجه بحجارة حمر.¹

وقد وصفه المؤرخ فيليب حتى بأنه أول ناطحات سحاب في التاريخ المعروف.² لا عجب، لأن من جنوب الجزيرة العربية بدأت لغة الضاد؛ بل الراجح أن اليمن منبع اللغة العربية الأصيلة التي اشتقت منها سائر لغة العرب، كما يذكر المؤرخ محمد علي الأكوع، مؤكداً ذلك بقوله: "ومن الأدلة على هذا إجماع مؤرخي العرب وعلماء اللغة، كما سلف الإيماء إلى ذلك بأن اللسان العربي فتق على لسان العرب العاربة الذين هم أولاد يعرب بن قحطان، أبي اليمن، لأنه أول من أعرب الكلام، أي أبانه، وتكلم به، ومنه انتشرت اللغة العربية، وأخذ عنهم نبي الله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام الذي تسمت أولاده بالعرب المستعربة"³

كما أنهم - أيضاً - من أنشأوا الخط المسند الذي تناقلته عنهم الأمم من بعدهم، كما أشار إلى ذلك ابن هشام الذي قال إن الخط جاء من حمير، وإن ابن عباس - رضي الله عنه - قال إن اليمنيين تلقوا الخط المبتدئ المتصل عن كاتب هود - عليه السلام -؛ أما المستشرق الألماني "مولر" فقد ذكر أن أصل اتخاذ الكتابة بالحرف بعد الكتابة الهيروغليفية كان باليمن؛ إذ اعتقد أن اليمنيين هم الذين اخترعوا

¹ - الاكليل، الهمداني، 8/22.

² - تاريخ العرب، الدكتور/ فيليب حتى، مطبعة دار الكشف، بيروت، 1949م، 75.

³ - اليمن الخضراء، 249.

الكتابة، وليس الفينيقيين الذين بنوا كتابتهم على الكتابة العربيّة، وعنهم أخذها اليونانيون، ثم الرومان بعد ذلك. مضيّفًا: " .. فيكون العربُ هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، ولهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنيّة"¹

أما عالم الآثار "جلارز" فقد قال إن الكتابة المعينية ترجع إلى ما قبل المسيح بألفي عام.² وفي مجال الهندسة العمرانية، فالتصاميم الهندسية لعرش بلقيس ومعبد أوام من الإدهاش والإبداع بمكان وهي تنمُّ أولاً عن بلوغ القوم مَبْلَغًا كبيرًا في علوم العُمران، وفي الهندسة المعماريّة، كما بلغوا شأنًا عاليًا في العلوم الأخرى، وما بلغوهم الذروة في علم من العلوم استطعننا اليوم أن نلم بطرفه، إلا وهو دليل على براعتهم في بقيّة العلوم الأخرى، كعلم الطب مثلا، الذي لا يزال شأنه غامضًا إلى اليوم، ومما يجيّر اللب ويدهش العقول أن علم تخنيط الموميאות الذي يفاخر به المصريون العالم اليوم، قد كان عند اليمينيين على المستوى الشعبي في كل قَبِيلَةٍ تقريبًا، في الوقت الذي اقتصر على كبار الملوك والأسر الحاكمة - فقط - في مصر! وقد عثر المنقبون على موميאות عديدة في كل من المحويت وبني حشيش آخر عقد السبعينيّات وبداية الثمانينيّات من القُرْن الماضي.

وعودة إلى علم العمران والهندسة المعمارية الذي تفنن فيه اليمينيون، بشتى صنوفه وفنونه، فقد "عرف البناء المثلث والمربع وذات الأضلاع والانحاء والهرمي والمخروطي الشكل .. ولم تظهر عبقرية اليميني في الهياكل والأبراج والمعابد فحسب؛ بل تجلّت في الفنون، وفي إقامة السدود، ونظام الري..³

هذه الحياة صنعت لهم معيشة الرفاه والراحة، فكانت حياة الشَّعب كاملة إلى حياة الملوك أقرب منها إلى أية عيشة أخرى، حتى لقد اندهش الرومان واليونان أشد الاندهاش لما رأوا عند اليمينيين من وسائل الترفيه وتمط العيش الرغيد، كما قال أغاثر سيدس: "للسبثيين في منازلهم ما يفوق التصديق، من الآنية والأوعية، على اختلاف أشكالها من الفضة والذهب، وعندهم الأسرة والموائد من الفضة، والرياش من أفخر الأنسجة وأغلاها. قصورهم قائمة على الأساطين المحلّاة

¹ - حضرموت القديمة والمعاصرة، المركز اليميني للأبحاث الثقافية، ط:1، 1987م، 98.

² - نفسه، 251، فما بعدها.

³ - نفسه، 222.

بالذهب أو المزينة بالفضة. يعلقون على أفاريز منازلهم وأبوابها صحائف الذهب مرصعة بالجواهر، ويبدلون في تزيين قصورهم أموالاً طائلة، لكثرة ما يُدخلونه في زينتها من الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة، وغيرها من المواد الثمينة"¹

وقد قال أحد الشعراء قديماً، يصف مأرب:

ومأرب قد نطقت بالرخام وفي سقفها الذهب الأحمر

لا عجب إذن أن يتفنن اليمانيون القدامى حتى في مجال الغناء والموسيقى وآلات اللهو، باعتبار الفن سياسة الأمم المتحضرة، على حين تعد السياسة فنّ الأمم المتخلفة، حتى لقد ظهر ملوك مغنون، مثل "علس بن زيد" الملقب بـ "ذي جدن" لحسن صوته، لأن "جدن" معناها الصوت، وأيضاً ابن اليشرح. وأكثر من هذا حين خلد النحاتون صور الفنانين والمغنين على أعماهم؛ حيثُ عثر المنقبون على تمثال من البرونز لامرأة جالسة على مقعد، تضرب على دُفٍ مُستندٍ على ساقها، وتمثال آخر لامرأة وهي ترقص.²

هذه المعرفة العليمة والثراء الثقافي والفني كان نتاج حالة راقية من العلم والتعلم الذي بلغ أوجه عند اليمانيين القدامى، خلافاً لغيرهم ممن أوغلوا في البداوة، ولم يهتموا بعلم أو ثقافة أو فكر، وإن نالوا شيئاً من ذلك فقد اقتصر على بعض العلوم، كالتقصص والأخبار والأنساب، وعلم القيافة والكهانة، أما اليمانيون فقد اهتموا بسائر العلوم، وأسسوا لذلك المعاهد والمدارس..

"كان لعرب الجنوب في العهد الجاهلي مدارس ومعاهد للتربية والتعليم. وكانت لهم دُور كتب، يختلف إليها الطلاب وزوّاد العلم. وكان التعليم عندهم ينقسم إلى قسمين، ابتدائي وعالي. وهناك من الدلائل ما يدل دلالة قاطعة على أنه كان لكل من القسمين مدارس ومعاهد خاصة به. وكان الأطفال في القسم الابتدائي يدرسون الهجاء والمطالعة والحساب وقواعد اللغة، كما كان الطلاب في القسم العالي يدرسون الهندسة العملية والحساب، وعلم الفلك والطب، وفن العمارة والنقش والأدب والتاريخ"³

¹ - اليمن وحضارة العرب، سابق، 71.

² - انظر: جزيرة العرب قبل الإسلام، برهان الدين دلو، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط:2، 2007م، 508.

³ - تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط:4، 1981م، 1/104.

وحسبك من هذا أن اليمنيين هم من أرخوا الأحداث، وقد كان عرب الشمال حتى عصر صدر الإسلام لا يعتمدون التاريخ في رسائلهم، ولا يعرفون عنه شيئاً، ففي خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يُرسل الرسائل إلى عماله في الأصقاع بلا تاريخ، وقد اقترح عليه عامله بالكوفة أبو موسى الأشعري في ضرورة وضع تاريخ لرسائله، فاستحسن عمر الفكرة وجمع أكابر الصحابة، مشاوراً إياهم في وضع تاريخ لهم، وبينما هم مجتمعون يتبادلون الآراء؛ إذ قدم من اليمن رجلٌ، فقال يا أمير المؤمنين: رأيت في اليمن شيئاً يُسمونه التاريخ، يكتبونه من عام كذا، وشهر كذا، فقال عمر: هو أحسن، فأرخوا. فمن ذلك الحين ابتدأ التاريخ الهجري.¹

3 صناعات وتجاريًا

الصناعة والتجارة أحد معالم الحضرة والرقي الاجتماعي والسياسي لأية أمة من الأمم، إذ هما معاً أو منفردتين نتاج حالة من التراكم المعرفي والاستقرار السياسي والهدوء النفسي، ولا يمكن أن يزدهر هذان النشاطان أو أحدهما في ظل مجتمع غير مستقر سياسياً أو اجتماعياً، وحالياً يقولون لا تنمية بدون أمن. وهو السبب الرئيس - وربما الوحيد - الذي جعل اليمن خلال حكم الإمامة منذ مجيء الهادي، آخر القرن الثالث إلى اليمن وإلى مطلع العقد السادس من القرن الميلادي الماضي رهناً تخلفها الاقتصادي والتجاري والثقافي، نتيجة لتخلفها السياسي، ولعدم وجود الأمن النفسي أولاً لدى الشعب، حتى بدت منقطعة عن ماضيها وحضارتها التاريخية الجيدة، بسبب تخلف نظرية الحكم..

ففي اليمن الحضاري القديم ازدهرت الصناعة والتجارة بصورة لم يكن لها مثيل حتى لدى شعوب عريقة كالصين والهند ومصر، وقد كانت صناعة وتجارة اليمن محل انبهار واندهاش هؤلاء جميعاً.

¹ - مجلة دراسات تاريخية، خالد سيف سعيد، دورية، فصلية، تصدر عن دائرة الدراسات والبحوث التاريخية، بمركز الدراسات والبحوث اليمني، العدد: الخامس، السنة الثانية، يناير - مارس، 2010م. 34.

وقد أشار إلى ذلك العهد القديم، في إطار حديثه عن قوم سبأ التجار، كما ذكرت ذلك كتب المؤرخين الغربيين، مثل ديودور واسترابون؛ حيث وصفوا تجارة حَضَارَة سبأ وصناعتها وملاحظتها، مؤكدين ألا أحد يفوق اليمانيين في ذلك.

يقول العهد القديم على لسان حزقيال، مخاطبًا "صُور" التَّاجِرَة: "وتاجر معك أيضا تجار شبا ورعمة، فقايضوا بضائعك بأفخر أنواع الطيب والحجارة الكريمة والذهب. ومن المتاجرين معك - أيضا - أهل حُران وكِنَّة وعدن وشبا، وأشور وكلَمَد. هؤلاء قايضوا بضائعك بنفائس الأردية الأسمانجونية والمطرزة، وبسجاجيد ملونة، مبرومة الخيطان، ومضفورة بإحكام"¹

ويقول أيضًا في موضع آخر: ".. وعندما سمعتُ ملكة سبأ بشهرة سليمان قدمت إلى اورشليم بموكب حافل، وجمالٍ مُحمَّلةٍ أطيابًا وذهبًا وفيرا وحجارةً كريمةً.."² وأيضا: ".. وأهدته مئة وعشرين وزناً من الذهب، "نحو أربعة آلاف وثلاثمائة وعشرين كيلو جراما" وأطيابًا كثيرة، وحجارة كريمة، ولم يوجد ما يماثل الطيب الذي أهدته ملكة سبأ للملك سليمان"³

"ويُرجع بعضُ المستشرقين وجود الكتابات العرَبِيَّة التي بالمسند في جزيرة "ديلوس" من جزر اليونان التي يعود تاريخها إلى القُرْن الثاني قبل الميلاد، وفي وجود الكتابات المعينية في هذه الجزيرة إلى علاقة تجاريَّة، واتصال تجاري بين العرب الجنوبيين، واليونان، وكذلك ما عُثر عليه من المسند في مصر والسُّودان، وأن جالية يمنيَّة كانت تُقيم في هذه البُلدان.."⁴

وقد كان من الأسباب الرئيسيَّة التي جعلت الرومان يفكرون في غزو اليمن، هو السَّيطرة على طَرِيق التجارة العالمي من قبل الرومان ومنافسة اليمن في ذلك، نتيجةً للثروة المهولة التي كان عليها اليمانيون نتيجة لهذا السَّبب، ما أطمع القيصر الروماني هذه الحال، وقال: إنه يريد أن يتعامل

¹ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، سفر حزقيال، الإصحاح 27، الفقرات: 22 - 24.

² - العهد القديم، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح التاسع الفقرات: 1 - 9.

³ - نفسه.

⁴ - اليمن الخضراء، سابق، 241.

مع العرب كأصدقاء أغنياء، أو أن يُسيطر عليهم كأعداء أغنياء، كما ذكر ذلك "استرابون" مؤرخ تلك الحملة.¹

وقد ذكر لِسَانُ اليمانيّ الهمداني وغيره من المؤرخين أماكن كثيرةً كانت مناجمَ للمعدن والذهب والحديد والنحاس، مثل معدن قُضاة، ومعدن بيش، ومعدن خولان، وأيضًا ذهب خولان الذي ورد ذكره في نصوص التوراة باسم "حويلة" وأيضًا مناجم الذهب في عسير، مع الإشارة هنا إلى أن كلمة معدن في سياقات المؤرخين القدامى كانت تعني الذهب؛ أمّا بقية المعادن الأخرى فكانت ترد مُضافة إلى نوعيتها، كقولهم معدن الصُّفر "النحاس" ومعادن الفضة. هذا إلى جانب معادن الحديد التي ذكرها الهمداني في "نُثم" و "عُمدان"، والجواهر الأخرى كالعقيق في بلاد آنس وهمدان.

وقد تعامل معها اليمانيون القدماء بمهارة وبراعة فائقة، فأحسنوا استخراجها أولاً، ثم التعامل معها، وقد ظلت الصناعات اليمانيّة مضرب المثل في الجودة والأناقة والذوق الرفيع، وكانت أسواق العرب التي تُقام خارج الجزيرة العربيّة أو على أطرافها تعج بالمنتجات اليمانيّة على اختلاف صنوفها وأنواعها، فعرف العرب، وغير العرب، السيف اليماني، وعرفوا البرود اليمانيّة، والطيوب اليمانيّة، والأحجار الكريمة اليمانيّة، وغير ذلك الكثير من أنواع التجارة التي سيطر عليها اليمانيون وتفردوا بها..

لهذا كان لهم "حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المآكل؛ إذ كان يُطبخُ في بيت الرجل منهم عدة ألوان، ويعمل فيها السُّكر والقلوب، وتُطَيَّبُ أوانيتها بالعطر والبخور، ويكون لأحدهم الحاشيّة والغاشيّة.. ولهم الديارات الجليلة والمباني الأنيقة"²

ومن يتأمل في قوانين سُوق "شمر" القتباني في القرن الثالث قبل الميلاد يدرك مدى الرقي الحضاري، والثراء المدني الذي توصلت إليه الحضارة القتبانيّة، من خلال منظومة القوانين التجارية التي ضبظتها المملكة؛ حيثُ سنّت عدة تشريعات، ضمناً لحقوق العامّة من الناس، مثل تغريم من يغش في تجارته خمسين قطعة ذهبية، ومنعت البيع والشراء في الليل، للحد من الصفقات التجاريّة

¹ - هذه هي اليمن، عبدالله الثور، دار العودة، بيروت، ط:2، دت. 145.

² - صُبْحُ الأعشى، أبو العباس أحمد، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1913م، 5/7.

المشبوّهة، ومنعت الاحتكار، وألزمت الناس بعدم فتح أي مخازن تجاريّة في البيوت؛ بل يكون ذلك في الأسواق، حتى يسهل على الدوّلة مراقبتها وتفتيشها، منعاً للاحتكار، وأيضاً أُلزمت كل تاجر أن يمتلك "دكاناً" خاصاً به في السُّوق، خاصّة التجار الأجنبيّين من غير القتبانيين الذين يحق لهم التجارة في الأسواق والمدن، دون الأرياف؛ أما تجارة الحبوب فلم يُسمح للتجار بها إلا للقتبانيين فقط دون غيرهم من التجار الأجنبيّين، حفاظاً على الأمن القومي للمملكة، لأن من يُسيطر على الحبوب يُسيطر، أو يؤثر على القرار السياسي، فكانت الحبوب تجارةً مقصورةً على القتبانيين فقط دون غيرهم، وقد كانوا معفيين من الضرائب على تجارة الحبوب، باعتبارها من أساسيات الحياة التي يجب أن يحصل عليها المواطن بأقل الأسعار. وهذا ما ليس موجوداً اليوم في أغلب دول العالم التي تدعي المدنية والرفي، فكل السلع الأساسيّة مشمولة بالضرائب في الغالب الأعم، وقد كانت الضريبة في حدود العُشر المأخوذ من كل تاجر!¹

أما المنسوجات اليمينيّة فقد كانت حديث العرب وغير العرب، جوهراً ومظهراً، وبها تَعَنَّتْ؛ بل لقد كان تجار العرب يقصدون الأسواق السنوية الشهيرة لشراء الملابس اليمينية؛ خاصّة النسائية منها، وكانوا يتهادونّها فيما بينهم؛ خاصّة بعد أن كانت كسوة الكعبة السنوية من منسوجات اليمن واليمنيين، وأيضاً لباسُ النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده. وقد كانت منطقة "السحول" في إب مشهورة على مستوى المنطقة العربيّة كاملة بهذا التميز، كما تميّزت بها أيضاً المعافر "الحجرية" وعدن وصعدة، وحضرموت. وقد قال الشّاعر الجاهلي طرفة بن العبد البكري، في معرض الوصف:

وبالسفح آيات كأن رسومها يمانٍ وشته ريدةٌ وسحول

وقال أبو طالب بن عبد المطلب في قصيدة له:

فيصبح آل الله بيضاً كأنما كستهم جبورا ريدة ومعافر

¹ - سوق شمر أنموذجاً للأسواق العربيّة القديمة، د. فرات حمدان عبد المجيد، بحث غير منشور، الجامعة المستنصرية، بغداد. ص 6 فما بعدها..

ولا ننسى أيضا أن الرسول - ﷺ - قد كُفِّن في ثلاثة أنواب سحولية. نسبة إلى السحول، التي ذكرها الحكيم الزراعي علي ابن زايد في واحدة من حِكْمِه الشَّعْبِيَّة الزراعيَّة. وقد ذكرها المؤرخ مُحَمَّد علي الأكوغ، مضيفا: " .. زرت بعض مناطق السحول، فأراني بعض أهلها محل مَصانِع الثياب السحولية، وقال لي بهذا اللفظ: هَذِه هِيَ المِصانِع التي كان يُصنَع بها الثياب السحولية التي كُفِّن منها النبي ﷺ، تلقيناها/ تلقيناها خلقًا عن سلف، وكابراً عن كابر، وأنها تُسمى المِصانِع وهي اليوم خرابٌ وأنقاض، وتقع في متسعٍ من الأرض في بطن السحول"¹

وفي سُنن أبي داود أن زرعة بن عامر بن سيف بن ذي يزن الحميري أهدى لرسول الله - ﷺ - حُلَّةً قُومَتْ بعشرين بعيراً، ثم كَسَّها عُمر، وقال له: إياك أن تُخدع عنها.

هذه مجرد إشارات عابرة، ومقتطفات عجلى فقط، عن حَضارَةِ اليَمَن القَدِيم، وتاريخه المكتنز بالعجائب والأسرار التي لما تفصح عنها الحقائقُ كاملة حتى الآن، والتي ذكرتها المصادر التاريخية، لباحثين يمينيين وعرب وأجانب، كَتَبَ البعضُ منهم في الجزئية الواحدة كتابا مُستقلا، وربما كُتبا، لثرائها العلمي والمعرفي الواسع، وأملنا في المستقبل أن تتجه الجهات المختصة نحو معرفة تاريخ هذه البلاد التي تحوي من العجائب والأسرار ما لم يحظ به بلد في العالم كله.

وربما لخص حَضارَةَ هذه البلاد ومجدها السَّامِق الشَّاعر مُطهر الإرياني، ضمن ملحمة الشهيرة "المجد والأُم" بقوله:

فلو غنى الزمان بذكر قوم	لكان بنا من المترنميننا
ولو سجدت جبالُ الأرض شُكراً	لأُحْنَتُ بالسُّجود لنا الجبيننا
على هذا الثرى نشأت وقامت	حَضاراتُ القُرون الغابرينا

¹ - اليمن الخضراء، سابق، 234.

الفصل الأول

الجدور الفكرية والموجهات النظرية

المبحث الأول الفكرة التي بنّت مجدداً

مدخل

إن من أهم السمات التي وُسم بها - تاريخياً - رجل الشرق الحاكم في مجتمعه أنه "ظالم في عدله، عادل في ظلّمه" وهي سمةٌ بقدر ما هي ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، إلا أنها لا تزال إلى اليوم مطبنة الأوتاد في عمق أعماق المجتمع الشرقي، ولما يستطع بعد التحرر من أسر ثقافة الرجل الأول، والأوحد، والأعلم، والأفهم!

يصنّف الفلاسفة الأوروبيون الرجل الشرقي بأنه مُصابٌ بالعصاب النفسي كحالة متوارثة، لما يستطع الفكك منها بعد، وأنه تجمد - نفسياً - عند مرحلة معينة من مراحل الطفولة؛ ولذا فهو يفتقد للتوازن النفسي؛ وبالتالي فإن تعامله مع الآخر يكون بذهنية غير سوية؛ فالآخر عنده - في الغالب - أحد اثنين: إما أعلى منه، وإما أدنى! وفي حال تحكمت ذهنيته على الأساس الأول، فإنه يمارس سلوكاً نفاقياً متملقاً ظاهراً؛ لكنه في باطنه يحمل مشاعر من الحقد مكبوتة لا تستطع شخصيته الإفصاح عنها في الظروف الطبيعية.

وهذه حالة نفسية أساسها الوهم والتوهم بدرجة رئيسية، لا الحقائق ذات المعطى الموضوعي على أرض الواقع التي تبرر له هذه الحالة؛ وإلى هذه الحالة أشار المفكر الإسلامي عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد، مبيّناً أن الكبت الاجتماعي الذي ينشأ عن الاستبداد السياسي يولّد هذه الحالة بصورة طبيعياً، كما أشار إليها أيضاً الفيلسوف "إريك هوفر" في كتابه "المؤمن الصادق".

وأما إذا كان هذا الإنسان "الشرقي" ينظر إلى الآخر بأنه أدنى منه فإنه يمارس عليه سلوكاً طاغوتياً همجياً استبدادياً، نتيجة لخلل نفسي، وهو الشعور بالدونية أصلاً، فيلجأ إلى التعويض عن ذلك بممارسة هذا السلوك على الآخر. وهي حالة يلمحها المتابع في كثير من تفاصيل الحياة العامة،

وكذا تعامل شيوخ الدين، أو رجالات المجتمع، أو مسئولو الدولة مع الآخرين. وإلى هذا النمط من الشخصيّة أشار أيضًا الكواكبي في كتابه الآنف الذكر، كما تكلم عنه أيضًا إريك هوفر. ومن يوغل في الفجور منتصرًا، يوغل في الذل منهزمًا. كما أنه ما تكأبّر أحدٌ على من دونه، إلا بقدر ما ذل لمن فوقه.

قصي بن كلاب.. المؤسس الأول

إذا كان معظم النّار من مستصغر الشرر، فإن أعظم المشاريع - أيضا - من مستصغر الفكر، أو هكذا تقول حقائق التاريخ..

خطرة، تتحول إلى فكرة.. ومن ثم إلى مشروع، وكل مشاريع الدنيا كانت أولاً خطرات شاردة، فأفكار حائمة، تبلورت مع الإرادة والعزيمة إلى واقع ملموس. إنجازات اليوم هي أحلام الأمس، وأحلام اليوم هي مشاريع المستقبل التي تهندسها الخيالات، وتحبكها الأفكار، لأناس خلقتهم الأعمال، وأناس يخلقون الأعمال وهي معادلة تكاملية، تستتم الأولى ما نقص الثانية، والعكس أيضًا صحيح. واللبيب من يستشف عظمة فكره وفكرته من لحظاتها الأولى، ليهيئ لها الحاضن الموضوعي الذي يحيلها إلى شلال ماء، إن اصطدمت بصخور الواقع انساح رقرقا بينها دون تكسر، وكم هي المشاريع العملاقة التي تموت في مهدها، لعارض خارج حسابها، مثلما أن ثمة مشاريع أخرى تستطبع أن تتجاوز كل هذه العوارض، بل تحيل الأحجار إلى سلام، وربما جبال العثرات إلى مدرجات لبناء صرحها الأعظم!

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في حمل مرادها الأجسام

لقد كان قصي بن كلاب يدرك ماذا يعني تمامًا، حين قال لقومه "القرشيين" في القرن الميلادي الخامس.. أي قبل ميلاد محمد ﷺ - بما يزيد على قرن كامل: هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم في الحرم حول البيت؟ فو الله لا يستحل العرب قتالكم، ولا يستطيعون إخراجكم منه، وتسكنونه فتسودوا العرب أبدًا..

هكذا قال لهم. وهكذا قالوا له: أنت سيدنا ورأينا تبع لرأيك.

لم تكن فُرَيْش - بطونها وأفخاذها وهي القبيلة الموغلة في البداوة يومها - إلا قَبِيلَة ضعيفة بين القبائل العربية، متوزعة البيوت والعشائر في الشعاب والجبال، في الوقت الذي كانت خزاعة هي سيدة المكان والزمان.

قبل هذا التوجيه وتلك الاستجابة كان قصي¹ - مؤسس المجد القرشي - قد تزوج "حُجَي" ابنة حليل بن حبشية الخزاعي، سيد خزاعة، وأحد كبار رجالها الذي كان - يومها - والي مكة ومتعهد الكعبة. وكانت "حُجَي" أثيرة أبيها والأقرب من بين كل أولاده إلى قلبه، فأوصى لها بولاية الكعبة؛ إلا أنها - وبحكم تركيبها الجسمية كامرأة - لم تكن تقوى على فتح مصراعي الكعبة، فاعتذرت لأبيها عن هذه المكربة، مقترحة له أبا غبشان المحترش بن حليل، بإيعاز من "قُصي" زوجها، الذي كان يعرفه جيدا، ويعرف ميوله وطبيعة عقله!

ومضت أيام قليلة وأبو غبشان هو الوالي على الكعبة، على حين غرة من سادات خزاعة وكبارها، وقصي ينظر له شزرا، عن بعد، ولسان حاله: ما أنت لذلك بأهل! كانت إحدى عيني "قُصي" على المفتاح، وأخرى على عقل أبي غبشان الذي ضرب به المثل في الحُقم، فباع أعز ما يملك بأحقر ما استلذ؛ حيث اشترى منه قصي بن كلاب ولاية الكعبة، وتسلم منه مفتاحها بزق خمر وعود هالك! وكانت هذه الخطوة الثانية التي حققها قصي في سبيل المجد والترقي بعد زواجه من سيد خزاعة، لأن الإصهار إلى ذوي الجاه يؤدي إلى الجاه. والجاه أحد العوامل المهمة في الحصول على الثروة، كما يذكر ابن خلدون..

وقد جن جنون خزاعة حين عرفوا أن قصي بن كلاب - بن فُرَيْش المستضعفة يومها - قد أصبح هو والي الكعبة وسيدها والمتحكم الرئيس فيها. فقرروا الحرب بعد طول مفاوضات معه، وأصر قصي إلا على السير فيما يراه حقا له، وعلى حرب خزاعة أيضا مهما كان. وكانت الحرب التي أعقبها تحكيم "الشداخ" وحكمه بتحمل خزاعة وبني بكر خمسمائة وعشرين دية، وبأحقية قصي بمفتاح الكعبة..

¹ - قصي هو لقب لا اسم، وسمي بقصي لأنه تقصى قومه في بلاد الشام سنتين أو أكثر في التجارة، وقيل في بني عنزة، واسمه الحقيقي زيد، وزيد اسم صنم في الكعبة. انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سابق، 4/57.

من هنا زادت مكانة قصي بين قومه، ولم يعصوا له أمراً بعد ذلك، وإن كان مُطاعاً بينهم من سابق، إلا أنها كانت أقل مما أصبح عليه الأمر من بعد.

كما بدأ يجمع قومه من الشّعب والجبال عُصبة واحدة حول الكعبة، لثلاثة أسباب كما بيّنها:

1- "لا يستحل العرب قتالكم". وفي هذا دليل على أنهم لم يكونوا رجالات حرب؛ لغلبة طبعهم إلى السلم والحلم، وإلى التجارة. والحرب والتجارة لا يجتمعان في الغالب؛ ولذا فقد خسروا في حرب الفجار ثلاث حروب من أصل أربع حروب كما ذكر الدكتور جواد علي.¹

2- "لا يستطيعون إخراجكم منه". لمكانة الكعبة الدينية عند الناس.

3- "وتسكنونه فتسودوا العرب أبدا" وهذا هو الهدف البعيد.. البعيد.. وهنا الاستشفاف للمجد القرشي الذي بدأ يتخاطر أمام ناظره..

تلت هاتان الخطوتان، الاستراتيجية الثالثة في طريق المجد وهي تأسيس دار الندوة.²

من هنا.. وبادر الندوة بدأت تتأسس الفكرة، وتضع العشيرة البدوية بقيادة قصي بن كلاب أولى خطواتها السياسية الصحيحة في طريق المستقبل..

من هنا.. ومن دار الندوة - أيضاً - بدأ القرار الجماعي والروح الواحدة. مثلما بدأ تبلور العقل الجمعي "الشوروي/ الديمقراطي" وإن في حده الأدنى أو صورته الأولية.. بدأ تفكير من نمط مختلف يسود العشيرة، لم يكونوا يألفونه من قبل، ولم يكونوا ليتوصلوا إليه لولا القائد، والمؤسس الأول الذي اصطلحوا على تسميته بـ "المجمع" أو "الجامع" وفي ذلك قال شاعرهم بعد ذلك:

أبوكم قصي كان يُدعى مجعاً به جمع الله القبائل من فهر3

¹ - انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، ط:2، 1993م، 4/36.

² - دار الندوة يمنية الفكرة والتأسيس والممارسة لمئات السنين منذ العهد السبئي، وقد كانت في كل قبيلة من القبائل اليمانية المتحضرة، وتنت هي هذه المجالس بما عرف مجلس "المسود" الذي يشبه المجلس النيابي. وهذا يعكس سعة معرفة قصي بن كلاب بعادات العرب وتقاليدهم، وخاصة عرب الجنوب الذين كانوا أهل حضارة، خلافا لعرب الشمال، ويعرف ما ذا تعني دار الندوة. وقد كان من شروط الانضمام إلى دار الندوة ألا تقل سنه عن أربعين سنة، عدا أبا جهل فقد دخلها وعمره ثلاثون سنة لرجاحة عقله، وحكيم بن حزام وكان أصغر سناً من أبي جهل. وقد استمرت هذه الدار حتى وقت متأخر في صدر الإسلام قائمة، يتوارثها بنو عبد الدار جيلا عن جيل، حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان بمئة ألف درهم..

³ - بني فهر، رجل تنتسب إليه كل قريش، واسمه فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ويقال إن قريشاً قد عرفت بهذا الاسم من عهده، كما ذهب إلى ذلك الدكتور جواد علي.

لهذا نُسبت له قُرَيْش في بداياتها الأولى إليه، وبحسب صَاحِب الطبقات، فلم تكن قُرَيْش تُعرف قبل ذلك اليَوْم إلا ببني النَّضْر. وإنما سميت قريشا لتقرشها من مختلف الجهات واجتماعها في مكان واحد...¹

من هنا.. من دار الندوة عقدوا لواء الحروب، وتشاوروا فيما بينهم، في أمر زواج ابن، أو تزويج بنت. في الحل والإبرام.. ومن هنا وجه قصي بن كلاب قومه باستضافة حجاج البيت الحرام، فإرضاً عليهم جُعلاً سنويًا من أموالهم، كضريبة خاصّة بضيافة الوافدين من الحُجاج؛ وللضيافة عند العَرَب ما لها من الرفعة والسمو والتفاخر.. ليس ذلك فحسب؛ بل وجه بحفر بئر خاصة بها دون الآبار الأخرى، فحفروا بئر "العجول" واجتمع له إلى جانب سيادة مَكّة، شرف الحجابة والسّقاية والرفادة والندوة واللواء. وتذكر بعض الروايات أن قصي قد عدّل في بناء الكعبة، وحرّ الأشجار الكثيفة التي كانت تُحيط بها، ولم يجروء أحد قبله على ذلك، لمكانتها من الكعبة، وبذا صار أول ملك من ذرية إسماعيل، منذ إسماعيل عليه السلام²

ولم تمض إلا فترة وجيزة بعد سُكناهم حول الكعبة حتى تحولوا جوهرًا ومظهرًا.. أي تأنسوا بعد وحشية البداوة، خاصّة بعد تحقيق مزيد من الرفاه الاقتصادي الذي تحقق لهم، وبعد أن لفتوا أنظار النَّاس إليهم، وبعد أن ارتبطوا - روحياً - بالكعبة؛ ومعلوم للجميع ما الذي يُشكله الدين في نفوس أتباعه، وكيف يصبغ شخصياتهم وثقافتهم.

وبهذا اكتملت الاستراتيجيات الثلاث في صناعة مجد العشيرة، الجاه الاجتماعي.. الجاه الديني.. الرفاه الاقتصادي.. ليحققوا بهذه مجتمعة شرف القيادة السّياسيّة التي كانت نتيجة لما سبق. ولأنّ المؤسس الأول قصي يدرك أنه يؤسس لمشروع كبير وقادم، وأن هذا المشروع لا يزال في بداياته الأولى، وأن وراثته من بعده لن يكونوا بنفس العقليّة التي هو عليها، فقد حسّم الأمر قبل أن يرحل عن الحياة، فقسّم هذا الشرف الذي حازه بين أولاده جميعًا، خشية أن يتفرقوا بعد موته، فيذهب هذا الجهد سدى؛ فأعطى عبد مناف السقاية والندوة. وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء، وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة. وهناك روايات أخرى تذكر أن عبد مناف قام بكل الدور كاملاً

¹ - في القاموس، قرش: قَرَشَ الشَّيْءَ : جَمَعَهُ مِنْ هُنَا وَهُنَا وَصَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ.

² - انظر المفصل في تاريخ العَرَب قبل الإسلام، سابق، 4/55، فما بعدها..

بعد وفاته، كما أن بني عبد مناف أجمعوا على أن يأخذوا من بني عبد الدار الرفادة والسقاية، فرفض بنو عبد الدار ذلك، ثم تفرقت قريش، فكانت طائفة منها مع بني عبد الدار، وطائفة مع بني عبد مناف، وأخرج الآخرون جفنة مملوءة طيباً فوضعوها عند الكعبة، وتحالفوا وجعلوا أيديهم في الطيب، فيما تحالف بنو عبد الدار ومن معهم، وسموا الأحلاف، وتعبأوا للقتال، ثم تداعوا للصلح بعد ذلك، وأضيف إليهم بنو مخزوم وبنو جُمح وبنو سهم وبنو عدي بن كعب، وسموا حلف لعقّة الدم... إلخ¹

لقد كان قصي من الذكاء بمكان؛ بل من العظمة التي عادة ما يتسم بها مؤسسو الدول والإمبراطوريات.. استطاع التأثير في معظم القبائل العربية فحدّ من قتالها، وقضى - بصورة هادئة - على كل الكعبات التي كانت موجودة في أكثر من مكان في الجزيرة العربية، وكان العرب يزورونها ويطوفون حولها ويتبركون بها، وإن لم تكن جميعها تحظى بما تحظى به كعبة مكة المشرفة.² وجعل لها هالة كبيرة في نفوس الناس، كما استطاع أن يجعل من أبنائه وأتباعه المقربين طبقة مميزة في تعاملها وأخلاقها مع النَّاس "وأصبح القرشيون ذاتهم شخصاً مقدساً، أو على أقل القليل تحاطهم قداسة ملموسة، ومن ثم أُطلق عليهم أهل الحرم، ومن البديهي أن شيخهم أو رئيسهم يتمتع بقدر أوفر من القداسة، ولذلك ليس اعتباراً ما قاله المؤرخون عن قصي كان أمره في قُرَيْش في حياته، ومن بعد موته كالدين المتبع، فلا يُعمل بغيره، وصار توظيفُ الدين سُنَّة من بعده، اتبعها أبنائه وأحفاده بذكاء بالغ"³

وعلى أية حال، فقد انقسم أبنائه بعده إلى قسمين أو حلفين، عُرفا بحلف "المطيين"، وحلف "لعقّة الدم" وفي ذلك روايات كثيرة ومتعددة، إنما الأهم أخذ بنو عبد مناف الرفادة والسقاية، وبقيت كل الامتيازات في يد بني عبد الدار. واهتم هاشم بشئون الكعبة وبضيافة الحجاج كثيراً، وعلا شأنه، وزاد صيته كثيراً في مكة والقبائل العربية؛ خاصة حين ازدادت القبائل العربية

¹ - المِفْصَل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سابق، 60.

² - يرجع اسم الكعبة إلى نمط بنائها المُكعَّب، ومن هذه الكعبات بيت اللات، وكعبة نجران، وكعبة شداد الأيادي، وكعبة غطفان، وكعبة بيت ذي الخلفة المعروفة بالكعبة اليمانية. وقد ذكر محمد بن علي الأكوغ الحوالي في كتابه: اليمن الخضراء مهد الحضارة، أنه وجد في "قائفة/ قيفة" برداع مدينة هناك اسمها "مكة" ومعيداً يسمى "الكعبة" وموضعاً آخر يُسمى "طابة" اليمن الخضراء مهد الحضارة، محمد بن علي الأكوغ، مكتبة الجبل الجديد، ط: 2، 1982م، 267.

³ - قُرَيْش من القبيلة إلى الدولة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ط: 1، 1993م، 24.

إقبالاً على الحج، وزاد حجم التبادل التجاري بين مكة وبقية أسواق المنطقة، وقد كان اسمه قبل ذلك "عمرو" إنما جاء هاشم لقباً لا اسماً له، لكونه أكرم الحجيج في سنة جوع وجذب، فهشم لهم الثريد، وجلب لهم كل أصناف المأكولات من بلاد الشام. وقد قيل في ذلك:

عمرو العلاء هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

ويُعتبر هاشم المؤسس الثاني للمجد القرشي بعد جده قصي، خاصّةً قد تعمّقت علاقته بشيوخ ورؤساء الجزيرة وغير الجزيرة العربيّة من خلال التجارة، ومن خلال كرمه الذي أذهل به الكثير، وأيضاً بعد أن تزوج سلمى بنت عمر بن زيد سيد بني عدي بن النجار من الخرج. وأيضاً زواجه من هند بنت عمر الخزرجية، فتمعمقت العلاقة أكثر بين أهل يثرب من جهة، وبين قُرَيْش من جهة أخرى.

ومما زاد شهرته أوسع تبيّنه لما يمكن أن يُسمى بنظام التكافل الاجتماعي بين الفقراء المعدمين والتجار الميسورين؛ حيثُ كان يقترح ضم عدد من الأسر أو الأفراد من المعسرّين لأحد كبار التجار، فيعوّلها بالحد الأدنى حتى لا تهلك، وقد كان ما يسمى بـ "الاعتفار" سابقاً أشبه بثقافة سائدة، حيثُ تعمد الأسرة التي لا تجد ما تأكله إلى الخروج بعيداً في القفار أو الصحارى، ضاربين خباء خاصّاً بهم حتى يموتوا من الجوع والعطش، وذلك اتقاء معرفة السؤال والطلب ومد يد العون للغير. وقد سمع هاشم يوماً بأسرة من بني مخزوم عمدت إلى الاعتفار، فهزّه الموقف كثيراً وتألّم له، وقام في قُرَيْش خطيباً، مخاطباً إياهم: "إنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعلا، وأشرف ولد آدم، والناس بكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم، فقالوا: نحن لك تبع، فقال: ابتدئوا بهذا الرجل، فأغنوه عن الاعتفار، ففعلوا"¹

وإلى جانب هاشم أيضاً أبناء أعمامه من بني عبد الدار، فقد توسعت تجارة الجميع ونمت بصورة متزايدة، وفي هذه الفترة تأسست رحلتنا الشتاء وال الصيف التجاريّتان اللتان أشار إليهما القرآن الكريم، وبدا الكل أشبه بالمجتمع المدني المتحضر والمُتَرَف، حتى غدت قُرَيْش - بكامل بطونها وأفخاذها - ملء سمع العرب وبصرهم؛ خاصّةً بعد أخذ الإيلافات من مختلف القبائل العربيّة التي

¹ - الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة كتاب الشعب، مصر،

حرمت - بموجب اتفاق عام - الاعتداء على القوافل التجارية داخل الجزيرة العربية وخارجها، وقد كانت العرب تُعظّم الكعبة، وتُعظّم القائمين عليها.

عبد المطلب.. إمبراطور الصحراء

وتتوالى السنون والأيام، ويزداد المجد القرشي يوماً بعد يوم، وبقدرة أيضاً تزداد التحسّسات أو الإحن بين أبناء الأعمام، لأن أُمّية قد بدأ بالحضور والمنافسة أيضاً، فكان الصِّراع الداخلي بين بني عبد الدار، وبني عبد مناف يتنامى رويدا رويدا حتى غدا ظاهراً.

ويأتي دور عبد المطلب، وارثاً مجده عن أبيه، تجارة وجاهاً اجتماعياً، ناهيك عن رمزيته الدينية التي تشبث بها كثيراً، وربما تأثر بما هو عليه الحال عند الروم والفرس، بالتداخل الحاصل بين الدين والدولة، وخاصة في تلك الفترة، فحرص عبدالمطلب على تكوين إمبراطورية تُشاكل إمبراطورية الروم أو فارس، ولم يكن الدين في تلك الفترة في مكة غير بقايا الحنفية، وقليل من الأساطير المتوارثة عن المسيحية فاليهودية، وكل هذا متداخل في بعضه البعض، ولما تتميز ملامح دين مُستقل له شخصيته الخُصوصية.

وقد كان عبد المطلب سيد الحنفية وأستاذها، كما يقول سيد القمني، لأنه كان يختلف دائماً إلى غار جِراء للتحنُّث في شهر رمضان، مُكثرًا من عمل البر وإطعام الطعام، محرِّمًا على نفسه الخمر وعبادة الأصنام من وقت مبكر، وعاملاً بمكارم الأخلاق، غير ظالم أو باغٍ، أو واقع في دينيات الأمور، كالزنا أو التعري الذي كان من الأعمال التي لا يعيب القوم بعضهم بعضًا كثيراً، كما كان يؤمن باليوم الآخر، ويوفي بالنذور، وكان يذبح عشرات الإبل للمعسرين والفقراء، ولا يصد عنها أحداً؛ بما في ذلك الحيوانات والطيور؛ ولذا لُقّب بمُطعم الطير..¹، وهو - كذلك - أول من حفر بئر زمزم، وعزا فكرة الحفر هذه إلى رؤى منامية، أضفت عليه هذه الرؤيا - في حد ذاتها - مزيداً من القدسية والهالة الروحية أكثر؛ ولهذا فقد طمّح أن تكون النبوة في شخصه حين بشره الأخبار

¹ - انظر، فُرَيْش من القبيلة إلى الدولة، سابق، 40 فما بعدها..

والكهانُ بأن النبوة ستكون فيه أو في أحد سلالته؛ بل لقد أخبره سيف بن ذي يزن، الملك اليميني بذلك؛ حين زار عبدَ المطلب اليمَن..

وبعثة مُجَّد - ﷺ - ظهر الخلافُ والحقدُ واضحًا على بني عبد الدار، فاعتبروا أن دعوة مُجَّد - ﷺ - هي دعوة للتَّمجُّد والانفراد بأبنة الملك دون أبناء أعمامه، فكانت تلك الاعتراضات، وتلك المساومات، ومن ثم الحروب والمنازلات، حتى أن من أسلم من بني عبد الدار سألوا الرَّسول - صلى الله عليه وسلم - أن يبقي فيهم اللواء، قائلين: يا نبي الله اللواء إلينا، فردَّ عليهم: الإسلام أوسع من ذلك. ليس بنو عبد الدار من حقد على الرَّسول وحاربه وناصبه العداة؛ بل حتى من بني عبد مناف، الفخذ الذي ينتسب إليه، مثل عبد العزَّى بن عبد المطلب "أبو هب" عمُّه، وكان من ارستقراطي مكة ووجهائها، وكل تجارها وأثريائها الذين رأوا في الدَّعوة الجديدة خطرًا يهددُ مصالحهم الاقتصادية.

ومما تجدرُ الإشارة إليه هنا هو أن الثراء الفاحش مقابل الفقر المدقع في مكة قد بلغ مداه؛ لذا كان "الاعتفار" الذي أشرنا إليه سابقًا، وإن كان هاشمٌ وأولاده قد عملوا على الحد منه، أي أن الطبقة الوسطى تكاد تكون منعدمة، وهذا ناتج عن خلل حاصل في مسألة دورة المال، وعن الاحتكار الذي بلغ مداه، فكان كثير من توجيهات القرآن الكريم وتعاليمه قد أشارت إلى ذلك، وجاءت لتعالج هذا الخلل الحاصل في المجتمع. فقد ذكر القرآن الكريم الذين يكتزون الذهب والفضة

(وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) التوبة: 34.

وأيضًا: نزلت في عبدالله بن جدعان: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) النور: 33. حيث كان لديه العديدُ من الجوارى، وكان يستخدمهن في الأعمال غير المشروعة "دور البغاء" لتدرَّ عليه من المال الكثير من طريق ما يسمى اليوم "الاستغلال الجنسي".

وقد شاع أيضا الاستغلال الاقتصادي الجائر من قبل الأغنياء للفقراء، من خلال الربا الذي جعله القرآن الكريم من الكبائر، وقضى عليه الرَّسول - ﷺ - بما يمكن أن يُسمى بقرار سياسي صارم، غير قابل للمراجعة، بما في ذلك ربا عمِّه العباس. ونزلت آية الربا، تحذر منه ومن عواقبه، كما تحذر من

أكل أموال اليتامى ظلماً وزوراً.. ومع هذا أيضا فقد كان أغلب هؤلاء المرابين والمستغلين لحاجة البسطاء بخلاء وشحيحين إلا ما ندر منهم، فنزلت (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) الهمزة: 1. فكانت هذه التعاليم في محصلتها النهائية تنظيماً دقيقاً لدورة رأس المال، وفق قاعدة لا ضرر ولا ضرار، وعملاً مبدأً: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) الحشر: 7.

هذا الغنى الفاحش الذي كَوَّن ارسنقراطيةً تجاريةً واسعة، وذات نفوذ كبير، جعلها تتجاوز كثيراً منظومة القيم الأخلاقية، فجاء الإسلام لمعالجتها، وبالتالي تضررت مصالح هذه العصابة المحتكرة؛ إذ الربا والإماء والعبيد والبغاء ركائز اقتصادية كبيرة بالنسبة لهم، مقابل عدم أي التزام أخلاقي تجاه الفقراء من الناس، من زكاة أو ضرائب أو عشور إلا ما ندر، على صفة الكرم الشخصي، ولمن حظي به، وهذا لا يكفي لتنظيم حياة الناس وضبط حالة المجتمع، فكان الاستكبار القرشي الرد العملي على الدعوة الجديدة وتعاليمها، كما رفضوا قبل ذلك "الحنيفية" التي كانت قد ظهرت قبل بعثة الرسول، ﷺ؛ لأن جوهر فكرتها التوحيد الذي يتنافى مع الشرك، وعبادة الأصنام، وقد كانت الأصنام المنصوبة حول الكعبة أحد عوامل الجذب التجاري بالنسبة للقرشيين، فحرصوا على الإبقاء عليها، على الرغم من تعددها؛ إذ كان لكل قبيلة عربية صنم منصوب بجانب الكعبة، تزوره القبيلة وتقدم له النذور والقرابين، فكانت الكعبة على مر السنة سوقاً دينياً عزز التجارة والريح للقرشيين؛ لذا قال الله عنهم، مقارناً إياهم مع ملوك اليمن الذين بلغوا من المجد والأبهة شأواً عالياً (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الدخان: 37.

والاستفهام هنا إنكاري تقريري.¹ ذلك لأن أهل اليمن قد بلغوا مبلغاً أكبر منهم؛ ومع هذا لم يتجاوزوا منظومة الأخلاق أو القيم، وكانت تجارتهم منظمّة، وفيها العشور وأنصاف العشور والضرائب التي يستفيد منها الفقراء، وتعود عليهم بالنفع؛ إذ أنّ المنظومة الثقافية قد شكّلت فيهم هذا السلوك، قادمة من دولة حضارة، وصف الله بلادها أنها طيبة، ووصف عرش ملكتها بأنه عظيم، وهو وصف أعظم العظماء؛ خلافاً لتلك العصابة التي أتت من العشيرة أو القبيلة بكل ما في القبيلة من تخلف وبدائية. وقد وصفهم بصفات أخرى أيضاً، كقوله تعالى: (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

¹ - تُبِعَ: اسم جنس، يطلق على من ملك اليمن. ولقب لمن يملك جميع بلاد اليمن، جَمِيْرًا وسَبًا وحضرموت، فلا يطلق على الملك لقب "تُبِع" إلا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة، كما يذكر كثير من المصادر.

الزخرف:58. وأيضا: (الأعرابُ أشدُّ كُفْراً وَنَفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) التوبة:97.

وإلى بداوة هؤلاء "الفرشيين" وتخلّفهم أشار شاعر النبي حسّان بن ثابت رضي الله عنه، بقوله:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب

أبينّا فصرتم مُعربين ذوي نفر

وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة

كلاما وكنتم كالبهائم في القفر

كما أشار - أيضا - دعبل بن علي الخزاعي، وهو المتشيع لآل البيت:

من أية ثنية طلعت قُريشٌ

وكانوا قبلنا مُتَنَبِّطِينَ

وخلال فترة الدّعوة الإسلاميّة في حياة الرّسول - ﷺ - وفترتي الخليفتين من بعده "أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب" رضي الله عنهما، خفتت ظاهرة الصّراع والنزاع بين أجنحة قُريش ممن قد أسلموا مع الرّسول واتبعوا دعوته، نظراً لتعاليم الإسلام الواسعة والكبيرة التي قَضت على مثل تلك العصبِيّات؛ لكنها عادت، أقوى من ذي قبل؛ ابتداء من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان مُهندسها الأكبر أبو سفيان، والد معاوية؛ حيثُ كان مُصرّاً على أن يكون الخليفة بعد الرّسول - ﷺ - عليُّ بن أبي طالب، الأقرب إليه نسباً من أبي بكر التميمي الذي استنكر خلافته، متعجباً: "أنى يكون هذا الأمر في أضعف الأحياء من قريش؟! وحين وصلت إلى الإمام عليّ كرم - الله وجهه - بعد عثمان كان السفينانيون والمروانيون أول من أشهروا السّيف في وجهه، طامعين أن يعود الملك لأميّة. "إنه الملك يا أميّة قد عاد، فعضوا عليه!"

ومن جديد تعودُ العصبِيّة البيئيّة داخل قُريش من هاشمية وأمويّة وزُبيرِيّة وعباسيّة وغير ذلك. ولم تكن حركة الخوارج في عهد الإمام علي - في أحد أهدافها - إلا خروجاً على العُصبة القرشيّة وثقافتها الإقطاعيّة، فالارستقراطية التي لا تزال في ذهن الكثير منهم، فكانت ضد الإمام علي كرم الله وجهه، وضد معاوية، وضد الزبيريين لاحقاً.

وبمقابل هذا وذاك - أيضاً - تشكّلت بصورة مُتسارعةٍ أفضليّة الهاشميين وأحقّيتهم في الحُكم، من وجهة نظر الهاشميين أنفسهم أولاً، فالمتعاطفين معهم ثانياً، كرد فعل لما ساد وانتشر بين بقيّة البيوتات والأفخاذ؛ لاسيّما مع القمع الأموي الذي نكّل ببني عمه من هاشميين وعباسيين وزبيريين، وكلهم مُتطلعون بقوة لاستعادة المجد السّليب، فسيرهُ عبد المطلب لا تزال على كل لسان، ناهيك عن مُحمّد - ﷺ - وهو أكبر الركائز التي يستندون عليها، مع مُراعاة أن هذه الأفضليّة التي يستندون عليها حتى هذه المرحلة ليست على الجنس أو السّلالة، فكلهم من سُلالةٍ وجنس واحد؛ بل على أساس المجد التّاريخي الذي كان لهم في السّقاية والحِجّابة، وما استتبعه من مكانة لدى العرب، نتيجة لهذا السّلوك، ولذلك التّمييز " القَصوي، الهاشمي، المُطلّبي! "

ومن الطبيعي أن يطالبوا به من جديد، أو يَعْمَلُوا على اسْتِرجاعِهِ وَقَدْ وجدوا أنفسهم خارجَ مُعادلات الزّمن بفعل التكتيك السّياسيّ الأموي. ولم تتبلور فكرة العرقيّة أو السّلاليّة إلا من وقت مُتأخّر. وتُحديداً من لدن زبديّة الجيل والديلم، فهادوية اليَمَن بصورةٍ واضحةٍ وصريحّةٍ و"يذكر المؤرخون - مُسلمون وغيرهم - أن التشيع السّياسيّ الأوّل عندما التقى بأصحاب عقيدة الحقّ الإلهي، وإبّان الفُتوحات، حصل هذا التبلور والمزج، فكان الفّارسيون يعتقدون في الاصطفايّة العرقيّة لسُلالة مُعيّنة. وعندما توسع الإسلام وانتشر، حصل هذا التلاقح، خاصّة أن الحسين بن علي - ﷺ - قد تزوج ابنة الملك الكسروي يزدرج "شهربانو" فقال بعض هؤلاء: إن أنقى سُلالة بشرية حينها هي السّلالة المنحدرة من سُلالة الحسين بن علي.. ابن فاطمة بنت رسول الله، ومن ابنة الملك يزدرج. فهذه السّلالة - كما يقولون - جاءت من دمين خالصين، الدم الفارسي الكسروي، والدم النبوي العربي، وبالتالي فهذه السّلالة أحقُّ بقيادة الأُمّة"¹

¹ - صحيفة الأهالي، الثلاثاء، 2009 / 11 / 24م. ضمن حوار أجراه المؤلف مع الدكتور عبدالله الشماحي.

المبحث الثاني

الإمام زيد بن علي.. فكره ومعارضته لبني أمية

أولاً: اسمه ولقبه ودعوته

هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه. ولد عام 80 للهجرة على الأرجح، ومات عنه أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره. كان والده علي زين العابدين، زاهداً عابداً، وذا مكانة كبيرة عند الناس. تلقى العلم على يد أخيه الأكبر، محمد الباقر الذي أخذ عنه - أيضاً - الإمام أبو حنيفة، أحد أكبر فقهاء المذهب السني المعروف.

التقى الإمام زيد بواصل بن عطاء في البصرة، وتدارس معه فكر المعتزلة وآراءهم، وطاف كثيراً في بلاد الحجاز والعراق، والتقى مشايخها وعلماءها، وتدارس معهم، وأخذ عنهم وأخذوا عنه. وكان يعود إلى المدينة، ويقضي أغلب وقته فيها، شبه منعزل عن الناس، وذلك لملاحقة عيون بني أمية له ولأسرته. ولهذا السبب أحبه الناس، ووجدوه قريباً من أنفسهم، خاصة مع شيوع فساد بني أمية الذي بدأ ينتشر بقوة. وقد كان والده - كما أسلفنا - ذا حظوة ومكانة عالية عند العامة والخاصة، لورعه وزهده وعلمه، تفوق ما عند أكثر خلفاء بني أمية أنفسهم، على مكانتهم! وتدل هذه الواقعة تلك على المكانة التي كان يتمتع بها علي بن زين العابدين، والد زيد، أن هشام بن عبد الملك قبل أن يتولى الخلافة كان يحج، فطاف بالبيت الحرام، ولما أراد أن يستلم الحجر الأسود لم يتمكن، لتزاحم الناس عليه، ولحظتها أقبل علي زين العابدين، والد الإمام زيد، وكان ذا مهابة ووقار، فتنحى له الناس ليستلم الحجر الأسود، فأحس هشام بن عبد الملك حزازة في نفسه، وتساءل في ازدراء: من هذا؟ وهو يعرفه! فرد عليه الفرزدق شعراً، وقد كان حاضراً:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
إذا رأته فُريشٌ قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
فليس قولك من هذا بصائره العَرَبُ تعرف من أنكرت والعجم

هذه الحظوة، وتلك المكانة من قِبَلِ العَامَّةِ للإمام زَيْدٍ وأُسْرته أغاظتْ بني أُمِّيَّةٍ كثيرًا إلى حدِّ التوجس منهم، خشية منازعتهم الخلافة، فأعملت قوتها بصورة جُنُونِيَّةٍ ضدهم، فكان لهذه القوة ردة الفعل أيضًا التي وإن كانت في بدايتها منضبطة - إلى حد ما - بتعاليم الشرع، وبقيم الدين والإنسانية، ولو في حدها الأدنى، إلا أنها قد خرجت بعد ذلك عن هَذَا الانضباط، حين ازداد القمع ضراوة في الأجيال التالية، وحين ازداد المتشيعون - أيضًا - للعلويين "آل البيت" وكان لهم تأثيرهم المباشر وغير المباشر على سِيَّاسَةِ المواجهة؛ لأن من السُّنَنِ الكونِيَّةِ أن يُخْلَقَ الشَيْءُ وَيُخْلَقَ نَقِيضُهُ معه. أيا كان هَذَا الشَيْءُ! لقد كان ذلك القمع، وكانت تلك المظالم الوحشيَّةِ الجُنُونِيَّةِ التي تعرض لها العلويون. وبالمقابل أيضًا كان التحدي والرفض والتصلُّب رد فعل مباشرًا لها؛ لاسيَّما وهم يرتكزون على دعامة القرابة العائلية من الرَّسُولِ الأعظم، صلى الله عليه وسلَّم.

يوما ما.. اضْطُرَّ الإمامُ زَيْدٌ أن يسافر من المدينة إلى دمشق عاصِمَةَ الخِلافةِ الإسلاميَّةِ يومها، ليشكو والي المدينة. وحين وصل بلاط الخلافة أراد هِشَامُ الخليفةُ إِذْلالَ زَيْدٍ وإِهانتَه؛ حيث طلب زَيْدٌ الإِذْنَ للدخول عليه، فلم يأذن له. وكتب له زَيْدٌ مرةً أُخرى، طالبًا الدخول عليه، فرد عليه الخليفة: ارجع إلى منزلك في المدينة. وكرر زَيْدٌ طلبَ الدخول حتى أذن له أخيرًا. وحين دخل لم يُفسح له في المجلس، فقال زيد: يا أمير المؤمنين ليس أحدٌ يكبر عن تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله. فقال هشام: أسكت. لا أمَّ لك. أنت الذي تنازعتك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة¹. فرد

¹ - بعض من الخلفاء العبَّاسيين كانت أمهاتهم غير عربيات، فقد كانت أم الخليفة أبي جعفر المنصور بربرية، وكانت أم الخليفة المأمون فارسية، وأم الخليفة المهدي رومية، وأم الخلفاء المقتدر والمكفي والناصر تركيات..

عليه زيد: إنه ليس أحدٌ أولى بالله، ولا أرفع درجة عنده من نبيِّ بعثه. وقد كان اسماعيل ابن أمة، وأخوه ابن صريجة، فاختره الله إليه، وأخرج منه خير البشر. وما على أحد من ذلك إذا كان جده رسول الله - ﷺ - وأبوه علي بن أبي طالب، كرم - الله وجهه - فقال هشام: أخرج. فقال: أخرج. ثم لا أكون إلا حيث تكره!"

إنَّ هذه السلوكيات، وذلك التعامل اللفظ من قبل الأمويين تجاه حُصومهم العلويين - كما أسلفنا - انعكس تمامًا في تعامل العلويين وأتباعهم حين بزغ نجمهم وأفل نجم بني أمية؛ لأن العنْف يُولِّد العنْفَ المضاد.

وعاد الشَّاب.. عاد زيد؛ ولكن لا كما ذهب.. عاد بنفسيةٍ أخرى، وتفكيرٍ آخر. فلم يكن ذلك الموقف من الخليفة إلا القطرة التي أفاضت الكأس، أو عود الثقب الذي أشعل فيه مارد الثأر لنفسه والانتصار لكرامته، مُتلمسًا مواطن الضعف وأوجه الفساد الذي شاع كثيرًا في حُكم بني أمية، ليكون مطيته في المعارضة والخروج.. عاد إلى الكوفة حيث أنصار آبائه وأجداده.. محرِّضًا على الخليفة، وداعيًا لنفسه بالبيعة، وقد أنشد:

بكرت تخوفي المنون كاني أصبحت عن عرض الحياة بمعزل
فأجبتها: إن المنية مهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل

وحشد أتباعه ومبايعيه، رافعًا شعاره: "يا منصور.. يا منصور" وبدأت المعركة؛ ولكن.. من غدر بجده الحسين بالأمس، ولم يعضدوه في اللحظات الحرجة، كرروها اليوم معه.. انفضَّ عنه أغلب مبايعيه ساعة ذروة المعركة التي انتهت بهزيمته؛ بل بقتله كما قُتل جده الحسين؛ ومصلوبًا أيضًا بكناسة الكوفة، بأمر هشام الخليفة عام 122هـ، لفترة، ثم أحرق الجثمان ودُر رماده في الريح!

بهذا الفعل لم يكن يدرك هشام الخليفة - وهو أحد صقور بني أمية الكبار - أن مشروع وقضية زيد بدأت من هذه اللحظة.. لحظة قتله وصلبه وحرقه وذّر رماده!
ولم يكن يدرك - أيضاً. أن الفكر لا يمكن القضاء عليه، أو إخماده بالسيف مهما كان أمره، جليلاً أو حقيراً¹!
ولم يكن يعرف أن العُنف وقوده العُنف المضاد!

إنها النفسية المتسلطة التي تعمى عن إدراك الحقائق، واستغوار القضايا، وسبر الوقائع.
تماماً.. تماماً.. مثلما لم يدرك من اعتبروا أنفسهم أتباع زيد، سابقاً، أو لاحقاً..!
هذه الحقيقة الواضحة للعيان، وضوح الشمس في رابعة النهار لم يدركها الكل! ومن يرفع سيف الغدر حقداً، فليستعدّ لقذيفة المدفع ثأراً.
وبحسب رسول حمزاتوف: إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضي، أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك. وهكذا دواليك!

عَشْر سنوات - فقط - منذ مقتل زيد، وتغربت شمس الخلافة الأموية بعظمتها وجلالها. لا لأنها قتلت الإمام زيد؛ ولكن لما تراكم قبله من الأخطاء، فكان خاتمة الأخطاء تقريباً، أي أن جثة زيد قد دفنت بعدها بسنوات قليلة جثة الإمبراطورية الأموية، وقد كانت الرجل المريض يوم قتله!²
ومن المهم الإشارة هنا إلى أن الزيدية في بداية نشأتها على يد الإمام زيد، غير الزيدية بعد ذلك، وغيرها اليوم شكلاً وموضوعاً..

لم يكن الإمام زيد صاحب مذهب فقهي يومها. ولم يكن اهتمامه بالجانب العلمي كثيراً، ولم يُشتهر بالتأليف أو التصنيف في حياته، حتى إن الكتاب المنسوب إليه "مسند الإمام زيد" وغيره مما تُسبب إليه، مشكوك في صحته له، خاصة أن المسند لم يذكر "السربلة" في الصلاة أو "حي على خير العمل" في الأذان التي يتبناها من يقولون عن أنفسهم إهم زيديون. ولو كان للإمام زيد مذهب فقهي مشتهر عنه في حياته، لبقى حياً إلى اليوم في بلاد العراق التي لا وجود فيها لهذا المذهب منذ

¹ - كلمة جليل، وجلل من الأضداد في اللغة. مثلها مثل: الجون، والبصير، والسليم.. إلخ
² - حين حكم العباسيون على أنقاض الأمويين بعد معارك دامية بينهم كانت براكين حقدهم تنفجر على الأمويين من قبلهم إلى حد نبش قبورهم وإحراق بقايا جثثهم بمن في ذلك هشام بن عبد الملك نفسه؛ حيث نبش قبره، وأخرجت جثته التي وجدت كما هي كما يقال، وجلده عبدالله بن علي العباسي ثمانين جلدة، ثم أحرقت الجثة، والله في خلقه شنون!!

قُتل. كما أنه لا وجود له في أية دولة إسلامية اليوم غير ما يدعيه اليوم بعض من اليمانيين أهم زيديون؛ بل في منطقة محدودة من اليمن. وكونه بقي في اليمن - وعلى الصورة الهادوية - فلأنه المذهب الرسمي للدولة الذي فرض بقوة الدولة، خلافاً لبقية المذاهب الأخرى التي انتشرت من حلقات الدرس، في الجوامع والأربطة العلمية. وهو ما يؤكد أن الإمام زيداً كان على مذاهب من قبله من الأئمة الكبار الذين سبقوه.

الإمام زيدٌ - بلغة اليوم - معارضٌ سياسيٌّ، واثار ديني ضدَّ فسَادِ بني أمية؛ فقد أمضى جل حياته - التي لا تزيد على اثنتين وأربعين سنة - في غمار السياسة ومشاغليها، وقُتل على يد خصومه السياسيين من بني أمية، وهو يُحاول إصلاح فسَادِ السُّلطة.¹ وقد كان أتباعه لفيماً مُتشكلاً من أكثر من اتجاه، وليس من آل البيت فقط. وكان من خرج معه أيضاً يُسمى زيدياً، سواء أكان من نفس الأسرة أم من خارجها.. بمعنى أن التسمية سياسية في معناها ومبناها، ولم تكن جماعة دينية، أو مذهباً فقهياً، أو رابطة شلالية، إلا أن الفكرة تحورت بعد ذلك وتغيرت إلى المفهوم السائد اليوم، ومعها. أيضاً. انصرفت الفكرة ودارت مع المسمّى.

وقد قُتل الإمام زيدٌ سنة - 122هـ، في أول خروج له على الخليفة هشام بن عبد الملك في الكوفة، بعد إبادة جيشه، عداً أربعين شخصاً نجوا من القتل، في معركة غير متكافئة بين الطرفين. كان سلاح زيدٍ وأتباعه الرماح والسيوف، وكان سلاح جنود الخليفة إلى جانب الرماح والسيوف "كتائب النشابة" التي لا تملكها إلا الدولة، وكانت رمية النشابة لا تخطئ مرماها، كما ذكر ذلك عبدالله البردوني..²

وعقب استشهادته تحلَّق أتباعه، وكونوا مدرسة سياسية بعد ذلك، وصار إماماً بعد مماته، أكثر مما كان إماماً في حياته، وذلك لهذه الأسباب:

¹ - حين سقط زيدٌ صريعاً، كان أول من وثب على جُثته ابنة أخيه، فلملمت أشتات ثيابه، وخاطبته قائلة: "واعماه.. ما ضرك لو ظلمت لزيدٍ المُصحف والمحراب حتى يأتي الله بالفرج؟! ألا ليت شعري، هل كنت ستبقى على المعهود منك لو حلبت مكان هشام؟ ما خفت عليك من القتل أكثر من خوفي عليك من سلطان الأمر؛ لأن السُّلطة غرارة مفسدة" قال الدكتور حسن إبراهيم في كتابه: تاريخ الدولة الفاطمية: "ليست ابنة أخي زيدٌ نادبة، إنما كانت حكيمة، لأنها طرحت نظرية في إفساد السُّلطة لأصحابها". انظر: اشتات، عبدالله البردوني، 195.

² - انظر: اشتات، عبدالله البردوني، د. د. ط: 2، 1995م. 195.

الأول: أن الإمام زيداً كان أول من خرج من العلويين "آل البيت" علنا على فسّاد الدّولة القائِمة، منذ مقتل جده الحسين بن علي؛ وقد ساعده على هذا الخروج، وعلى تحقيقه لذلك الحضور في نفوس أتباعه مكانة والده الكبيرة بين الناس الذي اشتهر بالورع والزهد وحُب النَّاس ومُسَاعَدَتهم أولاً، فشُيوع وازدياد فسّاد بني أمية بصورة أكبر من ذي قبل، أيام جده الحسين بن علي، عليه السلام.

الثاني: أن الظرفَ الرّمزيّ نفسه ساعدَ على تبلور مَدْرَسَة تَسْتَطِيعُ الإِفْصَاحَ عن نَفْسِهَا، والعمل لصلاح فكرتها بالعلن؛ كون خِلافة بني أمية كانت على وشك الأُفول، وكان الخليفة هِشَام بن عبد الملك آخر فُحول السّاسَة الأمويين الأقوياء، ومَن بعده هُم دونَه دهاء وسياسة وحنكة، فبدأت الدّولة في الضّعف والاضطراب، ما مَكَّن لهذه المدرسة أن تنمو وتزدهر، دون أن تَسْتَطِيعَ آلُه الحُكم الأموي قمعها. على العكس مثلاً من طَبِيعَة الفِترَة السِّياسِيَّة التي قُتل فيها الحسين بن علي أيام يزيد، في العاشر من محرم، سنة 61هـ. وهي فترة بداية الحُكم الأموي، فتتالت صُقور الحُكم الأموي وفحوله بعده، ابتداءً بمروان بن الحُكم، فابنه عبد الملك بن مروان، ومن تبعهما، وجلهم أحكموا قبضتهم وحصروا خصومهم بقوة وعنف، كما حاربهم أيضاً بالمال؛ بل لقد كان المال أمضى سلاح أموي في وجه حُصومهم، على العكس من عبدالله بن الزبير الذي ناوهم الحُكم في الحِجاز، إلا أنه اشتهر بالبُخل، ففرَّ منه الناس، وخاصة الشعراء فرارهم من المجدوم. وتذكر المصادر التَّاريخِيَّة أنه لم يكن له من الشعراء إلا الشّاعر عبدالله بن قيس الرُّقِيَّات، وهو فُرشي، مع أنه لازم مصعب بن الزبير أكثر من عبدالله بن الزبير الخليفة، ومدحه أكثر من مدحه الخليفة "الحجازي"! ففاخر بقريش ومجدها، ودعا إلى وحدة صفها من جديد، وقد رآها مزقا بين أموية وزبيرية وهاشمية وعباسية..¹

¹ - لقب بلقب الرقيات، لتشبيهه بثلاث نسوة سُمّين جميعاً رقية، وكان هواه في رقية بنت عبدالواحد، في الرقة. ومن طريف ما يتعلق به أن قصده يوماً الشّاعر فضالة بن شريك، وهو عابر سبيل، فطلب منه ناقة لمواصلته مسيره، فلم يعطه، فأنشأ:

شكوت إليه أن نَقِبتَ قَلوَصِي فَرَدَّ جَوَابَ مَشْدودِ الصِّفَادِ
لقد أَسَمَعْتُ لَوناديت حياً ولكن لأحياة لمن تنادي
يَضُنُّ بِنَاقَةٍ وَيَرُومُ مَلَكاً مُحَالٌ ذَلِكَمُ غَيْرُ السَّدَادِ

الثالث: عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَقْوَلِ نَجْمِ الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ، وَصُعُودِ نَجْمِ الْعَبَّاسِيِّينَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ حِدَّةِ الصِّرَاعِ وَالْعِدَاءِ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْحُكْمَ الْعَبَّاسِيَّ قَدْ شَاكَلَ الْحُكْمَ الْأُمَوِيَّ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَظَاهِرِهِ وَمَلَامِحِهِ.. بِمَعْنَى أَنْ فَسَادَ السُّلْطَةَ السِّيَاسِيَّةَ ظَلَّ مُسْتَمِرًّا، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ فَسَادِ بَنِي أُمَيَّةٍ، أَوْ فَسَادِ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ النَّفْسَ الثَّوْرِيَّ مُتَوَاصِلًا لَدَى أَتْبَاعِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ، نَاهِيكَ عَنِ الْإِقْصَاءِ وَالتَّهْمِيشِ وَالْقَمْعِ الَّذِي لَاقَاهُ أَتْبَاعُهَا، فَكَانَ الْخُرُوجُ مُسْتَمِرًّا، وَكَانَتْ مَوَاقِفُ رُؤُوسِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ شَجَاعَةً وَمَحَلًّا لِإِعْجَابِ الْعَامَّةِ الَّذِينَ تَوَافَدُوا إِلَى صَفْهَا، فَتَوَاصَلَ الْخُرُوجُ بِالْخُرُوجِ، وَالتَّمْرِدُ بِالتَّمْرِدِ عَلَى مَرِّ تَارِيخِهِمْ. وَمَنْ يَتَأَمَّلُ تَفَاصِيلَ الْمَرْحَلَةِ اللاحِقَةِ يَلْحِظُ سِلْسِلَةً مُتَوَاصِلَةً مِنَ التَّمْرِدَاتِ وَالْإِنْقِلَابَاتِ الَّتِي لَمْ يَحْتَبْ أَوَارِئُهَا أَوْ تَنْطَفَى نِيرَانُهَا.. وَهَؤُلَاءِ أَبْرَزُ مَنْ خَرَجُوا عَلَى الْحُكْمِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ..

- 1- مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ، ذُو النَّفْسِ الزُّكِّيَّةِ.
- 2- إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ، أَخُو مُحَمَّدٍ.
- 3- الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ، الْمَلْقَبُ بِقَتِيلِ فَخِ.
- 4- يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، صَارَ إِلَى الدِّيْلَمِ.
- 5- مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْمَثْنَى خَرَجَ بِ"تَاهَرْت" أَوْ "تِيهَرْت" وَهِيَ مَنْطِقَةٌ فِي الْجَزَائِرِ الْيَوْمِ.
- 6- مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ.
- 7- مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.
- 8- إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، خَرَجَ مَرَّةً بِالْيَمَنِ، وَمَرَّةً بِالْعِرَاقِ.
- 9- مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، خَرَجَ بِبَلَدَةِ يُقَالُ لَهَا طَالِقَانَ، فِي خِرَاسَانَ.
- 10- مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ الْمَلْقَبُ بِ"الدِّيْبَاجِ" خَرَجَ دَاعِيَةً لِمُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، فَلَمَّا مَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ دَعَا لِنَفْسِهِ.

11 - الأفتس خرج بالمدينة داعياً لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، فلما مات مُجَّد بن إبراهيم دعا لنفسه.

12 - علي بن مُجَّد بن عيسى بن زَيْد بن علي بن الحسين، خرج في خلافة المعتصم.

13 - الحسن بن زَيْد بن الحسن بن علي أبي طالب، خرج بطبرستان سنة ٢٥٠ هـ.

14 - الحسن بن أحمد بن إسماعيل، من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالكواكبي، وخرج بقزوين.

15 - أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زَيْد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، خرج بالكوفة أيام المستعين.

16 - الحسين بن مُجَّد بن حمزة بن عبد الله من ولد الحسين بن علي وخرج أيام المستعين أيضاً.

١٧ - ابن الأفتس، خرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين.

١٨ - إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم من ولد الحسن بن علي، خرج بالمدينة، سنة 250 هـ، فغلب عليها، وتوفي عام ٢٥٢ هـ.

19. مُجَّد بن يوسف، أخو إسماعيل بن يوسف، وقُتل كثيرًا من أصحابه وهرب مُجَّد فمات في هربه.

20 - علي بن مُجَّد بن علي بن عيسى بن زَيْد بن علي، خرج في البصرة، وأنصاره الزنج، وغلب على البصرة سنة ٢٥٧ هـ وقتل سنة ٢٧٠ هـ.

وغير هؤلاء الكثير، والكثير ممن حاول ولم يقدر على الخروج، وأيضًا من لحق هؤلاء من الخارجين بعد ذلك وإلى اليوم.

إنه نَفَسٌ متواصل من الحرب، لم ينقطع، ولن ينقطع على المدى القريب أيضًا، كما يبدو، حتى تترسَّخ بُنية الدولة المدنية.. دولة العدل والحرية، الحميمة بقوتين: قوة العدالة والمساواة للجميع بلا استثناء، وقوة رادعة على المتمردين والطامحين إلى الحكم بلا شرعية أو مشروع. وحتى لا تنقشع نعمة العصبية السلالية من جديد التي ترى في سلالتها مؤهلاً كافيًا للحكم والتسلط؛ خاصة مع شيوع مفاهيم الديمقراطية والعقد الاجتماعي والحريات السياسية والمدنية.. إلخ. وإلا فإنه الانتحار الجماعي الذي يُقدم عليه ذوو الطموح الجامح بلا رزانة أو حكمة أو تعقل على الدوام، أشار إليه يوما ما عبدالله بن حمزة:

أليس أبونا هاشمٌ شدَّ أزره وأوصى بنيه بالطَّعان وبالضرب؟

فلسنا نملُّ الحربَ حتى تملنا ولا نشتكي ما قد يكون من الحرب

وقد شكَّل هذا الخروج بهذه الطريقة المجازفة - في أغلبها - مواصلة لما يعتبرونه نضالاً، أو أمراً بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإن كان الوصول إلى الحكم هو الغرض الأساس من وراء ذلك، مهما تخفت وراءه الشعارات، لأنه لا مُنكر عندهم يعدلُّ مُنكر عدم حُكم آل البيت؛ فلم تنقطع الفكرة التي طالما تترسَّوا خلفها، ولم ينقطع النضالُ بشأنها، أو محاولة التوصلِ إليها، فكانت هذه السِّلْسِلَةُ من الخروج هي المحفز لكل الأُحفاد، ولتصنع لكل جيلٍ منهم مظلمةً إنسانيَّة، تكون هي الدافع الرئيس للوصول إلى ما يعتبرونه المظلمة السِّياسيَّة وهي الحُكم، وإن قالوا إنهم لا يريدون الحكم لذاته، فهذا محض افتراء وخذاع، لأن آية عَصَبِيَّة لم تقم إلا من أجل الحُكم، كما ذكر ابن خلدون في مقدمته. وهذه العَصَبِيَّة هي أمُّ العَصَبِيَّات وأقواها وأكبرها، خاصَّةً أمَّا تقوم على النَّسب، وفي النسب ذاته أقوى العَصَبِيَّات وأشدها، مع الإشارة هنا إلى أن ثمة آراءً لبعض العلماء من الزيدية/ الهاديَّة تقررُ وجوب غلبة تقدير الانتصار، ونجاح الثَّورة حتى لا تكون مغامرةً، ضرُّها أكثر من نفعها؛ إلا أن هذا الشرط قد بقي جانباً، ولم يُؤخذ في الاعتبار لدى الثائرين أو الخارجين، مثلما هي النَّظَرِيَّة من أساسها!

ثانياً: آراؤه في الإمامة

خاض الإمامُ زَيْدٌ معركةً فكريةً مع المتشددين من العلويين آنذاك، الذين رأوا أن الإمامة بعد رسول الله من حقِّ الإمامِ عليٍّ بنصِّ دينيٍّ، داحصاً فكرة الوراثة في الخلافة/ الإمامة من أساسها، مثلما رفض فكرة العِصْمة أيضاً، ومقرراً بشرعيَّة الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأيضاً عُثمان بن عفان قبل الإمام علي، كرم الله وجهه. وكان له موقفه الخاص ممن سمَّاهم يومها "الرافضة" والذين قال عنهم: الرافضة حربي وحرب أبي في الدنيا والآخرة. مرَّقت الرافضة علينا، كما مرقت

الخوارج على علي¹ وإن كان الإمام عليّ - من وجهة نظره - أفضلهم. وقد أشار الدكتور أحمد مجّد الدغشي إلى فتوى منسوبة للإمام زيد تُجيز الإمامة في فُرَيْش كلها، كما هو الشّأن لدى أهل السنة. وإلى جانب رفضه فكرة الوراثة في الخلافة أو الإمامة، وفكرة العِصمة التي ذهب إليها البعض، رفض - أيضاً - فكرة المهدي المنتظر، أو الإمام المستور، مؤكداً أنّه لا بد أن يخرج داعياً لنفسه.²

وهنا نتوقف لتساءل عن فكرة "الاصطفائية العرقية" ومن أول من قال بها، وكيف انتشرت لدى أتباع مدرسة الإمام زيد.³

يرى الإمام أبو زهرة أن الجارودية قد خالفت الإمام زيداً في فكرة المهديّة والرجعة؛ بل خالفوه أيضاً في تأييده خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ورفضوا ولايتهما، وقالوا إن أولوية الإمام علي - كرم الله وجهه - هي أولوية جاء بها النص، لا أولوية أفضليّة، ومؤهلات ذاتية، مشيراً إلى تأويلاتهم التي ذهبوا إليها.⁴ وهي تأويلات بعيدة ومتكلفة لا تتسم مع نهج وفكر الإمام زيد الذي يأخذ بالكتاب والسنة، مثله مثل أي مذهب سني.. إن خالف أحد أئمة الأعلام وافق الآخر. كما يقول بالاجتهاد والقياس والاستحسان والمصالح المرسلّة، وهكذا..

قال ابن خلدون مستقراً آراء الزيدية: "ومن الشّيعة من يقول: إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين عليّ بالوصف لا بالشخص، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه، وهؤلاء هم الزيدية، ولا يتبرءون من الشيخين، ولا يغمطون في إمامتهما، مع قولهم بأن علياً أفضل منهما؛ لكنهم يُجوّزون إمامة المفضّل مع وجود الأفضل.."⁵

¹ - العلم الشّامخ في تفضيل الحق على الأبياء والمشايخ. العلامة المحقق المجتهد الشّيخ صالح المقبل اليمني، المكتبة اليمينية للنشر والتوزيع، صنعاء، ط: 2، 1985م، 74.

² - الحوثيون.. الظاهرة الحوثية، دراسة منهجية شاملة، أحمد محمد الدغشي، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب اليمنية، ط: 1، 2010م، ص 11، فما بعدها.

³ - انقسمت الزيدية إلى أكثر من فرقة بعد أن بدأت بالتبلور كمدرسة سياسية وفكرية، أشهر هذه الفرق: الجارودية، والبترية الصالحية، والبترية الجريرية، وتنتسب هذه الفرق الثلاث إلى أسماء مؤسسيها الذين عاشوا في القرن الثاني الهجري؛ فالجارودية تنتسب إلى أبي الجارود، المتوفى سنة 150هـ، والبترية الصالحية تنتسب إلى الحسن بن صالح، ت: 168هـ، والبترية الجريرية تنتسب إلى سليمان بن جرير. وهناك فرق أخرى إلا أنها غير مشهورة كثيراً، ولم يتبلور لها أتباع بعد تأسيسها..

⁴ - تاريخ المذاهب الإسلامية، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، د.ن. د.ت. 653.

⁵ - مقدمة ابن خلدون، العلامة ابن خلدون، مطبعة أمير، إيران، 197.

وقد قال نشوان بن سعيد الحميري، وهو من كبار أعلام الرِّبْدِيَّةِ في هذا الأمر: "من كان أتقى النَّاسِ وأكرمهم عند الله، وأعلمهم بالله، وأعلمهم بطاعته، كان أولاهم بالإمامة والقيام في خلقه، كائنًا من كان منهم، عربيًّا أو أعجميًّا"¹

وهذا ما جعل غُلاةَ الهَادَوِيَّةِ المعاصرين له - ومن بينهم الإمام عبدالله بن حمزة، واللاحقين له، وهم كثر - يُجردونه من زبديته، وربما كَفَرُوهُ وفسَقُوهُ وطعنوا في دينه، لخروجه عن النظرية، مع أن الأمر لا يستحق كل ذلك، فما قاله مجرد رأي، قال به الكثير من قبله، مثلما قالت به الأكثرية من بعده أيضًا. وبحسب الأديب أحمد بن مُجَدِّدِ الشامي فإن نشوان بن سعيد الحميري أول من نادى بالنظام الجمهوري في اليمن، من أجل إقامة حكم صالح، يرتكز على العدالة الاجتماعية الإسلامية. ومما قوبل به، بسبب دعوته الإصلاحية هذه تلك القصيدة الشهيرة للإمام عبدالله بن حمزة، ومنها:

ما قولكم في مؤمن صوام	موجِّد مجتهد قوام
حبر بكل غامض علام	وذكره قد شاع في الأنام
لم يبق فن من فنون العلم	إلا وقد أمسى له ذا فهم
وهو إلى الدين الحنيف ينتمي	محكم الرأي صحيح الجسم
وماله أصل إلى آل الحسن	ولا إلى آل الحسين المؤمن
بل هو من أرفع بيت في اليمن	قد استوى السرّ لديه والعلن
ثم انبرى يدعو إلى الإمامة	لنفسه المؤمنة القوامه

¹ - محمد سالم، عزان مجلة المسار، الصادرة عن مركز البحوث والتراث اليمني، ع:9، 2002م، 32.

ما حكمه عند ثقة الفضل؟
لما تنأى أصله عن أصلي
ولم يكن من معشري وأهلي
أهل الكسا موضع علم الرسل
أما الذي عند جدودي فيه
فيقطعون لسنه من فيه
ويتمون ضحوةً بنيه
إذ صار حق الغير يدعيه
وأحبط الأعمال تلك الصالحة
بهذه الدعوى الشنيع الفاحشة
وهي لأرباب العقول واضحة
بالحجج الكبار اللائحة

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من أنَّ نظريَّة الهادي غير نظريَّة الإمام زيد، ما ذكره نشوان الحميري نفسه الذي أكد أنه لم يخرج عن مذهب آل البيت، وأنه زيديٌّ ذائدٌ على زيدٍ ومذهبه، ولن يتزحزح عنه. ويبدو أنه قد قال هذا الرد عقب الهجوم الكبير الذي لاقاه بسبب رأيه، فخرج على النَّاس مؤكداً زيديَّته وموالاته آل البيت، وذلك في قوله:
وذكرتُ آل مُجَّدٍ ووَدَادِهِمْ فرض علينا في الكتاب مؤكَّد

وأنا المناضلُ ضدكم عن دينكم
والله يشهدُ والبرية تشهد
لا أستعيضُ بدين زيد غيره
ليس النحاسُ به يقاس العسجد

متهمكما في خصومه المتعصبين الذين لم يخضعوا للدليل، بقدر ما خضعوا للموروث المتقادم،
بقوله:

إذا جادلت بالقرآن خصمي
أجاب مجادلاً بكلام "يحيى"

فقلت: كلام ربي كان وحيًا

أتحسب قول "يحيى" كان وحيًا؟!!

مضيفًا، وعلى نحو آخر:

حصروا الخلافة في قُرَيْشِ ضلة

هم باليهود أحق بالإلحاق

جهلا كما حصر اليهود ضلالة

إرث النبوة في بني إسحاق

كما قال في قصيدة أخرى:

مهلاً قُرَيْشِ لا أبًا لأبيكم

مهلاً وهل فيكم إله يُعبد؟!!

منكم نبي قد مضى لسبيله

أزعمتمو أن النبوة سَرمَد؟!!

وكذا ذهب الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ت: 840هـ؛ حيث قال: "إن قيام الدليل الشرعي على وجوب الإمامة كما يدل عليه، فهو يدل على جواز نصب كل من صلح للقيام بالمقصود منها، ويحصل به العلم بذلك، قرشيًا كان أو غيره، هاشميًا كان أو غير هاشمي"¹ وإلى هذا مال العلامة الحسن بن أحمد الجلال 1084هـ. والمقبلي 1108هـ، رحمهما الله. وهما من كبار أعلام الزيدية وثقاتها؛ حيث قال العلامة القبلي، في معرض الرد على من قال بوجوب الإمامة في علي وبنيه: ".. ونقول: كلامهم في تقديم علي - عليه السلام - وأنه منصوب عليه بالإمامة لا معنى له بهذه اللفظة.."²

ومن العلماء المعاصرين من أعلام الزيدية، ممن ارتأى نفس الرأي مُجَّد بن مُجَّد المنصور، وحمود بن عباس المؤيد، وأحمد مُجَّد الشَّامي، وقاسم بن مُجَّد الكبسي، وذلك في العام 1990، عقب

¹ - محمد سالم عزان، مرجع سبق ذكره.

² - العلم الشَّامخ، سابق، 262.

تحقيق الوحدة اليمنية، والانتقال إلى النظام الديمقراطي؛ حيث رأوا في بيان نُشر يومها أنَّ الولاية العامة حقٌّ لكلِّ مُسلم كفاء تختاره الأمة.¹

وتجدُر الإشارة هنا إلى أن بعضًا من هؤلاء العلماء هم قادة حزيون كالعلامة أحمد مُجد الشامي، أمين عام حزب الحق يومها، وقاسم بن مُجد الكبسي، الأمين العام المساعد، وطبيعة الأحزاب منطلقة من الأساس الجمهوري، والنظام الديمقراطي اللذين يعتمدان مبدأ الكفاءة في الولاية العامة المنصوص عليها دستوريًا، واللذين لا يقران لا نظرية البطين، ولا القرشية.

وقد عزز العلامة الشامي رأيه بمحدث آخر لصحيفة البلاد اللبنانية، يحمل - ظاهرًا - طابع الفتوى الشرعية، بقوله: " .. قد أصدرنا بيانًا، وأوضحنا فيه أن الإمامة صيغة تاريخية مضي وقتها وانقضت، وما بقي لها مكانٌ في هذه البلاد، واعتبرنا أن قائد الأمة هو أجبرها، وليس إمامها - "إن خير من استأجرت القوي الأمين" - فإذا صلحت أمور الأمة وسلمت شئونها، فعلى أي يد كانت، لا نشترط فيها عنصرًا ولا نسبًا، ولا شيئًا من ذلك، المهم سلامة شئون الأمة"²

وأورد الشَّيخُ مجد الدين المؤيدي، هنا فتوىً خجولة، بعد كلام طويل، فيه ما فيه من الغموض والمناورات الذكية التي أشار إليها. وذلك بقوله وهو يتحدث عن آل البيت: " .. فمسألة المنصب عندهم استدلالية، وليست من ضروريات الدين"³

¹ - صحيفة الأمة، الناطقة باسم حزب الحق، العدد 26، الخميس 19 ربيع الثاني، 1413هـ، الموافق، 1992/10/15م.

² - مجلة البلاد اللبنانية، العدد 56، جماد الأولى، 1412هـ، الموافق تشرين ثاني 1991م. وعلى ما يبدو فإجابة العلامة الشامي هنا قد صيغت بألفاظ حصيفة، وذكية جدا، يُفهم للقارئ الجيد من بين مسامات حروفها ومدلولاتها أن البيان السياسي غير الفتوى الشرعية.

³ - التحف شرح الزلف، تأليف الإمام الحجة المجدد للدين، مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي، مكتبة أهل البيت، ط:4، 2014م، 451. تحت عنوان "بحث مفيد" وبعد ذكره ما حل من الشنآن والزور والبهتان بحق آل البيت من قبل عصابة من الأشرار، كانوا من المتشدين للحكم الإمامي فلما أمنوا السطو أساءوا لآل البيت.. ذكر أن القول بالإمامة في منصب مخصوص هو قول علماء الأمة المحمدية من زيدية وشافعية وحنفية ومالكية وحنبلية، وذلك المنصب لقريش، وفقا لنص "الأئمة من قريش" إنما حصل الاختلاف بعد ذلك في الاستحقاق داخل البيت القرشي نفسه، أهو لقريش عامة أم لأبناء الحسين خاصة؟! مضيًا: أنه لهذا السبب سلم أهل المدينة الأمر يوم السقيفة للقريشيين، وعملت بذلك الأمة حتى ظهر الخوارج المارقون من الدين كما قال. متسانلا في صيغة استنكارية تقرر أحقية أهل البيت بذلك: "فإن كان القول بالمنصب استبدادا، فقد ضلت الأمة وحاشاها. فما ذنب آل رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إذن، ولهم على القول بأنها فيهم براهين معلومة، كخير الثقلين وغيره.. ولكن هؤلاء لا يرجون على دلالة، ولا يلتفتون إلى كتاب ولا سنة؛ إنما يأخذون تعاليمهم من القوانين الكفرية.. " التحف، 451.

وهذا يعني أن الإمامة عندهم - كما هي عند غيرهم - ليست أصلًا من أصول الدين؛ بل من فروعِهِ، خاصّةً أنّ القرآن الكريم لم يفصّلها، وفصّل ما دون ذلك من القضايا، وهذا رأي الصّاحبة من الزيدية؛ أمّا الجارودية فتري أن الإمامة أصلٌ من أصول الدين، ومن لم يقل بذلك فدمه حلال، ولا تجوز الصّلاة خلّفه أبداً..

وحوار الإمام زيد مع الخليفة هشام بن عبدالمملك يؤكد أن الإمام زيدًا ليس مع مسألة النسب في الإمامة، وأن الشرط يتعلق بالكفاءة والقُدرة على الأداء.

وقد أورد الباحثة محمد عزان نصًا للإمام زيد قال فيه: "إن قالوا فمن أولى الناس بعد الحسين؟ فقولوا: آل محمد ﷺ، أولادهما أفضلهم أعلمهم بالدين، الداعي إلى كتاب الله، الشّاهر سيفه في سبيل الله"

وفسر عزان ذلك بقوله: إن الإمام رآه اعتبارًا مناسبًا، لا شرط صلاحية. وهو ما فهمه كثير من العلماء والباحثين عنه، حتى قال العلامة الشّماحي: "كان الإمام زيدٌ أبعَدَ نظرًا من الهادي، فقد أبا أن يأخذ بنظرية حصر الخِلافة على أبناء جدته فاطمة الزّهراء، ثم يربط بهذه الإمامة مذهبه، ويبي عليه دعوته ودولته. وأن هذا الرأي يأتي مع طُغيان نظرية قرشية الخلافة ثم أمويتها، وأن من توافرت فيه الشُّروط المعترضة من أبناء الحسنين، وكان على جانب كبير من الفضل والكفاءة، فإنه أولى بالإمامة من غيره، نظرًا للاعتبارات السّائدة في عصره"¹

أي أنّ قوله رد فعل مُباشر لرأي سائد يومها، وهو رأي القرشية الذي تمسك به بنو أمية، ورأي بني أمية - يومها - قائم على أساس العصبية ليس إلا؛ والعصبية أمرٌ مذموم في الإسلام، وما بُني على باطلٍ فهو باطل، كما أنه ما قيس على باطل فهو باطلٌ أيضًا. ولو كان هناك نصٌ جلي للإمام علي في الوراثة لكان أشار إليه الإمام زيدٌ، ولكن استدل به على أحقيته - أيضًا - أمام هشام بن عبد الملك في مجلسه.

¹ - اليمن الإنسان والحضارة، القاضي عبدالله بن عبدالوهاب المجاهد الشماحي، منشورات المدينة، ط:3، 1985م، 116. وانظرها أيضا في: تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي الأول، أحمد محمد الشامي، دار النفائس، منشورات العصر الحديث، بيروت، ط:1، 1987م. 1/112. وأيضا: محمد عزان، مجلة المسار، 2002م، 26.

ولعل المتابع لما جرى بين الصحابة منذ اللحظات الأولى ليوم السقيفة وما تلاه، يدرك - بلا عناء - أن المسألة في بعدها الحقيقي سياسية/عصبية، ولا علاقة للدين بذلك. ألم يكن أبو سفيان يوم السقيفة مع أن يكون علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - الخليفة، معترضاً على أبي بكر الصديق بقوة؟!

لقد ثار غضبه وسخطه، قائلاً: "ما بال هذا الأمر في أقل حي من فريش؟! مضيئاً: "إني لأرى عجاجة لا يُطفئها إلا دم. يا آل عبد مناف ما بال هذا الأمر في أقل حي من فريش؟! ثم انطلق إلى علي بن أبي طالب، وقال له: ابسط يدك أبايعك، فو الله لو شئت لمأثماً عليه - يقصد أبا بكر - خيلاً ورجلاً¹ وغير أبي سفيان كثير ممن شكلوا عليه كتلة ضغط أجّلت عملية مبايعة أبي بكر لأشهر، اختلف الرواة في تحديدها، وعلى الأرجح فإنها ستة أشهر. وفي ذلك قال أبو سفيان شعراً:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم
ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم وإيكم
وليس لها إلا أبو حسن علي
أبا حسن فاشدد بها كف حازم
فإنك بالأمر الذي يُرتجى ملي

والواقع أنه لو لم تكن العصبية الأموية ومرجعيتها القرشية لما كانت فكرة "الحسنية/الحسينية" أو "البطين" من أساسها؛ إذ لم تأت الثانية إلا رد فعل على الأولى. وربما كان أبعد من هذا ما تبناه عبدالله بن الزبير، زعيم الارستقراطية القرشية، أثناء حكمه، حين أسقط اسم النبي - ﷺ - من منبر الخطبة يوم الجمعة، ولم يعد يذكره، فلما عاتبه الناس على ذلك، قال: رأيت هذا الحي من بني هاشم إذا سمعوا ذكره اشربت أعناقهم، وأبغض الأشياء إلي ما يسرهم، فقد كان يكره الأمويين والهاشميين معاً..

¹ - الأحكام السلطانية، للماوردي، 10.

وباختصار.. فإنَّ هذا من مآسي الحكم الفردي والاستبداد السياسي الذي جثم على صدر أمتنا طويلاً، ولا يزال. ولن أطيل الحديث بشأنها فقد تكلم الباحثون كثيراً، بما يُغني عن التكرار، ولا بن خلدون فيها تخريج أصيل وترجيح معقول.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن القرشيين عامة لم يكن لهم اهتمام بالعلم والتعلم كاهتمامهم بالتجارة والإثراء؛ سواء من قبل الإسلام أو بعده، والعلم أحد المؤهلات الرئيسة والمهمّة للتجارة وللحكم، فاستعاضوا عنه بالبيئيّة أو النّسب، وعَضُوا عليه بالنواجذ طويلاً، حتى صار عقيدة، ومن الدين - أيضاً - في نظر البعض!

وقد ذكر الجاحظ أن القرشيين لم يكونوا يتواصون إلا بعلم الأخبّار أو الأُنساب، وما عداه من الزيادة غير الضرورية، مشيراً إلى حادثة طريفة تعكس هذه الحالة لديهم بقوله: "مرَّ أحدُهم بفتى قرشي يقرأ في كتاب سيبويه، فقال: أفٍ لكم! علم المؤدّين وهمة المحتاجين"¹

ولهذا السبب كانت نسبة كبيرة من الموالي هي التي نبغت في العلوم بمختلف صنوفها، واستطاعوا أن يحفظوا للأمة الإسلاميّة تراثها الفقهي والأدبي والحديثي، وكل فروع العلم مع آخرين أيضاً من غيرهم؛ ففي المدينة - على سبيل المثال - كان من سادة العلماء فيها سلمان بن بشار، مولى ميمونة بنت الحارث، توفي سنة 103هـ، ونافع مولى ابن عمر، وربيعة الرأي، وهو من شيوخ الإمام مالك. وفي مكة مجاهد بن جبر، مولى قيس المخزومي، توفي سنة 102هـ، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح. وفي البصرة الحسن البصري، وأبوه مولى زيد بن ثابت. وفي الشّام مكحول، توفي سنة 118هـ، وفي مصر يزيد بن حبيب "بربري" وهو شيخ الليث بن سعد، وغيرهم كثير.

والواقع أن فريشاً حتى فترة عصر صدر الإسلام كانت حديثة عهدٍ بالحضارة والتّمذّن الذي لم تألفه، أو تُكوّن به موروثاً سياسياً وحضارياً تستند إليه.

ويمكن القول بأن كل الفترة الزمنيّة التي تُحسب لهم في مجالي التجارة والسياسة بفهمومها القبلي والبدائي لا تزيد على مئتي عام. ومثنا عام في عُمر الشعوب والدّول ليست إلا كغمضة عين؛ إذ كانت مُوغلةً في البداوة والتخلف حتى عهد قُصي ابن كلاب، كما أشرنا، وكما الملح هو في

¹ - البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، بغداد، 1960م، 1/42.

خطابه للقرشيين أنفسهم، ولم يكن لهم حَضَارَةٌ وموروثُ اليَمَن، أو مصر، أو بابل، أو آشور، على الرغم من توسُّط جُغرافيتها لهذه الحَضَارَات كلها.

وقد ذُكر ابن الكلبي في مثالهم - كما ذكر في مثالب العَرَب كلها - ما لا يليق بالإشارة إليه هنا؛ لأنَّ في النَّفس منه ما فيه! هذا إضافة إلى مَصادر أخرى جعلتهم عُرَاءَ في عَرَاءٍ من مَظاهر الحَضَارَةِ والمدنيَّة والرقي الاجتماعي الذي أَلْفَنَهُ الشُّعوب من حولهم، في الوقت الذي كانوا عَصِييين على التحضر والتمدن.

وَعُودَةً إلى الهادويَّة التي كنا قد أشرنا إليها سابقاً.. فالواقع أن الهادويَّة غيرُ الزَّيدِيَّة، أو كما قال البردوني: "فإن الهدوية كانت امتداداً تحريفياً للزيدية، دون أن يؤدي التحريف أو الامتداد إلى حركة تطورية، فقد حرَّف الهدويون حُكْم المفضول على الفاضل عند الزَّيدِيَّة إلى أحميَّة آل عليِّ بالحُكْم دونَ غيرهم، باعتبار أنَّ النَّسب إلى علي وفاطمة أعطاهم الأحميَّة لا الأولويَّة. وهذا خروجٌ على الزيدية؛ لأنَّها ترى للعلوي الأولويَّة، وتُجيز لغيره الحكم مع الصَّلاحية، فقد تجاوزت الهدوية الزَّيدِيَّة في أهم أصول الحُكْم، بالإضافة إلى الاختيارات المخوَّلة للإمام؛ فقد كانت اختيارات الهادي يحيى بن الحسين شبه مستقلة عن الأصل الزيدي، بانتمائه إلى الاعتزال، ولكن بدون بُعدٍ فلسفي.. ومن هنا تحوَّلت الفلسفة السِّيَاسِيَّة إلى سِيَاسَةٍ مُباشرة، وتحوَّل عِلْمُ الكلام وما امتدَّ منه من فلسفةٍ إلى ما سُمِّي أصول الدين.."¹

¹ - اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، 464.

المبحث الثالث من التَّنْظِيرِ إِلَى التَّطْبِيقِ الإمام الهادي.. عينٌ على السُّلْطَةِ وعينٌ على المذهب

الفكرة وعوامل النشوء

النَّظَرِيَّةُ الهَادَوِيَّةُ فِكْرَةٌ سِيَاسِيَّةٌ/ دِينِيَّةٌ مُتَدَاخِلَةٌ. جاء مؤسسها الأول إلى اليَمَنِ نِهَايَةَ القَرْنِ الثالث الهجري، قادمًا من الرس، للصِّلْحِ بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ وَمُخْتَلِفَتَيْنِ فِي قَضَايَا اجْتِمَاعِيَّةٍ يَوْمَهَا، حَسْبَمَا تَذَكُرُ بَعْضُ المَصَادِرِ. والواقع أنه جاء ضِمْنَ حُطَّةِ مَدْرُوسَةٍ مَعَ بَعْضِ أبنَاءِ أَعْمَامِهِ؛ لِتَأْسِيسِ دَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ بِفِكْرٍ جَدِيدٍ، بَعِيدًا عَنِ مَرَكزِ الخِلَافَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي بَغدَادِ، فَقَد هَاجَرَ بَعْضٌ مِنْهُمْ إِلَى بِلَادِ الجِيلِ، وآخَرُونَ إِلَى الدِيلِمِ،¹ كَمَا ذَهَبَ الهَادِي نَفْسُهُ إِلَى صَعْدَةَ مِنْ بِلَادِ اليَمَنِ، ذَاتِ التَضَارِيسِ الوَعْرَةِ، وَالتِي يَصْعَبُ عَلَى العَبَّاسِيِّينَ الوُصُولَ إِلَيْهَا لِقَمْعِهِ فِي حَالِ اسْتِطَاعِ أَنْ يَجْمَعَ حَوْلَهُ بَعْضًا مِنَ الأَتْبَاعِ. وَمِنْ هُنَا اكْتَسَبَ لِقَبِ الإِمَامِ، كَمَا اكْتَسَبَهُ أَوْلَادُهُ وَحَفَدَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَتَوَارَثُوهَا جَيْلًا عَنِ جَيْلٍ وَإِلَى اليَوْمِ، نَتِيجَةً لِلجَهْلِ المُسْتَشْرِي فِي أَوْسَاطِ هَذِهِ الهَضْبَةِ يَوْمَذاك وَلَا يَزَالُ، وَمِنْ ثَمَّ يَصْطَبِغُ هَذَا المَذْهَبُ صِبْغَةَ النَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ! مَعَ أَنَّ فِكْرَةَ تَقْدِيسِ الشَّخْصِيَّاتِ لَيْسَتْ مِنَ الثَّقَافَةِ الأَصِيلَةِ المُتَوَارِثَةِ فِي الحَضَارَاتِ اليَمَنِيَّةِ القَدِيمَةِ أَبَدًا، أَوْ حَتَّى فِي الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ؛ إِنَّمَا فِكْرَةٌ مُسْتَوْرَدَةٌ مِنَ الثَّقَافَةِ الفَارْسِيَّةِ وَبِلَادِ الشَّرْقِ الأَقْصَى، وَمِصْرَ، تَدَاخَلَتْ مَعَ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَ بَدَايَةِ نَشْأَةِ التَّشِيعِ فِي العَصْرِ الوَسِيطِ فَمَا بَعْدَهُ.

ويكشف عن ذلك التكتيك هذه الأبيات الشعريّة له التي نظمها، موجِّهاً إياها إلى بني أعمامه خارج اليَمَنِ، ومُفاخرًا بما حققه لهم من المجد والشُّوْدد:

¹ - تأسس المذهب الزيدي في الجبل والديلم، وهي مناطق فارسية، وكانت تسمى سابقاً عراق العجم، عقب استشهاد الإمام زيد بن علي، في خروجه على هشام بن عبد الملك، بقي بعض أنصاره مع ابنه يحيى، فخرج بهم إلى المدائن، ثم سار حتى أتى خراسان، فخرج بهم على نصر بن سيار، عامل خراسان من قبل الوليد بن يزيد، وقتل في خروجه، وقتل؛ ولكن الدعوة العلوية إلى الرضا من آل محمد انتشرت في تلك البلاد، واستطاع أبو مسلم الخراساني أن يبدأ الدعوة لبني العباس من تلك المناطق بداية تحالفه معهم.

كذلك أنتم يا آل أحمد فانفضوا
 جيش كسيلٍ حدرته الجراشع
 فما العز إلا الصبر في حومة الوغى
 إذا برقت فيه السُّيوف اللوامع
 هل الملك إلا العز والأمر والغنى
 وأفضلكم من هذبتة الطبائع
 بنيتُ لكم بيتًا من الجمد سُمكه
 دوين الثريا فخره مُتتابع
 ألم تعلموا أي أجودُ بمهجتي
 ومالي جميعًا دونكم وأدافع
 فما أحدٌ يسعى لينعش عزمكم
 سواي وهذا عند ذي اللب واقع

متهكما من اليمَن واليمنيين، وسآخرا منهم:

بني العم إني في بلاد دثية
 قليل وداها، شرُّها مُتتابع
 وليس به مالٌ يقوم ببعضها
 وساكنها عريانٌ غرثان جاع
 فإن لم تكافوني بفعلي فتُحسِنوا
 فلا يأتي منكم - هُديتم - قطائع¹

لقد كان قصيرَ النظر حين ربط المذهب "النظرية" بالحكم، ولم يفرق بينهما، تفادياً لخطر الربط بينهما؛ إذ غدت معارضة المذهب مُعارضةً للدين لاحقاً، وإلى اليوم.. يقول القاضي الشماحي:

"وإنه لمؤسس دولة، ومؤسس مذهب. ربط بينهما بقاعدة الإمامة الضيقة فأخطأ، وعلى الدولة والمذهب جنى؛ إذ قيّد الدولة والمذهب من الانطلاق الذي كان مهيعين له لو تخلص من هذا

¹ - سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، علي بن محمد عبدالله العلوي، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط:2، 1981م. 302.

القيد؛ فالدولة ذات عناصر قوية، أضعفها عنصرية الرئاسة، والمذهب ذو أنظمة اجتماعية واقعية جذابة، نفر منه ربطه بالإمامة المتحجرة الضيقة".¹

وذاث الفكرة كررها من بعده الإمام أحمد بن سليمان؛ حيث يخاطب قومه، قائلاً:

قوموا جميعاً بني الزهراء وانتصروا مما أضربكم من سالف الزمن
وجاهدوا في سبيل الله وانتقموا للحق واستيقظوا من غمرة الوسن
إني نهضتُ للم الشمل شملكم وما لويتُ على أهل ولا وطن
فإن تبيسوا أمليكم بلا كذب على الشريعة أرض الشام واليمن
وأقتني لكم ما ينفعكم ويحفظ العز من حصن ومن حصن
يا قوم إن تسمعوا مني أكن لكم أصفى من الماء أو من خالص اللبن²

ولأن اليمن كانت خلال تلك الفترة قد شهدت حالة انحدار حضاري كبير، فقد تقبلت هذه الفكرة فيما تقبلت من أفكار أخرى، هي دون مستواها الحضاري، كما هو الشأن مع أي بلد أو جماعة تشعر بالضعف فتقوم بتقليد الآخرين على أي نحو كان، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته.

وهذا الإمام أحمد بن سليمان يعبر بصريح القول أن وراثه المجد "التمجد" هو هدفهم، وهو غايتهم..

ورثنا المجد من جد فجد بيض الهند والأسل الطوال

¹ - اليمن الإنسان والحضارة، الشماحي، سابق، 116.

² - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، سليمان بن يحيى النقي، تحقيق: الدكتور عبدالغني محمد عبدالعاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط: 1، 2002م، ص: 26.

فنوردها مسلمة صحاحا ونصدرها محطمة الأعالي
ونبذل للعدا مُهجا عزازا كراما عند مشتجر العوالي
ونحقرها وإن كانت علينا رخاصا وهي عندهم غوالي

الأوضاع الاجتماعية سابقاً

أشار الدكتور فضل أبو غانم إلى طبيعة المجتمع اليمني القديم وانقسام طبقاته ورجالاته إلى ثلاث طبقات:

1. طبقة الأشراف. وتتكون من رجال الدين، وسادات القبائل، وقادات الجيش، ومسؤولي تأمين طرق القوافل التجارية، ورجال الحكومة.
2. الزُراع من رجال القبائل وهم غالبية السُّكان الذين يقومون بزراعة الأرض، وحفر القنوات والتُّرع، وبناء السدود، وغرس الحدائق.
3. التجار وأرباب الحرف والمهن من الصناع والعبيد¹

والتأمل في طبيعة هذا التقسيم، يجده تقسيماً موضوعياً، خاصةً بمقاييس تلك الفترة الزمنية القديمة.. تقسيمٌ أساسه الكفاءة الشَّخصيَّة والتميزُ الذاتي والجهد المبذول، لا العرق أو السُّلالة أو الجنس عن طريق الاصطفاء الإلهي الموهوم! أي لم يكن بما يمكن أن نسميه "نظام الدوائر المغلقة" التي تبنها الأئمة لاحقاً. أي من كان تاجرًا واستطاع الانتقال إلى الزراعة فذلك متاح له، ومن كان تاجرًا واستطاع الانتقال إلى رجالات الدين أو السِّياسة أو الجيش فذلك مُتاح له.

وما تجدر الإشارة إليه هنا أن القبيلة في المجتمع اليمني القديم التي أشارت إليها النصوصُ المسنديةُ باسم "ذي شعب" أو "ذي شعبين" كانت إلى الدولة من حيث تركيبها الاجتماعي ونظامها السِّياسي أقرب منها إلى القبيلة التقليدية المتبادرة إلى الذهنيَّة العامة. أي لم يكن الرابط العائلي أو السلالي أو العرقي هو الذي يجمع بينها ويُنظّم عقدها؛ بل الروابط الاقتصادية والدينيَّة بدرجة

¹ - القبيلة والدولة في اليمن، د. فضل علي أبو غانم، د.ن. دت. 47.

رئيسية، ولذا عرفنا ازدهار الزراعة، وبناء السدود ومصارف المياه، التي كانت تمثل الرافد الاقتصادي الأول للبلاد، تليها التجارة بعد ذلك.

وعودة إلى فكرة الاضطفاء والثقافة التي تقدر الأشخاص في بعض البلدان، فإن من يتأمل في تفاصيل الحالة المصرية مثلا وتعاملها مع الأشخاص، مقارنة بما كان عليه الأمر في اليمن، يجد أن اليمنيين - على سبيل المثال - قد برعوا في بناء السدود، وعمارة المدرجات، واستصلاح الأراضي الزراعية التي تعود بالنفع على أهلها، مقابل براعة المصريين في بناء الأهرامات بتلك الجهود الموهلة، لا يستفيد منها المصريون أنفسهم؛ إنما ليهنأ ملوكهم بالسعادة فيها بعد وفاتهم، حد توههم! ولك أن تتخيل أن الملك "خوفو" قد سخر - كما تذكر المصادر التاريخية - مائة ألف عامل مصري، لمدة عشرين عامًا لبناء هرمه المعروف اليوم بـ"خوفو"!

وحين عبد اليمينيون الشمس في السماء - وفقا لفلسفة خاصة من وجهة نظرهم - عبد الآخرون سادتهم وكبار عشائرتهم في الأرض، ففي الصين قدسوا بوذا، أما في الهند فأربابهم أكثر من أن تُحصى، أهمها البقر، وغيرها كثير..

فاليمينيون أهل حضارة؛ بل إن حضارتهم من أقدم وأرقى الحضارات الإنسانية. أنتجت حضارتهم موروثًا من نمط معين في التعامل مع الآخر، تمثل في منظومة القوانين العرفية المكتوبة والشفهائية، كانت هي أساس العلاقة بين مختلف مكونات الشعب، ومن الصعوبة بمكان على شعب ذي حضارة عريقة أن يتقبل فكرة القداسة للأشخاص أي كانوا؛ إذ كان كلُّ يعني سيدًا برأسه، لا يخضع للضيم أو يتماهى مع الاستبداد، لأكثر من سبب، منها طبيعة البلاد التضاريسية، والريع المادي المتعلق بذلك¹، وللموروث الحضاري الكبير لآلاف السنين الذي أكسبه تجربة المراس السياسية والاجتماعية؛ لذا فلن نجد في اليمن طاغوتية النمرد في بابل على نهر الفرات، أو استبدادية فرعون في مصر على نهر النيل، اللتين أشار إليهما القرآن الكريم؛ بل نجد شوري بلميس بكل رقيها ومجدها! وكما كانت أرض اليونان كعبة الديمقراطية فإن اليمن كذلك أرض الشوري،

¹ - تقرر نظرية الفاضل للدكتور حمود العودي أن الأرض التي تنتج فائضا أكثر بجهد أقل يسهل فيها الاستبداد، بلاد الرافدين ومصر أنموذجا؛ أما البلاد التي تنتج فائضا أقل بجهد أكثر فإنه يستحيل فيها الاستبداد والعبودية، اليمن واليونان أنموذجا..

وإن كانت بلاد اليونان متأخرةً بعضَ الزمن في ديموقراطيتها عن الشورى المعينية أو السبئية؛ بل متأخرة حتى في الحقوق الطبيعية التي منحها الديموقراطية هناك لأهلها، فقد كانت المرأة، وأيضاً العبيد والفئات الأدنى محرومين من حق التملك، ومن حق الانتخاب، ومن حق التجارة، ولم تكن المساواة إلا بين النبلاء والقربيين منهم؛ في الوقت الذي وصلت امرأة إلى قيادة الإمبراطورية السبئية وهي الملكة بلقيس التي ذُكرت في القرآن الكريم. ومجرد وصول امرأة إلى قمة هرم الحكم هو دليل قاطع على رُقي وحضارة هذا المجتمع. وليست بلقيس وحدها فحسب من تصدرت هذا المنصب، فثمة نسوة أُخريات تصدرن أيضاً مناصب دينية كبيرة لدى اليمنيين القدماء، كمنصب الكهانة.. فقد بلغت "برأت" منصب "رش وت" الإله "عم" في معبده، في أحد العهود السبئية، وتعني "رش وت" الكهانة، أو القائمة على شئون المعبد. ومما لاشك فيه أنها لن تصل إلى هذا المنصب إلا إذا كانت على قدر عالٍ من الحضور الاجتماعي والسياسي الذي يؤهلها لهذا المنصب.¹

وحقيقة فإن المنظومة القانونية، بالمعنى العام والكلّي هنا لكلمة قانون، بما هي "سياسية - ثقافية - اجتماعية - اقتصادية" لأي حضارة أو أمة تصبغ شخصيتها بصبغتها المدنية الخاصة التي من الصعب أن تتماهى مع شخصية غيرها، حتى وإن دب في جسدها الضعف أو انحدرت حضارياً، كما هو حالها اليوم. ولهذا كله أيضاً نلاحظ السرّ الكامن وراء خطاب الرسول - ﷺ - للشعوب عقب إعلان لرسالته؛ إذ كان خطابُه لأهل فارس مثلاً برسالة واحدة فقط، بينما كانت خطاباته لليمن بعشرات الرسائل، وربما المئات. وطبيعة هذه الرسائل تختلف من حيث صياغتها ومدلولها عن بقية الرسائل التي وجهها الرسول للملوك في البلدان الأخرى؛ حيث خاطبهم - ﷺ - مخاطبة أهل الكتاب، غير كل خطاباته للوثنيين والمشركين!²

عوداً على بدء.. كانت فكرة "البطنين" فكرة سياسية تماماً، قال بها الإمام الهادي عقب إنجاز الصلح بين القبيلتين اليمنيتين، "تنقصها السقيفة" وذلك بعد أن وجد في نفسه طموحاً للسلطة، مثلما كانت فكرة الفُرشيّة من عمر بن الخطاب يوم السقيفة..

¹ - انظر مجلة سبأ، مجلة تاريخية، حولية، محكمة، تصدر عن قسمي التاريخ في كلية الآداب والتربية، جامعة عدن، العدد التاسع، ديسمبر، 2000م، 36.

² - أنظر: الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ، جمع وتحقيق: محمد بن علي الأكوخ الحوالي، دار الحرية، بغداد، ط: 1، 1976م.

وأيضاً فإن الهادي قد أحس بجدسه الذكي أنه بصدد التأسيس لسُلطة سِياسِيَّةٍ جديدة وسط مجتمع جديد عنه؛ لذا "كان لا بد لها من إقناع الجماهير التي تسوسها بشرعية سُلطتها عليهم؛ لهذا لجأت إلى استغلال التعاليم الإسلاميَّة لمصالحهم الاقتصادية والاجتماعية، بعد إعطائها معاني جديدة، تتلاءم وتوجهات حكمها. ليس هذا فحسب؛ بل أصبحت المبرر الحقيقي لكل إجراءاتها الهادفة لفرض نفوذها المذهبي.."¹

وقد لاقت قبولا في الوسط الاجتماعي من بعض مناطق اليمَن الأعلى يومها، لأربعة أسباب في تقديرنا..

الأول: سياسي، متمثلاً في وجود حالة من الفراغ السياسي، كان سائداً آنذاك - لدى الشعب، خاصةً أن ارتباط اليمَن - البعيد جغرافياً عن مركز الخلافة الإسلاميَّة في بغداد - لم يعد بالصورة التي كان عليها سابقاً، بحكم انحدار الخلافة نفسها وتراجع شوكتها في تلك الأثناء. فالظرف السياسي لتلك القبائل كان يقتضي إيجاد رأس سياسيٍّ مُحايد كيفما اتفق. أيضاً كان كثير من الناس في اليمَن وغير اليمَن متعاطفين مع العلويين الذين لم يصلوا إلى الحكم إلا في وقت متأخر، بعد قمع كبير من بني أعمامهم الأمويين أولاً، فالعباسيين الذين ساء حُكمهم ثانياً، خاصةً حين كان العلويون يشنون الحملات الدعائيَّة الكبيرة ضدَّهما بأتهما قد انخرقا - الأمويون والعباسيون - عن النهج الصحيح، فلما وصلوا هم إلى الحكم كانوا أشدَّ غلظة وأقوى انتقاماً، ليس من حُصومهم السياسيين فحسب؛ بل من الجميع!..

وتصور لنا هذه النصُّ الشعريُّ من شعر دعبل بن علي الخزاعي صورة العلويين في مخيلة مناصريهم وأتباعهم، من خلال قصيدة مدح فيها علي بن موسى الرضا في خراسان:

مَدارس آيات خَلت من تلاوته ومنزل وحي مقفر العَرصات

لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات

¹ - الهوية السياسية والحضارية لليمن في التَّاريخ القَدِيم وعصر الإسلام، د. صادق عبده علي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، ط:1، 2004م، 46.

ألم تر أني من ثلاثين حجة أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله تحف جُسومهم وآل زياد حُقل القصرات
بنات زياد في القصور مصونةً وآل رسول الله في الفلوات

الأهم من هذا لقد رأى "العلويون" أنهم الأحق بالخلافة من غيرهم، بمن في ذلك الهاشميين، وقاسوا ذلك على المسألة الوراثية التي ترى أحقية العم على ابن البنت، بمعنى أن العباس، عم الرسول - ﷺ - أولى من الحسن أو الحسين ابني بنته، كما قال الشاعر مروان بن أبي حفصة ضمن قصيدة:

أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأعمام؟

وقد رد عليه الشاعر العلوي محمد بن يحيى بن أبي مرة بذات الأسلوب واللغة:

لم لا يكون وإن ذاك لكائنٌ لبني البنات وراثه الأعمام

للبنات نصفٌ كامل من ماله والعم متروك بغير سهام¹

ويرى القاضي الشماحي أن اليمينيين كانوا قد تشاركوا الحرمان من حق الوصول إلى الحكم، أو المشاركة فيه من قبل الأمويين والعباسيين معاً، فكان الأمر كما يقال: المصائب تجمع المصابين. فناصروا الإمام الهادي أولاً للوصول معاً إلى تحقيق ما يروونه حقاً مشروعاً لهم جميعاً، والعمل على ما من شأنه أن يوصل كلا منهم للرئاسة العظمى والحكم، لا أن يأتي هو فيتفرد بالحكم دونهم، كما

¹ - في البيت الأول إشارة إلى المسألة الفرضية التي تقرر أن بني البنات لا يرثون كما يرث الأعمام، وفي البيتين التاليين إشارة من وجه آخر إلى أن البنت ذات نصيب من ميراث والدها، قد يكون نصف تركته، وقد لا يرث العم معها شيئاً. وكلاهما من حيث المنطق الفرائضي صحيح.

تفرد من قبله الأمويون والعباسيون؛ خاصة أن اليمينيين أهل سُورى ورأي، ولم يألفوا الاستبداد السياسيَّ أو الاستحواذ بتلك الطرائق التي سار عليها الأمويون.¹

الثاني: اجتماعي، كان الصِّراعُ الاجتماعيُّ قد بلغ ذروته بين مختلف القبائل المتناحرة فيما بينها، وكان لا بد من وسيطٍ بين الطرفين لحل النزاع القائم، ولأن الإمام الهادي لم يكن ينتمي إلى واحدة من القبائل المتنازعة، فقد توسعوا فيه الحياد، كشوكة ميزان، ولا ننسى أن لدى كل قبيلة حساسية مفرطة تجاه القبيلة الأخرى، فيما لو حكمت أو تحكمت وهي عادة متوارثة في العقلية العربية بشكل عام. وفيما ذهب إليه القاضي الشماحي أنفاً، طرف مما يتصل بهذا الجانب هنا.

الثالث: ثقافي، ذلك أن المجتمع اليمني بطبعه وموروثه - إلى حد ما - مجتمع الفكرة، وهذا ما فطن له الإمام الهادي نفسه من أول لحظة.. أي أنه يحترم الأفكار أكثر من احترامه الأشخاص، فكانت فكرة البطين، التي لبست لبوس الدين بعد ذلك، خاصة أن الهوة الزمنية بين حضارية المجتمع لم تكن قد تعمقت كثيراً، فلا يزال في وعيه الجمعي من موروثات العهود السبئية فالحميرية الكثير. وهي موروثات حضارية ضعفت وتراجعت، لكنها لم تنقطع، فاستدعى "الفكرية" في اللحظة، ولو كان قدر له أن يسترد ولو جزءاً من حضارته عقب تلك المرحلة لكانت الفكرة قد تلاشت، غير أنه غاص في التخلف كثيراً، فتجذرت الفكرة المتخلفة أكثر! مع أن هذه الفكرة قد جاءت في مرحلة انقطعت فيها الأفكار تقريباً أو تكاد في هذه البيئة، مع الإشارة هنا إلى أن "علي بن الفضل" قد سبق الهادي بفترة وجيزة بفكرة هي من الأهمية بمكان وهي الإسماعيلية. وكان بالإمكان أن تؤسس لقيام دولة، لكن الهادي كان أسبق إلى ميدان الفعل.

بمعنى أكثر شمولاً.. انطوت الفكرة على عاطفة دينية، رأى اليمينيون أنها قد تكون الأنسب، لاستعادة ماضيهم الذي بدأ في الخفوت والتراجع منذ انهيار السد للمرة الأخيرة، قبل ذلك بما يقارب ثلاثة قرون، أو أقل على خلاف بين المؤرخين، وما تبعه من غزو حبشي، ففارسي ساساني، دأماً مائة وخمسين عاماً على التوالي، في إطار صراعات القوى العظمى عالمياً يومها، فكانت فكرة النظرية هي أداة السلطة الجديدة "التثبيت نظام لا يمكن أن يكون وليد القوة وحدها.

¹ - اليمن.. الإنسان والحضارة، القاضي عبدالله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحي، منشورات المدينة، بيروت، لبنان، ط:3، 1985م. 114.

وبقاء السُّلطة رهين بالأساطير السائدة بين الذين تُمارس فيهم هذه السُّلطة. وهذه الأساطير التي تنشأ من طَبِيعَةِ الإنسان الاجتماعيَّة وتؤثر عليها هي التي توطد الحكم أو ترعزعه، ولولاها لما استطاع أمير أو برلمان أو ديكتاتور أن يسود شعبًا من الشعوب..¹

ثم إن توهان العقل الجمعي أثناء مراحل الانحدار الحضاري لأية أمة أو شعب يفقده التفكير الموضوعي وضبط بوصلة المسير؛ إذ يعيش حالة من الشك والارتباب في قيم وتقاليده الدَّولة التي انهارت أمام ناظره، كما يقف في حالة من الحيرة تجاه قيم جديدة لما تبلور بعد في ذهنه الجديدة، المتطلعة لاستعادة مجده الأفل "فهذا الشك، وهذه الحيرة يمكن أن أشخاصًا - لا تقاليد تقدسهم ولا مبادئ تكرمهم - من تسنم السُّلطة، وهم أشخاصٌ انتهازيون لا يتورعون عن العنف وعن اصطناع أية وسيلة أخرى في سبيل بلوغ السُّلطة، وفي سبيل تحقيق أهدافهم، وهذه الظاهرة قديمة قدم عهد الطغاة في أثينا، وجديدة جددة عهد نابليون في أوروبا، وعهد أولئك القياصرة الأوروبيين الذين لمع نجمهم بعد الحرب العالميَّة الأولى.."²

ويتصل بالثلاثة الأسباب المذكورة سببٌ رابعٌ يختزلها جميعًا، وهو أن ما يمكن أن نُسميه بلغة اليوم "القيادات المجتمعيَّة" يومها كانت قد استنزفت بصورة شبه كاملة من المجتمع في عمليَّة الفُتوحات الإسلاميَّة التي اتجهت شمالًا، ومن هناك إلى مختلف الأصفاع والأقطار الإسلاميَّة، وكُتب التاريخ من يومها تتكلم عن دور اليمنيين في الفُتوحات، سواء قادة أم جنودًا. وقبل ذلك كانوا حطب الحروب التي دارت بين المسلمين أنفسهم في مختلف المعارك التي دارت، منذ صفين، فالجمل، فالنهروان، فحرورا، وما بعد ذلك. فكان أغلب جيش الإمام علي - كرم الله وجهه - من اليمن. وأغلب جيش معاوية - الخضم السياسي له - من اليمن. وأغلب جيش الخوارج - أيضا - من اليمن؛ ناهيك عن جيوش: المثني بن حارثة في العراق، وعمرو بن العاص في مصر، وعبد الرحمن الغافقي في المغرب، وموسى بن نصير، وعبد الرحمن الداخل "صقر قريش" في الأندلس، ولا تزال آثار اليمنيين إلى اليوم في الأندلس "اسبانيا" تشمخ بالعظمة والجلال، فثمة قلاع تُسمى قلعة همدان، وقلعة خولان، وغيرهما. إلخ.

¹ - تكوين الدولة، روبرت ماكيفر، ترجمة الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 2، 1984م، 32.
² - نفسه، 77.

هذه الحالة من هجرة العقول والرؤوس الكبيرة في المجتمع أفضت إلى حالة من الفراغ المجتمعي فيما يتعلق بالقيادة، فتوسم المجتمع في الإمام الجديد ملء الفراغ، في مجتمع بقدر ما يعيش لفحات الصِّراع بقدر ما يتطلع لنفحات الوثام، كنزوع إنساني للسلام وانشداد تاريخي لاستعادة المجد المترنح. وهو نفس السبب - تقريبًا - الذي جعل اليمينيين يُهرعون إلى الإسلام بلا حرب كباقي البلدان، هروبًا من التمزق، وبحثًا عن الدولة الجامعة، عقب الدعوة المحمديّة في الحجاز!

لكن.. "لا ذا تأتّى ولا ذا حصل" فلم يكن الهادي وبنوه من بعده إلا بداية مشهد من الصِّراع وفصلٍ من الاختراب وإلى اليوم، في صورة دراماتيكيّة.. لم تهدأ معركةٌ إلا لكي تنشب أختها.. فاصلٌ ما بين المعركتين معركةٌ أخرى، حتى بدا التّاريخ اليميني سلسلة من الحروب وهزًا من الدماء وتلألأ من الجماجم! وكلُّ هذا بسبب النظريّة الجديدة في الحكم بلا رؤية ولا استبصار.. حُكمٌ غايته التّحكم، أو هكذا تقول حقائق التّاريخ! ومن يُحصي معارك الإمام الهادي وحده من خلال سيرته التي كتبها ابن عمه، علي بن مُحمّد العلوي يجد بين ثناياها ما يجعل الولدان شيئًا! تسعة وثلاثون معركة وهجومًا على حُصومه من أهل اليمن الذين واجهوا ظلمه. ويذكر المؤرخون أن الهادي كان له مع بني الحارث وحدها نيفٌ وسبعون وقعة! وكل هذا في خلال المدة التي حكم فيها من العام 284 إلى العام 298هـ.

وذكر الشَّيخ محمد الدين المؤيدي أن "له مع القرامطة الخارجين عن الإسلام أكثر من ثمانين وقعة، كانت له اليد فيها كلها، ومع بني الحارث، أكثر من سبعين وقعة. وخطب له بمكة المشرفة سبع سنين"¹ أما بحسب المؤرخ أحمد شرف الدين، فقد ذكر أنّ عدد المعارك التي دارت بين الهادي وآل يعفر والضَّحّاك وآل طريف والأكيليين ما فاق الثمانين معركة، غير تلك التي خاضها مع القرامطة وهي زهاء سبعين معركة.² والله في خلقه شئون!

وبحسبة بسيطة - فإن فترة حكمه، من العام 284هـ إلى العام 298هـ، عام وفاته، أي أربعة عشر عامًا "مئة وثمانية وستين شهرًا" فيها ما يزيد على مئة وأربعين وقعة.. بما يعادل وقعة واحدة كل شهر، أو شَهر ونصف الشهر تقريبًا، ومع هذا يقول عنه الشَّيخ المؤيدي في موضع آخر:

¹ - التحف شرح الزلف، سابق، 197. والأرجح أن مسألة الخطابة له بمكة من المبالغات غير المنطقية.
² - اليمن عبر التاريخ، دراسة جغرافية تاريخية سياسية شاملة، أحمد شرف الدين، ط: 2، 1964م، 241.

"ولقد ملأ اليمَن أمنًا وإيمانًا، وعلماً وعدلاً، ومساجد ومعاهد، وأئمة هدى. " مضيئًا: " وكراماته المنيرة، وبركاته المعلومة الشهيرة مشرقة الأنوار، دائمة الاستمرار على مرور العصور!!"¹ فأين هو الأمن؟ وأين الهدى؟ وأين هي الطمأنينة في المجتمع الذي تركه غائر الجرح، نازفَ الدم؟! إن الإجابة الواقعية والصحيحة فيما ذكره الباحث اليميني الدكتور علي محمد زيد حين أشار إلى الدولة اليمينية عقب وفاته: وقد توفي "مخلفًا وراءه دويلة متدهورة إلى درجة الانهيار، ووضعًا اقتصاديًا وماليًا لا يساعده على بقاء الدولة، واعتمادًا شبه كلي على غير اليمينيين من العلويين والطبريين في تولي الشؤون العامة، مثل قيادة العسكر وجباية الزكاة والقضاء..²

وتأتي هذه السلسلة من الصراعات الطويلة والحروب المتوحشة بسبب الهوة النفسانية السيكلوجية والثقافية بين الحكام والمحكومين.. بسبب ما سعى إليه المجتمع وأراد الحكام! هذا المشهد المروع والطويل لمئات السنين كانت له نتائج الكارثية على الشخصية اليمينية وبُنيته السيكلوجية الذي صبغها بصبغته الدموية، فبانعدام السلم الاجتماعي تتكور الجماعات على نفسها، وتتخندق حول ذواتها، حفاظًا على وجودها أولًا وأخيرًا. وربما رأت كل جماعة في نفسها أنها هي الأفضل، وهي الحق، والحق هي؛ لأن جو الصراعات السياسية وحروبها، لم يقتصر على منع هذه الجماعات من التعاطي الإيجابي مع الآخر والانفتاح عليه فحسب؛ بل خلق التراتبية الطبقيّة، فكان الانغلاق الداخلي فيما بين اليمينيين أنفسهم قبل أن يكون انغلاقهم على غيرهم؛ ناهيك عن الأثر السلبي المقيت فيما يتعلق بالعمل والإنتاج، إذ تتوقف آلة الإنتاج عن العمل في المجتمعات التي تحصد النزاعات الأهلية والحروب الداخلية رؤوس أهلها، لأن الزارع أو المنتج - وفي أي مجال كان - لم يعد ضامنًا نتيجة عمله، فقد تحصدتها أسنة رماح الغازين والمتغلبين بلا وجه حق، فيكون التواكل والسكون سيد المشهد في المجتمعات غير المستقرة. وهذا يؤثر بطبيعته على التراكم المعرفي بشقيه الكمي والنوعي، وعلى الأجيال التالية أيضًا، مثلما يؤثر على جيل الصراع نفسه، لأن

¹ - نفسه، 201.

² - معتزلة اليمن، دولة الهادي وفكره، علي محمد زيد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، دار العودة، بيروت، دت. ، 95.

الحضارة سلسلة متتالية من الثقافات والنشاط الذهني والبدني معًا، وانقطاع حلقة واحدة في السلسلة أو ضعفها يؤثر عليها كاملة، إذ إن قوة السلسلة تقاس بأضعف الحلقات فيها. والواقع أن عمّال الخلافتين الأموية فالعباسية في اليمن كانوا جبابرة ضرائب، لا رجالات دولة، كما هو الشأن في بقية بلدان الخلافة "لم يفكروا في إعادة مجد اليمن، وتشديد سدودها وإنهاض أهلها؛ بل كانوا يجتهدون في جمع الأموال من اليمن، وتحصيل الزكاة والخراج، وأخذ الجنود في المساهمة بالفتوحات المجيدة المشهورة في التاريخ، ولم تستفد اليمن من مجد التمدن الإسلامي فائدة تُذكر، ولم يتمكن اليمانيون من التفكير في أسباب سقوطهم، لأن أمرهم في يد غيرهم من الحكام المستبدين."¹

الإمامة عند الهادي:

كانت فكرة البطين حصراً على الجارودية فقط دون غيرهم من سائر الفرق الزيدية، قبل ظهور الإمام الهادي نفسه، وهو اجتهاد يخالف ما ذهب إليه زيد بن علي، مخالفة جوهرية كبيرة، فإذا كانت الإمامة ليست من أصول الدين عند زيد، فإنها من الأصول عند الهادي وأتباع مدرسته، ومعروف ما ذا يعني أن تكون من أصول الدين عند فريق، ومن مسأله الثانوية عند الفريق الثاني. وحتى ظهور الهادي لم يكن لنظرية البطين أي وجود عند اليمانيين تقريباً، رغم حضور المذهب الزيدي قبله ولو بصورة أقل وتواجد متواضع، عن طريق ابن طباطبا وإبراهيم الجزار، إلا أنه حضور لا يكاد يُذكر. ورغم وجود محبين لآل البيت أيضاً، وهذا لا ينكره أحد. فلما جاء الهادي عمل على تثبيت هذه النظرية بشكل أوسع وبحماس أكبر، وجعل منها معتقداً وثقافة. وهذا دليل قاطع على أن الفكرة - من أساسها ليست ابنة البيعة اليمانية؛ بل لا ابنة البيعة العربية، وإلا فلعثمان بن عفان - رضي الله - أبناء من بنتي رسول الله، رقيه وأم كلثوم، إلا أنهما لم يتصلا بالفرس، أو يتصل بهم الفرس لاحقاً، ليتخذوا منهم ذريعة لحكم سلالة "الدم الأزرق" المتحدرة من أكرم نسب عربي، هو الحسين بن علي، وبين أكرم نسب فارسي هي الشهربانو ابنة يزدجرد بن كسرى حين تزوجها

¹ - هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، أحمد فضل العبدلي، دار العودة، بيروت، ط:2، 1980م، 51.

الحسين، إن صحت الرواية، وإن صح التناسل بينهما أيضًا، فما الفرق بين أولاد عثمان من ابنتي رسول الله، وأولاد علي من بنت رسول الله أيضًا؟! أليس الكل بنات رسول الله ﷺ؟!¹

ومن يتتبع نصوص الإمام الهادي المتعلقة بالإمامة، يجدها لا تختلف - معتقدًا - مع الاثناعشرية؛ كون الهادي والاثناعشرية يتفقان على أن الإمامة أصلٌ من أصول الدين، وأن الإيمان بإمامة علي جزء من الإيمان بنبوته مُحَمَّد ﷺ، عن طريق النص، ثم الحسين وذريتهما من بعدهما عن طريق الخروج.

يقول: " .. فلا تثبت للخلائق وصية الأنبياء إليهم إلا باستحقاق لذلك، والعلم والدليل، فأما الاستحقاق منهم لذلك المقام الذي استوجبوا به من الله العلم والدليل، فهو فضلهم على أهل دهرهم، وبيانهم عن جميع أهل ملتهم، بالعلم البارع والدين والورع والاجتهاد في أمر الله، وعلمهم ودليلهم فهو العلم بغامض علم الأنبياء، والاطلاع على خفي أسرار الرسل، وإحاطتهم بما خص الله به أنبياءه حتى يوجد عندهم من ذلك ما لا يوجد عند غيرهم من أهل دهرهم، فيستدل بذلك على ما خصَّهم به أنبياءهم.."²

فالهادي هنا يخالف الإمام زيدًا والزيدية برمتها حين يقول بمسألة "الحق الإلهي" في الحكم التي هي من الثوابت الدينية عند "الاثناعشرية"، بينما ليست كذلك، لا عند الإمام زيد ولا عند أتباع مدرسته. وهو - الهادي - ينفي علاقة الأمة/ الشعب بها؛ كونها حقا إلهيا مقدسا من حق سُلالة معينة فقط " .. فلا تلتفت إلى غير ما قلنا من أقاويل الهزاجين، وتعبُّث العابثين، وزخاريف المتكلمين، وافتراق أقاويل الجاهلين، ممن يقولون: إن الإمامة بإجماع الرعية، وقول من يقول: بل هي لما يوجد من الآثار المروية في الملاحم المذكورة، وقول من يقول: بل هي بالوراثة لولد بعد والد، ولا يلتفتون - ويلهم - لما تُستحق به الإمامة من البيِّنات، والشواهد النيِّرات.."³

¹ - ذكر صاحب السيرة الحلبيَّة أن عليًّا بن أبي طالب - كَرَمَ اللهُ وَجْهَهُ - أخذ بنات الملك الفارسي "يزدجرد" الثلاث ضمن السبايا عقب هزيمته في القادسية من عمر بن الخطاب، وتم تقويم ثمنهن ودفع الأولى منهن لعبدالله بن عمر، فخلف منها سالما، والثانية لمحمد بن أبي بكر، وخلف منها القاسم، والثالثة للحسين ابنه، فخلف منها علي زين العابدين. أنظر السيرة الحلبيَّة، 2/45. نقلها عنه معروف الرصافي في "الشخصية المحمدية" 263.

² - المجموعة الفاخرة، مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، تحقيق: علي أحمد الرازحي، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط 1، 2000م، 514.

³ - نفسه، 514. قَالَ الإمام الهادي هنا إنها ليست بالوراثة؛ ولكن ما حدث أن إبنيه، ثم حفدته قد توارثوها من بعده!

وقد قال مفسراً الآية الكريمة: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) المائدة: 55. فكان ذلك أمير المؤمنين دون جميع المسلمين.

ولا ندري كيف حكم بذلك؟ وكيف عرف هو وأتباعه من بعده أن المقصود بالولاية في هذه الآية هو الإمام عليّ كرم - الله وجهه - مع أنها أشارت بصيغة الجمع بعد الله ورسوله: آمنوا.. يقيمون.. يؤتون.. راععون!! وهو ما يجعل أي عاقل يفهم أنها لأي شخص توافرت فيه تلك الصفات..

ثمة قاعدة أصولية تقرر أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" كما هو شائع ومعمول به عند الأصوليين؛ وهو الأرجح عند الجمهور؛ مع أن ثمة من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ؛ إنما لا بد من القرائن الواضحة والدالة على ذلك، لأنه إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم أو اتفق معه في الخصوص، حُمل العام على عمومه، وحمل الخاص على خصوصه. كما في قوله تعالى: (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) الليل: 18.

فقد استدل البعض هنا على أن المقصود بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فـ "أل" في قوله: (الْأَتْقَى) هي أل العهدية، وليست الموصولة، وهي على وزن "أفعل" التفضيلية. ومع هذا كله يبقى تأويلها وتفسيرها ظني الثبوت لا قطعي الدلالة؛ لأنه حدث فيه الاختلاف، وما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، خاصة في المسائل الكلية والمعلومة من الدين بالضرورة.

أما ما يتعلق بالآية السابقة: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) المائدة: 55. فليس ثمة قرينة كافية للحكم على أن المقصود بذلك هو الإمام عليّ كرم الله وجهه، من القرائن اللغوية المعلومة عند أهل اللغة، لفظية أو معنوية، وذلك إذا ما تبيننا عكس ما تبناه الجمهور في أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ؛ وبالتالي تبقى الآية ظنية الدلالة.

وعليه: فمن المجازفة والتجني والتجاوز المنطقي والعلمي أن نبي على حكم "ظني الثبوت" أصلاً من أصول الدين، وهو الإمامة!

المبحث الرابع سيكولوجيا النظرية

من يتتبع أغوار وفجاج هذه النظرية الجديدة والطارئة لا على اليمن فحسب؛ بل على المنطقة العربية كلها، يلمح أن أمشاجها الثقافية الأولى قد تسربت من خارج حدود المنطقة إبان الانفتاح الحضاري الجديد الذي حصل بين الثقافتين الإسلامية والفارسية، في إطار التأثر والتأثير بين المجتمعات؛ لاسيما المجتمعات المتجاورة جغرافياً، كما هو الشأن بين العرب والفرس.

وقد كانت الخلفية الثقافية لهذه النظرية فارسية الصنع، حيث النظرة المقدسة للحاكم "الشاهنشاه - ملك الملوك" حد السجود له¹؛ التي فاجأت الإسكندر المقدوني حين غزا بلاد الشرق، فتفاجأ بطقوس الملك الموجودة فيها، من تبجيل للملك والسجود له.. من رهبة البلاط الملكي أو الأميري.. من أبهة الأروقة، حتى عمد لنقل بعض هذه الطقوس والمراسيم بما في ذلك التاج نفسه الذي كان غريباً عليهم، إضافة إلى السجود وتأليه الحاكم، الأمر الذي جعل المقدونيين يرفضون بعض هذه المراسيم الجديدة الوافدة عليهم!

وهذه الفكرة متماهية وممزجة إلى حد كبير مع فكرة "الحق الإلهي" لدى الفرس، وأيضاً الصينيين من قبلهم، فيما يتعلق بالحاكم لديهم الذي يستمد سلطته من السماء، وهو القدر المحتوم بالنسبة للشعب ولا مناص منه، سواء أكان مستبدًا أم عادلاً، كما هو الشأن نفسه لدى الفراعنة الذين يعتبرون الملك شخصية إلهية مقدسة، عليماً بكل شيء، لا يرُد له أمر؛ فهو وحده المشرع والمنفذ، إلى حد عدم جواز الاقتراب منه؛ بل حتى ظله فإنه مُقدس، وعند اليابانيين سابقاً فإنَّ الملك هو إله الشمس الذي يحكم الكون كله. وقريباً من هذه الحال عند البابليين. وقد ظلت الفكرة بالنسبة للفرس باقيةً ومتجدرة في ثقافتهم حتى بعد الإسلام، كما تسربت أيضاً للفكر الإسلامي

¹ - الملك سابور الثاني، أو سابور بن هرمز بن نرسي ذي الأكتاف، 309-379م، وهو أحد ملوك الفرس، يُلقب بقتال العرب، وقد تم تنويجه وهو في رحم أمه، بعد وفاة أبيه مباشرة، لأن أباه لم يكن له أولاد من قبله، وقد تم وضع تاج الملك على بطن أمه، ليولد ذلك الطفل ملكاً!

بصورة تشبه ما عليه الحاكم عند الفرس، نلاحظ ذلك حتى في بعض أدبيات أهل السُّنة أنفسهم، وإن بصورة خفيفة، خاصّة ما تبناه الخلفاء ونلمحه بوضوح في "الأدب الكبير" لابن المقفع، الذي دسّن القول في الأيديولوجيا السلطانية، كما أشار إلى ذلك المفكر العربي مُحمَّد عابد الجابري، وإن كانت ثمة بعض طقوس من هذا القبيل قد تجسّدت ابتداءً من حُكم معاوية، وبرزت بصورة أكبر أثناء فترة عبد الملك بن مروان، المؤسس الثاني للدولة الأمويّة.

يقول معروف الرصافي في "الشخصية المحمدية" وهو بصدد الحديث عن إسلام الفرس وتعاملهم مع الدين الجديد، بعد القادسية: "إن الفُرس المغلوبين على مُلكهم كانت نفوسهم في صدر الإسلام تتقدُّ غيظًا، وقلوبهم تضطرم حقدًا على العرب الذين كانوا هم الرافعين لواء تلك النهضة العربيّة الإسلاميّة، والذين اكتسحوا بجيوشهم الجرارة بلادَ فارس من أدناها إلى أقصاها. ثم إنهم دخلوا في الإسلام كرهًا، وأخذوا يعملون على إعادة ملك الأكاسرة من طريق الدين، فتظاهروا بحب علي وأولاده من أبناء الحسين، النازلين من صُلب ابنه علي زين العابدين الذي يمتُّ بنسبه من جهة أمه إلى الأكاسرة، ملوك الفرس.."¹

مضيّقًا: "هذا هو أساس فكرة التشيع، ثم اتسعت هذه الفكرة، وتشعبت بمرور الزمان، فافترق لها المسلمون إلى فرق وطوائف شتى، كلهم متعادون محترَبون"²

ومن عهود "أردشير" الفارسي: "واعلموا أن الملك والدين توأم، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه؛ لأن الدين أسُّ الملك وعماده، ثم صار الملك بعدُ حارسَ الدين، فلا بد للملك من أسِّه، ولا بد للدين من حارسه، فإن ما لا حارس له ضائع، وإن ما لا أسَّ له مهذوم، وأن رأس ما أخاف عليكم مبادرة السُّفلة إياكم إلى دراسة الدين وتأويله والتفقه فيه، فتحملكم الثقة بقوة الملك على التهاون بهم، فتحدث في الدين رياسات مُستسرات فيمن قد وترتم وجفوتم وحرمتم وأخفتم وصعّرت من سفلة النَّاس والرعية وحشو العامة. ولم يجتمع رئيس في الدين مسر ورئيس في الملك معلن في

¹ - كتاب الشخصية المحمدية، معروف الرصافي، منشورات الجمل، ط:1، ألمانيا، 2002م، 264.

² - نفسه. 264.

مملكة واحدة إلا انتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك؛ لأن الدين أسّ، والملك عماد، وصاحب الأس أولى بجميع البنيان من صاحب العماد"¹

وهذه الحالة أيضا هي من الموروث اليهودي، وأيضا التعاليم المسيحية التي علقت بالثقافة الملوكية في مرحلة ما بعد المسيح، عليه السلام. ونلمحها جلية في رسالة القديس بولس، المؤسس الثاني للمسيحية، ذي الجذور والثقافة اليهودية في إحدى رسائله: "أيها العبيد أطيعوا في كل أمر ساداتكم البشريين.."²

نظريّة البطنين من حيث بُنيتهما التّفسيّة "السيكولوجية" لا تختلف عن أية نظريّة شمولية من النظريّات السّياسيّة في الحكم، لها ظاهرٌ ولها باطن، إن أخفت أديباًها النظريّة ظاهراً، أظهرت ممارساتها العملية حقائقها. وإن قال صاحبها إنها ابنة زمانها - كادعاء "شوفيني" - أظهرت الاستقراءات التاريخيّة أنها ابنة الزمان الممتد من خارج الزمان والمكان معاً!

يدعي صاحبها روح الجماعة بما تحمله قيم الجماعة من شورى وديموقراطية وتعاون وإحاء، بينما هي في حقيقتها نزعة فردية، بما تكرسه نزعة الفرد من تسلط واستبدادية وأنانية مفرطة. فمثل هذه النظريّات الشمولية ليست إلا نمط التفكير الخاص بما يحمله من مواجهات وثقافة وتفكير المنظر نفسه، المتشكل من الوعي التاريخي بالسلطة، مضافاً إليه التصرف أو السلوك العملي على أرض الواقع. وهو تفكير أساسه ال "أنا" بكل نزواتها، سواء "أنا" الفرد أو "أنا" الجماعة، وفي "برومير الثامن عشر لويس بونابرت" لكارل ماركس لمحات واضحة لهذه الأنوية المفرطة التي تتخفى وراء المثاليات، لكن محالب الوحش التي تسكن هذا الشخص أو تلك الجماعة هي الغلبة عملياً.

ولأنّ مثل هذه النظريّات السّياسيّة مرجعها في النهاية فرد أو جماعة، أساسها العرق والعنصرية، بما تحتوي عليه نزعة هذا العرق أو طغيان تلك العنصرية، فهي مستبدة بطبعها؛ لأنها تريد إخضاع الآخرين لنمط معين من السلوك، بل حتى الفكر والثقافة لكل الجماعات الأخرى. ولك أن تتخيل أن الحاكم بأمر الله الفاطمي - أحد من حكموا مصر على أساس هذه النظريّة - لما تسلّم مقاليد الحكم كان أول ما أمر به أن قتل أستاذه ومعلمه "بیرجوان" وادعى الألوهية، وأمر

¹ - عهد أردشير، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1967م، 53.

² - العهد الجديد، رسالة القديس بولس إلى مؤمني كولوسي، الإصحاح الثالث، 22.

النَّاسُ بالسُّجُودِ لَهُ حِينَ يَذْكُرُ الْخُطْبَاءَ اسْمَهُ عَلَى مَنَابِرِ الْمَسَاجِدِ، كَمَا أُمِرَ بِإِغْلَاقِ الْأَسْوَاقِ نَهَارًا وَفَتْحِهَا لَيْلًا، وَحَرَّمَ عَلَى النِّسَاءِ لِبَسِ الْأَحْذِيَّةِ وَالخُرُوجِ مِنْ مَنَازِلِهِنَّ، وَحَرَّمَ أَكْلَ الْعَسَلِ وَالزَّيْتِ وَالْمَلُوحِيَّةِ، وَاقْتِلَاعِ الْكُرُومِ!

"ولأن كل سُلطة ترتد في نهاية الأمر إلى فرد.. قائد.. زعيم.. ملك.. رئيس.. أو إلى أفراد: مجلس.. لجنة.. أو إلى جَمَاعَةٍ أو جَمَاعَاتٍ: حزب.. جماعة.. طائفة.. قبيلة، فإن كل سُلطة تقوم على الأساس النفسي العقلي للفرد أو الأفراد أو الجماعة، أو الجَمَاعَاتِ الذين يمارسون السُلطة؛ أي أن سيكولوجية سُلطة مُعينة هي في حقيقة الأمر سيكولوجية فرد، أو أفراد أو جَمَاعَةٍ في السُلطة - وهم في السُلطة - وهذا ما يكاد ينطبق بشكل كامل على الأنظمة الشُمولية، وعلى أنظمة الحزب الواحد والتنظيم الواحد والرأي الواحد الذي لا يقبل الآخر؛ بل يسعى جاهدًا إلى إبعاده ونفيه"¹

نظرية البطنين الدينية/ السِّيَاسِيَّةِ هي ذاتها من حيثُ التَّعَصُّبُ نَظَرِيَّةُ النَازِيَّةِ/ العرقية، خاصَّةً أن كليهما تعتمدان على العِرقِ أو العُنصر؛ إذ قرر هتلر أن العِرقِ الآري - وفق النَّظَرِيَّةِ الجديدة - هو العِرقُ الأفضل والأرقى وسيد العالم بلا منازع، والذي يجب أن يحكم أوروبا كلها. ففضى إثر ذلك على الحريات الفردية وصادر الحقوق المدنية، وأصبح الجميع أحرارًا وشخصياتٍ ومنظماتٍ يدورون في فلك النازية الهتلرية الجديدة، وتم نقل سلطات المجلس التشريعي إلى مجلس الوزراء الذي يرأسه "الفوهرر" فكان وحده هو الحزب وهو الدولة!

وذاث الأمر بالنسبة للفاشيَّة التي لا تؤمن إلا بالقوي وحقه في الحياة وإزاحة الأضعف؛ بل عدم الاعتراف به، بما في ذلك مُنظمات المجتمع المدني والحريات الشخصية. وإذا كانت النازية أساسها العرقية، فإن الفاشية أساسها القومية؛ لذا فمن دونهما من الأقليات أو الجَمَاعَاتِ هم أدنى منزلة، حقوقهم منقوصة، وأصواتهم غير مسموعة، ومن حيثُ تعاملها مع الفرد فهي تتبنى رأي النَّظَرِيَّةِ الاشتراكيَّةِ هنا "الفردُ من أجل المجموع" وإن كانت تناوى الاشتراكيَّةِ سِيَاسِيًّا. هدفها العام التَّحَكُّمُ لا الحُكْمُ، كما أسلفنا. وكل جَمَاعَةٍ تأسَّست على نَظَرِيَّةِ شُمُولِيَّةٍ من هذا القبيل تعمل على اختزال الدَّوْلَةَ كاملة في ذاتها، فترفض كل صوت مُعارض، متوجسة منه حد الهوس؛ بل ربما رأى

¹ - سيكولوجيا السلطة، سالم القمودي، مؤسسة الانتشار العربي، لندن - بيروت، ط: 2000، م2، 35.

المتسلط في قصيدة شعرية ما أو مقالٍ مناوئٍ لكاتب ما، بمثابة كتيبة عسكـرية تزحف نحوه، أما إذا
تجمهرت الأصواتُ المعارضةُ فذلك هو الجنون بعينه بالنسبة لها!

يقول الإمام عبد الله بن حمزة: "ونحن طلبُة الحقي الذي غلبنا عليه، وورثة العلم الذي دعونا
إليه، ونحن الموتورون، وطلبُة الدم، ولو لم يبق من عمر الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى
نملك الأرض بين أقطارها على بني العباس، وعلى غيرهم من الناس، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي
الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الأنبياء:105. ولا يكون ذلك إلا من
تلقاء اليمين، وربك أعلم من صاحبه؛ وكل مُستحق يـرجو أن يكون صاحِب ذلك، ليعزّ دينَ الله، لا
ليوسّع في الدنيا.."¹

ثمة نص أدبي في رواية تحمل اسم الرئيس الليبي السابق معمر القذافي، اسمها "الفرار إلى
جهنم" تُقرر هذا الشعورَ النفسي بأصدق ما يكون، مجسداً فيه حالته الشعورية التي آل إليها هو
بنفسه في آخر لحظاته، وكأنما كتب عن نفسه!

يقول: "ما أفسى البشرَ عندما يطغون جماعياً! يا له من سيل عرم لا يرحم من أمامه، فلا
يسمع صُراخه، ولا يمد له يده عندما يستجديه أو يستغيث؛ بل قد يدفعه أمامه في غير أكرات. إن
طُغيانَ الفرد أهونُ أنواع الطغيان، فهو فرد في كل حال، تزيله الجماعة، ويزيله حتى فرد تافه بوسيلة
ما، أمّا طُغيان الجموع فهو أشدُّ صنوف الطغيان. فمن يقف أمام التيار الجارف والقوة الشاملة
العمياء؟ يا للهول! من يخاطب الذات اللاشاعرة كي تشعر؟! من يناقش عقلاً جماعياً غير مجسّد في
أي فرد؟! من يُمسك يد الملايين؟! من يسمع مليون كلمة من مليون فم في وقتٍ واحد؟! من في
هذا الطغيان الشامل يتفاهم مع من؟! ومن يلوم من؟!..²

أخيراً.. النظرية الهادوية نظرية أصولية لأسرة تلهث وراء الحكم من أجل التحكم والسيطرة،
ولا تعترف بالآخر أبداً؛ لأن أي أصولية هي متخلفة ومتعصبة بطبيعتها، ولا ترى إلا نفسها فقط.
تنظر إلى الوطن باعتباره إقطاعية خاصة بها، وتتعامل مع ثرواته كما يتعامل البدو الرحل مع الماء

¹ - مجموع مكاتبات الإمام عبد الله بن حمزة، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية،
ط:1، 2008م، 402.

² - الفرار إلى جهنم، معمر القذافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996م، ط:2، ص 43.

والكلأ، غنيمة أسبوع أو شهر أو موسم ليس إلا؛ لأن الوطن كأيدولوجيا وعقيدة راسخة في الوجدان قد غاب، أو بالأصح تم تغييبه هنا، ليحل محله أيدولوجيا الجماعة بفكرها المتخلف التي تتصارع مع الشعب، متحفظة بحقها في التمجيد دون سواها، وقد اختصرت كل الاستراتيجيات والأولويات الوطنية في مصالحها الخاصة على حساب الكيان الوطني العام؛ فالعصبويات لا تبني أوطاناً، ولا تقيم عُمراناً. تعتمد في ثرائها - غالباً - على حد السيف بدلاً من أداة المحراث، لا تهتم بالبناء والإنتاج، بقدر ما تهتم بالفيء أو الغنيمة التي عادة ما تكون على حساب السواد الأعظم من الناس. ويزداد الخطر أعظم حين تقرن عصبيتها هذه بعقيدة دينية سائدة، تستطيع تسويقها بين العامة الذين تعمد إلى تجهيلهم وتبخيسهم وجودياً، ليفضي الأمر إلى فرز اجتماعي يجعل من المواطن مجرد تابع ذليل، فاقد لهويته وإنسانيته وغير واثق من قدراته، مُقابل جماعة أو عُصبة متألمة، ترى نفسها فوق البشر ودون النبي، مواطن غير مُتشارك أو حتى مُتسائل، فلقد كفته النظرية مؤنة التشارك والتساؤل؛ بل التفكير، فسيده أعرف بمصالحه منه، وبالتالي فهو يفكر بدلاً عنه ويحكم بدلاً منه. وعادة ما تتفزم أحلامه وتتصاغر حد التلاشي، فيكون مجرد العيش في الحدود الدنيا هو مطمع نفسه أولاً وأخيراً، وقد كبلته الخرافة والوهم من كل جانب.

المبحث الخامس سيكولوجيا المُنظر

تكلّمنا - سابقًا - عن سيكولوجيا النّظريّة من حيث بنيتها النّفسيّة على سبيل الإجمال؛ كونها تختزلُ البنية النّفسيّة للمُنظر وللمنظرين أجمع من أتباع هذه النّظرية؛ لكن حين نتكلّم عن سيكولوجيا المُنظر نفسه، فإننا نقصد الرّأس الأول فيها كشخص أو فرد، لتأسيسها أولًا، ثم العمل بها، ولنسبتها - في غالب أدبيّاتها وتعاليمها - إليه. وهو ما يستدعيّ البحث في تفاصيل وجزئيات النّشأة الأولى للمُنظر، والظروف التي عاشها وأثر ذلك على شخصيّته.

عاش الإمام الهادي منذ طفولته المبكرة وضعًا نفسيًا استثنائيًا وحرّجًا، بحكم تضاريس البيئة السّياسيّة المتصارعة التي عاش فيها في جبل الرّس وما حوله. فحين تفتق وعيه صغيرًا، كان أول ما نما وتنامى إلى مسامعِهِ قُضايا الصّراع السّياسيّ والظلم والعسف الذي لاقته أسرته من بني عمهم، العباسيين. وهي مظالم ونكبات مريرة فعلاً، جناها بنو العباس في حق أبناء أعمامهم العلويين حين وصلوا إلى الحكم بعد بني أميّة الذين اضطهدوهم أيضًا؛ لاسيّما قد رَفَع الطرفان "العباسيون والعلويون" شعارًا موحدًا خلال الفترة الأخيرة من حُكم بني أمية، وهو "الرضا من آل مُحمّد"¹ لكن ذلك ما لم يكن، فعادة المتحالفين في الحروب أن يقصي الطرف الأقوى الطرف الأضعف، إن لم ينكّل به، عقب انتهاء هذا التحالف مباشرة، وهو ما كان من بني العباس تجاه بني أعمامهم العلويين؛ وبقدر هذا الغدر والتنكيل والقهر الذي حلّ بهم كان الحقْد والانتقام الذي تشكل كرد فعل طبيعي له، فقد

¹ - هذا الشعار ذاته رفعه الإمام المؤيد بن المتوكل على الله إسماعيل أثناء دعوته للإمامة بعد وفاة أبيه في 1087هـ، كما رفعه - أيضا - العلامة السيد أحمد بن علي السراجي أحد أكبر علماء صنّعاء في عهد المهدي عبد الله، وخرج به على الإمام المهدي مع أصحابه في جمادى الأولى 1247هـ، سبتمبر 1831م، وقد أجابه كثير من قبائل خولان وأرحب ونهم، ومن بلاد حاشد وبكيل، إلا أنه لم يستطع أن يُسقط صنّعاء، وتصالح مع المهدي عقب حصاره لصنّعاء وفضله في إسقاطها، وقيل أن أصحابه قد قتلوه بعد ذلك..

كتب الإمام يحيى بن عبدالله بن الحسن في رسالة إلى هارون الرشيد، منها: " .. حتى لوددت أن أجد السبيل إلى الاستعانة بالسباع عليكم، فضلاً عن الناس".¹ وقريباً من هذا قال الإمام الهادي شعراً، يعكس فيه بجلاء - فيما يعكس - طبيعة تفكيره، ومستوى الرضا النفسي عن الآخر، المختلف معه، كما يكشف مقدار الطموح السياسي الكبير لديه، الذي تحقق فعلاً، نتيجة لقوة العزيمة، وللهمة العالية المخلصة للفكرة. يقول:

الطعن أحلى عندنا من سلوة كرجوا مس حين طال ظماها.

والروس تُحصد بالسيوف ألد من	بيضاء ناعمة تجر رداها
والسائلات من الدماء فواغرا	عظمت فقسط الزيت لا يملها
أشهى وأعجب من صبوح مدامة	في القلب يظهر غيها وراها
وجامح القتلى لأرجل خيلنا	في الكر تقرع فوقها وتطاها
والرُمح في كفي كأن سنانه	نجم المجرة لاح في أعلاها

¹ - تحالف أبو جعفر المنصور، الخليفة العباسي الثاني مع أبي مسلم الخراساني، ضد خصومهما معاً، لكن أبا جعفر غدر بأبي مسلم في أسوأ مشهد إنساني غادر، أشارت إلى ذلك قصيدة بشار بن برد في أنكى تناول، كما ذكر ذلك البردوني، وتحالف علي بن الفضل الخنفرى مع سعيد المناخي حاكم أبين ومذيخرة ضد أبي العلاء حاكم لحج، بحكم الخلاف الحاصل بينهما، ثم ما لبث أن اختلف معه ودخل معه في حرب قضى عليه، وسيطر على أبين ومذيخرة. وتحالف محمد بن يحيى بن المنصور مع الشريف حسين بن علي حيدر ضد "المهدي" للقضاء عليه، وتم عزله فعلاً، مقابل أن يحكم المنصور اليمن الأعلى، وتكون اليمن الأسفل للشريف حسين، وبعد ذلك قام الإمام المتوكل بالانقلاب على الاتفاق بينه وبين الشريف حسين، وهاجمه في حرب شرسة في تهامة، هزمه فيها واستولى على تهامة واليمن الأسفل كاملاً. وبدوره فقد قام حليفه حسين بن المتوكل، وهو أحد قادته في حرب تهامة بعد التحالف بينهما على الانقلاب ضده والدعوة لنفسه إماماً في دمار ملقباً نفسه بالهادي، إلا أن المتوكل قد أسرع بالقضاء على حركته وسجنه في صنعاء، كما قام بقطع رأس النقيب، حليفه السابق الذي تمرد عليه بعد ذلك؛ ليزوق من نفس الكأس على يد الإمام المعزول المهدي علي الذي كلف بالقبض عليه وزجه في السجن، وقتله داخل سجنه. وتحالف في القرن العشرين الإمام يحيى مع يحيى شيبان وآل الأحمر والشيخ العلامة محمد جعمان وآخرين، ضد الأتراك قبل أن يعلن الإمام يحيى إمامته على اليمن، وكانوا من أشد مناصريه، فلما صعد إلى الحكم أدخل "شيبان" السجن حتى مات، وقتل كلا من: العلامة القاضي محمد جعمان، والقاضي إسماعيل الرديمي، والشيخ نايف كحيل، والشيخ عبدالله علي المكرمي، كما ذكر العزي صالح السنيدار في مذكراته، واختلف مع آل الأحمر بعد ذلك. وذات الأمر أيضاً فيما يتعلق بالجبهة القومية بعدن وجبهة التحرير ضد الاحتلال البريطاني لجنوب اليمن، اتفقوا أولاً على إخراج الإنجليز، لكنهم اختلفوا بعد ذلك، وأقصى الجبهويون التحريريين حتى شردوهم من عدن. وتحالف كل من حزب المؤتمر الشعبي العام والتجمع اليمني للإصلاح في حرب صيف 94م للقضاء على الاشتراكي، ثم لم يلبث على عبدالله صالح الرئيس السابق أن همّشهم وانقلب عليهم عقب انتصاره في الحرب.. إلخ، وكثير من مثل هذه التحالفات والتناقضات..

"لقد قَدِمْتُ طلائعُ الأئمَّةِ العلويين إلى اليَمَنِ قبل أحدِ عَشْرَ قرناً، تريد أن تنجو بنفسها من العذاب الشديد الذي كانت تلقاه في بغداد، وكانت القسوة في التعامل بين العباسيين والعلويين قد بلغت حد رمي العلويين أحياء في الآبار التي لا يجدون منها منفذاً، أو بناء الجدران عليهم أحياء، هم وأبنائهم، فاتسمت نفسيات من نجا منهم بالحقد المرير على الوجود، والقسوة على كل من يقع في أيديهم ممن يعترض سبيلهم"¹

ومما يُؤثر عن والد الإمام زيد "علي زين العابدين" وقد عاشَ بعد مقتل أغلبِ أهل بيته قوله: إن يعقوب - عليه السَّلام - بكى حتى ابيضَّت عيناه على يوسف؛ ولم يعلم أنه مات. وإني رأيت بضعةَ عشرَ من أهل بيتي يُذبحون في غداة يوم واحد، أفترّون حزنهم يذهب من قلبي؟! فعلاً.. لم يذهب الحزنُ من قلبه، ومعه حق؛ كما لم يذهب أيضاً من قلب أبنائه وحفدته الذين ارتضعوا هذا الحزن ومعه الكراهية لمناوئتهم ومعارضتهم مذاك وإلى اليوم..!

لهذا فقد رأى الإمام الهادي أنَّ الكفار أوفى من خُلفاء بني العباس " .. بل الكفار الطغاة أوفى بالعهود منهم، وأحفظ لعهودهم منهم لعهدهم، وأقل اجترأ منهم في كثير من الأمور على خِلافهم، وهم في ذلك يدعون "العباسيين" أنهم أئمة المسلمين، وقادة المؤمنين، وخلفاء الواحد الكريم، وولادة الواحد العظيم. كلا.. والذي نفسُ يحيى بيده، ما ولَّى الله أولئك في خَلقه، ولا قلَّدهم شيئاً من أمره، ولا أجاز لهم أمراً ولا نهيّاً في شيءٍ من أرضه"²

ليس ذلك فحسب؛ بل لقد حرّم ذبيحة الشّوافع على نفسه، وعلى أتباعه، لأنهم مشبّهة، والمشبّهة يقولون برؤية الله يوم القيامة!³ وأكثر من ذلك حين كان يُمثّل ببحث القتلى، ويصلبها بعد الإجهاز عليها، وهو أمر نهى عنه الشّرع الحنيف مع غير المسلمين، ناهيك عن المسلمين.

تلك المآسي التي تنامت إلى ذهن الهادي يحيى حسين الرسي صغيراً شكّلت لديه نفسية متأزمة، وروحاً انتقامية، صبغت صاحبها بالقسوة والحدة في التعامل؛ وشكّلت في نفوس العلويين كافة

¹ - الفكر والموقف، الأعمال الكاملة، أحمد محمد نعمان، "الأطراف المعنية في اليمن" جمع وترتيب: لطفى فؤاد أحمد نعمان، ط:1، مارس، 2001م، 333
² - المجموعة الفاخرة، سابق، 537.
³ - نفسه، 689.

نفسية مريّة حاقدة على من سواها، تعيش عقدة الانتقام من الخصم كيفما اتفق، وكلُّ النَّاسِ حُصومهم من وجهة نظرهم! لأنهم إمّا ظالم لهم بصورة مباشرة، وإما مقصر عن مُناصرتهم لاستعادة ما يرونه حقًا إلهيًا لهم..! أضف إلى ذلك قساوة الطبيعة نفسها في بلاد الرّس. والجغرافيا ذاتها محدّد رئيس في تكوين الشخصية، باعتبارها قدرًا محتومًا لا نستطيع التحكم به.

وكما يقال: "إن المصائب تجمع المصابين". وفي سيكولوجيا الأقليات والفئات المستضعفة في كل المجتمعات، وفي كل الأزمنة ما يُجلب الحقيقة ناصعة للجميع؛ إذ يتضامن هؤلاء فيما بينهم حدّ الالتحام أمام العدو المشترك أو الغنيمة المشتركة. وربما وجدوا في اليمين الاثنين معًا. فاليمانيّة شكّلوا ركن دفاع قوي في جيش الأمويين خصومهم، كما أن اليمين بعد ذلك هي غنيمتهم الجديدة بتضاريسها الوعرة وجغرافيتها المنيعّة التي يصعب على العبّاسيين ملاحقتهم في جبالها. وكان قد سبق لعبدالله بن العباس أن نصح الحسين بن علي أن يتوجه إلى اليمن، ففيها شيعته وشيعته أبيه حد قوله، بدلا من أن يتجه إلى العراق، حيث غدروا بوالده هناك. وهو ما لم يفعله، وكان ما كان..

وقد أفرّد الأصفهاني "284 - 356" هـ كتابًا خاصًا عن مآسي هذه الأسرة أسماه "مقاتل الطالبين" سرد فيه من تم قتله منهم، ابتداء من جعفر بن أبي الطالب، وانتهاء بإدريس بن علي، وهم بالملفات إلى فترة أبي الفرج الأصفهاني نفسه في العصر العبّاسي، وفي تاريخهم من المآسي والمظالم التي حلت بهم ما يبرر لورثتهم من بعدهم ذلك الحقد الدفين تجاه ظالمهم، وإن كان لا يبرر لهم ذلك البطش أو تلك القسوة تجاه الأجيال التالية، أو تجاه من تم حكمهم من قبلهم.¹

يقول الدكتور علي الوردي: " من يدرس تاريخ العلويين يجدهم ثورًا من طراز عجيب. ولم يمر في تاريخ الإسلام جيلٌ دون أن يسمع النَّاسُ بخبر ثورة جاحمة، قام بها رجلٌ من العلويين، أو ممن يتنسب إليهم. ولا يخفى أن أو ل حرب داخلية نشبت بين المسلميّن كانت في عهد علي. وقد اتُّهم عليّ بتهمة سفك الدماء مرارًا، حتى إن ابن عمه ونصيره ابن عبّاس اتهمه مرة بهذه التهمة الشنيعة. قيل إن ابن عبّاس أخذ شيئًا من بيت المال يوم كان عاملاً لعلّي على البصرة، ثم هرب به؛ فكتب إليه عليّ يولمه ويهدده ويخوفه من الله. فأجاب ابن عبّاس: إنه يؤثّر أن يلقي الله وفي ذمته شيء من

¹ - تشير المصادر التّاريخيّة ومنها مقاتل الطالبين إلى أن ثمانية من أبناء الإمام عليّ كرم - الله وجهه - قد قتلوا من بعده قتلاً سياسيًا، وهم: الحسن والحسين وعبدالله وجعفر وعثمان والعبّاس ومحمد الأصغر وأبو بكر..!

أموال المسلمين على أن يلقي الله وفي ذمته تلك الدماء التي سُفكت يوم الجمل، والتي سُفكت في صفين، والتي سُفكت في النهروان؛ فلما قرأ عليّ هذا الجواب اللاذع من ابن عمه، قال متألمًا: وابن عباس لم يشاركنا في سفك الدماء"¹!

مضيفًا: "وقيل - أيضًا - إن رجلاً كان يتوضأ ذات يوم، فيصب على يديه ماء كثيرًا، فرآه عليّ، وأخذ يلومه على هذا الإسراف في صب الماء، فرد عليه الرجل، قائلاً: الإسراف في صب الماء خيرٌ من الإسراف في سفك دماء المسلمين"².

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن البيئة التي هاجر إليها الإمام الهادي نفسه كانت أيضًا من القساوة بمكان، ولم تقل قسوة وصلابة عن سابقتها، خاصة بعد الانقطاع الحضاري الذي أصاب هذه البلاد. وإلى هذا أشار الأستاذ أحمد مُجَّد نعمان بقوله: "وفي هذا المناخ النفسي، وتحت وطأة هذه الظروف المعيشية القاسية نشأت دويلات يمنية متعددة، تعتمد في أساس وجودها على استغلال احتياجات القبائل البدوية للاندفاع من مواقعها الأصيلة نحو الأراضي الخضراء، فخلقت لها المبررات العقائدية لجعل الاغتصاب والتسلط شرعيًا، وكأن الصِّراع ليس من أجل توفير إمكانات العيش، إنما من أجل إعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيل الله بين مؤمنين حقيقيين، ومؤمنين زائفين. لقد كان ضياع الهوية الوطنية وعدم الاقتناع الواعي بأن اليمن جميعًا مجال الحياة لكل أبنائه هو الدافع لإشراك السماء في صراعات الأرض، وجعلها وكأنها هي المحرك لهذه التوازع."³

وصدق الشاعرُ الفيلسوف أبو العلاء المعري حين قال:

ألا إن أخلاق الفتي كزمانه فمنهن بيضٌ في العيون وسودٌ

1 - وعاظ السلاطين، الدكتور علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت لبنان، ط:2، 1995م، ص 200.
2 - نفسه. وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب عن أنصار علي في صفين أنهم كانوا يخاطبون أصحاب معاوية، وهم يرتجزون، قائلين:

نحن ضربناكم على تنزيله واليوم نضربكم على تأويله. ومعنى هذا - كما ذكر الوردي -: أن عليا كان يحارب قريشًا في زمان النبي على تنزيل القرآن، وهو اليوم يحاربهم على تأويل القرآن وتفسيره.

3 - الفكر والموقف، مرجع سابق، 333

ولم تكن تلك القصيدة التي نظمها الإمام الهادي، مفاخرًا بالقتل والإبادة إلا انعكاسًا مباشرًا لنفسيته وطبيعة مزاجه، لا دليلًا لحالة موضوعية، تستدعي سفك كل تلك الدماء لمسلمين مُسلمين، ومنها:

الخيلُ تشهد لي وكل مثقفٍ بالصبر والإبلاء والإقدام
حقًا ويشهدُ ذو الفقار بأني أرويت حديه بدم طُغام
نهلًا وعلا في المواقف كلها طلبا بثأر الدين والإسلام
حتى تذكر ذو الفقار موافقًا من ذي المعالي السيد القمقام¹

حين لاقى اليهودُ من أشكال الاستبداد وصنوف الأذى ما لاقوه أيام السبي البابلي الأول والثاني في بابل على يد الآشوريين "الوثنيين" خرج هؤلاء اليهود أشدَّ عُصريةً وأكثر ادعاءً للاصطفائية السُلالية، مزدربين غيرهم بصورة لم تكن معهودة عنهم من قبل، فكتبوا هناك التلمود² في ظل ظروف نفسية مُتأزمة وغير سوية، نظرت إلى كل من عداهم نظرة احتقار وسُخرية وازدراء، فكانت الروح الانتقامية لهم واضحة بين أسطر هذا الكتاب، لا لأن الآخرين فغلًا كما ذكروا، ولكنه حُب الانتقام، لا غير.

وقد ازدادت هذه الروح صلابة في أوروبا أيام محاكم التفتيش في القرون الوسطى وما تلاها، حين اضطهدهم المسيحيون ونكلوا بهم؛ كونهم من وجهة نظر الديانة المسيحية "قتلة المسيح" الذي هو "الرب" في اعتقادهم، فعمق هذا الاستبداد والقهر في نفوسهم الحقد أكثر، وخرج اليهود أشدَّ صلابة من ذي قبل، وأكثر عنصرية، وقد ورثوا حقد القرون العابرة، إضافة إلى التنكيل والبغي الذي

¹ - سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، سابق. والمتقف من أسماء الرُمح.

² - لليهود تلمودان اثنان، البابلي والفلسطيني. والتلمود البابلي هو مؤلف جماعي، يلخص الأفكار التشريعية والأسطورية التصويرية المركزية الخاصة بحكام إسرائيل في فترة ما بعد اختتام المشنا، بداية القرن الثالث، سواء أولئك الذين أقاموا في بابل أو المقيمين في أرض فلسطين. وهذه الأفكار كتبت في الأساس كشروح لأقوال الأجيال السابقة. أما التلمود الفلسطيني فهو أقل أهمية بالنسبة لهم، وأدبياته - في أغلبها - متضمنة في التلمود البابلي.

حصل لهم حينها، فكان التلمود هو الانعكاس النفسي المباشر، بكل ما في النَّفس من كبتٍ وحقْدٍ وسوء، لا العقيدة السَّماويَّة المقدَّسة..

من جهة أخرى - أيضًا - كانت القيسيَّة واليمانيَّة واحدةً من أسباب وعوامل الصِّراع بين جنوب الجزيرة وشمالها قبل الإسلام، وامتدت بعد ذلك إلى العصر الأموي فما بعده، وإن كانت حَفنت بعض ملامحها في عصر صدر الإسلام، عدا بعض المواقف القليلة، مثل الأمر بهدم قصر عُمدان الشهير أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان لواليه في صنعاء؛ أما في العصر الأموي - القائم أساسًا على التفاخر بالقبيلة والنسب - فقد عادت هذه النزعة إلى سابقتها، وربما أشد، بدليل سقوط ثلاثة شعراء هم من أشهر الشعراء العرب وأكثرهم فُحولة، صرعى بسيف بني أمية، خلال ما يقارب عشرين عامًا إبان حُكمهم، لا لشيء إلا لاعتزازهم بيمانيَّتهم، والتغني بمجد اليمَن وحضارتها ومُوقها، وإن قال الأمويون بغير ذلك، كما ذهب إلى ذلك البردوني. وهم يزيد بن المفرغ الحميري، على يد عبيدالله بن زياد، أخي معاوية غير الشرعي من "سُمية" وواليه في العراق. ثم الشَّاعر عبد الرحمن بن عبدالله الحارث المعروف بأعشى همدان الذي قتله الحجاج صبرًا، رغم كثرة الشَّافعين له. ثم وضَّاح اليمَن، وثلاثتهم أكثروا من التغني والتفاخر باليمَن واليمانيَّة وأمجادها.¹

بل، أظهر من ذلك - وفي عهد الخلافة الراشدة - نلمح هذا الداء بوضوح في خلاف عمرو بن معدي كرب مع سعد بن أبي وقاص، حتى أنشد ابن معدي كرب:

أصُولُ باب القادسيَّة مُعلِّمًا وسعد بن أبي وقاص علي أمير

¹ - قضايا يمنية، عبدالله البردوني، ط: 5، 1996م، 204. هبت الريح ذات يوم وعباد بن زياد واقف، وكان ذالحية كثة وطويلة، فنفشها الريح، فأنشأ يزيد على الفور:

ألا ليت اللحي كانت حشيشًا فنطعمها خيول المسلمينا.

فغضب منه ابن زياد، وكتاب إلى أخيه عبيدالله يخبره بما قال ابن المفرغ الحميري، فنقل الكلام لعبيدالله إلى معاوية، فوجهه معاوية بتأديبه، ولكن دون أن تصل العقوبة إلى القتل، والأرجح أنه لم يُقتل كما ذهب البردوني؛ بل تم تعذيبه بتلك الصورة الشائنة المذكورة في البداية والنهاية لابن كثير؛ أما الأعشى فقد كان ممن تم سبيهم ببلاد فارس، وأشفقت لحاله إحدى النساء، ففكت رباطه وأطلقت سراحه، وقيل في ذلك كلام كثير، اشتهر من بينها:

من كان يفديه من الأسر ماله فهمدان تفديها من الأسر أيورها!

أما وضَّاح اليمَن، فهو من ذي رعين الحميري، من كلال، هاجر إلى صنعاء، ثم إلى الشَّام أيام عبد الملك بن مروان. والعجيب أن القُطانيَّة والعُدنانية عادت من جديد في عقدي الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي في أدبيات الثوار اليمنيين الذين تغنوا بها كثيرًا، واعتبروها إحدى ركائز ومنطلقات النضال الوطني ضد الإمامة.

نعطي السّوية في طعن له نفذ ولا نساوي إذ تُعطي الدنانير

وإن نمت يوم طعن دون سيدهم قالت قريش ألا تلك المقادير

وكتب التّاريخ ونقائض الشّعر العربي والأدب مليئة بهذا اللون من الصّراع، في السّلم وفي الحرب على حد سواء؛ بل حتى في لحظات مواجهة العدو، كما تروي كتب التّاريخ عن القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي، أن جيشه انقسم إلى مُضريّة ويمانيّة، وذات الأمر - أيضًا - مع القائد عبد الرحمن الغافقي في معركة "بواتيه" أو "بلاط الشهداء". ويقول البعض إن سبب انهزام المسلمين في هذه المعركة يعود إلى انقسام الجيش الإسلامي داخله إلى مُضرية ويمانيّة!

وقد تكون قصيدهُ الكميت بن زيد الأسدي¹ "المذهبة" أوضح دليل، وأصرح برهان على ذلك الصّراع الذي أسفر عن وجهه كاملاً، وفتح الباب لصراعات أخرى استجدت من بعدها، سواء على الصّعيد الحربي، أم على صعيد ما عُرف بالنقائض الشّعريّة؛ إذ لم يترك الكميثُ الأسدي حيًّا من أحياء اليمن ولا رئيسًا من رؤسائهم إلا هجّاه، مفضلاً فيها العدنانيّة على القحطانيّة. وقد كانت سببًا في سُقوط امبراطوريّة الأمويين ومروان بن مُحمّد، آخر خلفائها الذي لم يفظن أو يحسن مكر عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب الذي كان وراء القصيصة، وأوعز إلى الكميت أن ينظمها على النحو الذي أراد، فتحولت اليمانية مباشرة عن مروان، وطالما ناصرته من قبل، كما ناصرت أول ملك أموي، وهو معاوية ابن أبي سفيان.²

ونورد القصة كاملة هنا كما أوردتها المسعودي في تاريخه..

نخص عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فأخذ ثوبًا جلدًا فدفعه إلى أربعة من غلمانهِ، ثم جعل يدخل دُور بني هاشم، ويقول: يا بني هاشم، هذا الكميت قال فيكم

¹ - قيل قصيدة الكميت، كان قد ظهر للعلن ما عرف بـ "ملحمة بن أبي عقب" وهي ملحمة شعريّة سياسية، للحلف العلوي العباسي حينها ضد الأمويين، وكانت تبشر بانتهاز الأمويين وقرب عهد العباسيين، ومطلعها:

رأيت من الأمور عجيب حال لأسباب يُسطرها مقالِي
² - كانت اليمانية السند الرئيس لمعاوية، خاصّة بعد أن أصره إليهم وتزوج منهم ميسون بنت بحدل الكلبيّة، أم يزيد، فكانوا أيضًا سنده بعد توليه الحكم، كما أصره إليهم قبل ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه، حين تزوج منهم نائلة بنت الفرافصة، وقد كانتا - نائلة وميسون - مسيحيّتين..

الشَّعَرَ حِينَ صَمَتَ النَّاسُ عَنْ فَضْلِكُمْ، وَعَرَضَ دَمَهُ لِبَنِي أُمِّيَّةَ، فَأَثَبُوهُ بِمَا قَدَرْتُمْ؛ فَيَطْرَحُ الرَّجُلُ فِي الثُّوبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ دَنَانِيرٍ وَدِرَاهِمٍ، وَأَعْلَمَ النِّسَاءَ بِذَلِكَ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَبْعُثُ مَا أَمْكَنَهَا، حَتَّى إِذَا لَتَخَلَ الْخُلِّيَّ عَنْ جَسَدِهَا، فَاجْتَمَعَ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالدِّرَاهِمِ مَا قِيمَتُهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ، فَجَاءَ بِهَا إِلَى الْكُمَيْتِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْمُسْتَهْلِ، أَتَيْنَاكَ بِجَهْدِ الْمُقَلِّ، وَنَحْنُ فِي دَوْلَةِ عَدُونَا، وَقَدْ جَمَعْنَا لَكَ هَذَا الْمَالَ، وَفِيهِ خُلِّيَ النِّسَاءِ كَمَا تَرَى، فَاسْتَعْنِ بِهِ عَلَى دَهْرِكَ؛ فَقَالَ: يَا بَيْتُ أَنْتِ وَأُمِّي، قَدْ أَكْثَرْتُمْ وَأَطَيْبْتُمْ، وَمَا أَرَدْتُ بِمَدْحِي إِيَّاكُمْ إِلَّا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَمْ أَكْ لَأَخْذِ لَدُنْكَ ثَمَنًا مِنَ الدُّنْيَا، فَارْدَدَهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَهَدَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ بِكُلِّ حِيلَةٍ، فَأَبَى، فَقَالَ: إِنْ أُبِيَّتْ أَنْ تَقْبَلَ فَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا تَغْضَبُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، لَعَلَّ فِتْنَةً تَحْدُثُ فَيُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهَا بَعْضُ مَا نَحْبُ، فَابْتَدَأَ الْكُمَيْتُ، وَقَالَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَذْكَرُ فِيهَا مَنَاقِبَ قَوْمِهِ مِنْ مُضَرَ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعَدٍ، وَرَبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ وَإِيَادَ وَأَعْمَارَ ابْنِي نَزَارٍ، وَيُكْثِرُ فِيهَا مِنْ تَفْضِيلِهِمْ، وَيَطْنِبُ فِي وَصْفِهِمْ، وَأَنْهُمْ أَفْضَلُ مِنْ قَحْطَانَ، فَأَغْضَبَ بِهَا بَيْنَ الْيَمَانِيَّةِ وَالنَّزَارِيَّةِ، وَمَطَّلَعَ الْقَصِيدَةَ:

أَلَا حَيَّيْتِ عَنَّا يَا مَدِينَا وَهَلْ نَاسٌ نَقُولُ مُسَلِّمًا

إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ تَصْرِيحًا وَتَعْرِيفًا بِالْيَمَنِ فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَبَشَةِ وَغَيْرِهِمْ فِيهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ:

لَنَا قَمَرُ السَّمَاءِ وَكُلُّ نَجْمٍ تُشِيرُ إِلَيْهِ أَيْدِي الْمُهْتَدِينَ

وَجَدتَّ اللَّهُ إِذْ سَمَّى نَزَارًا وَأَسَكَّنَهُمْ بِمَكَّةَ قَاطِنِينَ

لَنَا جَعَلَ الْمَكَارِمَ خَالِصَاتٍ وَلِلنَّاسِ الْقَفَى وَلَنَا الْجَبِينَا

وَمَا ضَرَبْتَ هِجَائِنَ مِنْ نَزَارٍ فَوَالِجٍ مِنْ فَحُولِ الْأَعْجَمِينَا

وَمَا حَمَلُوا الْحَمِيرَ عَلَى عِتَاقٍ مَطَهَّرَةً فَيَلْفُوا مُبْلِغِينَا

وما وَجَدَتْ نِسَاءَ بَنِي نَزَارٍ حلائلِ أسودينَ وأحمرينا

وقد نقض دَعِبِل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميت وغيرها، وذكر مناقب اليَمَنِ وفضائلها من مُلوكها وغيرها، وصرّح وعرضَ بغيرهم، كما فعل الكميت، وذلك في قصيدته التي أولها:

أفيقي من ملامك ياظعينا	كفاك اللّومَ مرّ الأربعينا
ألم تُخزِنِكِ أحداثُ اللَّيالي	يُشيبنَ الذوائبَ والقرونا
أحيي الغرّ من سرّوات قومي	لقد حَيَّيتِ عَنّا يامدِينا
فإنْ يكُ آلُ إسرائيل منكم	وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللّواتي	مُسِخَنَ مع القرود الحاسينا
بأيلة والخليج لهم رؤومٌ	وآثارُ قَدُومَنَ وما مُحِينا
وما طَلَبُ الكميتِ طِلابُ وتِرٍ	ولكنّا لنصرتنا هُجِينا
لقد عَلِمَتْ نِزارُ أنّ قومي	إلى نصرِ النبوةِ فاخرينا

وهي طويلة. ونمي قول الكميت في النزاريّة واليَمانيّة، وافتخرت نزارٌ على اليَمَنِ، وافتخرت اليَمَنُ على نزار، وأدلى كل فريق بما له من المناقب، وتحزبت الناسُ، وثارَت العصبيةُ في البدو والحضر، فنتج بذلك أمر مروان بن مُحمَّد، وتعصبه لقومه من نزار على اليَمَنِ، وانحرف اليَمَنُ عنه إلى الدَّعوة العباسية، وتغلغل الأمرُ إلى انتقال الدَّولة عن بني أمية، ثم تلا ذلك من قصة معن بن زائدة

باليَمَنِ وقتله أهلها تعصبًا لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه الحلف الذي كان بين اليَمَنِ وربيعة في القَدَمِ، وفعل عُقْبَةُ بن سالم بعمان والبحرين، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة وسائر نزار ممَّن بأرضِ البحرين وعمان، كبادًا لمعن، وتعصبًا من عقبة بن سالم لقومه من قحطان..¹

تلك المواقف وما يستتبعها من احتقانات أخرى في اللاوعي جعلت الهادي وبنيه من بعده يتعاملون مع اليمنيين بنفسية المنتقم، وأنانية المستعلي الذي ابتسم له الحظ في فترة من فترات التحول التاريخي، خلال فترة حُكمهم، وإن لم يعلنوا ذلك صراحة؛ فكانت النَّظَرِيَّةُ الهَادَوِيَّةُ هي الانعكاس النفسي المباشر بكل ما تحتقنه النَّفْسِيَّةُ المظلومة، من ثاراتٍ وحقدٍ وكبْتٍ، حتى لقد اضطبغت هذه النَّظَرِيَّةُ ذاتها بالصَّبْغَةِ البُكائِيَّةِ عبر التاريخ، وما الجُلْدُ واللطمُ يوم عاشُورا للمحتفلين به إلا واحدٌ من أشكال هذه البُكائِيَّةِ ومظهراتها؛ بل إنَّ رَهانَ قَضِيَّتِهِم الذي يُناورن به هو المظلوميَّةُ التاريخِيَّةُ من لدُن الإمام علي بن أبي طالب وحتى اليوم، وفيما بين يوم علي واليوم آلاف الخُرُوجات والحروب والثَّارات التي تسببت بها هذه الجَماعَة، ولا تزال..

وهذا الإمام أحمد بن سُلَيْمان يسير على ذات النَّهْج الذي اختطه الإمام الهادي في العنف والترهيب تجاه اليمنيين؛ يقول شِعْراً، مخاطبًا قومه:

فمتى كسوت السَّيف من هام العدى	علقا كساني هية وجلالا
والسَّيف يُغني المفلسين ويشبع الغرثى	ويروى العاطشين زلالا
والسَّيف ينفع في الصَّدِيق وفي الذي	عادى ويترك عزمه منها لا
والسَّيف يُسمع من به صمم إذا	حكمته ويعلم الجهالا
والسَّيف ينفي لي تحكُّمه الأذى	ولعزة ويُحصل الأموالا

¹ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، شرح وتقديم: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 3/279.

والسَّيف يجمع لي إذا حكمته
قوما يفيد معونة ونوالا
فلأؤيمن نساء قوم منهم
ولأؤيمن الطير من أجسادهم
ولأكثرنَّ جندي الأثقالا¹

قبل هؤلاء المتوحشين نفسيًا، كتب إبراهيم الإمام - أحد دعاة العباسية ضد الأمويين - إلى حليفهم أبي مسلم الخراساني في بلاد فارس، يقول له: "إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدًا يتكلم بالعربية إلا قتلته فافعل. وأما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، وعليك بمُضِرِّ فإثم العدو القريب الدار، فأبْدُ حُضْرَاءَهُمْ، ولا تدع في الأرض منهم دياراً"²
وتذكر المصادر التاريخية أن أبا مسلم قتل - بناء على هذه الوصية - في بضع سنين ستمئة ألف رجل غيلة بغير قتال..³!

إنها نفسية المنتقم قديمًا وحديثًا.. منتقم ممن يرى أن الآخر سلبه حقه الإلهي في الحكم..!
ولا تزال إلى اليوم، وما يجري حاليًا هو عين ما جرى بالأمس، مع فارق أدوات الانتقام، على الرغم من كل المتغيرات والمستجدات..!

إنها ذات النفسية والعقلية أيضا التي جعلت من عالم كبير وأديب فذ، هو العلامة أحمد بن محمد الشامي أن ينحو ذات المنحى، فيعلن هو من جهته في ملحمة الشهيرة: "دامغة الدوامغ" ما أسماه في عنوان جانبي: "يمين الثأر" قائلًا:

وقائلةٍ وقد نفذ اصطباري
وكدتُ أذوب بالذكرى حنينا
أبكي من مضى من أهل ودي
وأستبكي ديار الناجعينا
وأرثي سادة سيقوا اعتباطاً
إلى ساح المنايا موثقينا

¹ - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، 84.

² - ضحى الإسلام، أحمد أمين. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003م، د.ط. 1/50.

³ - وعاظ السلاطين، 213.

"ولم تُغسل جماجمهم بسدر
 "تظل الطير عاكفة عليهم
 علام الدمع والحسرات هذي؟
 ستسلو، قلت: لا أسلو دياري
 عدمت الدمع إن لم أنتزفه
 وظلت تأكل الحسرات قلبي
 ولا أبقيت لي الأيام خالاً
 سأطلبُ ثأرهم حتى أراها
 ونشفي غلة، ونميت ضغناً
 ولكن في الدماء مرمّينا"
 وتنتزع الحواجب والعيونا"¹
 فقلت: لكم شفى دمع حزيننا!
 ستنسى، قلت: لن أنسى القطينا
 دما بعد اللواتي والذينا
 إذا لم أرع حقهم المصونا
 إذا سالتُ خصمهم الخؤونا
 بلاقع أو نعود محكمينا
 ونستقضي المغارم والديونا

سيعلم كل ختالٍ أثيم
 سنجعل من حصونهم قبوراً
 بأنا رغم كل العالمينا
 ونبني من قبورهم حُصونا

وقد قال الإمام الشوكاني عن رافضة زمانه من الهادوية المتعصبة الذين خبرهم وخبر التعامل معهم: "...وهكذا من ألقى مقاليد أمره إلى رافضي وإن كان حقيراً، فإنه لا أمانة لرافضي قط على من يخالفه في مذهبه ويدين بغير الرفض؛ بل يستحل ماله ودمه عند أدنى فرصة تلوح له، لأنه عنده مباح الدم والمال، وكل ما يظهره من المودة فهو تقيةٌ يذهب أثره بمجرد إمكان الفرصة. وقد جربنا هذا تجريباً كثيراً، فلم نجد رافضياً يخلص المودة لغير رافضي، وإن أثره بجميع ما يملكه، وكان له بمنزلة

¹ - هذان البيتان لامرئ القيس بن حجر الكندي، حين رثى قتلى كنده، وعددهم ثمانية وأربعون شخصاً، أسرهم المنذر بن ماء السماء، ثم أمر بضرب رقابهم في موقعة يوم الكلاب، عام 525م. والكُلاب - بالضم - اسم ماء وموضع بين الكوفة والبصرة.

الخول، وتودد إليه بكل ممكن. ولم نجد في مذهب من المذاهب المبتدعة ولا غيرها ما نجده عند هؤلاء من العداوة لمن خالفهم؛ ثم لم نجد عند أحد ما نجد عندهم من التجري على شتم الأعراس المحترمة، فإنه يلعن أقبح اللعن، ويسب أفضع السب، كل من تجري بينه وبينه أدنى خصومة وأحقر جدال وأقل اختلاف.

ولعل سبب هذا - والله أعلم - أنه لما تجرّوا على سب السلف الصالح هان عليهم سب من عداهم، ولا جرم فكل شديد ذنب يهون ما دونه..¹

¹ - أدب الطلب ومنتهى الإرب، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبدالله بن يحيى السريحي، دار الكتب العلمية، ط:1، لبنان، 2008م. ص: 119.

المبحث السادس

وارثو مجد الهادي.. ملوك أكثر من الملك

يقول الباحثة اليميني مُجَّد عزان: " .. وعلى الأرض تمكن الإمام الهادي من تأسيس دولة ذات خلفيّة فكرية معينة، تبنت النظريّة الجاروديّة في الإمامة إلى حد ما، لا تقليدًا لأبي الجارود، ولكن توافقًا معه في الأصول العامّة. وعند ذلك برزت معالم القول بحضّر الإمامة، فكان الإمام الهادي أوّل من صرّح من أئمّة الزيدية بذلك، فذكر في كتاب الأحكام أنّه يجب على المكلف أن يعتقد أنّ الإمامة في ذرية الحسن والحسين دون غيرهما، وأنّ الإمامة من بعدهما من ذريتهما، من سار بسيرتهما، وكان مثلهما، واحتذى بجدوهما"¹

مضيفًا: ولأن معظم الذين تمكنوا من الوصول إلى الرّعاية بعد الهادي والحكم من الزيدية كانوا جاروديّة في فكر الإمامة؛ فقد فرضوا ثقافتهم على المجتمعات التي سيّطروا عليها، كما هو حال أية سلطة تنشأ على أساس فكري معين، واختزلوا الفكر الزيدي في التيار الجارودي، فاعتبروا الزيدي من كان جاروديًا فقط، حتى قال الإمام عبدالله بن حمزة: الزيدية على الحقيقة هم الجارودية، ولا نعلم في الأئمة - عليهم السلام - من بعد زيد بن علي - عليه السلام - من ليس بجارودي، وأتباعهم كذلك..

وذكر الباحث برنارد هيكل؛ نقلًا عن المستشرق "مادلونج" أن المعتقدات الجارودية قد غلبت على الأوساط الزيدية منذ القرن الثالث الهجري، وقد أثرت هذه الأفكار على الإمامين القاسم بن إبراهيم، وحفيده الهادي يحيى بن الحسين. وأن الهادي - حرجًا على رأي القاسم - قد قال إن أبا بكر وعمر كانا مرتدين، يستحقان عقوبة الإعدام.²

¹ - محمد سالم عزان، مرجع سبق ذكره.

² - أنظر: الإصلاح الديني في الإسلام، تراث محمد الشوكاني، برنارد هيكل، نقله إلى العربية: علي محمد زيد. جداول النشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط:1، 2014م، 266.

ويقرر كثيرٌ من الباحثين أنَّ الإمام القاسم بن إبراهيم، جد الإمام الهادي، لم يؤثر عنه أن قال بشرط البطينين أبداً؛ بل لقد خاضَ جدلاً كبيراً مع أتباع فكرة الحق الإلهي، ودخلت الزيدية في بلاد المشرق العربي في خلافات عميقة، واحترابات داخلية، انتهت باغتيالات رموز الزيدية الخالصة ممن عارضوا فكرة الحق الإلهي الفارسية إبان حكم العباسيين الذين لم يكونوا بعيدين عن هذا الصراع!..

وهكذا تبلورت بعد الهادي مدرسة جديدة، عزت نفسها للزيدية؛ بل رأت نفسها أنها الزيدية بذاتها، ماعدا شخصيات قليلة، كالإمام يحيى بن حمزة، وكلها تبنت رأي الجارودية؛ بل صارت جارودية، ولم تستطع الفكاك عن هذا الرأي الذي أصبح ثقافة سائدة، حتى إن الإمام عز الدين بن الحسن روى عن أبي علي الجبائي أنه قال: "إذا قدر خلو الزمان من صالحي فريش جاز نصب إمام من غيرهم".¹

يقول ابن أبي الحديد، متحدثاً عن الإمامة: "قال معظم الزيدية إنها في الطالبين، لا تصلح في غير البطينين".

وقال الإمام أحمد بن سليمان ت: 566هـ: "أجمع ذوو قرابة رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - على أن الإمامة خاصة في الحسن والحسين وأولادهما"² وكان الإمام أحمد بن سليمان ممن أحدثوا تغييراً ملحوظاً في فكر الزيدية مما تبقى من الزيدية الخالصة إلى الجارودية؛ حيث كلف القاضي جعفر بن أحمد بالذهاب إلى بلاد الجبل والديلم، لإحضار كتب الزيدية من هناك، فذهب، وعاد بها؛ لكن في تلك الفترة كانت الزيدية في نُسختها الأولى قد تلاشت، وغلب عليها فصيل أو جماعة الحق الإلهي، فكانت الكتب التي أتى بها متشعبةً بهذه الفكرة الموغلة في التشيع حد التطرف، إلى حد جعل أهل البيت هم أيضاً الذين لهم دون سواهم حق القيادة السياسية والاجتماعية والعلمية، ولم تكن حتى هذه الفترة موجودة في اليمن إلا في حدها الأدنى وبصورة خجول جداً، مثلها مثل فكرة العلم اللدني³ الذي قال به الإمام الهادي؛ لكنّه لم يولها اهتمامه، مثلما أولى فكرة البطينين كلَّ اهتمامه، وذلك لأنه لا يترتب عليها أمرٌ جليل، له نفس ما يترتب على

¹ - العناية التامة في تحقيق مسألة الإمامة، الإمام عز الدين بن الحسن، "مخطوط" وهي منقولة في كتاب: قرشية الخلافة، تشريع ديني أم رؤية سياسية؟ محمد يحيى سالم عزان، مركز التراث والبحوث اليمني، ط: 1، 2004م. 68.

² - محمد سالم عزان، سابق، 29.

³ - لم أعر في سيرة الهادي على أنه تبني ذلك، أو في أحد كتبه، إنما ذكر ذلك عنه بعض المتأخرين.

شرط "البطنين" وله انعكاساته السِّياسِيَّة المباشرة والكبيرة، ففكرة العِلْم اللدُّني ثانوية من وجهة نظره، لا أساسِيَّة؛ لذا برز ذلك الصِّراع الحاد داخل جَنَاحين، أحدهما زيدي، متمثل في نشوان بن سعيد الحميري وأتباعه، ثم الإمام أحمد بن سليمان، ومن بعده الإمام عبدالله بن حمزة وأتباعهما؛ ففي هذه الفترة بدأت الهادويَّة تدخل مُنعطفها الأيديولوجي الثاني منذ الإمام الهادي الذي صَنَعَ أولَ منعطفٍ أيديولوجي لها، ولم تكن من قبل كذلك؛ بل لقد حاول الجناح "الحسني" أن يَحصر الخِلافة فيهم دون بني عمهم من الفصيل "الحُسَيني"!

أيضا قَالَ بهذا الرأي "البطنين" الإمام عبدالله بن حمزة صَراحة بقوله: "فمن كان على عقيدته في الديانة، والقول بالمسائل الإلهيَّة، والقول بالحكمة، والاعتراف بالوعد والوعيد، وحصر الإمامة في الفرقة الفاطميَّة، والنص في الإمامة على الثلاثة الذين هم علي وولديه، وأن طَرِيق الإمامة الدَّعْوَة فيمن عداهم، فمن كان مُقرا في هذه الأُصول فهو زيدي".¹

وقد نقل مجد الدين المؤيدي - الفقيه الهادوي المعاصر - فتوىً منسوبةً للإمام مُجَدِّد بن القاسم الحسيني ما نصه: "اعلم أن الإمامة الشَّرعيَّة خلفَ النبوة في الوجه الذي وجبت لأجله وهي مسألةٌ عظيمةُ الشَّأن، ساطعةُ البرهان، من أُصول المسائل، المبتنى عَلَيْهَا كثيرٌ من الشَّرعيَّات والوسائل، وقد أثنى الله في كتابه العزيز على القائم بها تعبداً واحتساباً، الكامل بأوصافها خَلْقاً وخُلُقاً وانتساباً".²

ويقول بدر الدين الحوثي - وهو من عُلماء الهادويَّة المعاصرين: "الولاية بعد رُسُول الله - ﷺ - لعلي عليه السلام، ومن بعده لأخيار أهل البيت، الحسن والحسين وذريتهما الأخيار. والولاية لمن حَكَمَ الله بها له في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ، رضي النَّاس بذلك أم لم يرضوا، فالأمرُ إلى الله وحده، ولا دخل للشُّورى".³

¹ - الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين. يحيى بن حمزة، مكتبة دار التراث، صنعاء، ط:1، 1990م، 51.

² - التحف، سابق، 381. والواقع أننا لا ندري ولا نعرف أين ذكر الله ذلك في كتابه العزيز، كما ذكر صاحب الفتوى!!

³ - إرشاد الطالب، بدر الدين الحوثي، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط:1، 1994م، 16. وفي واحد من أشهر الحوارات الصحفية التَمَيِّزِيَّة تكلم العلامة بدر الدين الحوثي بتفصيل عن مسألة الولاية والإمامة؛ حيث قال في معرض رده على الزميل جمال عامر حول الإمامة: "نعم، هي في البطنين إذا كانوا مع كتاب الله، وكانوا مع صلاح الأمة، فهم أقوى من غيرهم في هذا الشأن" مضيفاً: "هناك نوعان. نوع يسمى الإمامة، وهذا خاص بأل البيت، ونوع يُسمى الاحتساب، وهذا يمكن في أي مؤمن عدل أن يحتسب لدين الله، ويحمي الإسلام، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، =

ونفسُ الفتوى قَالَ بما أيضا الفقيه الهادوي مُحَمَّد عبد العظيم العمري، وهو من فقهاءهم المعاصرين، في واحد من أشهر حواراته الصَّحْفِيَّة التي أجريتها معه لصحيفة الجمهورية، حيثُ قال: "نحن لا نُؤمن إلا بإمامٍ من آل البيت، من ذُرِّيَةِ الحسَنِين، الجامع لشروط الخلافة" مضيِّفاً: "الدستور هذا هو بدعة عندنا. لا يوجد عندنا دستور. الدستور مأخوذٌ من الخارج، وليس من الكتاب ولا من السنة، اللفظة فارسية، ولا يلزمننا هذا الدُّستور أبداً". أما حين سألته عن علاقته بالرئيس اليمني السَّابِق علي عبدالله صالح، في سياق ما إذا كان مُعترفاً بشرعيَّته وهو الرئيس المنتخب عبر الصندوق الانتخابي، أجاب: ليس حاكماً شرعياً. حاكم دولة.. كما لو أنه في بلد مجاور لنا، أو نكون في بلد أجنبي..¹

من ناحية ثانية: إن هذا الجدل والأخذ والرد حول مسألة الإمامة وأحقيَّتها لم يدُرْ إلا داخلَ هذه الجَمَاعَة فقط وسُئلتها، لما يترتب على من يظفر بالإمامة من داخل هذه الجَمَاعَة من الامتيازات الدنيويَّة بدرجة رئيسيَّة. وهو ما يؤكد أن المسألة في أساسها لا من الفروع ولا من الأصول؛ بل مجرد رأي وُضع من سابق، فتناقضته الأجيال بعد ذلك على طريقتها، وكلُّ رأى فيها رأيه! ولو كانت من الأصول لكانت حديثً المسلميْن كلهم؛ إذ لن يترك المسلمون - سنةً وشيعةً - أصلاً من أصول عقيدتهم مهما كان الأمر؛ لاسيَّما وقد عُرف أهل السنة بميلهم إلى النصِّ كثيراً، والالتزام الحرفي - في كثير من الحالات - بتطبيق سنة الرُّسُول - ﷺ - القولِيَّة والفعلِيَّة والتقريبيَّة، إلى حد تعييبهم أحياناً من بعض عُلاة الهادويَّة، ومن يُسْمُون أنفُسهم الزيديَّة، ووصمهم بعدم الاجتهاد وترك العقل جانبا.

والواقع أنه منذ فترة الإمام عبدالله بن حمزة لم تكن الزيديَّة/ الهادويَّة إلا مدرسةً سلفيَّة خالصة، وإن تباغع بين الحين والحين أعلامٌ مجدِّدون، وعُلماء متحررون، إلا أنَّ تأثيرهم محدود، قياساً إلى تأثير ونفوذ المتعصبين، الذين جعلوا من النَّظَرِيَّة عقيدةً ودينًا، وأصبح ما يُسمى بالزيديَّة بعد ذلك خليطاً من الزيديَّة الأولى، ومن الهادويَّة، ومن غيرهما.

=ولو لم يكن من البطنين" أما حين سُئل عن الديمقراطيَّة في الانتخابات، أجاب: "الانتخاب والديموقراطية طريقة، لكن الإمامة طريقة ثانية" مؤكداً: "نحن مع العدالة ولا نعرف الديمقراطية هذه" صحيفة الوسط، 9 مارس، 2005م.
¹ - صحيفة الجمهورية، الثلاثاء، 9 أكتوبر، تشرين الأول، 2012م.

يقول القاضي مُجَّد بن علي الأكوخ الحوالي، مُستقرنا مَسيرة الزَيْدِيَّة في اليَمَن: " .. ولكن جاءت فرقةٌ من فُتُهاء الزَيْدِيَّة قلدوا غيرهم، فجمدوا على المذهب الهادي، وجعلوه حرماً مُقدساً، حتى قَالَ الإمامُ عبد الله بن حمزة: إنا نهابُ نُصُوصَ يحيى - أي الإمام الهادي - كما نهابُ نُصُوصَ القرآن.."¹

وأشار الأديب والمؤرخ أحمد مُجَّد الشامي إلى أن المذهب الزيدي الأصلي قد انقرض في اليمن بعد وصول الهادي وظهور مذهبه، عازياً ذلك إلى المؤرخ الزيدي يحيى بن الحسين في مطلع كتابه "المستطاب" وناقلاً عنه ما قال: وإلى هنا انتهى ذكر الزيدية الذين كانوا على المذهب الأول، وهو مذهب زيد بن علي، ومن بعده كان ظهور مذهب الهادي في اليمن، والناصر الأطروش في الجبل والديلم، وانقراض مذهب زيد بن علي الأول، إلا القليل ممن استمر عليه. وكان الهادي في الأصول على مذهب أبي القاسم البلخي المعتزلي، لأنه شيخه، أخذ عليه في علم الكلام وغيره..² من ناحية ثانية: غابت هذه النظرية أو كادت في أزمنة كثيرة ومُتباينة خلال مَسيرة التَّاريخ الإسلامي، وربما أصبحت نسيّاً منسياً لدى كل الجماعات التي حَكَمَت في مُختلف الأصقاع، فهل يعني ذلك أن هذه الفترات أو الدُّول التي قامت وحكمت قد تركت أصلاً من أصول دينها؟! وهل كانت من الجهالة بمكانٍ إلى هذا الحد من ترك أصل معلوم من الدين بالضرورة؟! ثم إنَّ غالبية المسلمين اليوم لا يعتقدون هذا المعتقد، سواء في اليَمَن أم خارجه، وسواء في الوطن العربي أم خارجه أيضاً.. فهل هذه الأغلبية مُنحرفة عن هُدي ربِّها وسُنَّة نبيها؟ (ما لكم كيف تحكمون)؟! القلم:36.

وسنرى في فصلٍ قادمٍ كيف أسست هذه النظرية للعنف والفوضى وسفك الدماء، من مُنطلق ديني، من داخل بُنيته التي شكلت أساساً ومرجعيةً لكل انقلابٍ وخروجٍ مُسلحٍ بالعنف في زمن حَسَم النَّاسُ أمورهم بالاحتكام لصندوق الاقتراع، كأقرب حل وأسلم خيار.

¹ - اليمن الخضراء مهد الحضارة، محمد بن علي الأكوخ الحوالي، مكتبة الجيل الجديد، ط:2، 1982م، 104.
² - تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، سابق، 3/113.

الفصل الثاني

المخرجات العملية للنظرية الهادوية

المبحث الأول

احتقار وازدراء غير المنتمين لهذه السلالة

تكلمنا في الفصل الأول عن البدايات الأولى للنظرية الهادوية، فكرة ونشأة وتنظيراً، منذ بزوغ فكرتها الأولى، وكيف تحولت - على مر الزمن - من مدرسة نضالية سياسية زيدية إلى عقيدة دينية / سياسية هادوية، وذلك نظراً لعدة عوامل، تاريخية، ثقافية، سياسية متداخلة، حتى بدت منقطعة من حيث مقاصدها العامة عن فكر الإمام زيد، على الرغم من كل محاولات الهادويين عزوها إليه.

وبما أننا قد تكلمنا - بما نعتبره إيجازاً غير مُحل - عن الأيديولوجيا النظرية، كمرجعية فكرية للنظرية الهادوية، فسنتكلم في الفصل التالي عن المسيرة العملية التي تشكّلت عنها، وتجسّدت مُخرجاًها خلال فترة حُكم أئمة اليمن، مُد الإمام الهادي، وحتى الإمام مُجد البدر بن الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين مُنتصف القرن العشرين الميلادي..

خلق الله الإنسان وكرّمه مُفضّلاً إياه على كل مخلوقاته. (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) الإسراء:70.

فالإنسان في حد ذاته قيمة تنتهي عندها كل القيم. وهو - أيضاً - هدف الشرائع السماوية وغايتها، وأي تعدٍ على أي إنسان في إنسانيته هو تعدٍ على أكرم ما خلق الله. ومن تمام التفضيل لكل بني الإنسانية المساواة فيما بينها كافة، فلا فضل لأحدٍ على أحدٍ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات:13.

وتأتي هذه النظرية لتقرر عكس حقائق الشرائع السماوية، وعكس الفطرة الإنسانية، وقوانين العقل والنقل، مزديّة ومحتقرة ما عداها من الجماعات والسُلالات الأخرى. وإذا كانت النظريات الفاشية أو النازية قد اكتفت بتفضيل نفسها على غيرها، غير محتقرة من عداها في الغالب، فإن هذه النظرية قد عمدت إلى احتقار وازدراء كل جماعة أو عرق أو سلالة غير عرقها أو

سُلالاتِها، بصورة لا يُوجدُ لها نظير إلا في بعض الرؤى المتطرفة لدى بعض الجماعات الهندية،¹ أو اليهودية التي لا تزال تحملُ هذا الموروث، وإن من طريقٍ آخر.

فَمَن مَظاهر ذلك الاحتقار ما حوَّته مَضامين وأدبيات هذه النَّظريَّة - وهي كثيرةٌ - مُدعين أن هذا التفضيل دين سماويّ، وعقيدة إلهية وهي أكثر من أن تُحصى شعراً ونثراً، ثقافة وسلوكاً، كما أشار إلى ذلك الهادي شعراً بقوله:

الله فضّلي بهجرة والدي وبسيفه بقيامه وقيامي

وفي قصيدة الإمام عبد الله بن حمزة الشهيرة، تتجلى معالم هذا التفضيل بصورة أوضح، مقارناً بين سلالته: الدر، النضار، الجوهر، الأسد؛ وبين الآخرين من غير سلالته: البعر، الحجر، المدر، الكلاب، الذئب.. إلخ.. يقول:

حمداً لمن أيدنا بعصمته واختصنا بفضله ورحمته
صبرنا بحكم الواحد المنان نملك أعناق ذوي الإيمان
ومن عصانا كان في النيران بين يدي فرعون أو هامان
لو أنه صلى وصام واجتهد ووحد الله تعالى وعبد
وصير الثوب نظيفاً والجسد وقام بالطاعة بالعمز الأشد
ثم عصى قائمنا المشهورا وقال لستُ تابعاً مأمورا
محتسباً لأمركم مقهورا لكان ملعونا بها مثبورا

¹ - ينقسم المُجتمع الهندي إلى أربع طبقات اجتماعية: البراهمة "الكهنة" والشترين "النخبة السياسية والعسكرية" والفايشيين "المزارعين والرعاة" والشودريين "الخدم".

وكان من أهل الجحيم الحامية

وأُمُّه فيها يقينًا هاويه

*** **

إنَّ بني أحمد سادة الأمم

بذا لهم رب السماء قد حكم

من أنكر الفضل لأذنيه الصمم

من عنده الدر سَوَاء والحمم!

نقول هَذَا إن شكَا وإن عتب

لا يستوي الرأسُ لدينا والذَّنْب!

ومنها أيضا:

فقلت: مهلا يا أبا الزهادة

إنا أخذنا عن رُواة سَادة

بأنهم للمسلمين قادة

وحبهم من أفضل العبادَة

ليس على ربي اعتراض لأحد

يفعل ما شاء تعالى ومجد

لم يجعل الكلب سَوَاء والأسد

فاطرحوا ثوب العناد والحسد

ياقوم ليس الدر قدرا كالْبَعْر

ولا النضار الأبرزي كالحجر

كلا ولا الجوهر قدراً كالمدر

فحاذروا من قولكم مس سقر¹

¹ - تتأرجح عاطفة العلامة الأديب أحمد بن محمد الشامي بين الجحد لأن تكون هذه القصيدة للإمام عبدالله بن حمزة، فهي مدسوسة عليه من خصم ماكر أو مُغالٍ مكابر، من عدوِّ لدود، أو متعصب عنود، على حدِّ قوله؛ ، وبين الإثبات أنه له؛ لكن في حال ثبتت أنها له فليست إلا نفثة طيش وعنفوان شباب، فذلك مما يعزو الأذكياء.. إلخ. انظر تاريخ اليمن الفكري، 3/152.

وأيضاً كان غلاة الهادوية قد قرروا عدم الصلاة خلف أهل السنة؛ بل في مساجدها، كما تساءل الإمام الناصر عبدالله بن الحسن، ت: 1256هـ يوماً ما: يمكن لمساجد السنة أن تكون أماكن مقبولة لأداء الصلاة؟!¹

وعلى الرغم من أن قبائل الشمال اليمينية كانت - في الغالب - مُساندة للأئمة منذ جاء الإمام الهادي إلى اليمن حتى خرجوا عليهم في ثورة سبتمبر 1962م المجيدة، بصورة نهائية، إلا أن كل تلك الجهود التي بُذلت، والدماء التي سَفَحَتْ منها لم تشفع لها عند الأئمة - على مر تاريخهم - أن ينظروا إليهم نظرة احترام ومساواة. فلقد ظل الأئمة وأتباعهم ينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء وسُخريّة، بتعمد وسابق إصرار وهي ثقافة منشؤها هذه النظريّة بكل ما تحويه تعاليمها وأدبياتها التي عليها مدارها، وفيها سرُّ بقائها، فهذه النظريّة إن لم تزدر غيرها أو تحتقره أو تنظر له بدويّة، لتساوت مع باقي التشريعات الأخرى من سنية وغيرها، وبالتالي فقدت امتيازاتها؛ ولذا فشائعة ثقافة الأفضليّة وغير الأفضليّة، وتمييز جنسٍ على جنسٍ هو من صميم عقيدة هذه النظريّة حتى يُكتب لها البقاء.

فهذا الإمام الهادي يقول: "والله لو كان معي ثلاثمئة وثلاثة عشر مؤمناً، لا، بل لو كان معي خمسمئة، لأن تلك كانت فضيلة لرسول الله - ﷺ - لدُسْتُ بها اليمن" مضيقاً: "ما أشتفي ولا يشفي قلبي، أو أطأ جيف المخالفين للحق بفرسي"² وهذا شاعر التشيع، الحسن بن علي الهبل، يقرر أن من يُقدّم غير آل البيت عليهم فإنّه من الزنا!³

¹ - الإصلاح الديني في الإسلام، برنارد هيكل، 329.

² - سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، سابق، 50.

³ - من كبار شعراء الهادوية في اليمن، كان في القرن الحادي عشر الهجري، ومات شاباً وهو في الثانية والثلاثين من عمره، سنة 1079هـ. له ديوان مطبوع اسمه "قلاند الجواهر من شعر الحسن بن علي بن جابر" حققه الشاعر الأديب أحمد بن محمد الشامي، وقد كتب مقدمة أثنى فيها عليه كثيراً، وسماه في موضع آخر أمير شعراء اليمن، الشاعر العظيم الحسن الهبل! وكان الحسن الهبل مقرباً من الإمام المهدي أحمد بن الحسن، بل كان في مرتبة الوزير له؛ كما ذكر ذلك الإمام الشوكاني في تراجمه. ومن أشعار الوزير الحسن الهبل قوله:

والثالث الرجز عثمان بن عفانا	العن أبابكر الطاعي، وثانيه
من تحت منزل فرعون وهامانا	ثلاثة لهم في النار منزلة
ولا تقم لهم في الخير ميزانا	يارب فالعنهم والعن محبهم
ما أحل ابنته ظلماً وعدوانا	تقدموا صنو خير الرسل واغتصبوا

قل لمن قدّم تيمًا وعدي¹ من زناء أنت في معتقدي

عد إلى تقديم صنو المصطفى ولك الويلات إن لم تعد

وقد ذكر القاضي عبد الرحمن الإرياني أن قبائل خولان حين وفدت إلى الإمام يحيى حميد الدين، عام 1934م متجهة إلى الحرب مع المملكة العربية السعودية مُنتصف ثلاثينيات القرن الماضي، رفض أولاً مقابلتها، وحين ظلوا يرددون الزامل كثيرًا استدعاهم واستقبلهم بقوله: "كعوا كعوا يا خولان" مضيئًا: و "كعوا" كلمة تُزجر بها الحمير...²

لقد كانت القبائل - من وجهة نظر الأئمة - مُجرّد كائنات لا وزن لها، خلّقه الله من أجل خدمة آل البيت، عليهم أن يحيوا من أجل آل البيت، ويموتوا في سبيل آل البيت أيضًا. ونتيجة لهذه الثقافة، فقد كانت الحروب القبليّة واحدة من آليات التدمير التي سعت إليها الإمامة، حتى شاع لديهم مقولات صارت أمثلة سيّارة، وحكمًا متداولة، من أمثال: "ناب كلب في راس كلب" في حال احترت قبيلتان، أو اشتجر منهم اثنان. وأيضا "اشغل القبيلي في نفسه قبلما يشغلك" وأيضا الحجر من القاع والدم من راس القبيلي"! وربما ظلّت مثل هذه الثقافة والآلية مستمرة إلى اليوم عند بعض الساسة للأسف الشديد.

حدث أن تشفّع بعض الناس يومًا ما لدى الإمام يحيى في قضية التخفيف من الضرائب والمكوس التي كان يجمعها من الناس بحق وبدون وجه حق، فرد عليهم: "غبر الشميل، إذا لم يُظلموا ظلّموا" ويقصد بغبر الشميل العامّة من الناس، حيث الصّفة السّائدة على أشكالهم وهيئاتهم. ولم يقتصر الأمر في ازدراء الناس كلهم ضمن إطار واحد، من مُنطلق أن المساواة في الظلم عدل؛ بل لقد كان للمناطقية عندهم حضورها الواضح في تعاملهم مع أهل اليمن الأسفل، قياسًا إلى القبائل المحيطة بصنعاء، فمثلاً عمدوا إلى هدم قباب وأضرحة أئمة ومشايخ الصوفية ورجال الدين في اليمن الأسفل كاملاً، و الذين يتبرك بهم العامّة في تهامة وتعز، وغيرهما، وذلك بحجة محاربة

¹ - إشارة إلى أبي بكر الصديق التيمي، وعمر بن الخطاب، من بني عدي، رضي الله عنهما..

² - مذكرات الرئيس القاضي عبد الرحمن بن يحيى الإرياني، ط: 1، 2013م، ص: 89.

البدع والخرافات والشَّعبذات، في الوقت الذي تمتلئ صنعاء وما حولها بالعديد من الأضرحة والمرقد الخاصة بالأئمة وغيرهم من آل البيت من لدن الإمام الهادي حتى والده، والناسُ هناك يزورونها ويتبركون بها إلى اليوم، ومن بينهم مشايخ دين كبار. فلماذا يُحاربون الخرافات والشعبذات في تعز وتهامة وييقون عليها في صنعاء وما حولها؟! علما بأن الفقه الهادي أقل حَسَاسِيَّةً تجاه ما عرف بكرامات الأولياء من الأصوليين السلفيين، إذا ما استثنينا الصُوفيين! مع العلم بأن الإمام عبدالله بن حمزة كان قد كتب رسالةً إلى أهل قرية "لصف" في "نهم" شرق صنعاء، يهددهم فيها بنقل رفات أخيه المدفون هناك إن لم يجعلوا له ضريحًا مزورًا. وقد كان قبره قبل ذلك اليوم مهجورًا، كما أمر الإمام المنصور مُحمَّد بن يحيى حميد الدين أهل أرحب ببناء قبة وتابوت على قبر الإمام أحمد بن هاشم الويسي، مهددًا إياهم بنقل رُفاته إلى مكان آخر إن لم يفعلوا!

أيضًا.. أقدم السيِّف أحمد حميد الدين نهاية العشرينيات من القرن الماضي، على هدم ضريح الفقيه الصالح أحمد بن موسى بن عُجيل، في مدينة بيت الفقيه بتهامة الذي تنتسب له المدينة، وذلك عقب هزيمة الزرائق في الحرب الشهيرة بينها وبين أبيه، وقد كان هو قائد جيش والده. وفرض على أهل المدينة أن يؤذنوا بـ "حي على خير العمل" في مساجدها، مع أن هذه الزيادة التي أتى بها الإمام الهادي لأول مرة، لم تكن من ضمن مسائل الشَّافعية، ولا عهد لهم بها.

كما قام أيضا عام 1943م بهدم ضريح الولي الصَّالح والزاهد أحمد بن علوان في يفرس بتعز، وتسويته بالأرض، ونقل رفاتهِ إلى مكان مجهول، تحت حُجة محاربة البدعة، مع أن الأمر غير ذلك، فقد كان يريد تثبيت هيئته في نفوس النَّاسِ بصورة أكبر، نظرًا لما لضريح هذا الولي الصَّالح من هيبه روحية عند الناس، وقد لاقى هذا الفعل استحسانًا عند البعض، كما أشار إلى ذلك الشَّهيد الزبير شعرا، وكذا الموشكي، في إطار محاولة تقريب السيِّف أحمد يومها من مشروع الثوار الأحرار؛ إلا أن الشَّاعر الشجاع، إبراهيم الحضرائي كان أكثر شجاعة حين أبان الهدف على حقيقته، بقوله:

أضريح أكرم ناسكٍ وتقي نبشته كف الماجن البدعي

من بين الآف القبور نبشته
بغياً بدون مُسوغٍ شرعي
نبشُ القبور رذيلةٌ وفضيحةٌ
حتى لدى البوذي والزرنجي
ما ذاك إلا أنه من معشرٍ
سُنِّيَّةٍ في معشرٍ سُني

وهذا العلامة أحمد بن مُحَمَّد الشَّامي - وهو من كبار علماء الهادويَّة المعاصرين - يقرُّ أن فِشل أبناء الهادي في الحكم ما هو إلا لفساد النَّاسِ فقط الذين لم يقدره قدره، أو يعرفوا حقيقة منزلته المقدسة!. يقول ضمن كلام مُطول عن مسيرة النَّظَرِيَّة الهادويَّة: "لقد استوعب الإمام الهادي نَظَرِيَّة الإمامة، وقعد على كرسي الإمامة بانتخاب وجدارة، وطَبَّق النَّظَرِيَّة تطبيقًا مُحْكَمًا؛ ولكنه ما إن لحق بالرَّفِيق الأعلى وقام ابنه المرتضى، حتى أدرك عجزه عن تطبيق النَّظَرِيَّة لفساد النَّاسِ..!!"¹
وهو القائل أيضا أثناء قيام ثورة 1962م، مخاطبًا الإمام البدر:

إذا لم تكن أنتَ الخليفة بعده
وفاءً وشُكرًا بل قضاءً محتمًا
فلا نبضتَ للشَّعب روحٌ ولا
علتَ له رايةً حتى يُكبَّ جهنما

وله من قصيدة أخرى - أيضا - في نفس العام، يمدح من يسميهم آل البيت:

هُم البهاليل من أبناء فاطمة
طابوا فعلاً، وأقوالاً، وتكويناً
وهبتهم مُهجتي لا لامتزاج دمي
بهم، ولكنني أحببتهم دينا
من غير عترة "طه" حبُّهم شرفٌ
وقربةٌ وشعارٌ للمُصلِّينَا
أكرمُ بمن وهبوا للحق أنفسهم
فصرَّعوا رغبةً فيه أفانينا

¹ - محمد سالم عزان، سابق، 29.

كانوا نجوم الهدى في كل داجية
الأوفياء وإن خان الزمان بهم
مكارم الخلق لم ينظم شمائلها
أسماءهم في فم التاريخ دمدمة
وإن هو حكموا كانوا موازينا
لا يقبلون لنقض العهد تزيينا
سوى "الأئمة" منهم والأبيينا
على عروش الطواغيت "الفراعينا"

* * *

ليت القريض الذي يلهو الطعامُ به
وكان ميزان نقدٍ في انتفاضته
آلتُ أنفدُ شعري في الولاء لهم
دمعاً، وحمداً، وتاريخاً، وتلحيناً
لم يُعْنِ إلا بمجد العقبينا
حكم العدالة يهوي بالمضليننا

ولمن له عقل أن يتخيّل مدى القداسة المفرطة للأشخاص "من آل البيت" التي جعلتهم فوق الأوطان، وأكبر من الشعب، مقابل ازدياد واحتقار الآخر الذي لم يعد شخصاً ولا جماعة هُنا، بقدر ما هو شعبٌ كامل، له من المجد والحضارة والتاريخ ما تنوء بحمله كل الحضارات؛ لكن هذا لا شيء، من أجل بقاء الإمام في الحكم؛ لأنّ الحكم من وجهة نظر هذه الجماعة هو الحق المستلَب لدى الآخرين، ولا بد من استعادته، باعتباره ديناً لازماً وحقاً واجباً، لا يجوز التنازل عنه!¹

¹ نظم الشاعر هذه القصيدة في العام 1954م على شاطئ البحر بمدينة الحديدة، كما ذكر في كتابه: "رياح التغيير في اليمن" مدشناً دعاية ولي العهد للسيف محمد البدر بن الإمام أحمد علنا، وقد كانت همساً قبل ذلك. ونشرت القصيدة كاملة في بعض الصحف العدنية يومها، كما أذاعتها محطة روما، وفقا لما ذكر الشاعر نفسه. وقد تمت عقد بيعة ولي العهد بعد ذلك، ومطلع القصيدة:

يحق لشعري اليوم أن يتكلما فتصغي له الدنيا وتحتفل السமா

ويعتبر العلامة أحمد بن محمد الشامي من كبار أساطين النظريّة الهادويّة ودعاتها، وإن كان أوصى قومه أخيرا بعدم اعتناقها. وله "دامغة الدوامغ" التي يرد بها على "دامغة" الهمداني الشهيرة التي تغنت باليمن وحضارتها عبر العصور، فتغنى هو بالإمامة وآل البيت، ورد عليه مطهر الإيراني بملحمة "المجد والألم" عام 67م. وبدوره - أيضا - رد الشامي على الإيراني بقصيدة أخرى عام 1977م، وإن كانت لهجتها أخف، وفيها من الموضوعية الكثير. توفي في لندن عام 2005م. أنظر: رياح التغيير في اليمن، أحمد محمد الشامي، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ط:2، 1985م، 429.

المبحث الثاني

حرمان أي مواطن كفاء من حقه في الوصول إلى الحكم

الإمامة أصلٌ من أصول الدين وفقاً للنظرية الهادوية، ومنصبها مخصوصٌ بسلالةٍ معيّنة دون غيرهم، لا يحق لأي كان من خارج هذه السلالة مجرد التفكير فيه مهما كانت كفاءته وكان فضله وعلمه، وما على الجميع إلا التسليم بما ورد من نصوصٍ تقرر ذلك.. وهذا راجعٌ إلى فكرة الاعتقاد بالاصطفاء الإلهي، وتفضيل الله لها على سائر خلقه حدّ توهمهم، مُعتسفين النصوص الدينية (لياً بالسنتهم وطعناً في الدين) النساء:46. ووفقاً لأهوائهم، كما هو ثابتٌ في كل مراجعهم الدينية وهي فوق أن تُحصى أو تُستقصى. سنورد بعضاً منها في فصلٍ لاحق..

يقول الإمام الهادي: "واعلم - هداك الله - أنّ الإمامة لا تثبت بإجماع الأمة، ولا بعقد بريّة، ولا برواية مروية؛ ولكن تثبت لصاحبها، بتثبيت الله لها فيه، وبعقدتها في رقاب من أوجبها عليه من جميع خلقه، وأهل دينه وحقه، وذلك قولُ الله سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) النساء:59.

وأولو الأمر الذين أمروا بالكينونة معهم، فهم الصادقون بادعاء الإمامة، وهم المستوجبون لها، والمستحقون لفرضها".¹

ولا ندري - كما لا يدري كثيرون - أين هو نصُّ الحكم من الله بذلك في كتابه الكريم؟! أو حتى في كتب السنة الصحيحة التي لا يحفلون بها كثيراً - في الغالب - إلا ما خدّم فكرتهم منها، سواء صحّ أم لم يصح! فهم يسعون لتكريس مفهوم "الحق الإلهي" في الحكم في الذهنية العامة من أجل تقبلها والتسليم بها، وأنّ مَنْ لم يسلم بها من العامة فهو كافراً، محارباً، حلال الدم، يجب قتله.

¹ - المجموعة الفاخرة، سابق، 130.

وقد يُحْيَلُّ للقارئ والمتابع أنَّ كهنة الكنيسة من رجال الدين في العصور المظلمة بأوروبا قد استقوا أفكارهم واستلهموا رؤاهم من هذه النظرية! وبكل بساطة، لو كان هذا هو الدين فعلاً بهذه الرؤى، لما كان للناس حاجة به، فما قيمة دين يفاضل بين الناس على أساس العرق، ويمأيز بينهم على أساس السُّلالة؟! وهل جاء الإسلام إلا لفرض المساواة والعدالة بين الناس كافة؟! والحقيقة أن السَّعي لهذا التمايز أساسه دنيوي، ولا علاقة للدين به. وقدماً قيل: ما تقاتلت الدول إلا على رغيفٍ أشهى، ووجه أبهى، ومنكحٍ أطيب. والله درُّ الإمام علي بن أبي طالب، حين قال:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وحطَّ بالشركِ النسيبَ أبا لهب

وقد توارثت الأجيالُ تلو الأجيال من أتباع النظرية الهادوية هذه الفكرة، حتى صارت عقيدة دينية، ولم تعد نظرية سياسية؛ ولهذا دامت إلى اليوم، على العكس - مثلاً - من النظرية الإسماعيلية الأخرى "ابنة عمها" التي قدمت نفسها على أنها نظرية سياسية في الحكم، أكثر منها مذهباً فقهياً أو أيديولوجياً دينية، فتماهت وسط ضربات أبناء الأعمام ووحشيتهم عليها بضراوة، مثلها مثل المطرفية، وكلتا النظريتين "الإسماعيلية والمطرفية"¹ متقدمتان كثيراً على مستوى الفكر والممارسة معاً، قياساً إلى النظرية الهادوية، إلا أن سيوف الهادوية قد نكلت بهما دون هوادة، لأنَّ الإسماعيلية تقتصر في مفهوم أهل البيت على "أهل الكساء" فقط دون غيرهم، وهم خمسة فقط، ولا تقرر أي امتيازاتٍ أخرى لمن يُسمون أنفسهم آل البيت؛ أما المطرفية - الجماعة الفكرية والفلسفية - فلائها قد تخلت عن فكرة البطين من أساسها في الولاية، ولم تعد أصلاً من أصول الدين لديهم.²

¹ - قلت ذلك من باب التغليب فقط، وإلا فالمطرفية لم يتسن لها آنذاك أن تتبلور في نظرية فكرية أو سياسية مستقلة.
² - ذكر الباحث اليمني الدكتور علي محمد زيد أن المطرفية لم تتخل عن شرط البطين في الحكم في كتابه تيارات معتزلة اليمن، ص 94؛ لكن من يتتبع القصيدة الشهيرة التي نظمها ابن حمزة في المطرفية بعنوان: "قصيدة المقصورة في أمر المطرفية" يجد بين ثناياها ما يشي بأن المطرفية قد تخلت فعلاً عن فكرة البطين في الحكم، مثل قوله معيراً إياهم بتخليهم عن أحكام الإسلام وشريعة آل البيت:

وأنكروا التفضيل قولاً واحداً لمن يريد ربنا ومن يشاء

ومما يترتب على إنكار الأفضلية إنكار ما ينبنى عليها. فتراث المطرفية أصلاً غير متوافر، وقد تم القضاء عليه بالقضاء عليهم هم، وربما كان هذا الرأي الذي ذكره الباحث في بداية عهدهم، أو قد يكون رأياً شخصياً لواحد=

ومبنى النظريتين بالنسبة لهما واحد، وهو المساواة بين جميع الخلق دون تفضيلٍ أو تمييزٍ على أساس الجنس أو العرق.

وللقارئ أن يتخيل ما هي نظرة الحاكم - من آل البيت - للناس في زمن لم تظهر فيه المؤسسة ولا دولة النظام والقانون، ولا تزال؟!!

فالناس - من وجهة نظره - رعايا لا مواطنين - يملكهم الحاكم "السيد" فيما يملك من جملة أملاكه الخاصة! مع أن حق الوصول إلى الحكم حق مكفول في الشرائع والقوانين لأي مواطن كان، وهو من الحقوق السياسية المنوطة بالناس أنفسهم في اختيار من ينوبهم أو يدير شؤونهم، لا علاقة للسما بها، وليست من قضايا الدين لا الرئيسية ولا الثانوية البتة! ودعواهم بأن ذلك مما اختص الله به آل البيت هو للاستحواذ على حق الغير، المادي والمعنوي ليس إلا؛ ذلك لأن النزعة القبليّة لدينا في العقليّة العربيّة أشعرتنا - خطأ - أن الشرف والمجد والسودد لا يأتي إلا من مناصب الحكم أو التحكم وخدها؛ ولهذا دارت حولها الحروب والمعتزكات، كما يذهب إلى ذلك الشّيخ محمد الغزالي، مضيئاً: "إن تقطع الأواصر في مجتمعاتنا يعود إلى ما يسكن قلوب الحاكمين من تأله وغطرسة، وإلى حسبان الوظيفة مظهرًا ووجهة، لا وسيلة خدمة عامة"¹ ولهذا تجد منهم من ادعى لنفسه الإمامة وخرج وهو في عمر صغير جاهل بشئون الحكم، كما فعل الابن الأصغر للإمام المنصور القاسم بن علي العياني "المهدي" بعد وفاة والده؛ إذ ادعى لنفسه الإمامة وعمره لا يتجاوز سبعة عشر عامًا، ملقبًا نفسه بالمهدي.² وكان من نتيجة هذا الشطط "شيزوفرينا الشباب" أن ادعى بعد ذلك أنه المهدي المنتظر الذي بشر به النبي ﷺ! بل ادعى أنه يوحى إليه!

وولّى الإمام المتوكل على الله إسماعيل ابنه "المؤيد" على بلاد آنس سنة 1070هـ، وكان عمره ستة وعشرين عامًا فقط!

وبعد وفاة الإمام المنصور حسين بن المتوكل خلفه ابنه عباس، وإن كان بمبايعة شرعية من علماء عصره، وكان عمره تسعًا وعشرين سنة، وقد أثنى عليه الإمام الشوكاني كثيرًا ووصفه بأنه عادل

= منهم قد تبلور الأفكار العامّة للمدرسة المطرفية؛ لأن مسألة التخلي عن البطين هو ما يتسق أصلًا وطبيعة المنهجية الفكرية والعقلية للمطرفية. وعمليًا فقد رأسوا عليهم في مدارسهم الفكرية من غير الإمامة.

¹ - الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط: 1، 2003م، ص: 182.

² - تاريخ اليمن الفكري في العصر العبّاسي الأول، سابق، 1/237.

ومنصفٌ وسياسيٌّ وحازمٌ، وله هَيبةٌ في قُلُوبِ خِوَصِهِ.. إلخ. ولم يلبث كثيرًا فقد مات بعد ذلك بسنةٍ واحدة..¹

وعين الإمام المهدي عباس ابنه علي بن المهدي عام 1172هـ واليًا على صنعاء وأميرًا للأجناد، وكان عمره واحدًا وعشرين عامًا، وأمره بأن يسكن قصر صنعاء، وكان القصر حامية المدينة، وفيه مخزن الأسلحة..²

وبدوره عين الإمام المنصور علي بن المهدي في منصب الوزير الأعظم - وهو الرجل الثاني في الدولة يومها - حسن بن حسن عثمان خلفًا لأبيه وهو دون سن العشرين من عمره، ولا خبرة له في تسيير شؤون الدولة، أو ضبط إدارتها!

أما المتوكل أحمد بن المنصور علي 1224 - 1231هـ فقد عين ابنه عبدالله واليًا على بلاد ريمة وعمره ثمانية عشر عامًا، وليس له من مؤهل إلا "النسب الشريف" حد توهمه. وجعل له كاتبًا أكبر منه سنًا وخبرة ودراية، هو قاسم بن إسماعيل بن فارع، مُنيطًا به جميع الأمور. وقد ودَّعه بموكب كبير من رجالات الدولة والحاشية إلى دار سلم خارج صنعاء!³، بل لم يمكث في هذه الوظيفة إلا سنوات قليلة جدًا، ليعلن الإمامة لنفسه سنة 1231هـ وكان عمره ثلاثة وعشرين عامًا، خاليًا من رصيد العلم والخبرة والكفاءة؛ بل ومن أغلب شروط المذهب الزيدي نفسه المعترية عندهم نظرًا؛ ولذا فقد مرّت فترته بحالة من الضعف والتخبُّط، بفعل تغييره لعماله ووزرائه على الدوام، نتيجةً لعقله القاصر، والذي جعله يقرّر إعدام الفقيه الشيخ مُحمَّد بن صالح السماوي المعروف بابن خريوه، لمعارضته واستنكاره لسياسة المهدي! أمّا الإمام المتوكل على الله إسماعيل فقد جعل ابنه المؤيد مُحمَّد بن إسماعيل على رأس جيش دخل به البيضاء إثر خلافاتٍ نشبت هناك وهو في سن البلوغ!

وحين أسس الإمام يحيى ثلاث وزاراتٍ آخر أيامه وهي وزارة المعارف، ووزارة الصحة، ووزارة المواصلات عين فيها أولاده إسماعيل والقاسم ويحيى. ناهيك عن المناصب الأخرى التي أقطعها لولي

¹ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاضي محمد بن علي الشوكاني، جمعه، محمد بن محمد بن يحيى زبارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1998م، 1/217.

² - نفسه، 1/315.

³ - درر نحر الحور العين بسيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين، لطف الله جحاف، تحقيق: عارف محمد عبدالله فارع الرعوي، وزارة الثقافة والسياحة، 2004م، 1191.

عهده أحمد، كقيادة الجيوش في أكثر من موقعة، ثم ولاة تعز. كما ولي الحسن لواء إب والبيضاء، وولى
السيف عبدالله الحديدة وعمره لم يتجاوز العشرين!

والواقع أن الشروط الأربعة عشر¹ في تولي الإمامة، بمثلتها المحلقة - وفقاً للنظرية الزيدية/
الهادوية - لم تكن - في غالبها - إلا على الصعيد النظري فقط؛ أما على الصعيد العملي فقل أن تجتمع
هذه الشروط كاملة في شخص واحد. وحقائق التاريخ تؤكد أن الإمامة لم تكن إلا للأقوى عسكرياً أو
سياسياً على الدوام، مع وجود أئمة كبار قد يكون من بين هؤلاء الإمام المؤسس الهادي يحيى بن
الحسين، والإمام عبدالله بن حمزة، وأيضاً الإمام يحيى بن حمزة وقليل يُعدون على الأصابع؛ وإلا فما
معنى أن الابن الأكبر أو الأخ أحياناً هو الإمام بدلاً عن الإمام طوال فترة حكم الأئمة، من الإمام
الهادي إلى الإمام البدر!!؟

فعلى سبيل المثال لا الحصر، ظلت الإمامة محصورة في الهادي وبنيه وأحفاده، من العام 284 هـ وهي
سنة التأسيس للإمامة في اليمن، حتى العام 402 هـ!! أي في سبعة أئمة على التوالي، وهم:

- 1- الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، 284 - 298 هـ. 898 - 911 م
- 2- المرتضى محمد بن يحيى بن الحسين، 298 - 301 هـ. 911 - 913 م
- 3- الناصر أحمد يحيى بن الحسين، 301 - 325 هـ. 913 - 934 م
- 4- الحسن أحمد بن يحيى بن الحسين "المنتخب الحسن" 325 - 366 هـ. 934 - 936 م
- 5- القاسم أحمد بن يحيى بن الحسين "المختار القاسم" 325 - 366 هـ. 934 - 956 م
- 6- المنصور يحيى بن أحمد بن يحيى بن الحسين 325 - 366 هـ. 934 - 976 م
- 7- الداعي يوسف بن يحيى 366 - 403 هـ. 977 - 1012 م

لتنقل بعد هذه السلسلة إلى الإمام المنصور القاسم بن علي العياني في العام 389: 393 هـ، ثم أبنائه
من بعده.

¹ - تشترط الهادوية أربعة عشر شرطاً في الإمام وهي أن يكون: مسلماً، علوياً، عاقلاً بالغاً، ذكراً، حرّاً، حسن
التبوير، عدلاً، ورعاً، سليم الحواس والأطراف، شجاعاً، قوي البدن، كريماً، مجتهداً، سليماً مما ينفر الناس منه،
كالجذام والبرص..

وقد كانت الأُسَر الهاشمية تتنافسُ الحكم فيما بينها، ضدَّ أبناء أعمامهم، وكلُّ يدعي الأهلِيَّة واستيفاء الشُّروط، كما يدعي ظلُّم الإمام القائم، وخلال كل تلك الفترة لم تخرج عن غيرهم تقريبًا؛ إذ كانت تتداولها البيوتات الهاشمية، كلُّ حسب قُوته ومقدرته الماديَّة..

ولعلَّ بيت الإمام القاسم أكثرُ البيوتِ خطًّا بالإمامة؛ حيثُ توارثوها جيلاً بعدَ جيِّل، مُنذُ الإمام المنصور بالله القاسم بن مُحمَّد، المتوفى سنة 1139هـ/1727م، حتى الإمام المتوكل الحسين بن المتوكل أحمد بن المنصور علي، توفي سنة 1289هـ، 1872م؛ فال حميد الدين عام 1382هـ، 1962م. ولم يكن الأئمَّة القاسميون إلا مُلوَّكًا وسلاطين، خلال مسيرة حُكمهم كاملة وهي من أطول فترات البيوتات الإماميَّة.

وفي بيت حميد الدين - آخر بيوت الإمامة الحاكمة - ابتدأت بالإمام المنصور مُحمَّد بن يحيى حميد الدين 1307-1322 هـ، 1890-1904 م، وانتهت بالإمام المنصور مُحمَّد البدر حميد الدين في 1382هـ، صبيحة يوم 26 سبتمبر 1962م.¹

ومن عجيب ما صدر عن هذه الجماعة أنها قد كَفَّرت من قال بأحقيته في الإمامة أو الحكم من غير البيت الهاشمي...

فهذا الإمام عبدالله بن حمزة - وهو من الرموز الدينية والسياسية المعتبرة في التاريخ الزيدي/ الهادوي - قد كَفَّر من قال بحقه في الحكم من غير النسب العلوي الفاطمي، وأنه مُغتصب وباغ، وتجبُّ مُحاربتة؛ بل قتله. يقول ردًّا على فتوى قال بها نشوان بن سعيد الحميري، تُجيز لغير الهاشمي الحُكم:

¹ - كان محمد بن يحيى بن المنصور قد أقام فترة مع والده في تهامة إثر خلافه مع ابن أخيه المهدي عبدالله، وحين دخلت القوات المصرية اليمن أيام محمد علي باشا استطاع أن يكوِّن علاقة شخصية معهم، ورحل إلى مصر بعد انسحاب القوات المصرية، وجلس في القاهرة من عام 1258 إلى عام 1260هـ، طامعًا في طلب العون من محمد علي باشا ضد ابن أخيه للاستيلاء على الحكم، ولكن دون جدوى، فعاد خائبًا، ونزل ضيفًا على الشريف حسين بن علي حيدر في منطقة أبي عريش، وهناك اتفق معه أن يحتل الشريف علي بن حيدر اليمن الأسفل، ويكون تحت حكمه مقابل أن يدعمه لحكم صنعاء، وكان الأمر كذلك، فتقدم الشريف حسين مع قواته وسيطر على تعز والحجرية وذي السفال، بل أنهى سيطرته على اليمن الأسفل كاملاً عام 1261هـ، وأخرج أتباع الإمام المهدي منها، وكانت الأوضاع الاقتصادية لليمن خلال هذه الفترة في أسوأ حالاتها، وكل حالاتها سوء. وفي الوقت الذي تقدم من اليمن الأسفل، كان أبناء رِيمة قد وفدوا إلى الشريف حسين يطلبون منه واليا عليهم، فأعطى الولاية للأمير محمد بن يحيى، وعاد، ولكن ليجمع ما استطاع من قبائل رِيمة ودمار ويواصل بهم الزحف باتجاه صنعاء، ودخل محمد بن يحيى مع المهدي في معركة حاسمة في نقيل يسلم جنوب صنعاء، انتهت بتنازل المهدي لمحمد بن يحيى، ودخولهما صنعاء معا بعد تصالح بينهما على أن تكون الإمامة لمحمد بن يحيى، ثم عاد الإمام محمد بن يحيى في حرب أخرى على الشريف حسين في تهامة دحره منها، وانتصر عليه... الخ.

أَمَّا الَّذِي عِنْدَ جَدُودِي فِيهِ
وَيُتِّمُّونَ ضَحْوَةَ بَنِيهِ
فَيَقْطَعُونَ لِسْنَهُ مِنْ فِيهِ
إِذْ صَارَ حَقَّ الْغَيْرِ يَدْعِيهِ

وله أيضا:

حَمْدًا لِمَنْ أَيْدَانَا بِعَصْمَتِهِ
صِرْنَا بِحُكْمِ الْوَاحِدِ الْمَنَانِ
وَمِنْ عَصَانَا كَانَ فِي النَّيْرَانِ
لَوْ أَنَّهُ صَامَ وَصَلَّى وَاجْتَهَدَ
وَصَيَّرَ الثَّوْبَ نَظِيفًا وَالْجَسَدَ
ثُمَّ عَصَى قَائِمَنَا الْمَشْهُورَا
مُحْتَسِبًا لِأَمْرِكُمْ مَقْهُورَا
وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ الْحَامِيَةِ
وَاجْتَهَدَ وَصَلَّى وَاجْتَهَدَ
وَوَحَّدَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَبَدَ
وَقَامَ بِالطَّاعَةِ بِالْعِزْمِ الْأَشَدِّ
وَقَالَ: لَسْتُ تَابِعًا مَأْمُورَا
لَكَانَ مَلْعُونًا بِهَا مَثْبُورَا
وَأُمُّهُ فِيهَا يَقِينَا هَاوِيَةِ

ومما يُنسب للإمام المنصور بالله القاسم بن مُحَمَّد بن علي، مؤسس الدولة القاسمية، من ضمن قصيدة يُهاجم فيها الصُّوفية، ويدعو النَّاسَ للتمسك بآل البيت:

يَا إِذَا الْمُرِيدَ لِنَفْسِهِ تَثْبِيْتَا
اسْأَلْكَ طَرِيقَةَ آلِ أَحْمَدِ وَاسْأَلْ
وَلَدِينَهُ عِنْدَ الْإِلَهِ ثَبُوتَا
لَا تَعْدِلْنَ بآلِ أَحْمَدِ غَيْرَهُمْ
سُفْنَ النِّجَا إِنْ تَسْأَلُوا يَاقُوتَا
وَهَلِ الْحِصَاةُ تَشَاكِلُ الْيَاقُوتَا!؟

الله أوجب ودهم في وحيه
وأئمة الأخيار تروي فضلهم
ما إن تلم بمسندٍ أو مُرسلٍ
فيها نعوت نجاتهم فدع الذي
والرجس أذهب عنهم إن شئنا
فابحث تجده مجملاً وشئنا
إلا وجدت لهم هناك نُعوتاً
لم يُلف يوماً بالنجا منعوتاً¹

وطوال ما يزيد على ألف عام مضت، لم يكن الإمام - "رئيس الدولة" وهي دولة شكلية بطبيعتها - إلا من الصفوة الهاشمية، وكان نوابه ومعاونوه المقربون كذلك، وأيضاً أمراء الألوية من أولاد الأئمة أو إخوانهم أو مقربهم، خاصة الألوية الكبيرة التي تدر دخلاً مالياً كبيراً، كما كان الأمر ذاته بالنسبة لعمال القضاة والنواحي وحكامها، بصورة أبقَت الشعب معزولاً عن ممارسة حقه السياسي في الحكم والمشاركة فيه، ففقد الخبرة السياسية خلال كل هذه الفترة؛ كما حُرِم من حقه في التعلُّم؛ ولذا فحين قامت ثورة 26 سبتمبر 1962م واستطاع الشعب أن يتسلم حكم نفسه كان جديداً على السياسة إلى حد كبير، أو بالأصح مُنقطعاً عنها لما يزيد على أكثر من ألف وخمسمئة عام، إلا ما ندر.. أي أن تجربة الحكم الشعبي كانت مفقودة، بحكم القطيعة التاريخية معها، بل مع العلم والتعلُّم ذاته؛ ولهذا السبب كانت تلك الإخفاقات التي لاقاها عقب قيام الثورة!

يقول الدكتور فضل أبو غانم: "وحتى قيام الثورة عام 1962م، كانت الركيزة الاجتماعية والسياسية والدينية التي يتكوّن منها جهاز الدولة في اليمن، تتكوّن من أقلية من أقارب الإمام، وبعض الأسر والعائلات التي كانت على صِلَةٍ وثيقة بالإمام، ومُعظم هؤلاء كانوا يتحدرون من فئة القضاة الذين ظلوا مع الأسر الحاكمة من الأئمة، وكانت في أيديهم جميع المراكز الحكومية والإدارية، ومن بينهم "الأمراء والنواب والعمال والحكام الشرعيون"، كمثلي الإمام في مختلف المناطق"²

¹ - النبذة المشيرة إلى جُمَل من عيون السيرة في أخبار مولانا أمير المؤمنين وسيد المسلمين المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد بن علي عادت بركاته. "مخطوط" مكتبة اليمن الكبرى، "نسخة منها بمكتب رئاسة الجمهورية" 31.

² - القبيلة والدولة في اليمن، سابق، 40.

المبحث الثالث خلق التراتبية الاجتماعية

المتأمل في أدبيات النظريات السياسية الحديثة والمعاصرة من فاشية ونازية واشتراكية يجد أنها قد عمدت في غالبها إلى جعل الناس كلهم طبقةً واحدةً متساوين، لا مزية لأحدٍ على أحدٍ في أي شيء، خاصةً الاشتراكية، "نستثني منها النازية هنا".

وبصرف النظر عن واقعية أو تطبيق هذا التوجه من عدمه، إلا أن ما يشفع لها أنها لم تحتقر الإنسان أو تزدريه؛ أما نظريةً البطينين فالأمر يختلف، فقد عمدت إلى تقسيم المجتمع اليميني وتجزئته، وتصنيف أبنائه بصورةٍ غير معهودة على امتداد حضارته لآلاف السنين؛ ولم يكن اليمينيون في تاريخهم القديم إلا مواطنين متساوين في الحقوق التي لهم والواجبات التي عليهم، لم تفرقهم عادة، أو يمايز بينهم عرف، حتى جاءت هذه النظرية، فعمدت إلى تفكيك البنى الاجتماعية وتدمير أمشاجه الداخلية بصورة فجأة، لا نظير لها إلا في الهند تقريباً؛ حيث قسّمت المجتمع وصنّفته إلى طبقاتٍ تراتبية، ولكل طبقة امتيازاتها الخاصة عن الأخرى، شريطة ألا تصل أية طبقة إلى نفس الامتيازات أو المكانة التي أضفتها هذه الجماعة على نفسها!

ويأتي في مقدمة هذه المتواليات السكانية: السادة، يليهم القضاة فالمشايخ، فالرعية، فأصحاب المهن المتواضعة الذين لا يتساوون مع غيرهم في أدنى الحقوق الإنسانية؛ إذ ما هم إلا خدّم لدى أسبادهم، فتفككت بهذه النظرية الجديدة عرى المجتمع وتقطعت أوصاله؛ بل لقد تدمرت النفسانية السوية التي حكم عليها - زوراً وبهتاناً - أن تظلّ في قاع المجتمع، خادمة لمن فوقها، ولم تعد إيجابية أو سوية بالصورة الطبيعية، لإسهامها في تنمية المجتمع والعمل الجماعي الخلاق.

"وكما فعل السادة في تثبيت وضعهم في الأيديولوجية الحاكمة، سعوا منذ قديمهم إلى اليمين إلى تكريس النظرية السياسية المناسبة التي تخدمهم في بسط نفوذهم وسيطرتهم على مجالات القوة السياسية والقوة الاجتماعية في المجتمع، حتى أصبح وجودهم مقروناً نظرياً وعملياً بالسلطة

السِّيَاسِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ، وبالسَّيْطَرَةِ المَبَاشِرَةِ عَلَى الدَّوْلَةِ وَأدْوَانِهَا المَخْتَلِفَةِ، بوصفهم سَادَةٌ، وارثين للمَكَانَةِ ومُسْتَحْقِينَ لَهَا... فَكُلُّ سَيِّدٍ قَادِرٍ - نَظْرِيًّا عَلَى الأَقْلِ - أَنْ يَتَبَوَّأَ مَنَصَّبَ الإِمَامَةِ إِذَا كَانَ لَهُ عَصَبِيَّةٌ وَقُدْرَاتٌ خَاصَّةٌ لِلوُصُولِ إِلَيْهَا"¹

إِضَافَةً إِلَى هَذَا مَنَحُوا أَنفُسَهُمْ لِقَبِّ "سَيِّدٍ" ذُونَ غَيْرِهِمْ، مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ مَدْلُولَ كَلِمَةِ "سَيِّدٍ" فِي المَجْتَمَعِ اليمَنِيِّ مُخْتَلَفٌ كَلِيًّا عَنِ المَدْلُولِ المَتَعَارِفِ عَلَيْهِ عَالَمِيًّا، كَمَا أَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ لِبَقِيَّةِ الطَّبَقَاتِ أَوْ الفِئَاتِ الأُخْرَى فِي المَجْتَمَعِ - وَمِنْ وَجْهَةِ سَيِّكُولُوجِيَّةٍ - حَالَةٌ مِنَ "الاسْتِعْلَاقِيَّةِ" بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ عَلَى تَفَاوُتٍ بَيْنَ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ، وَتَمَيَّزُوا حَتَّى بِأَشْكَالِهِمْ وَمَلْبَسِهِمْ عَنِ الأَخْرِينِ، نَاهِيكَ عَنِ أَنَّهُمْ لَا يُزَوِّجُونَ الأَخْرِينِ، وَلَا يَتَزَوَّجُونَ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ الزَّوْجُ مِنَ الأَخْرِينِ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ جَائِزًا، لَكِنْ تَزْوِيجُ الأَخْرِينِ مِنْ بَنَاتِهِمْ غَيْرُ جَائِزٍ، وَرَبْمَا مِنَ الفُوقَرِ، وَخَوَارِمِ المَرْوَةِ، فَاسْتَسَبَّوْا إِلَى جَانِبِ الجَاهِ الاجْتِمَاعِيِّ وَالنَّفُودِ السِّيَاسِيِّ الثَّرَاءِ المَادِيِّ، لِأَنَّ الجَاهِ الاجْتِمَاعِيَّ فِي حَدِّ ذَاتِهِ مَدْرٌ لِلْمَالِ كَمَا يَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ خَلْدُونَ. فَقَدَ حَرَّمَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ سَلِيمَانَ زَوَاجَ الفَاطِمِيَّةِ مِنْ غَيْرِ فَاطِمِيٍّ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِهَذِهِ الفَتْوَى فِي اليمَنِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ العَلَامَةُ ابْنُ الأَمِيرِ، وَالَّذِي ذَكَرَ أَنَّ الإِمَامَ الهَادِيَّ قَدَ زَوَّجَ بَنَاتِهِ مِنَ الطَّبْرِيِّينَ.²

وَقَدْ ظَلَّ هَذَا المَعْتَقُدُ سَائِدًا إِلَى اليَوْمِ، وَإِنْ كَانَ بِصُورَةٍ أَقْلٍ عِنْدَ البَعْضِ، فِيمَا لَا يَزَالُ كَمَا هُوَ عِنْدَ البَعْضِ الأَخْرِ، بِاعْتِبَارِهِ عَقِيدَةٌ وَدِينًا، فَالْهَاشِمِيَّةُ لَا يَجُوزُ لَهَا الزَّوْاجُ إِلاَّ مِنَ هَاشِمِيٍّ فَقَطْ، فِي الوَقْتِ الَّذِي يَجُوزُ لِلْهَاشِمِيِّ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ غَيْرِ هَاشِمِيَّةٍ، عَلَى اعْتِبَارِ الكِفَاءَةِ فِي النَّسَبِ حَدَّ تَوْهَمِهِمْ، وَمِنْ "أَخْطَأَ" مِنَ الهَاشِمِيِّينَ زَوْجَ ابْنَتِهِ لِرَجُلٍ غَيْرِ هَاشِمِيٍّ فَإِنَّ سَيْفَ "الحَسْبَةِ" مَصَلَتْ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ أَقْرَبِ مُتَعَصِّبٍ، وَلَدَى أَقْرَبِ مُحْكَمَةٍ، بَلْ إِنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ تَزْوِيجَ الهَاشِمِيَّةِ لِغَيْرِ الهَاشِمِيِّ إِسْقَاطًا لِلْمَرْوَةِ، حَتَّى لَوْ رَضِيَتِ المَرْأَةُ وَرَضِيَ الوَالِيُّ، كَمَا تَذَكَّرُ ذَلِكَ أَكْثَرُ مَرَاجِعِهِمُ الدِّيْنِيَّةِ، مُشَدِّدِينَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الإِمَامِ وَعَلَى المُسْلِمِينَ إنْكَارَهُ، وَعَلَى الجَمِيعِ وَجُوبَ التَّفْرِيقِ مَبَاشِرَةٍ بَيْنَهُمَا إِنْ حَدَثَ،

¹ - التَّارِيخُ الاجْتِمَاعِيُّ لِلثَّوْرَةِ اليمَنِيَّةِ، رُؤْيَا سوسِيُولُوجِيَّةً لِتَحْوِيلِ بِنَاءِ القُوَّةِ. د. عَبْدِ المَلِكِ المَقْرَمِيِّ، دَارُ الفِكْرِ المَعَاوِرِ، ط: 1، 1991م، ص: 177.

² - يَقْتَضِي الإِنْصَافُ هُنَا أَنَّ نَشِيرَ إِلَى الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَهُوَ إِمَامُ مَذْهَبِ سُنِيِّ، فَقَدَ قَالَهُ بِعَدَمِ جَوَازِ القُرْشِيَّةِ إِلاَّ مِنَ قُرْشِيِّ؛ لِأَنَّهُ قُرْشِيٌّ "مَطْلَبِيٌّ" وَأُمُّهُ حَسِينِيَّةٌ. وَقَدْ ذَكَرَ البَعْضُ أَنَّهُ لَيْسَ لِقُرَيْشٍ إِمَامٌ مُتَبَوِّعٌ سِوَاهُ.

حتى لا يتمادوا في الذنب، مُشيعينَ وهماً بين الناسِ أن من تجرأ على الزواج من هاشمية التهم البرصُ أعضاءه!

على الصَّعيد ذاته، يجوز للهاشمي التزوج من غير الهاشمية، مع أن هذه الزوجة لا يمكن أن تحظى بما يمكن أن تحظى به أية امرأة أخرى هاشمية، وتبقى في مرتبتها الدونية ليس أمام زوجها الهاشمي فحسب؛ بل حتى أمام أبنائها الهاشميين، الذين لا يجوز لها أن تناديهم بأسمائهم مباشرة، بل لا بد أن يسبق نداءها لابنها بقولها يا سيدي، ولا يدري عاقلٌ متى كان الفرعُ أفضلَ من الأصل؟! بل لقد ذهب بعضهم أبعد من ذلك، حين رأى أن الهاشمي إذا تزوج من غير هاشمية، ومات عنها أو طلقها فإن عليها البقاء أرملة بعد ذلك، ولا يجوز لها أن تتعل غيرَه أبداً إلا إذا كان هاشمياً!

قال العلامة المجتهد المقبل، عن مسألة جواز زواج الفاطمية من فاطمي: "ومثال ما استصغر في الفروع ما فعله الزيدية في عصرنا هذا، ولم يكن في أوتالهم، وهو تحريم الفاطميات على من ليس بفاطمي.. وإنما هو كذب ومخرقةٌ مثل ما يُروى من الأحاديثِ الجمّة في تزويج فاطمة، ﷺ وأحوالها من الموضوعات المعلومّة، رَفَع اللهُ شأنها بما أغناها به من الاختصاصات عن تلك الهنات التي جاءوا بها، قالوا: فيلحق بها بناتها. وعلى قود كلامهم هذا، كانت بناتها ممنوعات الأزواج شرعاً؛ لأنه لم يكن حينئذ إلا في إخوانهم، كما في بنات آدم، إلا أن بنات آدم جعل الله لهن مخرجاً، وهؤلاء لا يخرج لهن عند الزيدية.."¹

وقد تجذرت هذه الفوارق الطبقيّة بفعل التعامل والثقافة المفروضة التي جسدتها هذه النظريّة عملياً على أرض الواقع، فكان لهذا التصنيف الفئوي أثره السلبي على مختلف الأصعدة الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة؛ بل الإنسانيّة، فهذه فتوى شرعيّة من أحد حملة هذه النظريّة، إجابة عن سؤال مفاده: ما حكم من لطم شخصاً؟ تقول فتوى هذا الشيخ: "الجواب، وبالله الصواب، في كتاب عبد الله بن العباس - ﷺ - في تقدير الجنايات في اللطم باليد، إن لطم إنساناً بيده، ففي الملطام خمسة وعشرون مثقالاً، وبالطراش² يُثقل بخمسين مثقالاً وعمامة وقميصاً وكسوة كاملة، لأن فيه

¹ - العلم الشامخ، سابق، 282.

² - الحذاء، وهي لهجة محلية لكثير من المناطق اليمنية، لم تعد تُستخدم كثيراً.

بشاعة عظيمة وهتك امرئ في الإسلام كقتله، هذا إن كان من أبناء الناس، ومثله لا يُهتك ولا يُجس، فإن كان ليس من أبناء الناس فلا يُقدر هذا التقدير، وقد يُقدر تقديرًا غير هذا، بالسوط يُجلد أربعين جلدة، عدد كل أصبع عشرة أسواط، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم¹

ومن ذلك أيضًا أن مشايخ العلم غير الهاشميين الذين كان يتعلم على أيديهم أبناء الهاشميين، كانوا حين يمنحونهم الإجازات العلمية، يقدمون أسماء طلابهم بلفظة "سيدي" مهما كانت سنه، أو مستواه التعليمي، ومهما كان مستوى شيخه وأستاذه أيضًا!²

قد يقول قائلٌ هنا إننا نتجاوز الحديث فيما يتعلق بالطبقيّة والتمييزات الاجتماعية، وأنها في أغلب مجتمعات العالم، وهذا الكلام فيه بعضٌ من الصّحة من حيث المبدأ؛ حيث إن الناس طبقاتٌ متفاوتة وهي سنّة اجتماعيّة لن تزول إلا بزوال الناس أنفسهم، لكن يبقى السؤال مُشرعًا: ما طبيعته هذا التمايز؟ وما أساسه؟

في الحقيقة أنّ التّمايز القائم في كل المجتمعات اليوم هو تمايزٌ على أساس المهنة أو الوظائف أو الوضع الاقتصادي، وهذا لا غبار عليه، وليس بوسع أحد أن يتجاوزه مهما كان؛ لكن أن يكون التّمايز على أساس العرق أو السّلالة فهذا هو المقووث، وهو ما لا يستقيم وقواعد العقل والدين. إنّ فكرة التراتبيّة الطبقيّة، وتقسيم الناس إلى "كاملين" أو "ناقصين" وفقا للمهنة، أو العرق، أو الجغرافيا لم يكن لها وجودٌ في الذهنيّة اليمينيّة سابقًا على الإطلاق، فكلُّ الناس سواسيّةٌ مهما اختلفت مهنتهم أو حِرْفهم، ليس لدى اليمينيين؛ بل لدى العربِ كافّة، بمن في ذلك فُرَيْشٌ التي كانت تُعتبر نفسها مهمّة العربِ ومرجعها.

كان العوامُّ، أبو الزبير خياطًا ومطرزًا، وكذا عثمان بن أبي طلحة الذي سلّمه الرّسول مفتاح الكعبة. وكان ابنه الزبير - الذي ادعى الخلافة لنفسه لاحقًا مُعارضًا الفرع المرواني من الأمويين -

¹ - الفتوى في مخطوط بارشيف المؤرخ والباحث اليميني حيدر علي ناجي العزي. والفتوى للسيد أحمد حسين جحاف، نائب الشرع في كسمة من أعمال ريمة، أيام العثمانيين، فيما بين العام 1290- 1295هـ. حسبما أكد لي الباحث المذكور..

² - رأيت ذلك بنفسني في إحدى الإجازات العلميّة لأحد التلاميذ الهاشميين "أحتفظ بصورة منها" قبيل ثورة 1962م، وصار بعد ذلك أسنًا كبيرًا وسياسيًا بارزًا، وقد تخلى عن فكرة البطنين والأفضلية العرقية حسبما كان يصرح.

جزارًا. وكان عامرُ بن كريز جزارًا، وكذا الوليد بن المغيرة. كما كان العاص بن هشام أخو أبي جهل حدادًا. وكان أبو سُفيان بن حرب أبو الخليفة معاوية بائعًا للزيت والأدم. وكان عُتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص نجارًا. وكان عبدالله بن جدعان نحاسًا. وكان العاصُ بن وائل، أبو عمرو بن العاص يُعالج الخيل والإبل. وكان النضر بن الحارث بن كلدة عزافًا يضرب بالعود. وكان الحكم بن العاص أبو مروان بن الحكم الخليفة الأموي حجاجًا.¹

هذه مهنةٌ وحرفٌ عمل بها النَّاسُ جميعًا، واشتغل بها أغنياء العربِ وسادتهم قبل فُقرائهم، ولم يكن امتهاؤها أو احترافها يُنقص من قدر صاحبها مطلقًا، كما لم تكن هذه الثقافة موجودةً البتة في ذهنية العرب. وللأسف فقد عمَد أئمة الهادوية في اليمن بعد الهادي إلى تنقيص كافة أبناء المجتمع، مقابل أن يبقوا هم سادته، لا على أساس الكفاءة العلمية أو العملية، إنما على أساس العرق الذي أصله "ماء مهين" بنص القرآن الكريم حتى صارت هذه الثقافة دينًا وعقيدة من المسلمات والقطعيَّات عند البعض.

وليس النَّاسُ بالأنساب شيئًا وليس لهم سوى ما يعلمون²

طبقة العلم والعلم بالوراثة!

لم يتوقف الأمر لدى هذه النظرية عند خلق التراتبية الاجتماعية للمجتمع بشكل عام فحسب؛ بل تعداه إلى ما يتعلق بالعلم والعلماء والتعلم، فالعلماء وفقًا لأدبيات هذه النظرية قسمان: علماء آل البيت، وعلماء من يسموهم "العامَّة"!

فعلماء آل البيت علمهم لدني، أزلي، بالوراثة. وفيه الخير واليمن والبركة؛ أمَّا العلماء الآخرون فدون علمائهم وإن كانوا يفوقوهم علمًا! بل إن فتاواهم غير مقبولة، وغير معمول بها، وإن

¹ - انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سابق، 4/125.

² - البيت للأديب والمؤرخ اليمني مطهر الإيراني، ضمن قصيدته الشهيرة المجد والألم. انظر: المجد والألم، مطهر علي الإيراني اليحصبي اليمني، ط:1، 1967م. 52.

من اجتهاد أو إبداع من غيرهم من العلماء فلا بد أن يتم عرضه عليهم أولاً للموافقة عليه، وإلا فهو علم منقوص!
يقول عبدالله بن حمزة:

العلم في آل النبي من صغر نصّ عليه جدُّهم خيرُ البشر
وغيرهم ليس بمغنيه الكبر لو شاب شعُرُ رأسه أو انتثر

كما يقول - أيضا - وهو يتحدث عن الإجماع في مسائل الفقه: "فلا معنى لجعل إجماع الأمة إجماعاً ثابتاً غير إجماع العترة، فقد صح لك أن مدار الحق على العترة في الحالتين جميعاً، وذلك يكشف عن أنه لا اعتبار بمن سواهم.."¹
موضحا في قصيدة أخرى:

ومن شام علماً نافعا من غيرنا فإنه يشيم ما لا يُرتجى

وفي رسالته المطولة لـ"وردسار" عامل العباسيين في صنعاء ما يلخص نظرتَه هذه كاملة، بذلك السجع المرصع، بمضمونه العجيب والغريب، مشيرا إلى بعض فقهاء غير آل البيت، الذين أسماهم فقهاء الجرب والمزاود، ولقطات الموائد الذين لا يُعتد بهم.. إلخ.

أبونا رسول الله!

كما يقول أيضا في رسالة وجهها لأهل مارب: ".. إنما نحن نُقاتلُ هذه الأمة على تأويل كتاب الله، كما قاتلهم أبونا رسول الله - ﷺ - على تنزيهه؛ لأنه حُطَّ بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، ونحن تراجمته وورثته، وعندنا معرفة غرائب، وعلم عجائبه.."²

¹ - مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، سابق، 241.

² - مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، سابق، 23.

وقد ثارت نائرة الهادويين المتعصبين أثناء الفترة القاسية حين قرّب بعضُ الأئمّة بعضًا من العلماء المجتهدين الكبار، وأسندوا لهم بعضًا من المناصب، كالإمام الشوكاني، فألبوا عليه الخاصّة والعامة، وأصدروا الفتاوى في ذلك. وحين عجزوا عن مواجهة الأئمّة، ومنعهم من تقريب هؤلاء العلماء المجتهدين، وإيكال بعض المناصب السّياسيّة إليهم، هاجروا من صنعاء إلى صعّدة، وإلى مختلف قبائل الشمال، داعين هذه القبائل إلى الخروج على نظام صنعاء، باعتباره نظامًا غير إسلامي، لم يعد يعمل بمذهب آل البيت، فكانت الهجرة آخر حل بالنسبة لهم؛ لأنّ المذهب الزّيدي يقرر إما تغيير المنكر، وإما الهجرة إلى بلد غير البلد الذي تقيم فيه، كما فعل السيد إسماعيل بن أحمد الكبسي؛ حيث هاجر مع بعض أتباعه من صنعاء إلى حجة، وهناك حرّض القبائل ضد الإمام المنصور علي، لأنه قرّب السّنيين منه، ولم تعد الدّولة إسلامية من وجهة نظره. ! مع أنه لم يلق استجابة لها صدّى وتأثيرًا على الإمامة، فغادر صعّدة واتجه إلى "برط" محرّضًا قبائلها؛ لكنه لم يلق أية استجابة، وحين فشل في دعوته هذه رجع إلى صنعاء في هجرة الكبس بخولان، مُستغلًا بالتعليم ومحتفظًا لنفسه بالإمامة!!¹

ولأنّ "أهل البيت" أرفعُ النّاس مكانة، وأعلى قدرًا من وجهة نظر أتباع هذه النظرية، ووفق نُصوصهم الخاصّة التي ليس منها نصوص القرآن الكريم أو السّنة الصّحيحة، فإنّ الآخرين هم من طينة أخرى، ومرتبة أدنى، كما تقرر ذلك تعاليم وأدبيات هذه النظرية، تصرّحًا أو تلميحًا. يقول الإمام عبدالله بن حمزة في إحدى رسائله عن آل البيت: " .. فما ظنّكم - رحمكم الله - في بيت عمره التنزيل، وخدمه جبريل، وذرية درجت بين التحريم والتحليل، والتأويل والتنزيل، أعلام حجي، وأقمار دجي، وغيوث عطاء، وسيوف لقاء، ورماح وغي. دعاة إلى الله سبحانه في كل فترة، وناعشوا هذه الأئمّة من كل عشرة.."²

¹ - الدر المنظوم في تراجم الثلاثة النجوم، إسماعيل بن حسين جعمان، تحقيق: زيد الوزير، مركز التراث والبحوث اليمني، 2002م، 75. في درر نور الحور العين، لم يذكر كاتب سيرة المنصور لطف الله جحاف في كتابه هذا أن ممن خرج رجل بهذا الاسم، غير أنه ذكر شخصًا آخر اسمه حسين بن عبدالله الكبسي قاضي الروضة ممن خرجوا ضد الإمام، وأعلن نفسه إمامًا عام 1222هـ، وبث رسائله إلى مناطق كثيرة، وبالذات قبائل برط وخولان، وقد أيده كثير من الأسر الهاشمية؛ بل انضم إليهم ابن أخي المنصور أحمد بن عبدالله بن المهدي عباس.. إلخ. أنظر درر نور الحور العين، 66.

² - مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، سابق، 55.

ويقول عبدالله بن مُجَدِّ حميد الدين، في إطار حَدِيثِهِ عن النَّصُوصِ الدِّينِيَّةِ "الوَهْمِيَّة" الَّتِي تَقْدَسُ آلُ الْبَيْتِ وَتَعْلِي شَأْنُهُمْ: "ومهما اختلفنا حول دلالة تلك النَّصُوصِ فلن نختلف في أن أقل ما تدلُّ عليه هو أن لأهل البيت شأنًا عند الله؛ شأنٌ يوجب على الأُمَّةِ أن تبحث عن أخبارهم، وتقب عن أحوالهم، وتتبع علومهم، وتنظر في كتبهم، وتتعلم من أعلامهم، وتترك أعداءهم؛ ولكن للأسف، فأكثر النَّاسِ نحو أئمة أهل البيت إمَّا غافل، وإمَّا جاهل، وإمَّا حاسد..."¹

إن التفريق والتمييز بين النَّاسِ قد بلغ مداه عند هذه الجَمَاعَةِ المتعصبة، بصورة لا تخطر على ذهن أحد، حتى على مستوى المدارس، فقد أسَّس الإمامُ يحيى المدرسة العِلْمِيَّة في صنعاء، وخصَّصها لعلية القوم من أبناء الهاشميين والقضاة وكبار التجار "أبناء الناس" حسب ثقافتهم السائدة يومها، ليكونوا من أتباعه وحاشيته الذين يركن إليهم عقب تخرجهم منها كأدوات حُكْم، وأقطاب سُلْطَة، بينما أسَّس مدرسة أخرى أسماها "مكتب الأيتام" لتعليم الأيتام والتلاميذ من الفئات الدنيا فيها، وقد نشأ الصِّراع بين الفريقين مُنذ طفولتهما بحكم الفارق بين المدرستين، وتعزز أكثر وأكثر حين خرجا إلى ميدان العمل، ولكن كل منهما بوظيفة دون الآخر، وراتب دون الآخر، فنشأ ما يُسمى في الفكر الماركسي بالحدق الطبقي بين الفريقين، والذي منشؤه - في الأساس - سياسة "فرق تسد" التي اتبعتها الإمامة بين أبناء الشعب الواحد. ولحرصه على تعميق هُوَّة الخلاف، فقد عمد لتمييز طلاب المدرسة العِلْمِيَّة عن طلاب مكتب الأيتام حتى بنوع لباسهم!

أما عن طَبِيعَةِ هَذِهِ الْمَدَارِسِ، وحالتها، فخير من يقدم عنها وصفًا موجزًا هو المناضل العزي صالح السنيدار الذي درس في تلك المدارس، وذاق مرارتها "أما المعلمة أو المدرسة، فكانت عبارة عن مكان مُظلم لا توجد فيه نافذة، وإذا وجدت فواحدة فقط، وليس فيها فراش ولا سُبُورَة ولا مقاعد؛ بل يقعدون على التراب، والمعلم على دُكَّة، بين يديه جملة عصي والسُّوط والفلكة، والأولاد يكتبون دروسهم على الألواح الخشبيَّة، والمداد عبارة عن حجارة بيضاء لينة، يبلُّونها في الماء، ويستعملونها كمداد أبيض على اللوح الذي صُبغ بمادة سوداء.. ولم يتطور التعليم إلا بعد دُخُول

¹ - الزيدية.. قراءة في المشروع وبحث في المكونات. عبدالله بن محمد حميد الدين، دار الرائد للدراسات والبحوث، ط:3، 2010م، 118.

الأترك، وفتحهم للمدارس، وكانوا يسمونها "المكتب" وهي تعد بالأصابع، وقد سُنتَّ ضدها
الدعايات، ولم يُدخِل أهالي صنعاء أولادهم إلى هذه المدارس إلا بعد حين..¹

¹ - الطريق إلى الحرية، مذكرات العزي صالح السنيدار، ط:2، 1998م، 11

المبحث الرابع التكفير واستباحة الأموال

المتأمل في مسيرة التكفير والتفسيق في التاريخ الإسلامي، يجدها ابتدأت بصورة واضحة لدى الخوارج الذين قالوا بكفر مُرتكب الكبيرة، وتنامى بصورة أكثر عند من عُرفوا بجنابلة بغداد في العصر العباسي، وخاضوا جدلاً كبيراً بهذا مع خصومهم. ثم خفت هذا الصَّوت فجأة وبقي حالات فردية من بعض الفقهاء المتطرفين، خلال القرون التالية لهم، حتى جاءت الوهابية النجدية الحديثة والمعاصرة، وأحيت الفكرة كثيراً، كما كان الخوارج قبلهم؛ بل وأشد. وفيما بين الخوارج والوهابية بعض من عُلاة الهادوية الذين لا يقلون تطرفاً عن خصومهم الذين يصمّوهم بالتكفيريين، مع أنّ التطرف نتاج غاثة نفسية في حد ذاته، وسواء كان هذا الشخص في اليمين أو في اليسار فلن يكون إلا مُتطرفاً أينما ذهب، حسبما يُشير إلى ذلك "إيريك هوفر" في "المؤمن الصادق"

ولم تكن الهادوية بأقل حدة - في هذا الأمر - من الخوارج أو الوهابية، فلقد كُفرت الآخرين أفراداً وجماعاتٍ بصورة لا نظير لها لدى كل الجماعات الإسلامية. وإذا كانت الوهابية تبدأ من التبديع أولاً، فالتفسيق ثانياً، ثم التكفير أخيراً، فإن الهادوية لا تبديع لها ولا تفسيق، فالتكفير لديها أولاً وثانياً وثالثاً! ذلك لأن الهادوية الفقهية هي توأم الهادوية السياسية من لحظة الميلاد، توأم لا يفترقان، خلافاً لبقية الفرق الإسلامية الأخرى، سواء ما لحق منها بقصور الحكم، أو اتخذ منها موقفاً، فليس بينها وبين السلطة كل ذلك التلازم الوثيق والتوأمة المقدسة، كما هو الشأن بالنسبة للهادوية، ولذا تجد بعضاً من أدبيات الفقه الشني تحذر العلماء من مخالطة الحكام والأمراء، وتدعو للابتعاد عنهم، وعدم زيارتهم أو الاحتكاك بهم، لأن ذلك يُنقص من عدالة العالم أو الفقيه، في الوقت الذي لا نكاد نجد ذلك في أدبيات الفقه الهادوي، لأن الهادوية هي الفقه وهي السياسة معاً!

وإذا كان قد حصل تسييسٌ للدين من قبل الحكام السُّنَّيين، وعلى طريقتهم، فإن الهادويَّة قد عمَّلت على تدين السِّيَاسة، وعلى طريقتها أيضًا، وبالتالي فلم يعد الدين دينًا، كما لم تعد السِّيَاسةُ سِياسةً!

"..إن الفقه السِّيَاسِي طغى على الفكر السِّيَاسِي عن طريق تدين القضايا، بحيث لم يعد للفكر دورٌ بعد أن أصبحت هذه القضايا دينيَّة لا اجتهاد فيها. ولأنَّ الفقه قد أصبح في مفهوم الأكثرية هو الشريعة، فقد كُتِبَ للفقه - بقوة الدول المتعاقبة - أن يتربع على العرش، فيملي تاريخه السِّيَاسِي. وهذا أصاب الفكر السِّيَاسِيَّ بجذب واضح"¹

ومن هنا جاء التكفير، وجاءت المواقفُ الحدية القاطعة من الآخر المخالف، وإنَّ لأصغر المسائل التي تُعتبر من ترفِ الكلام، أو مجرد المعارضة السِّيَاسِيَّة التي لا ترقى لمرتبة تهديد كرسِي الحكم؛ أمَّا ما لامس كرسِي الحكم، ففيه الإخراج من الملة، وربما من الإنسانيَّة، وكُتِبَ التاريخ مليئةً بالكثير من هذه الشواهد وهي فوق أن تُحصى، أو تُستقصى..

المؤسفُّ أننا منذ عصر صدر الإسلام وإلى اليوم ما زلنا نرسفُ في ذات القيد، وندور في الحلقة المفرغة التي لم نستطع تجاوزها أو الخروج منها أبدًا، وهو ما ترتب عليه عقم الفكر، وعقم السِّيَاسة وعقم التجديد الحضاري لمشروع عالمي تجمَّد عند نقطة البدء، وتسمَّرت بوجهه دورة التاريخ!

"كانت نتيجة السَّيطرة الفقهية المباشرة أن تشكَّل في تاريخ الفكر الإسلامي منعطفٌ حاد، لم يحظ بدراسة موضوعية. هذا المنعطفُ تمثَّل في سحب السِّيَاسة من مجالها الإنساني، كنظرية قابلة للتطور، إلى مجالها الفقهي كعقيدة ثابتة لا تقبل تطويرًا. مع العلم بأن ما اعتبروه فقها دينيًا هو في الحقيقة فقه طائفة من علماء التسلط، اكتسب قداسةً بفعل التسلطِ نفسه، ثم حلَّ محل الأصل"²

¹ - الفردية.. بحث في أزمة الفقه الفردي السِّيَاسِي عند المسلمين، زيد بن علي الوزير، مركز التراث والبحوث اليمني، ط:1، 2000م، 572.
² - نفسه، 574.

يذكر علي بن مُجَّد العلوي، صَاحِبُ سِيرة الإمام الهادي، وابنُ عمه عن الهادي أنه سَمِعَهُ يوماً يقول: "والله لو كان معي ثلاثمئة وثلاثة عشر مؤمناً، لا، بل لو كان معي خمسمئة لدُسْتُ بها اليَمَن" ¹ وأيضاً: "لو كان معي ألفاً راجلٍ وخمسمئة فارس مؤمنين صابرين لدوختُ بهم عامَّة النَّاس" ² وقد قال: "إن سأل سائلٌ فقال: من أين زعمتم أن الحقَّ في أيديكم دون غيركم، وجميع من خالفكم يدعي مثلما ادعيتُم؟ قلنا له: إن أقربَ الأشياءِ عندنا الذي علمنا به أنا على الحق، ومن خالفنا على الباطل، وأن جميع فرق الأُمَّة بجملة قولنا مُصدقون، ونحنُ لهم فيما انفردت به كل طائفة منهم مُكذِّبون، وهم فيما ندين الله به من أصول التوحيد والعدل وإثبات الوعد والوعيد والقول بالمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُصدقون." ³

مضيفاً: "هذا ديننا ونحلُّتنا، والطيبون من آل مُجَّد قادتُنا، فمن وافقنا على هذا فهو وليُّنا، ومن خالفنا فهو عدونا، والله وليُّ المؤمنين وعدو الفاسقين" ⁴

وكما ذكر ابن عمه وكاتبُ سيرته: "فإنَّه عندَ وصوله البلد قد كتبَ إلى أهل اليَمَن جميعاً كتاب دعوة يدعوهم فيه ويحضُّهم على الجِهَاد معه" ⁵ ومن المعلوم أنَّ الجِهَادَ لا يكونُ إلا ضدَّ الكفار لا ضدَّ المسلمين؛ وبشروط محدَّدة، ذكرها الفقهاءُ في كتبهم وهي كثيرةٌ وصارمة، فهل أهل اليَمَنِ كفارٌ حتى يُعلن الجِهَادَ ضدهم؟! ولم تلك القصائدُ الشعريَّةُ التي نَظَمها الإمام الهادي فيهم؟ من مثل:

خانوا الإله وعطلوا أحكامه
فمقى أرى البيض البواتر ترتع
فيهم بتدمر وقعة في وقعها
فيها رؤوسهم تُحز وتُقطع

¹ - سيرة الإمام الهادي، سابق، 50.

² - نفسه 226. ونستشف من هذا أن أهل اليمن لم يكونوا على وفاق معه، وإن كانوا بايعوه إلا أنه قد نكث بوعدة وخرج عن القوم في عدم الوفاء بما وعد، ولو كان أهل اليمن على وفاق له أو محبين له كما يدعي غلاته لكانوا استجابوا لدعوته هذه، فهم أكثر، ومعروف عنهم أنهم أهل حرب ومراس.

³ - المجموعة الفاخرة، سابق، ص 45

⁴ ، نفسه، 131.

⁵ - سيرة الهادي، سابق، 48.

حتى يجازوا بالذي قد قدموا

مثلا بمثل، والأنوف تُجَدع¹

وأيضاً قوله:

وقلتُ ألا احقنوا عني دماكم

وإلا تحقنوهـــــــــــــــــا لا أبالي

ولستُ بمسرع في ذاك حتى

إذا ما كفر كافرٍ كم بدا لي

وحلّلت لي دماؤكم بحقٍ

وإخرابِ السّوافل والعوالي

وقطع الزرع واستوجبتموه

بما قد كان حالاً بعد حال

فقمّت عليكم حقّاً وقولي

بذلك قد يصدقه فعالي

وقد كنتم زمانا في فسّاد

وإدغال وخدع واحتيال

وقلتم إنه يخفى علينا

فقد ذقتم به شر الوبال

وإن صرتم إلى محمود حُكمي

وصيرّتم بغيركم اشتغالي

سلمتم من صُروف سجال حربي

وما زل الحروب بمستقال

أنا الموتُ الذي لا بد منه

على من رام خدعي واغتيال²

وقد مضى جلُّ وقته منذ بايعه اليَمَنِيُّونَ محارباً لهم ببعضهم، وبجنوده الذين جاءوا معه من الرّس، مُستغلاً جهلَ الأتباع وإخلاصهم له ولفكرته الجديدة، القائمة على أساس ديني حد توهمهم. فقاتل بمؤلاء الأتباع آل الدعام وهمدان وأرحب وخبوان ونجران وشبام وآل يعفر وبني الحارث وتهامة وغيرهم..

¹ - نفسه، 192.

² - نفسه، 307.

وإلى جانب تكفيرهم فقد استحلّ أموالهم وأعراضهم وهي نتيجةٌ طبيعيّةٌ للتكفير، وفقاً لأدبيّات الفقه التقليدي، أو بالأصحّ الفقه الحربي الذي أسّسه فقهاء "ساديون" من مختلف المذاهب والجماعات، ولا علاقة له بالإسلام، ولا بمقاصده العامّة، وأخلاقيات الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - وأصحابه والفاخرين المسلمين؛ إذ العنائم "الفيء بلغة هذه الهضبة" التي تصاحب أي توسّع حربي تُعتبر من المكتسبات الشّرعيّة للإمام وجُنده من وجهة نظر الفقه التقليدي الحربي، عند السّنة والشّيعة على حدّ سواء!!

يروى ابنُ عمه وكتب سيرته قصة قتاله لبني الحارث، فيقول: " .. ثم انصرف إلى القرية في آخر النهار، فأمر بالقتلى فجمعت، ثم أمر بتعليقها في الشّجر، فعُلقت منكّسة، في كل شجرة جماعة، مؤزرين بالخرق والسّمّال، وأقام بالقرية ثلاثة أيام أو أربعة، ثم إن القرية أننتت نننا شديدا، حتى لم يقدر أحدٌ على أن يأكل لحمًا، فأتت بنو الحارث إلى الهادي إلى الحق، فقبلوا رأسه ورجليه ويديه، وسألوه أن يهبّ لهم جيفَ إخوانهم، فيدفنوها في البئر والحفر، فأبى ذلك عليهم، فلم يزالوا به حتى أجاّهم، وذكّروهم بما كان قال لهم، فطرحت الجيفُ في بئر خراب، وحُفِرَ كانت خارجًا من القرية"!!¹

مُضِيًّا أيضًا عن قصة خروج الهادي إلى نجران، وغزوة بني الحارث: " .. ثم مضى بعسكره جميعًا، حتى نزل بموضع يُقال له قرقر، قريبًا من قرية الهجر، فأقام بها، وكل يوم يغدو عليهم جماعة من العسكر، فيتعرضون بهم، فلا يبرز إليه منهم أحدٌ، إلا أنهم يلاقونهم إلى الدّرب، فلا يزال القتال بينهم، والعسكر في ذلك يقطعون نخيلهم، ويهدمون حُصونهم. واجتمع بنو الحارث في قرية الهجر، وفي میناس، وقرقر بينهما، وعسكرُ الهادي إلى الحقّ تعدو، وجميع أسواق بني الحارث، فيهدمونها، ويغنمون ما فيها"²

أما عن قرية أخرى اسمها "علاف" فقد ذكر كاتبُ سيرته ما نصه: "فلما خرج القومُ من علاف وملكها الهادي، وهدمها وحرقتها وأمر بنهبها، وأخذ أصحابُ الهادي يومئذ من النميص اثنا

¹ - نفسه 173.

² - نفسه، 292.

عَظِيمًا، وَسِلَاحًا وَمَتَاعًا، وَأَمْرًا بِقَطْعِ الْأَعْنَابِ فَقَطَعَتْ، وَوَقَفَ الْهَادِي فِي عِلَافٍ، يَوْمَهُ إِلَى وَقْتِ الْعَصْرِ..¹

وقال عن غزو الهادي وجنوده لقرية اسمها "أملح" ضمن غزواته: " .. ومضى العسكر كله حتى نزلوا قرية أملح، ونهبوا ما وجدوا فيها، وأقاموا أيامًا يُخربون المنازل والآبار، ويقطعون النخيل والأعناب، والقوم في ذلك يطلبون الأمان، وهو كاره لذلك، بما يعلم من شرارتهم، وقلة وفائهم، وهو يتنقل في قراها، ويجربها قرية قرية، حتى طرحوا عليه بأنفسهم، فأمنهم، ورجع إلى صعدة بعد مكابدة شديدة لهم²

وعن بلاد وائلة حين وصلها يقول كاتب سيرته: "فنهب العسكر ما وجدوا فيه من مالٍ وغيره، فقطع أعنابهم وخرّبها، ثم تقدم إلى موضعٍ آخر، يقال له المطلاع، ففعل كما فعل بكتناف، ثم أقبلت إليه وائلة بسمعهم وطاعتهم، وطلبوا منه الأمان فأمنهم"³
أما آل طريف، فقد ألقى بكبار رجالهم ورؤسائهم في السجن بعدما دعاهم إليه، وكبّلهم بالأغلال، وأخذ سلاحهم ودوابهم، ففرقها بين الطبريين!⁴

وضمن حوادث سنة 295هـ، يورد يحيى بن الحسين مانصه: "فيها خالف بنو الحارث بنجران، وهُموا بقتل مُجَّد بن عبيدالله، عامل الهادي على بلادهم، فخرج إليهم الهادي عليه السلام، فقتلهم، ونهب أموالهم، ودثر منازلهم، ورجع إلى صعدة، وترك عصابة مع عامله المذكور"⁵
وللقارئ أن يتخيل كل هذه الوحشية والدمار والخراب والقتل، ثم ليقارنها بما كتب الكاتب نفسه أيضًا مادحًا الهادي: "ما كنا ننزل منزلًا إلا خرج يحيى بن الحسين حتى ينترح منا ساعة، ثم

¹ - نفسه، 196

² - نفسه 251.

³ - نفسه، 244.

⁴ - نفسه، 210.

⁵ - غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي، تحقيق وتقديم: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة: د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي، القاهرة، دط، 1968م، 200. وكلمة "عصابة" المذكورة في السياق حسب مدلول تلك الفترة تعني جماعة. كما في سياق الآية القرآنية على لسان إخوة يوسف: {إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عُصبة إن أبانا لفي ضلالٍ مُبين} يوسف: 8.

بيكي ويتحب، كما تنتحب المرأة الثكلى، على الإسلام وعلى الأمة الضالة المضلة، وكان يدعو أصحابه ويعظهم ويعلمهم شرائع دينهم..¹

ومما ينبغي التوقف عنده هنا هو ما أشار إليه الإمام الهادي في شروط الإمام؛ حيث يجب على الإمام - أي إمام - عدة شروط، ومنها أن يكون "بذولاً، سخياً، رؤوفاً بالرعية، متعظفاً، محسناً، حليماً، مساوياً لهم بنفسه.."²

ومما يُحسب للإمام أحمد بن سليمان هنا أن كان صريحاً مع الناس حين قال في معرض حديثه عن مواجهة الناس واستباحة أموالهم:

وخرّبت أسواقاً لهم وصياصياً وأغنيت من أموالهم جُلَّ أعواني³

لا عجب فلقد كفر اليمنيين، كل اليمنيين قاطبة، حيث قال في معرض حديثه عن الاستعانة بالمخالفين: ".. وكذلك الهادي إلى الحق - عليه السلام - لما قام دخل اليمَن وهم مطبقون على الجبر والكفر، فاستعان ببعضهم على مُحاربة البعض الآخر.."⁴

وفي عهد حُكم بيت شرف الدين، وتحديدًا في عهد المؤسس الأول لها المتوكل يحيى شرف الدين، أقدم قائد قواته، ابنه المطهر بن شرف الدين على ارتكاب المجازر المروعة، حيث قَطع الأيدي والأرجل من خلاف، وقتل الأسرى، كما فعل مع أسرى بلاد عنس وخولان؛ بل لقد خالف أحكام الشريعة والأعراف السائدة، حين أقدم على قطع أيدي وأقدام ثمانين رهينة كانت تحت تصرفه بسجن القلعة، عقب انتفاضة قبائل خولان ضده، من الأطفال المودعين لديه رهائن!

وكذا فعل مع قبائل من سحار وعمار ويام وعبيدة ووادة في واحدة من أشهر وقعاته الحربية معهم؛ حيث قتل منهم في معركة واحدة ألف قتيل، وأسر ستمئة أسير، ثم أمر المطهر بالأسارى، فضربت رقابهم عن آخرهم.⁵

¹ - سيرة الهادي، سابق، 40.

² - المجموعة الفاخرة، سابق، 674. وقد أفتى الإمام الهادي بعدم شرعية خلافة بني العباس في عصره لأنهم ظلّمة "فلا يستحق الخلافة إلا من حكم بالحق، فإذا عدل عن حكم الله فليس بخليفة" المجموعة الفاخرة، 76.

³ - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، سابق، ص 100.

⁴ - نفسه، 300.

⁵ - اللطائف السننية في أخبار الممالك اليمينية، محمد بن إسماعيل الكبسي، د.ت. 154.

أما مدينة عمران فقد دخلها محاربًا أهلها حين حاربوه، قُتِلَ فيها من قَتَل، وأَسْر من أَسْر "وعاد وَقَدْ تركها أطلالًا دارسةً، وخرابات عابسةً، وغنم فيها سِلَاحًا ونقداً وبقراً وغنماً وخيلاً"¹ وَقَدْ بُنيت لأول مرة بعد هذا الخراب سنة تسعمئة وتسعين للهجرة، على يد الأمير سنان الكيخيا!!

وذات الأمر جرى في معاركه مع الطاهريين، سنة 941هـ، حين واجه جيوشهم بقيادة الشَّريف يحيى السراجي، حيثُ "أَسْر السراجي، ثم ضُربت عنقه، وقيل تم ذبحه ذبحًا" وكان عدد القتلى من جيش عامر ثلاثمائة، والأسرى ألفاً وثلاثمئة، وكان المطهَّر رَاكِبًا بغلته ورجاله يأتون إليه بالأسرى أفواجًا، فيأمر بذبح كل زمرة لوحدها حتى غطى الدم حوافر بغلته، وبذلك بلغ عدد القتلى ألفًا وثلاثمئة، وعند الانتهاء من عمليَّة القتل الجماعي أمر بأن يحمل كلُّ أسيرٍ رأسَ قتيلٍ من رفاقه، وأشار بأن يسيروا حفاة الأقدام إلى صنعاء، إلى مقر والده الإمام يحيى شرف الدين، فوصل الموكب في العشر الوسطى من جماد الأولى من السنَّة المذكورة، وكان لوصولهم صنعاء موقع عظيم، فطاف الأسرى بالشَّوارع والأزقة حاملين رؤوس زملائهم، ثم أمر الإمام بأن يتوجهوا بتلك الحالة إلى صعدة، أما الشَّريف يحيى السراجي الذي وقع أسيرًا فقد أمر المطهَّر بذبحه..²

ولك أن تتخيل أنَّ المطهَّر نفسه قد انقلب على حُكْم أبيه في حياته، وأرسل جنوده لقتال والده، والقبض على من تبقى من جنوده وأتباعه، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وضرب العملة باسمه، بعد أن أجبر النَّاس على الدخول في طاعته!³

وقد استولى حتى على أوقاف المدرسة العامريَّة برداع وغيرها من المدارس المنصوريَّة والمجاهديَّة وصَّادر أملاكها لصالحه الشَّخصي وهي الموقوفة على المدرسة من أيام الطاهريين والرُّسُوليين، الذين

¹ - روح الروح فيما حدث بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح، عيسى بن لطف الله شرف الدين، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، ط:1، 2003م. 63.

² - معارك حاسمة من تاريخ اليمن، حمزة علي لقمان، مركز الدراسات اليمنية، ط:1، 1978م، 121. وأيضًا اللطائف السننية، سابق، 158. وانظرها أيضًا في: هجر العلم، الأكوخ، 1/264. وقد عرفت هذه الموقعة بموقعة "موكل" وكما ذهب المؤرخ الفرخ فإن "موكل" عاصمة أنوانية للقليل أبرهة بن الصباح الحميري، ومقر ملوكيته، وتقع في ناحية صباح، بمنطقة رداع، كان يردها الزائرون من أنحاء الجزيرة، وفيها قال الشاعر:

وعلى الذي كانت بموكل داره يهب القيان وكل أجدد شاح

وقَدْ قام الإمام شرف الدين بقتل بعض فقهاء الصوفية وذلك بسبب معتقداتهم وأفكارهم، كما حصل مع الفقيه حسن بن علي الجدر الذي قتله الإمام شرف الدين، وعاملهم أيضًا معاملة المرتدين عن دينهم. والواقع أن ذلك في حقيقته ما هو إلا خوف من أن يستفرد عليه بشرف الزعامة الدينية، لأن كثيرًا من فقهاء الصوفية قد مال النَّاس إليهم والتفوا حولهم، خاصَّة حين يزداد ظلم الأئمة عليهم!

³ - روح الروح فيما حدث في المائة التاسعة من الفتنة والفتوح، سابق.

أوقفوا الإقطاعيات المهولة للصالح العام ولخدمة المرافق التعليمية والدينية؛ بل لقد بلغ أنواع الوقف في عهدهم ثمانين نوعاً، منها أوقاف للحمر للعرجاء، وأوقاف للقطط الشاردة، ولحمام الحرم. ولمن أخطأ من العبيد فكسر إناء سيده!¹

ومن أبشع ما تم ارتكابه وانتهاكه بحق الآخر، ما ذكره العلامة المقبلي في "العلم الشامخ" وهو يتحدث عن ملوك الهادوية " أن بعض أئمتهم استولى على بلد إمام آخر، مُعارضٍ له، فاجتمع مع علماء دولته، وحكموا ببطلان عقد الإمام المغلوب على زوجته، لأنَّ شهودَ العقد فسَّقة، لبغيهم على الإمام، أو لغير ذلك، ثم تزوج بزوجه تلك..."²

وقد أصبحت تلك الأعمال - على بشاعتها - أمموزجاً يقتدي بها الخلف عن السلف، وحجة لمن لا حجة له، وكلهم بلا حُجج، وأية حُجة لمن يستحل دماء الناس وأموالهم وأعراضهم؟! فهذا الإمام القاسم بن مُحمَّد بن علي - مؤسس الدولة القاسمية - يستشهد بما فعله أجداده الأوائل حين لآمه بعضُ الناس على ما ارتكبه بحق مواطني عصره، قائلاً: "..فإن الإمام إبراهيم بن موسى بن جعفر أخرج سد الخانق بصعدة، وكان يسقي لطائفة من الناس.. وكذلك الهادي - عليه السلام - قطع أعناب أملح ونخيلها من بلاد شاكِر، وفيهم مثلما ذكرت. وكذلك - أيضاً - قطع أعناب حقل صعدة بوادي علان ونخيل بني الحارث بنجران، وولده - الناصر عليه السلام - أخرج أرض قُدَم كلها، ولم يسأل عن بيت يتيم ولا أرملة ولا ضعيف. وفي سيرة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة - عليه السلام - أنه أخرج العادية من بلاد ظُليمة، وأشياء مذكورة. وكذلك الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان - عليه السلام - أخرج صعدة القديمة، وغيرهم من سائر الأئمة عليهم السلام. والإمام المنصور بالله - عليه السلام - نصَّ على ذلك نصّاً، وإمامنا الإمام الناصر لدين الله ضرب قرية في الكرش يقال لها الجند والعصرة في بني مُحمَّد وعزان بني أسعد وماهر في بلاد المدابير، ولم يسألوا عن

¹ - ذكر المؤرخ الأكوغ في كتابه: المدارس الإسلامية في اليمن، أن الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن صاحب المواهب، ت: 1130هـ، كان أول من سعى في خراب هذه المدرسة، لأنها في اعتقاده من آثار كفار التأويل، وكفار التأويل لا حرمة لهم، ولا قربي، لولا أن القاضي علي بن أحمد السماوي تصدى له بقوة، محذراً إياه من مغبة ذلك فتوقف المهدي، واكتفى بهدم شرفاتها برا بيمينه؛ لأنه كان قد أقسم على هدمها! المدارس الإسلامية في اليمن، 338. وأيضاً اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، المعروف بصاحب المواهب، محمد علي دبي الشهاري، مكتبة الجيل الجديد، 2009م. ص: 201.

² - العلم الشامخ، سابق، 233.

بيت يتيم ولا أرملة، واحتج الإمام الحسن - عليه السّلام - على ذلك بقوله تعالى: "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة" وهي حجة الأئمة عليهم السّلام..¹

والإمام أحمد بن سليمان يستشهد بما فعله الإمام الهادي قبله بأهل صنعاء حين أخذ من أموالهم ما احتاج إليه: ".. والمروي المأثور عن الهادي إلى الحق - عليه السّلام - أنه طلب أن يأخذ من أهل صنعاء ربع أموالهم ليدفع بها شرّ ابن فضل ويجاهد في سبيل الله.. ولا شك أن هذا الذي كان يأخذه - عليه السّلام - من أهل صنعاء أكثر مما تأخذه أضعافاً مضاعفة. وهو - عليه السّلام - قدوتنا فيما نفعه؛ فالطّاعن علينا هو طّاعن عليه؛ فأما خراب فلم يقع ذلك منا إلا في دور قوم ظهر عنادهم، وكانوا فيما بدا كفاراً..²

وإلى جانب هؤلاء فقد كفر الإمام القاسم الصوفيّ واستحلّ دماءهم، كما ورد في واحدة من رسائله، يقول عنهم، محرّضاً النّاس عليهم: ".. فالواجب على المسلمين استباحة دمائهم وأموالهم؛ لأنهم كفار مُشركون؛ بل شركهم أعظم وأكثر؛ لأن المشركين الذين كان - ﷺ - يجاهدهم يقرون بالله ويجعلون له شركاء وهي الأصنام، وهؤلاء لم يجعلوا إلههم إلا الحسان من النّساء والمردان..³

وتذكر المصادر التّاريخيّة أن الإمام المهدي صاحب المواهب قد كفر قبائل يافع ورئيسها ابن العفيف، وحين تم الصّلح بينهما اشتمل أحد بنوده على شرط عدم مناداة الإمام لابن العفيف بقوله: يا كافر..⁴

وذكر الحرّازي في تاريخه عن الإمام حسين بن مُحمّد الهادي أنّه كان عالماً مُتفكهاً، مُلمّاً بالكتاب والسّنة والقياس.. إلخ، يقول: ".. واستدلّ بأن الإمام الأعظم، مولانا أمير المؤمنين، وسيد الوصيين، باب مدينة علم رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين - قتل الأسارى في يوم الجمل، وفي أيام صفين.. أجهز على الجريح، وقد كثرت الروايات عن أمير المؤمنين صلوات الله

¹ - النّبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة، سبق ذكره، ص 21.

² - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، 303.

³ - نفسه، 31.

⁴ - اليمين في ظل حكم الإمام المهدي، المعروف بصاحب المواهب، محمد علي دبي الشهاري، مكتبة الجيل الجديد، 2009م، 171.

عليه ألا يُقتل مدبر، ولا يُجهز على جريح، واستدل بقتل الأسارى في يوم بدر.. وكذلك أورد جوابًا على ما يُؤخذ من أرباب الأموال غير الزكاة، وأورد في ذلك صِححة قياساتٍ ووقائع من المتقدمين من الأئمةِ مُختلفات، وذلك مثل المعونات والضيافات وغيرها.. وكذلك في جواز خراب دار اليتيم والأرملة من جملة غيرهم، واستدل بقياسات كما تقدم. وكذلك أجاز الشنق والسمل لمن رأى الإمام فيه مصلحة، وكذلك في مزمار الطبلخانة وهي النوبة المعروفة، أجاز ذلك للإرهاب.. وكذلك في جواز دخول الجند بيوت الأوقاف، وكذلك في تأليف بني هاشم والتحويل لأكل الزكاة، وأورد في ذلك وقائعٍ مُختلفاتٍ وأدلة. وكذلك في تبين المانع من تسليم الزكاة للإمام وسبِّي ذريته...¹

كما كتب الإمام القاسم كتابًا إلى أحد عمّاله في حجّة، وفيه: "وكذا إذا تفضّلتُم أن تتقدموا إلى حَجور وتخربوا بيت ابن عرجاش، وتنهبوا ماله، وتأخذوه حَاسِمًا حَسِيرًا ذليلًا، خاسِرًا في الدنيا والآخرة، وأنتم تقدرون على ذلك"²

وأيضًا: "وكذلك أخربوا أموال أهل بيت مأخوذ، وبيت جحوش وسحنة، أقماهم الله، أحرَقهم" وبعدهم من رحمته، وأسكنهم النار، بحق جدي مُحَمَّد رسول الله"³

وعن الأموال التي كان يغتصبها الأئمةُ وعمّالهم ما ذكره الإمام الشوكاني عن الإمام الناصر مُحَمَّد بن أحمد بن الحسن، بقوله: "والحاصلُ أنه ملكٌ من أكابر الملوك، كان يأخذ المالَ من الرعايا بلا تقدير. وكانت اليمَنُ من بعد خُروج الأتراكِ منها إلى أن ملكها صَاحِبُ الترجمةِ مصونةً عن الجور والجبليات، وأخذ ما لا يَسُوغهُ الشَّرْع، فلمَّا قامَ هذا أخذَ المالَ من حله وغيرِ حله، فعظمتُ دولته، وجلّت هيئته، وتمكنت سَطوئته، وتكاثرت أجناده، وصار بالملوك أشبه منه بالخلفاء.. وكان سَفَاكًا للدماء بمجرد الظنون والشكوك"⁴

¹ - فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، د. حسين العمري، دار الفكر، دار الحكمة اليمنية، ط: 1، 1986م، 167.

² - ابن الأمير وعصره، صورة من كفاح شعب اليمن، تأليف: قاسم غالب أحمد، حسين أحمد السياغي، محمد بن علي الأكرع، عبدالله المجاهد الشماعي، محمود إبراهيم زايد، د.ن. د. ت. 32.

³ - نفسه، 33.

⁴ - بهجة الزمن في تاريخ اليمن، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، تحقيق: د. أمة الغفور عبد الرحمن علي الأمير، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط: 1، 2008م، 226.

وقد عمَد إلى تخريب دُور أهل الحيمة وخولان وقطع أعناقهم وأشجارهم، لأنهم ناصرُوا منافسه يوسف المتوكل. وأمر قائد جنده صالح بن هادي حبّيش بتخريب مدينة حوث، فخرّبها. والواقع أنه وأمثاله من الأئمّة والولاة والأمراء قد صدّق فيهم قول العلامة ابن الأمير: فلو يُعبدُ الدينار صلُّوا لأجله وصاموا وقالوا: أنت ربُّ العوالم ومن ضمن سادية الإمام يحيى وعنصرته أن حاربَ التجارَ من أبناء اليمَن الأسفل "الشوافع" - حسب تعبير الكُتّاب الأجنب الذي كتبوا عن تاريخ تلك المرحلة - واحتكرها على نفسه وبعض شُركائه، على الرغم من عِراقة هؤلاء التجار في هذه المهنة، لارتباطهم بالموانئ التي تقع في مناطقهم، ولارتباط التجارة أيضًا بالروح السَلَمِيَّة نفسها لدى هذه البيئَة وذاك المِجْتَمَع الذي يمقت الحروب وثقافتها، ويحترم التجارة والعمل. فقد صادَر تجارة هؤلاء وشاركَ البعض الآخر تجارَهم بلا وجه حق، مُعينا عليهم عَمَّالًا من ذويه ومن حاشيته، يمارسون - بدورهم - نهبًا وسَطوًا لا يقل وحشية عن نهب وسَطوة الإمام نفسه، بصورة مستفزة، فخلقَ بهذا السُّلوك تدمرًا واسعًا، مجسدًا الطائفية في أشعِ صُورها وأزرى مَظاهرها..¹

تقول المؤرخة والكاتبة الروسية إيلينا جولوبوفسكايا، المهتمة بالتاريخ السِّيَاسِي اليمَنِي: "وقاسى التجار اليمينيون، - باستثناء مجموعة صغيرة، مقربة من الإمام - من الظلم الملكي الإقطاعي الذي أناخ عليهم، وزُوجهم متوسِّطو وصغار التجار في أكثر الصَّفقات التجارية المربحة. كما احتكر الإمام والمحيطون به الفروع المربحة في التجارة الخارجيّة، مع الاحتفاظ التقليدي الاضطناعي بأشكال الأنماط الاقتصادية. إنّ كلّ هذا قلَّص مجال نشاط البرجوازية الناشئة، وكان لغياب الضمانات والحريات الشَّخصِيَّة والممتلكات للتجار أن شدَّد الصُّعوبات، وحال دون نمو التجارة الخارجيّة، وأدى هذا إلى أن يتجه كبار التجار إلى أن يضعوا رؤوس أموالهم في بنوك الخارج، وإن تسربت رساميل في بعض الحالات المحصورة في حدود ضيقة إلى التراكم الداخلي، مما ضاعف بشكل أكبر نقص المواد اللازمة لنمو البلد الاقتصادي؛ إذ إنّ التجار لم يرسلوا النقود إلى الخارج فقط؛ بل إن

¹ - انظر: ثورة 1948م، الميلاد والمسيرة والمؤثرات، مركز الدراسات والبحوث اليميني، "مجموعة باحثين وكتاب" الطبعة الثانية: 2004م. 259.

أغلبهم تركوا البلاد، وذهبوا إلى الخارج في هجرات طويلة. وفي المهجر اشتركوا بالنشاط التجاري، ولم يعد منهم إلى الوطن إلا القليل عند الشَّيْخُوخة¹

وقد منع الإمام يحيى كلَّ التجار أن يغادروا إلى الخارج، عدا الشَّيْخ علي يحيى الهمداني لمكانته الخاصَّة من الإمام، وسمح مؤخرًا بتأسيس شركة إيطاليَّة؛ لكنه كان أحد كبار المساهمين فيها، وذلك بمبلغ خمسمئة ألف ريال، كانت أرباحها كبيرة..²

أما عن عمليَّات النهب والسَّطو الأخرى التي كان الإمام وعمَّاله يمارسونها على الرعيَّة، فلا تقل وحشيَّة وعبثيَّة عن هذه، وقد لخصها البردوني بقوله: "كان الإمام يحيى لا ينقطع عن قريةٍ أو منطقةٍ إلا مدة قصيرة، فقد كان مأموروه وجنوده يمسحون البلاد طولًا وعرضًا، يتحسسون ما يجري، ويتحصَّلون ثمرة ما ينبث وما يتحرك، يأتي المخمَّن عند بزوغ الثَّمرة، يليه القَبَّاضُ عند حصادها، يليه الكاشفُ على القَبَّاض، يليه العسكريُّ لتحصيل البواقِي، يتبعه عدَّادُ المواشي، ثم "مثمر" الخضر والفواكه، فيدوم اتصالُ الإمام بالشَّعبِ على طيلة العام عن طريق المأمورين والعساكر، ويزيد اتصاله أعنف إذا نجمت أحداثٌ واحتدم شجار.."³

وهؤلاء كلهم - منفردين أو مجتمعين - عادة ما تكون نفقات إقامتهم وسفرهم على الرعيَّة من المزارعين المغلوبين على أمرهم، بل إن هؤلاء الجباة والمخمنين لا يعرفون شيئًا عن أدب الضيف والضيافة، فهم يشترطون طبيعَّة الأكل الذي تتوقُّ إليهم رغباتهم مهما كلف، ومهما كان ثمنه، ولم يكن باستطاعة أي مواطن "رعوي" رفض ذلك الطلب "الأمر" مهما كلفه من ثمن!

"لقد كانت عمليَّة جمع الضرائب تمثل - بحق - أشرس تعسُّف واضطهاد للفلاحين، ليس فقط بسبب التقدير المسبق للمحصول قبل حصاده، أو لضرورة تحمُّل نفقات أعضاء البعثة، إنما - أيضًا - تعرضهم للقهر النفسي، والقهر الجسدي أحيانًا من قبل جنود الإمام. فلقد كان مجرد سماع وصول هذه البعثة إلى أيَّة منطقة يُثير لدى سُكَّانها الرعب والهلع"⁴

¹ - ثورة 26 سبتمبر في اليمن، إيلينا جولوبوفسكايا، دار ابن خلدون، بيروت، ط:1، 1982م، 126.

² - الطريق إلى الحرية، سابق، 73.

³ - قضايا يمنية، عبدالله البردوني، ط:5، 96م، 62.

⁴ - الشرائح الاجتماعيَّة التقليدية في المُجتمع اليمني، دار الحدادثة للطباعة والنشر والتوزيع، بالتعاون مع مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء. ط:1، 1986م. 218. وهذان بيتان من زامل كان يرددتهما عساكر الإمام إذا=

وقَدْ شَاعَ عند الأئمة وحاشيتهم وأتباعهم أنَّ من أرادَ الثَّراءَ والغنى فعليه بالتوجُّه إلى اليمَنِ الأسفل، وما أكثر الحملات، سواء الفردية أو الجماعية إلى اليمَنِ الأسفل! نَحَتْ ذرائع عدة للارتزاق والإثراء غير المشروع، وقد كان أقاربُ الإمامِ وحاشيته يتنافسون فيما بينهم على إرضائه بشتى الصور، ليحظى أحدهم بتكليفٍ أو إمارة أو عمالة في أية منطقةٍ من مناطق اليمَنِ الأسفل، وقد غدت بعضُ المناطق حكرًا على بعض الأُسَرِ الإمامية يتوارثونها جيلًا بعد جيل، ضمن سياسة التَّفوذ والتقسام التي كان يتوزعها الأئمة فيما بينهم أو يُراضون بها بعضهم بعضًا!¹

وللقارئ أن يتخيَّلَ قدرَ الصَّفَاقَةِ السِّياسِيَّةِ، لهؤلاء الحُكَّام، وحجَمَ الانتهاكاتِ الماديَّةِ التي طالت كثيرًا من أبناء اليمَنِ بسببِ جشع هؤلاء الأئمة وإفراطهم في النَّهَبِ والسَّلْبِ والمصادرة. يروي المؤرخُ يحيى بن الحسين بن القاسم أنَّ أحمد بن الحسن حين توفِّي والده كان عمره تسعة عشر عامًا، فأنجَه إلى عمِّه الحسين بن القاسم إلى ذمار، طالبًا منه أن يُقَطِّعه ولاية من الولايات، فعرض عليه عمُّه ولاية "وصاب" من اليمَنِ الأسفل وهي بلادٌ خيرةٌ ومعطاءة، إلا أنَّ هذا الشَّاب رفضها قائلاً: "هي حقيرةٌ لا تقومُ بالحال، ولا يُنتفعُ بها في جميع الأعمال"² فإذا كانت بلادٌ وصاب بكاملها "حقيرة" في نظر هذا الشَّاب يومذاك "صار إمامًا فيما بعد" فما الذي يكفي غيره من الشُّيوخ والشُّبان والأمراء وأتباعهم!؟

=دخلوا قرية معينة يرددونها بصوت مرتفع معاً، بقصد إرهاب المواطنين وإثارة الرعب في أوساطهم، وهو نوع من وسائل الإكراه والابتزاز والتهديد:

يا من يخالف أمر مولانا ويعصيه لا بد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه والطير يرسى في سماه

وفي حرب الإمام يحيى مع الزرانيق كان عساكره يرددون هذا الزامل:

جاء سيل الله يا صاحب تهامة مقدم السيف المظلل بالغمامة
نضرب الزرنوق في داخل خيامه راعد القبلة ورد شرفا وجرملا

¹ - ذكر المناضل اللواء يحيى مصلح مهدي أن مقدار الزكاة في ريمه أيام الإمام أحمد وصل إلى مليون ريال فرانسوي "ماريا تريزا" سنويا، وكان فيها ألف وخمسمئة جندي إمامي مقيمون بصفة دائمة لجباية الأموال بالحق وبالباطل. وذكر أيضا قصة معيرة تستحق الوقوف عندها، وهي أن عامل الإمام يومها شايف زهرة، كان يتعسف الناس ويظلمهم ويفرض عليهم من الضرائب والزكوات مبالغ كبيرة هي فوق الحق المقرر، وكان كلما أتى إليه الناس لمراجعتهم، يقول: "إلى ذمتي هذي زيدوا" ويشير بيده إلى فحة عنقه، وبعد فترة أصيب هذا العامل بسرطان في عنقه! أنظر: شاهد على الحركة الوطنية، يحيى مصلح مهدي، سيرته ونضاله. مركز عبادي للدراسات والنشر، ط:2، 2011م، 64.

² - بهجة الزمن في تاريخ اليمن، سابق، 134. وقد كانت بلاد وصاب من الإقطاعيات الخاصة بآل إسحاق لفترة طويلة من الوقت لا يعارضهم عليها أحد أثناء حكمهم القاسميون.

وقد ذكر طرفا من ذلك المؤرخ يحيى بن الحسين في كتابه "بهجة الزمن في حوادث اليمن" وهو يتكلم عن تفرق وتمزق الدولة في عصر الإمام المؤيد بن إسماعيل المتوكل¹: ". أما بقية المناطق فقد توزعت بين مراكز القوى المتعددة، من أبناء القاسم التي كان أقواها صاحب المنصورة، مُجَّد بن أحمد بن الحسن. وكانت مناطق ولايته قد شملت الحجرية وجنوب تهامة حتى بيت الفقيه؛ كذلك علي بن المتوكل، كانت له المناطق الجنوبية الواقعة بين ذمار وتعز، وهو ما عرف باليمن السفلى. والحسين بن الحسن كانت ولايته ممتدة من رداع وما إليها من المناطق الشرقية حتى حضرموت. وعلي بن أحمد كانت له ولاية صعدة وما إليها من المناطق الشمالية. والأمير الناصر بن عبد الرب في كوكبان وما إليها. وصار كل وإل أشبه بالإمام في منطقتة، يتصرف بكامل حرته دون رقيب أو حسيب!

هذا بالإضافة إلى أن إسحاق بن المهدي استقر في ذي أشرق، واستولى على عائدات بعض المناطق المجاورة حتى ينفق على جنده. وأخوه إبراهيم بن المهدي كذلك استقر في يريم وتصرف فيها. ومُجَّد بن المهدي أحمد بن الحسن أرسل "أبا ربحان" على رأس مجموعة من الجند لاستلام ربع المخا، حسب موافقة الإمام المؤيد في شروطه..

وقد كانت بلاد العدين، من أعمال لواء إب الخضراء مطمع الأئمة، خلفا عن سلف، لخصوبة أرضها، وعميم خيراتها وطيبة أهلها، فقد ضمها إليه مُجَّد بن الحسن - الرجل الثاني أيام المتوكل على الله إسماعيل، والذي عارضه بالإمامة ثم تنازل له - فقد ضم بلاد العدين إلى جملة إقطاعياته هو وأبناؤه، ومنها تعز والحجرية، وقد حاول الإمام المتوكل نفسه أن يضمها له، وتحت إشرافه مباشرة، إلا أن مُجَّد بن الحسن رفض ذلك رفضا قاطعا، قائلا للإمام: "البلاد بلادي، وفيها عمالي، وإليها حاجاتي"² وبعد وفاته جاء ابنه يحيى يفاوض الإمام المتوكل أن يبقي لهم البلاد التي تركها لهم أبوهم، أما سائر البلاد الأخرى "فلنا النصف وإليكم النصف"³، كما استقر فيها - أيضا -

¹ - ذكر الشيخ العلامة مجد الدين المؤيدي أن القاضي العلامة الشهيد إسماعيل بن حسين جعمان قال في الإمام المؤيد وفترة خلافته: "وإلى هنا انتهت وراثته النبوة فيما أعلم!!". التحف، 355.

² - بهجة الزمن، سابق، 116. - ذكر البردوني في اليمن الجمهوري أن الإمام يحيى كان يبيع عمالة العدين في إب بستمنه ريال، وكان يبيع عمالة كسمة بريمة بخمسمنه ريال.

³ - نفسه، 118.

نجله عبدالله بن يحيى بن مُجَّد بن الحسن، أخذًا النصف من عائداتها، مدعيًا أن الإمام المؤيد قد جعل له النصف من عائداتها، وحين أرسل النصف الآخر استولى عليه إبراهيم بن المهدي في يريم وقدره ثلاثة آلاف قرش، كما أقطعها الإمام المنصور علي منحة لعمه أحمد بن المنصور الحسين..

وخلت يد الإمام المؤيد عن جميع اليمَنِ الأسفل بالمرّة، ولم يبق له فيه إلا مجرد الخطبة. وصار في أشد الحاجة إلى الأموال، وخلت خزائنه، ولم يبق له من البلاد إلا ما كان له أيام والده، بل إنه قد خرج من يده بعض مناطق ولايته مثل بلاد حراز أعطاهما لأحمد بن مُجَّد بن الحسين، وبلاد ثلا أعطاهما لأخيّه القاسم بن المتوكل¹

وقد كانت كلُّ هذه الأعمال برضا الإمام، مثلما كانت كل أعمال النهب والسلب الأخرى برضا كل إمام، ليأمن شرور أصحابه وذويه وأبناء أعمامه وأتباعه؛ لأن الاقتصاد يومها كان قائمًا على ما يعرف بالاقتصاد الإعاشي فقط المرتكز على الزراعة والرعي فقط، وكانت أرض الإمامة غير خصبة، كخصوبة مناطق اليمَنِ الأسفل، إلى جانب أن الثقافة السائدة لدى هؤلاء الناس أن احتراف الزراعة أو الرعي أو التجارة مما يعيب، في الوقت الذي يعلنون من شأن أعمال النهب والسلب والتقطع وابتزاز الآخرين!²

لهذا فقد كان الأئمة يتخلصون من مطالب هذه القبائل التي لا تنتهي، وذلك بإرسالهم جُباة وعساكر ولجانًا إلى اليمَنِ الأسفل، ليستزقوا منها. وقد كان الأئمة يعضون الطرف عن كل أعمال النهب والسلب والاستحواذ التي يمارسها هؤلاء القبائل هناك، ولا يمنعونهم من هذه الأعمال الوحشية، خشية ألا يرددوا إليهم، ولك أن تتخيل أن وصل الأمر ببعض النافذين من هؤلاء الناهبين إلى قتل النساء، والقتل صبرًا، ومثل الأعين، كما حصل في لواء إب يومها، وتحديدًا في "الشعر" من قبل إحدى هذه الحملات المسعورة!³ كما أن مناطق اليمَنِ الأسفل هي التي ظلت قرونًا طويلة ترفد

¹ - نفسه، 177.

² - أفرد العلامة ابن خلدون مبحثًا خاصًا في مسألة الاختلاف الحاصل بين الأمم، وأن ذلك راجع إلى اختلافها في نحل معيشتها، مشيرًا إلى دور العامل الاقتصادي في التأثير على الأمم والشعوب...

³ - في تاريخ الحراري وهو يسرد حوادث عام 1280 هـ. نورد هذا النص لنستشف ما وراء سطورهِ، دون شرح أو تفصيل: "وسيدي غالب بن المتوكل محمد ابن يحيى في مخلاف جُمير، في بلاد أنس، استدعاه بعض أهل البلاد، وعنده عصابة من قبائل نهم، وصالح أهل البلاد على الزكاة تُسلم إليه، وضمن لهم بالذَّب عنهم من القبائل!!" فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، سابق، 148.

خزانة الدولة بالمال، وتعمل ما عُرف بقبائل المشرق الذين يستصعبون مشاق العمل ويفضّلون أعمال التّقطع والنّهب والسّلب على كل الحرف والمهن التي كانوا يرون العمل فيها أو في بعضها خادشاً للمروءة، ومنقصة من المكانة! وقد أصدر الإمام المنصور مرسوماً بداية توليه الإمامة بأن تُعتمد مخصصات مالية لقبائل "يام" من بعض مدن وموانئ المخلاف وتهامة، كي تكفّف هذه القبائل عن التّمردات والخروج من مناطقها. وكانت هذه القبائل لو تأخر هذا "الجعل" السنوي مجرد تأخير فقط سرعان ما تعلق النفير، وتخرج بقضها وقضيضها على هذه المدن. هذا الخراج/ الجزية/ التعيون/ الجعل السنوي لم يكن حتى بنظر الإمام أو تحت إشرافه؛ بل يتم تسليمه من يد "المانحين بالإكراه" مباشرة إلى يد "الممنوحين بالقوة" إمعاناً في الإهانة، وازدراء لكرامة الناس. فمثلاً.. كان أشرف المخلاف السليماني - وهو جزء من اليمّن يومها - يُسلمون هذا "العطاء" السنوي من أيديهم مباشرة إلى قبائل يام، وكان مشايخ باجل في تهامة يُسلمون لهم سنويًا ستمئة ريال فرانصي.

وقد كان مقياس التّرقى في الوظائف لدى عمال الأئمة سابقاً هو أن من يستطع تقديم المزيد من المال إلى الإمام، وإلى خزانة الدولة يكن ترقّيه متسارعاً، وفي الوظائف التي تُدر على قادتها مالاً أكثر، رغم الصّرر الكبير الذي يلحق النَّاس والرعايا من هذه السّياسة الجائرة. وممن نال الخطوة لهذا السّبب حسن بن عثمان العُلفي الذي كان مجرد كاتب أيام الإمام المهدي عبّاس، ثم ولاه بعض الولايات في اليمّن الأسفل، وكان على قدر عالٍ من الذكاء ومعرفة نفسيات الأئمة، فاستطاع أن يحصل على عمّالة "كُسمة والجبين" من أعمال ريمّة معاً، وقد كانتا مفصولتين عن بعضهما قبل ذلك، ورفد خزانة الدولة بأموال كثيرة، فشكره الوزير الأعظم مراراً عند الإمام، وتم بعد ذلك تعيينه مقاليد الوزارة العُظمى أيام الإمام المنصور عام 1197هـ..¹

¹ - انظر، الأوضاع السياسية الداخلية لليمن، سابق، 84. وقد أورد صاحب الكتاب استناداً إلى ما ذكره الرّحالة الدانمركي الشهير "نيبور" صاحب كتاب "من كوبنهاجن إلى صنعاء" والذي لخص فيه رحلته مع فريقه، أن إيرادات ولاية حراز كانت تبلغ حوالي 18 ألف ريال سنويًا، وأن متوسط إيرادات ولاية حفاش بلغ 14 ألفاً و600 ريال سنويًا، وإيراد الحيمتين حوالي 100 ألف ريال سنويًا، أما إيرادات ولاية الجبين 28 ألفاً و800 ريال سنويًا، وارتفعت أيام الإمام المنصور إلى 73 ألفاً سنويًا، أما وادرات ولاية كسمة فقد بلغت أيام المهدي عبّاس، والد الإمام المنصور 48 ألفاً، وارتفعت أيام ابنه المنصور علي إلى 100 ألف و800 ريال سنويًا..

والثابت - تاريخياً - أن الأئمة كانوا يعملون على تأليف قبائل صنعاء وما حوّلها من أموال أبناء اليمن الأسفل التي يكونون قد جمعوها تحت أكثر من مسمى، لمواجهة هذه القبائل المحيطة بهم. وصار لسان حالهم كما أشار الشاعر الرصافي يوماً ما، مُنتقداً ما يُسمى دار الخلافة:

دارُ تَباعِ بِها المناصبُ سُميت دارَ الخِلافةِ عندَ من لم يعقل

ولم ينشأ جيشٌ متفرغٌ ونظاميٌّ - أو بالأصح شبه نظامي - إلا في وقت مُتأخر لمواجهة التحديات المحدقة بهم؛ بل لقد تم إدخال العبيد المجلوبين من إفريقيا جنوباً في الجيش النظامي أيام الإمام المهدي، صاحب المواهب، بدلاً عن اليمنيين الذين استغنى عنهم، ولطالما هدد بهم ابن عمه الحسن بن القاسم بن المؤيد سنة 1124هـ حين أراد الخروج عليه. وقد كان - كما ذكر العلامة القبلي - يحيي العائدات لنفسه ولمواليه من المنطقة، ولم يعد يصرف لأبي من المستحقين محلياً؛ بل لقد كان يفرض على من يشتكي من الرعيّة نقوداً جراً قبول دعوته. وقد عمل على نفي الحسن والحسين ابنا المتوكل إسماعيل مع عائلتيهما إلى مكة المكرمة، وهرب موله إسحاق بن محمد العبدي إلى الهند، وبقي فيها حتى مات هناك، لأنه قرأ إحدى الرسائل الموجهة إليه جهراً ولم يذكر لقب الإمام!¹ وقد ذكر الكثير أن المهدي كان ذا مزاجٍ متقلب، فقد غيّر لقبه أكثر من مرة، واتخذ أكثر من عاصمةٍ أثناء حكمه، بيني عاصمة ويخرب أخرى، وغيّر العملة في عهده مراتٍ عديدة؛ بل لقد غيّرَها في شهرٍ واحدٍ ثلاث مرّات!

واستعمل المهدي عباس عبيداً من الحبشة جنوداً وقادة للجند، بل عمّالاً ومُحافظين في فترة لاحقة، ضمّاناً لولايتهم المطلق وطاعتهم الحرفيّة له، وتنبّها من عدم مقاومتهم أو اعتراضهم في حال عزل أحدهم عن منصبه، خلافاً لبعض الأقارب الذين يستعصي أمرهم على بعض الأئمة في الغالب، كالأمير سعد الذي تم تعيينه عاملاً للواء الحديدية، وقد كان عبداً لدى العامل يحيى العلفي، ثم عاملاً لريمّة بعد ذلك، ورغم اشتهاره بالشجاعة والسخاء إلا أنه اشتهر أيضاً بالخمرة والإفراط فيها.²

¹ - هجر العلم، سابق، 3/1425. وأيضاً اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، 199.
² - أنظر درر نور الحور العين، سابق.

ليس المهدي من "استأمر" العبيد و"استعملهم" فقط؛ بل أئمة آخرون منهم الإمام المنصور علي أيضاً من بعده، فقد كان الأمير "مرجان الصنعاني" أميراً في جيش المنصور، وقد عزله عن منصبه بعد أن قام بضربه في بلاطه، صبيحة يوم عيد الفطر من العام 1196هـ، ثم أمر بحبسِه ومصادرة أمواله، حين علم الإمام أن الأمير أخفى عليه مقداراً من الأموال التي كلفه بمصادرتها على حازن الحبوب في جبلة.¹

وكان الأمير "عنبر" عاملاً للإمام المنصور على ولاية حُبَيْش، ثم العدين، ومنهما جمع أموالاً طائلة، فطمع الإمام بنصفها، فرفض الأمير عنبر أن يعطيه منها شيئاً، الأمر الذي أغضب الإمام عليه كثيراً، فقام بتعزيزه أولاً؛ حيث ربطه إلى نافذة دار الفتوح، وهو عُريان، ثم أمر بضربه وحبسِه مدة شهرٍ في مكان يُجمع فيه قاذورات وفضلات حمام القصر.²

وقد ترتب على هذه السياسة التي اتبعتها الإمامة بحق المزارعين والفلاحين من أبناء اليمن الأسفل عدة نتائج؛ حيث أدت إلى هجرة كثيرٍ من الناس فراراً من الظلم، ومن مُلاحقة عساكر الأئمة لهم، مع ما يترتب على الهجرة نفسها أيامها من المخاطر الجمة؛ إذ لم تكن طرق الهجرة والاعتراب مؤمنة كما هو الشأن اليوم، ولم تكن وسائل النقل أيضاً متوافرة، ولم تكن حقوق المغترب مكفولة في دول الهجرة، فكان يتعرض بعضهم لبعض التعسف والضيم، وإن كان أقل مما يتعرض له في بلده من عساكر الإمامة. ولطالما فقد الكثير، وتاه آخرون وقضوا نجبتهم في بلدان المهجر وقد انقطعوا عن أهلهم وذويهم، فاهجرة يوماً ضرب من المخاطرة بالنفس وتقحم الشدائد.

وللعلامة ابن الأمير قصيدة طويلة وشهيرة جداً، ربما كانت أشهر قصائده، مطلعها "سماعاً عباد الله أهل البصائر..". تلخص سياسة الدولة القاسمية التي عاش تفاصيل جزء منها، كما تُفصّل - أيضاً - الحال من قبله ومن بعده، لأن الثقافة واحدة، والحلقة متصلة بما قبلها، مثلما هي متصلة بما بعدها، ومن هذه القصيدة، مخاطباً الحكام من آل القاسم:

¹ - من أشهر أمراء الإمام المنصور من العبيد، الأمير فيروز، والنقيب ربحان، والأمير سرور، والنقيب جوهر، وسعد يحيى، ومحمد ذو الفقار، ومحمد ذرحان، وسعد المنصور، وفرحان الماس، وسندرس، ومحمد وفدالله وغيرهم..
² - الأوضاع السياسية الداخلية لليمن، سابق، 86.

أضعتهم وصايا المصطفى وهجرتم
وجئتم بأمر منه يبكي ذوو الهدى
وتشمتُ من أفعالكم كلُّ ملة
فيا عصبَةً ضلَّتْ عن الحقِّ والهدى
بأيِّ مُلوكِ الأرضِ كان اقتداؤكم
أنافستُمُ الحجاجِ في قُبْحِ فعله
يفديكم إبليس حين يراكم
نبذتم كتاب الله خلفَ ظُهوركم
خراجيَّةً صَيَّرْتُمُ الأرضَ كلها
لذاك الرعايا في البلاد تفرقت
وقد رضيت بالْعُشْرِ من مالها لها
فلم تقنعوا حتى أخذتم جميع ما
إذا سُئلت عن جوركم وفعالكم
ويا عصبَةَ من هاشمِ قاسمية
ومن دون هذا أخرج الترك جدكم
وأحللتهم ما حرم الله جهرة
وجوزتم أخذ المكوس بأرضنا

طريقته في نهيهِ والأوامر
ويضحك منه كل رَجَسٍ وخاسر
ويصبح مسروراً بها كل كافرٍ
ومالتُ إلى أفعالِ طاغٍ وفاجرٍ
فما لكم في فعلكم من مُناظرٍ
ففعلكُمُ في الجورِ فعلٌ مفاخرٍ
يقول: بكم والله قرت نواظري
ولم تعلموا منه بنص وظاهر
وضمنتهم العمال شر المعاشر
وفارقت الأوطان خوف العساكر
وتسعة أعشار تصير لعاشر
حوتُه وما قد أحرزت من ذخائر
أجابت علينا بالدموع البوادر
إلى كم ترون الجورِ إحدى المفاخر
ولو عاش أخلاكم بِحَدِّ البواتر
وشر ذنوب الخلق ذنب المجاهر
وتوفيرها ظلماً على كل تاجر

وربُّكم أدرى بكل الضمائر
أكبركم في فعلهم كالأصاغر
وجئتم بأنواع الأمور المناكر
تسمى سياراً وهي إحدى الفواقر
وخمر لخمّار وهو لسامر
وقد ظهرت في كل باد وحاضر
من الكذب المنشور فوق المنابر
فما بالها عادت لسُخْرَة ساخر
بما سُودت منه وجوه الدفاتر
وخولتكم أعمالكم كل ماكر
بظلم وجور قد جرى في العشائر
وكم من سبيل قد غدا غير عامر
وأغلق فيها مسجد للأشاعر
مساجدُها عن كل تالٍ وذاكر
ببخس وما بالي بصفقة خاسر
فلا تشتموا من بعد هذا بكافر
لأفنيّت في الدنيا مدادَ المخابر

وقلتم نرى فيها مصالح للورى
تساويتم في كل قبح فعلتُم
أيتّم بأصناف الصّلالات كلها
وأما الجزاءاتُ التي كلّ ليلة
ففي "بُردقانٍ" أنفقت وحشيّة
لقد أثرت هذي القبائح بينكم
وأشنع خُطبٍ ما يقول خطيبُكم
منابر كانت للمواعظ والهدى
ملاّتكم بلاد الله جوراً وجئتم
ووليتم أمر العباد شراركم
وقد كنتم ترمون من كان قبلكم
فبالأخذكم قد أغلقت من مدارس
وكم في زبيدٍ أغلقت من مساجد
وفي آنس كم قرية قد تعطلت
ولو تُشترى تلك المساجد باعها
فما يفعل الدجال مثل صنيعكم
فأفعالكم لو رُمّت حصراً لعدّها

من ناحية أخرى.. أدت هذه السِّياسةُ الجائرةُ في حق الرعايا إلى التراخي وعدم الاهتمام بالزراعة أو التجارة كثيراً، لعدم ضَمَانِ الفلاح أو التاجر ريع أتعابه وعائدات عمله، فهو يكد ليلاً ونهاراً يجد ونشاط، وغيره من عَسَاكِرِ الإمام يأتي ليتحصَّلَها منه هُبّاً وسلباً وإكراهاً، فأضعفت اقتصاد الأسرة، أو القبيلة، وبالتالي الوطن. وهو اقتصاد ريعي تقليديّ هدفه الإعاشة ليس إلا.

وفي هذا قال الأستاذ أحمد مُجَدِّ النعمان: "وبالعقلية والنفسية الشيعية أُديرت الأمور، وأقيمت العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وكان الطابع الديني هو الغالب على كل التصرفات والتحرّكات، وكان القبلي المجدّد تحت لواء الإمام، والذي قدّم من شمال صنعاء إلى سهول تهامة وإب وتعز والبيضاء لا يُسمى جندياً؛ بل مجاهدًا في سبيل الله، وعلى هذا الأساس أبيع له أن يسكن في مساكن الأهالي بالقوة حتى لو أدى الأمر - وكثيراً ما كان يُؤدي - إلى إخراج رب المسكن ليحتله "المجاهد في سبيل الله"!!، ويفرض على الزوجة أن تتولى خدمته وإطعامه ما يختار من طعام"¹

إلى جانب ذلك.. كان هؤلاء المتحصِّلون، ومن فوقهم من مسؤولي الضرائب والجباة والعمال ومقربيهم، يعمدون إلى إرهاب كاهل النَّاسِ بالديون والمتحصلات والبواقي، كأقصر الطرق للاستحواذ على السيطرة على ممتلكاتهم من الإقطاعيات العقارية الكبرى، ومصادرتها لمصالحهم الخاصة بدون وجه حق. وقد كان الإمام أو الوالي حين يصعدُ إلى الحكم يصلُ فقيراً أو ميسور الحال على أحسن الأحوال، وكذا العامل حين يصل إلى منصبه ثم لم يلبث إلا فترة يسيرة وقد ملك الضياع والإقطاعيات والمزارع من هذه الطريقة، وبهذه الوسيلة غير المشروعة، والقصصُ الشعبيّة تحكي كثيراً من هذه المآسي التي يندى لها الجبين وهي أكثر من أن يحصيها سفرٌ أو يرويها كتاب، ناهيك عن عُجالة كهذه.

وقد ذكر المؤرِّخُ محيي بن الحسين أن أحاه عز الإسلام مُجَدِّ بن الحسين أخبره أنه لما وصل إلى حضرة الإمام المتوكل على الله إسماعيل إلى "ضوران" في أيامه الأولى أفاده أنه لا يجد غير الخمسين الحرف، ولم يأت من البلاد شيء، وأنه لا يجد الصَّرف؛ أمّا بعد أن حكم وملك فقد ثرى وأثرى! وكان له من المخا لوحدها نصف عائداتها أيام تولية مُجَدِّ بن الحسن؛ أمّا بعد وفاته فقد

¹ - الفكر والموقف، سابق، 335.

أصبحت كاملة له. ويذكر البعض أن السيد حسن الجرموزي جاء إلى الإمام بمحصول الموسم يُقال فوق مئة حمل من البز والدراهم!

وحين دخل أحمد بن الحسن عدن بجيشه أيام الإمام المتوكل ملكه الإمام إقطاعات كانت للأمير عبد القادر صَاحِب خنفر، وجع له الربع من المِنَاطِق التي فتحها!¹

وتذكر المراجع التَّارِيخِيَّةُ المعاصرةُ أن الإمامَ المهدي عباس كان جشعًا في شراء الأراضي، حتى انتهى به الأمرُ إلى شراء الأوقاف من الأموال وإخراجها عن الوقفية العامة إلى الملكية الخاصة، إضافة إلى النقل والمعاوضة بين أملاكه الخاصة وأملاك الأوقاف في ضواحي صنعاء، كشعوب والصفاية وبئر العزب ومناطق أخرى. ومال الوقف محرّمٌ لا يجوز نقله ولا استبداله ولا المعاوضة فيه، كما أشار إلى ذلك العلامة ابن الأمير في رسالةٍ إلى الإمام المهدي في ذي الحجة 1180هـ، ناصحًا إياه عن ذلك، كما نصحه آخرون، لم يقبل نصيحتهم؛ بل عاقبهم وسجنهم وصادر أموالهم، كما حدث مع أحد أقرب رجالاته ووزيره القاضي العلامة يحيى بن صالح السحولي.²

كما استملك - أيضًا - غيلين شهيرين بصنعاء وهما الغيل الأسود وغيل البرمكي، والأخير أحدثه مُجَّد بن خالد البرمكي والي الرشيد على صنعاء حينها، سنة 183هـ، للأهالي من المال العام، إلا أن الإمام المهدي قد استحوذ عليه بإصلاحه وإعادة استخراجِه، ثم ادعى أن نفقة هذا الاستصلاح من حسابه الخاص، وليس من المال العام، وثار بشأنه لغطٌ واسعٌ وجدلٌ كبيرٌ بين الخاصة والعامة، وعارض ذلك بشدة الفقيه علي بن عبدالله العمري، المسئول عن استخراج هذين الغيلين، الأمر الذي جعل الإمام يدخله السجن، ويصادر داره وأملاكه الخاصة، وقد بقي في سجنه حتى مات سنة 1183هـ.³

وتأتي سياسةُ هدم المنازل، وإحراق المزارع، ضمن عادةٍ تاريخيةٍ، أو ثقافةٍ عقابيةٍ درج عليها الأئمةُ أجمع، من لدن الإمام الهادي حتى الإمام أحمد.. فكما هدم الإمام الهادي بيوت بني الحارث ونجران وغيرها في القرن الثالث الهجري، وتبعه أولاده من بعده، هدم الإمام يحيى في أربعينيات القرن

¹ - بهجة الزمن، سابق، 143.

² - البدر الطالع، سابق، 2/232.

³ - نفسه، 2/168.

الماضي بيوت معارضيه، كبيت العلامة الأديب والشاعر زيد الموشكي في دمار، الذي تم إعدامه بعد ثورة 48م الدستورية، وبيت جعمان، في صنعاء، وهدم الإمام أحمد بيت اللقيّة بداية الستينيات كذلك وغيرها الكثير¹.

وقد نظم الموشكي بعد ذلك قصيدة قال فيها:

لله درك فارساً مغواراً طعن الصُّخورَ ونازل الأحجارا
تلك القصورُ سلاسلًا كانت لنا فهَدَمْتَهَا فجعلتنا أحراراً
لا بأس أن تنهدَّ دارٌ علنا بالثأرِ نبي أمّة وديارا
ونشق لليمن الحبيبِ مسالكا أخرى يعانق فوقها الأنوارا

ويختزل الشاعر عبثية الإمام وجنونه في مشهد تقريري آخر، أشار فيه إلى حقيقة ملك هذا

الإمام وطبيعة شخصيته:

خاف السُّقوط فلاذ بالتحريب ملكٌ يعيش على الدم المسكوب
خاف السقوط فقام يُرسي ملكه بالسيف والأغلال والتعذيب
مأ السُّجونَ وصبَّ أنواعَ البلا ويريد عرشاً حافلاً بقلوب
قلِّب الأمور بطونها لظهورها ويريد ملُكاً ليس بالمقلوب!

يقول الأستاذ البردوني ملخصاً فترة الإمام يحيى: "لقد كانت ثلثا أيام يحيى حميد الدين مذابح متوالية، ودعرا ممتداً في كل طريق وفي كل شارع. وكانت تُسمى هذه الفترة "زمن ما بين الدولتين" دولة الأتراك الراحلة، ودولة الاستقلال الناشئة، وبينهما كالعادة مُنذ القدم تنتشر الإباحة

¹ - الثقافة والثورة في اليمن، عبدالله البردوني، د.د. ط:4، 1998م. 334.

الدمويّة عن نارٍ أو طلب غنيمة وهي فرصة النهب والانتقام الشّخصي في مناطقنا القبليّة، بل في شوارع المدينة"¹

وكان الإمام الهادي قدوةً أبنائه وحفدته من بعده، فهذا نجله الإمام الناصر أحمد بن يحيى حين تسلّم الإمامة من أخيه المرتضى بعد تخليه عنها سنة 302هـ، أعمل سيفه في الإسماعيليّة بدون هوادة ولا رحمة. وكانت الإسماعيليّة قد نشأت في اليمن قبل دعوة والده بسنوات، على يد علي بن الفضل الخنفري الحميري. ومع هذا التوحش الجنوبي،

يقول عنه الشّيخ مجد الدين المؤيدي: " ولم يزل الإمام الناصر قائماً بأمر الله، مثابراً لأعداء الله، وأظهره الله على أقطار اليمن كافة، فصدعت فيه أحكام الملة الحنيفيّة، وامتدت عليه أعلام السّلالة المحمديّة، واستأصل أرباب الدّعوة الملحدة من القرامطة الباطنيّة، وقد كانوا تحزبوا تحزبا، وارتجت منهم الأرض، فأخذتهم سيوف الإمام الناصر، قتل في وقعة واحدة ثمانية وأربعين رئيساً من دعائهم، وأما العساكر والأتباع فلم تنحصر القتلى منهم حتى جرت الدماء منهم جري الأنهار. قال عبدالله بن عمر الهمداني، مؤلف سيرة الإمام وأحد فرسانه: لقد شهدت الحرب، فما رأيت يوماً كيوم نُغاش² أكثر قتلى من أعداء الله القرامطة، ولقد حبستُ فرسي في موضع كثر فيه القتلى، فلقد سمعتُ خريراً للدماء كخبر الماء إذا هبط من صُعود... وقال: وجدنا منهم موتى بسلاحهم ليس بهم جرح، وذلك لنصر الله لأهل بيت نبيه. أ. ه. "³

وقد اقتدى به الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني في مواقع كثيرة، منها حين دخل صنعاء وقد أباحها لجنوده في شهر صفر 403هـ غازياً خصمه مُجّد بن القاسم الرّيدي الذي طعنه وصّره في فج عَطان، وأمر العياني أن تطأ الخيلُ جثة مُجّد بن القاسم وسائر القتلى بسنابكها حتى مزقتهم في التراب كل ممزق.. "⁴ ويقال إنه تولى الإمامة وعمره سبع عشرة سنة فقط!

¹ - قضايا يمنية، سابق. 295.

² - منطقة في جبل عيال يزيد، شمالي عمران.

³ - التحف، سابق، 222.

⁴ - هجر العل ومعاقله في اليمن، الأكوغ، 3/1514.

مضيفاً: "إن بعض القبائل كانت قد خالفته حين سار إلى "إهان"¹ فلما رجع قبض على مشايخ تلك القبائل، وصلبهم منكسين، ووهب خيلهم وسلاحهم لشيعة، وألزم جماعتهم الجزية وقبضها منهم، وسار إلى صعدة في جيشه فخرّب دورها، وولاها أخاه جعفر..²

وكما كفر الهادي خصومه السياسيين، فقد فعل كذلك الإمام أحمد بن سليمان؛ حيث كفر المطرفية، خصومه السياسيين، وألف فيهم كتابين، هما: الرسالة الهاشمية لأنف الضلال من مذهب المطرفية الجهال. وأيضاً: الرسالة الواضحة الصادقة في تبين ارتداد الفرقة المارقة المطرفية الطبيعية الزنادقة.

وكذلك فعل الإمام عبدالله بن حمزة، الملقب بالمنصور؛ إذ كفر المطرفية في واحدة من رسائله إلى عامة الناس، فُرئت في المجامع والأسواق.³ وقد ترتب على تكفير المطرفية ملاحقة أتباع المنصور لهم، حتى لم يعد بوسعهم الدخول إلى الأسواق العامة إلا بذمة أو جوار من غيرهم!⁴ بل لقد تمت مُصادرة أموال أهل هجرة "قاعة" لهذا السبب! كما تم هدم مسجد المطرفية في سناع ووقش، وتخريب بيوتها، وطردها أهلها، وقد قال بعد أن تمكن من القضاء عليهم: "أريد أن أجعلها سنة باقية يعمل بها من قام ودعا من أهل البيت فيما بعد"⁵

كما قال أيضاً في رسالة مطولة، وجهها إلى أهل اليمن عن المطرفية، محرّصاً القبائل عليهم: "وقد أفتيناكم بما أفتى به إمامنا - عليه السلام - من تحريم أمانهم، والذمة عليهم، وتسليم شيء من الواجبات إليهم، وأبجنا قتلهم وسلبهم ودمهم، ذلك حكم الله سبحانه فيهم، وفيمن كان منهم"⁶

وفعلاً فقد قام الإمام المتوكل على الله إسماعيل بعد ذلك بفترة، بهدم منازل الهاريين من بيوتهم في الشُعيب من بلاد الضالع حين حاربهم هناك، وتخريب معقلهم، حتى أذعنوا له، كما فعلها الإمام يحيى حميد الدين، كما سنرى لاحقاً..

¹ - إهان جبل في أنس من محافظة نمار.

² - هجر العلم، 3/1512

³ - انظر السيرة الشريفة المنصورية، أبو فراس بن دعثم، تحقيق: عبدالغني محمود عبدالعاطي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط:1، 1993م 1/863

⁴ - نفسه 3/887.

⁵ - نفسه، 3/95.

⁶ - مجموع مكاتبات الإمام عبد الله بن حمزة، سابق، 164.

ومما يُنسب لعبدالله بن حمزة، أنه سُئل: ما حُكم من بايع المشرقي - زعيم المطرفيّة - وحارب معه؟ فأجاب: "بأن من بايع المشرقيّ كافرٌ شقي، وتصويبه كفر، وكذلك حبه، والحرب زايدٌ على ذلك، لأنه يتضمن النصر والولاية، فجمع وجوه القبح في نُصرته"¹

وقد أُلّف بعد ذلك رسالةٌ أسماها: "الرسالة الموسومة بالدرة اليتيمة في أحكام السبِّ والغنيمة" ومما جاء فيها، مشيراً إلى المطرفيّة: ".. وكتبنا إلى أشرافهم الذين اقتدوا بهم في الكفر، وتابعوهم في الغي، بأنكم إن تماديتم في مُشايعة القوم وأظهرنا الله عليكم أنا نسفك دماءكم، ونسي ذرايكم، وإن قرئت أنسابكم منا، فإن أقرب النَّاس منا وأبعدهم في الحقِّ سواء عندنا. قالوا: تسي بناتِ الهادي؟. قلنا نسبيهن لكفر أهلن، وحرمة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهارون بالنبوة أعظم من حرمة الهادي بالإمامة؛ فلما كفر أبناء هؤلاء الأنبياء - عليهم السَّلام - حلَّ لنا سيُّ ذرايهم ونسائهم، وإبراهيم خليل الرحمن جدنا، والأنبياء الذين ذكرناهم وولدهم أعمامنا"²

مضيفاً أيضاً: "ثم إني لما قرأتُ كتاب الله تعالى مُتأملاً، وجعلته لي شغلاً؛ لأنه حياة القلوب، وشفاء الكروب، وجدّهم قد كذبوا منه، وردوا سبعاً وثلاثين وأربعمائة آيةٍ محكمةٍ لا تحتملُ التأويل.. فأما كلام رسول الله، وكلام الأئمّة من ولده فهم له رادون، وعنه صادرون، إنما الأصلُ كلامُ الله، فإن صدّقوا صدّقوا ما بعده، فهو فرغٌ عليه، وإن رده طاب الجِلال، وتعين فرضُ الجهاد، غزوناكم كما يُغزى الكفار، وأوقدنا النَّار إزاء النار، فإن ظهرنا عليهم بنصر الله قتلنا المقاتلة، وسبينا الذريّة، وبعنا النِّساء والعيال، كما يفعلُ بالمشرّكين"³

وقد ساءت أحوالهم كثيراً وتفرقوا في البلاد فارّين مما لحق بهم وبأموالهم، وأعظم من ذلك حين أجبر عماد الدين يحيى بن حمزة، أخو الإمامٍ وقائدُ جيوشه، من تبقى منهم على وضع الزُّنار علامة لهم!⁴

¹ - انظر الصِّراع السِّيَاسي والفكري في اليمن خلال العصر الأيوبي، محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الشويعر، الرياض، 1427هـ، ط: 1. 192.

² الرسالة الهاديّة، عبدالله بن حمزة، 198.

³ - ابن دعثم السيرة المنصورية، 2/864، وانظر أيضاً: مجموع مكاتبات عبد الله بن حمزة، سابق، 119.

⁴ - نفسه، 3/897.

وفي استحلال أموال الناس أصدر فتواه بقوله: "الغنيمَةُ ما يُؤخذ من مُتغلب على وجه التنكيل، وحكمُ الغنيمَةِ موكل إلى رأي الإمام، إن رأى القسمةَ بين الغانين صَوَابًا فعله، وإن رأى المفاضلةَ جاز له ذلك، وهذا رأينا في الفيء جُملة، إنَّ أمره إلى الإمام.."¹

وأبشعُ من هذا وذاك - أيضًا - أنه قام بملاحقة أحد مشائخ المطرفية العُميان في قرية "حصن بكر" بحجة، رغم شفاعة الكثير من أهل تلك المنطقة له، إلا أنه أصرَّ على إخضاره إليه وضرب عنقه ودفنه في مكانه!²

والحقُّ أن هذه الجماعة "المطرفية" لم ترتكب من الجُرم ما يقتضي التنكيل بها، أو تكفيرها، أو تحريم الزواج منها، أو إليها، ولم يكن لهم من ذنبٍ إلا أنهم خالفوا فكر المتعصبة من أتباع الهادوية في بعض المسائل "فهذا الفقيه علي بن عبدالله الصائدي يقول إنه وقفَ على كتبٍ كثيرةٍ من كتبِ المطرفية، فيها خلاصة مذهبهم، وتحقيق قواعد عقائدهم، فلم يجدوا فيها شيئًا من الموجبات لتكفيرهم، إنما اعتقادهم اعتقادُ أبي القاسم البلخي.

ويقول ابن الوزير: إنهم يقولون بخلق العناصر الأربعة، وبالانفعال فيما عدا ذلك. وهذا هو عينُ مذهبِ أبي القاسم. وهو الذي صحَّ عنهم ووُجد في كتبهم، وأمَّا غير ذلك مما يُنسب إليهم فلم يوجد في كتبهم، ولا اعترفوا بنسبته إليهم.."³

ليس المطرفيةُ فحسب من تعامل معهم الإمامُ بالعنفِ والقسوةِ والوحشية؛ بل حتى أبناء القبائل من بني صُريم في حاشد حين كاتبوا الأيوبيين، فاستعمل ضدهم المنجنيق، واضطروهم إلى النزوح من بيوتهم، فخرَّبها جندُه، وأخذوا ما فيها، وحين استنكر عليه الناسُ فعلته هذه كفرهم وفسقهم درءًا للحرَج وتبريرًا للجُرم؛ غير مُدرك حجم الجرم الأكبر الذي وقع فيه بذلك من حيث لا يدري؛ إذ قال: "أمَّا المنجنيقُ فالأصلُ فيه قوله تعالى: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. سورة الأنفال: 60. وقد استطعنا هذا. والأمر عام، وإن كان له سببٌ فلا يقتصر على سنة. وما يوجد من إطلاق أئمتنا

¹ - العقد الثمين، الإمام عبدالله بن حمزة، 1/457.

² - نفسه، 3/969.

³ - الصِّراع الفكري في اليمن بين الرِّيدية والمطرفية، د. عبد الغني محمود عبد العاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط: 1، 2002م، 48.

في أهل القبلة من أن المنجنيق لا ينصب عليهم، ولا يضيق عليهم الأنهار، ولا تقطع منهم الميرة... وإلا فالأئمة - عليهم السلام - قد بيتوا العساكر الظالمة، وقطعوا الميرة عن البلاد الفاسقة العاتية..¹ أيضاً ما ذكره ابن حمزة في واحدة من رسائله، وهو يتكلم عن أهل يام ونجران، قوله: "صمدنا بنجران وبلاد يام، فخرّبتنا المعاول، وهدمنا المنازل، وشرّدنا الطغام من مراتع النعام، ثم قصّدتنا الجوف بالجنود المنصورة المشهورة، فهدمنا ذروته ودوره.."²

وكفّر الإمام المتوكل على الله إسماعيل الشافعيين، وعموم أهل اليمن الأسفل، متهمًا إياهم بأنهم "مجرة" و "مشبهة" وكفار تؤول، وأن حربهم مشروعة، فشنّ حروبًا متوالية على عدن ولحج وأبين وتعز وما جاورها بقبائل من الشمال، سلبوا منهم أموالهم تحت حجة الجهاد في سبيل الله؛ لأن أرض هؤلاء هي أرض "خراجية" و "دار حرب" كل ما فيها غنائم للمسلمين، وللإمام حق التصرف فيها، وقد قال في ذلك: "إن مذهب أهل العدل - زاد الله فيهم - أن المجرة والمشبهة كفار، وأن الكفار إذا استولوا على أرض ملكوها، ولو كانت من أراضي المسلمين وأهل العدل، وأنه يدخل في حكمهم من والاهم واعتزى إليه، ولو كان معتقده يخالف معتقدهم. وأن البلد الذي تظهر فيه كلمة الكفر تصير جوارًا كفريّة، ولو سكنها من لا يعتقد الكفر ولا يقول بمقالة أهله. هذه أصول معلومة عندنا بأدلتها القطعية، ومدونة في كتب أئمتنا، وسلفنا، رضوان الله علينا وعليهم، لا ينكر ذلك عنهم أحد ممن له أدنى بصيرة ومعرفة بمصنفاتهم"³

وقبل هذا كان لأهل "جنب" من ذمار سندهم الفقهي حين قالوا للإمام أحمد بن سليمان حين تأخر عن غزو بعض مناطق اليمن الأسفل: "لا تحرمنا أخذ أموال الظلمة، فنحن لك جند، فتألفنا بها، فإننا لا نعدّه إلا منك.."⁴

قال العلامة المجتهد الشّيخ صالح المقبلي، وهو بصدد الحديث عن فترة أئمة عصره من القاسميين: "قالوا قد كانت الكلمة للجبر والتشبيه، وهما كفر. فالدار دار كفر استفتحنها بسيوفنا،

1 - ابن دعثم، السيرة المنصورية، سابق، 2/362. وقد بدت بعض جمل هذا السياق غير مفهومة للمؤلف.

2 - مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، سابق، 163.

3 - هجر العلم، 2/1075، وهو هنا يقتبس من مؤلف يحيى بن الحسين، بهجة الزمن، حوادث سنة 1085 هـ، ذكر ذلك أيضاً، برنارد هيكل في كتابه: الإصلاح الديني في الإسلام، تراث مجد الشوكاني، ط:1، 2014م، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، ص: 78.

4 - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، 249.

فنصنع ما شئنا، كخبيرٍ ونحوها، حتى روى لي من لا أتهمه أن رجلاً، هو أفضلهم وصّى عاملهم أن يتحيّل في الأخذ إلى قدر النصف، كأنها معاملة؛ ولكن على وجه لا يُنقَر. وكان الوالي على اليمين الأسفل، تعز وإب وجبله وحيس وسائر تامة يقول لهم فيما يبلغنا إذا شكوا الجور: لا يؤاخذني الله إلا فيما أبقيت لكم!"¹

مضيفاً: "وهذه الدسيّسة الخبيثة، والفضيحة المخزية من ذبول التكفير بالتأويل، وللزيدية والمعترلة من ذلك الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر.." ²

وللعلم فإن مثل هذه المسائل التي يمكن أن نعدّها من صميم "الفقه الحربي" لا مثيل لها لدى فقهاء السنة، على الرغم من رميهم بالتشدد، وبالتكفير، فهذا الماوردي - شافعي المذهب - يقول بجرمة إتلاف أموال البغاة: "لا يحرق عليهم المساكن، ولا يقطع عليهم النخيل والأشجار؛ لأنها دار الإسلام، تمنع ما فيها وإن بغى أهلها"³

وأورد ابن قدامة المقدسي - حنبلي المذهب - ما روي عن الإمام علي، كرم الله وجهه، عن أبي أمامة أنه قال: "شهدتُ صيفين، وكانوا لا يجهزون على جريح، ولا يقتلون مولياً، ولا يسلبون قتيلاً"⁴

وقال الشافعي في مسألة الانتفاع بملكات البغاة: "لا يُستمتع من أموالهم بدابة تُركب، ولا متاع، ولا سلاح يقاتل به في حربهم، وإن كانت قائمة، ولا بعد تقضيها، ولا غير ذلك من أموالهم"⁵

ونحن حين نورد هذا فعلى اعتبار أن هؤلاء بغاة على أئمتهم، ويجب التعامل معهم على هذا النحو؛ أمّا إذا كان خروجهم في حكم المشروع، أو كما تقرّر النظرية الهادوية فهذا أمر آخر، لا علاقة له بالبغي.

1 - العلم الشامخ، سابق، 270.

2 - نفسه، 270.

3 - الأحكام السلطانية، الماوردي، مطبعة الحلبي، مصر، ط:3، 1973، 61.

4 - المغني، موفق الدين أبو محمد بن قدامة المقدسي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط. 1972م، 8/114.

5 - موسوعة الإمام الشافعي، كتاب الأم، محمد بن إدريس الشافعي، توثيق وتنسيق: د. أحمد بدر الدين حسون، ط:1، دار قتيبة، ط:1، 1996م، 9/204.

ولا يجد مسلمٌ من مخرج للإمام عبدالله بن حمزة حين سبي من نساء صنعاء ستمئة امرأة، واقتسمهن أخوه وقائد جيوشه يحيى بن حمزة مع قادة جيشه ومقربيه في قاع طيسان!!¹ وتذكر بعض الروايات التاريخية أن ولاة الإمام المتوكل في اليمن الأسفل² قد منعت أهلها من الصلاة معهم، مؤتمين، لكونهم كفار تأويل! وقد ظلت تمامة وأيضاً أبين وعدن المصدر الرئيس، وربما الوحيد لاجتلاب الأموال للأئمة، خاصة الأئمة القاسميين، من خلال ميناءيهما الشهرين، اللذين يدران دخلاً كبيراً من الضرائب وزكوات التجارة، في الوقت الذي يهيمنُ شبحُ الجوع والإفلاس والفقر فيهما، خاصة تمامة، وليس لأهلها إلا خدمة "المركز المقدس" واستضافة حاشيتهم وعمّالهم وولاتهم فقط، مع الأخذ في الاعتبار بأن طبيعة الاقتصاد يومها ريعيٌ إعاشيٌ وتقليدي، وغلاته السنوية لا تكاد تكفي أهلها، كما فرض - أيضاً - في الأذان إضافة "حي على خير العمل" في حضرموت وعدن ولحج، لأول مرة، وليست من تعاليم المذهب الشافعي الذي تدين به هذه المناطق، ومنع حلق الذكر الصوفيّة التي ألفها الناس، خاصة في حضرموت؛ بل لقد حاول فرض مذهبه بالقوة في بلاد أنس وعُتمة، وأوفد إليها مشايخ الهادويّة، وفي عهده تحوّل أهل الحدا وأنس إلى الهادويّة، وكانوا على المذهب الشافعي قبله..

وقد تضاعفت في عهده المكوس والضرائب أضعافاً مضاعفة نتيجة لنهمه الشديد وطمعه الكبير في الأموال بحق وبدون حق؛ كونها أرضاً خراجيّة؛ وقد فُتحت فتحاً بالجهاد حسبما يعتقد؛ كما هو الشأن مع بعض الأئمة من بعده، كالمطهر ابن شرف الدين على وجه التحديد؛³ بل لقد

¹ - هجر العلم، 3/1291. مما تجدر الإشارة إليه هنا، هو أن بعض المصادر تذكر أن صنعاء حتى هذه الفترة كانت سنية المذهب، ولم تكن بعد قد اعتنقت الزيدية، عدا أسر قليل منها، ولذا استحل عبدالله بن حمزة قتالهم وسبي ذراريهم. وهذه مسألة تحتاج إلى تثبّت أكثر، ودراسة أوفى، إلا أن ما يؤكد هذا ما ذكره ابن حمزة نفسه في إحدى مكاتباته عن بلاد المصانع، وهي منطقة ما بين كوكبان إلى ثلا غرباً، وكانت على مذهب الشافعية حتى فترة الإمام عبدالله ابن حمزة، إضافة إلى بلاد حجة والشرقيين وجبل تيس، ولذا فقد عاملها الإمام ابن حمزة معاملة المشركين، وذلك بقوله: "لما استفتحنا المصانع بالسيف، جعلنا أموالها بأيدي أهلها شركاء، لأنها قد صارت بحكم الله ملكاً للمسلمين، وجعلنا لهم القيام بذلك، وزراعته أربعة أخماس، ويسلمون الخمس، وعليهم التمسك بطاعتنا، وموالاته موالينا، ومعاداة معادينا، والجد والاجتهاد في سبيل الله..". انظر هجر العلم، 3/1288.

² - المقصود باليمن الأسفل يومها المناطق الواقعة جنوب جبل سمارة، بما في ذلك تعز وإب ووصابين وعتمة وريمة، وشرقي حيس وغربي قعطبة. وذكر المؤرخ صادق الصفواني أن هذا المصطلح قد ظهر لأول مرة أيام حكم الأئمة القاسميين..

³ - نقرأ مثل هذه النصوص مثلاً التي تتكلم عن الفتوحات الجهادية في سنة تسعمئة وتسع وثمانين!! "... تقدم سيف السلطنة المشهور وأسدها الهصور الأمير سنان كدخاه إلى بلاد وصاب وريمة ففتح أكنافها، وقبض بنادقها وأسافها، وقبض أموالها، وقبض خراجها..". روح الروح، 214.

كان يأخذ من أموال النَّاس أكثر من نصفها تحت مُسميات عديدة اختلقها لأول مرة. ويُعتبر الإمام المتوكل أحمد بن سليمان، ت. 566، أول من دشّن الطيافة والمخمنين لتقدير أموال المزارعين وقبضها، ثم انقطعت فترة وكانت تُسلم بالأمانة، حتى أعادها الإمام المتوكل، واتخذها الأئمة من بعده عادةً جارية حتى عهد بيت حميد الدين.

وقد ذكر المؤرخ يحيى بن الحسين بن القاسم في حوادث سنة ألف وخمسة وثمانين، وهو يتكلم عن الرَّجفات الأرضية التي حصلت، بسبب الضرائب التي تمت بدون وجه حق، على حد قوله: "ولم يحصل من ذلك انتباهٌ بإنصافِ الشكاة في تخفيف المطالب التي زادت في اليمَن الأسفل، وهي مطلة التبن لمن شرم أو لم يشرم،¹ ومطلبة الصلّاة لمن صلى أو لم يصل، ومنها مطلة الرياح،² ومنها مطلة البارود والرصاص، ومنها مطلة سفرة الوالي، ومنها مطلة دار الضرب، ومنها ضيفة العيدين والمعونة... ولم يكن في اليمَن الأعلى من هذه المطالب، إلا مطلة ضيفة العيدين والمعونة"³ ليس هذا فحسب؛ بل لقد وزع الضياع ومنح الإقطاعيات لقيادات جيشه وأتباعهم في هذه الأرض، وصاروا أكبر ملاك أهلها الأصليين وأغنى منهم؛ بعد أن أرهقتهم ديون الضرائب والمتأخرات؛ بل إن من أعجب ما فرضه الأئمة ما سموه: "واجبات المستقبل" وتعني تسليم زكاة الأعوام المقبلة حين يشتد الصِّراع بين المتنافسين والخصوم من العاملين والخراسين والجبّاة، ويقيسون زكوات السّنوات المقبلة على السّنة الحالية، وذلك من أجل الإثراء السريع وضمّان ألا تذهب لغير العامل في المنطقة المكلف بها في السّنوات القادمة..⁴

¹ - المقصود ضرائب على أعلاف الحيوانات، والشرم: قطع الشيء من أعلاه.

² - قال عنها المحقق: لعلها طبول كانت تُستعمل في المناسبات، وفي الأغلب كانت الدوّلة تستعملها، وكذلك القبائل. وقال آخرون: إنها - في الأصل - الرياح "القرود" التي كان الإمام يأخذ جعلاً من النَّاس مقابل مطاربتها عن المزارع. ولعل الأخير أرجح، وأقوى. ومطلبة الصلّاة - كما ذكرها البعض - كانت تلك الرسوم التي تفرض على العامّة "التلم العاشر" يؤدونها بعد الحصاد، يقال إنها تُسلم للشخص الذي يؤم أهل القرية في الصلاة، ويعلمهم بعض التعاليم الدينية الأولية، كفرائض وسنن الوضوء والصلوة، وغالباً ما يكون هذا الشخص من سلالة الهاشميين، وناذرًا ما يكون من القضاة والفقهاء.. انظر: اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، 245.

³ - بهجة الزمن، مرجع سابق، 2/863.

⁴ - اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، 247. ومن باب: الشيء بالشيء يُذكر. نذكر هنا أن الكنيسة الغربية في عصور الانحطاط الأوروبي كانت تتبع - أيضًا - صكوك غفران مستقبلية، إلى جانب صكوك الغفران لما مضى من أيام الشخص حد زعمها. وله أن يشتري صكوك غفران لمدة سنتين أو ثلاث أو أربع سنوات أو مدى الحياة.. !!

وقد ابتدأت هذه العادة من أيام الإمام الهادي نفسه الذي فرض دفع الزكاة سلفاً قبل وقت طويل من الحصاد. " .. وكثيراً ما قام الهادي ورجال دولته بقلع الزروع والأعشاب وقطع النخيل وتدمير البيوت، وتضمين القرى والقبائل بالمتمردين منها. وكان طبيعياً أن تؤدي هذه السياسة بالإضافة إلى الظلم الذي كان يُعاني منه الفلاحون قبل مجيء الهادي إلى إفقار فئات واسعة من الفلاحين، واضطرارهم لبيع أراضيهم إلى أهل الذمة.¹

وقد شهدت السّنوات الثماني الأخيرة من حكمه 1079 - 1087هـ جماعةً شديدةً نتيجة جفافٍ ضربَ أرض اليمن، خاصّةً الجزء الأعلى منها، فارتفعت الأسعار، وانتشرت الأمراض، وحصل الموت الجماعي، ومقابل ذلك زاد الجور والظلم والسّطو من الإمام وحاشيته على ممتلكات الناس، بينما كانت خزائن الإمام مלאى بالحبوب والغلال والنفائس، ولم يُخرج منها شيئاً، لأنه كان يعتقد أن قوة الدولة تكمن في مقدار ما يكون في خزائنها لمواجهة أي تمرد أو خروج فقط؛ لكنه لم ينظر إلى الإنسان نفسه الذي هو الدولة في حد ذاتها. وقد تعجب قاضي الإمام الذي دخل هذه المخازن عقب وفاته من كثرتها والناس بهذه الحال: " .. فعجب يحيى جباري قاضي الإمام من ذلك، وقال: ما كنتُ أظنُّ أن في خزائن الإمام هذه الممالك، فما الوجه للمطالب والجور في اليمن الأسفل. ولا يفهم من ذلك أن تلك الخزائن هي من أملاك الإمام المتوكل الخاصّة؛ بل إنها ملكٌ للدولة... وكانت أهم الموارد المالية التي تصل إلى خزنة الدولة هي عائدات الموانئ، والتي كان أهمها في تلك الفترة ميناء المخا، وما كان يفرض فيه من جمارك تؤخذ على السفن التجارية والتجارة في الميناء. وكان نصف عائدات المخا لمحمد بن الحسن، ونصفه للإمام المتوكل، وعند وفاة الأول أصبحت جميع عائداته للإمام"²

إن تلك المجمعات التي حلت باليمن طوله وعرضه، وخلال فترة حكم الإمامة، ليست أزمة غذاء حاصل، فاليمن بتنوعها المناخي والتضاريسي كفيلاً بأن تُغني أهلها وغير أهلها. ثم إنَّ تهامة إلى جانب قيعان زراعية كبرى عُرفت بخصوبة تربتها وجودة محاصيلها، وهي عشرات القيعان الزراعية، أهمها قاع البون وقاع جهران وقاع يريم.. وفي أبين دلتاها، وفي لحج بساتينها، وفي

¹ - معتزلة اليمن، سابق، 133.

² - بهجة الزمن، 90، فما بعدها..

حُضِرَتْ أوديتها، وفي مرتفعات المناطق الوسطى جبالها الدافئة والباردة.. كل هذه جدية بأن تجعل من اليمن جنة الله في أرضه، كما كانت إبان العهود السبئية والحِميرية، وجدية بأن تجعل من أهلها ملوكًا إن وجدت الدولة التي تُقدِّر هذه النعمة الكبرى، التي تُعتبر من هبة السماء لهذا الشعب، ومن ثمَّ تعمل على استصلاح الأراضي، وبناء المدرجات، وتعمير السُدود، على الأقل كما كانت في عصورها الذهبية، لا أن يعمل أئمتها على تحويلها إلى ساحات حرب وحلبة صراعاتٍ دمرت ماضي اليمن وحاضرَه ومستقبله!

كان الإمام المنصور علي بن المهدي عباس يستصفي أموال الرعية والمواطنين من اليمن الأسفل، ويبي لنفسه الدور والقصور والمزارع التي عزَّ وصفها، وكانت آية وأسطورة في الأئمة والملوك، ولا يزال قصر الحجر اليوم غربي صنعاء شاهدًا على مدى الترف الذي عاش فيه الأئمة في الوقت الذي يموت فيه الناس في الطرقات جوعًا.¹ إذ لم يعيدوا صرف هذه الأموال في مصارفها الشرعية، إلا في الحد الأدنى، فمثلًا لم يكن مسئولو الدولة في أغلب عهود الأئمة - إن لم يكن فيها كلها - يتقاضون رواتب شهرية من خزنة الدولة؛ لأنَّ الأئمة قد عمدوا إلى خلق سياسة أخرى في هذا الجانب تتمثل في إعطاء المسئول نسبة مالية محددة له، يقوم بخصمها من واردات الجهات المعنية به، ما عدا قاضي القضاة "وزير العدل" فإن الدولة تقوم بإقطاعه مناطق صغيرة أو متوسطة على قدر وجاهته وقوة شخصيته، وكذا الجند المقربون من الإمام أو حاشيته هم الذين يحدد لهم نفقات شهرية زهيدة لا تفي بحاجتهم!²

وعاش الأئمة في ترفٍ أرستقراطي باذخ، عيشة الملوك، في الوقت الذي يتصور فيه الشعب جوعًا وفقيرًا مدفعًا، تنهشهم أمراض القرون الأولى! فهذا الإمام المنصور كما ذكر المؤرخون عنه أنه "كان يميل إلى حياة الدعة والترف والاسترخاء، ابتداء من اهتمامه بشراء الأراضي والبيوت لبناء الدور والقصور وتوسيعها، إلى تعدد زواجه وحفلات أعراسه التي يصرف عليها المبالغ الطائلة، وحبه

¹ - ذكر الرئيس الأسبق للجمهورية العربية اليمنية القاضي عبدالرحمن الإرياني في مذكراته أن عدد اليمنيين الذين يموتون من الجوع سنويًا في عهد الإمام أحمد مئة ألف يمينا. 2/265.

² - أقطع الإمام المنصور للقاضي الشوكاني صدقات رصاية وجبل اللوز وصدقات الرونة وسعوان وشوكان وشوبان، وشبنا وأسعا غير هذه، ومن صدقة بيت راجح، وأضاف إليهم بيت قبان، وصدقة بيت الحيمي، ووصية التوهمي وتنع" انظر: دراسات في التراث اليمني، عبدالله بن محمد الحبشي، دار العودة، بيروت، 1977م، 64.

في التنقل بين قُصوره، وإقاماته الطويلة لغرض الراحة والاستجمام في بيوتِ أبنائه وأصدقائه، وتزُهراته الكثيرة في الوديان والمناطق المجاورة لصنعاء..¹

ومن الدُور التي عَمَرها الإمامُ المنصور علي "دار البهمة" في بير العزب بصنعاء، التي أنفق عليها من الأموال الشَّيء الكثير، وكانت محلَّ استنكار البعض، وخاصةً من رجالِ الدين الذين نصحوا الإمامَ، فغضب من نصيحتهم، وخرَجَ العَلَّامة إبراهيم بن مُحمَّد الأمير بعدها إلى مَكَّة فارًّا من غضبِ الإمام، حيثُ قضى بقيةَ عمره هناك، وبمجرد انتهاء الإمام من بناء هذه الدار تزوج وأقام فيها إحدى حفلات أعراسه الكبرى. ولم يكد يفرغُ منها حتى انتقل إلى بناءِ دارٍ أخرى لا تقل عنها جمالًا وبذاحة، هي دار الإسعاد بالطواشي التي اشترى من حولها القصورَ والدورَ الأخرى، ثم هدمها بغرض توسعتها، مستمرًّا في تشييدها خمسَ سنوات متواصلة. وقدَّ وصفها المؤرخون وصفًا عظيمًا، قال عنها صاحبُ "حوليات يمانية": "لا يوجد مثلها في جميع الأقطار، فقد رأينا أكثر البلدان والبنادر فما لها نظير، وفيها أماكن ثلاثمئة وستون مكانًا، وكان كل مكانٍ بحاجته، فيه مما يليق به، وهكذا كل دار، وأما البساتين فما هي إلا جنَّات"²

كما قال المؤرِّخ - أيضًا - عن هذه الدار: "فيها من البناء العظيم والزخرفة الباهرة، وكان في هذه الدار ثلاثمئة وستون منزلاً، وكانت هذه الدار لم تُوجد في اليمن، وكان يُضربُ بها المثلُ في غاية البناء وإتقان الزخرفة، وفيها من الأحجار النفيسة والفصوص العزيرة الثمينة، منها أنَّ المنصور علي بن المهدي عباس عند بنائها اشترى صباغات لتلك الدار بسبعين ألف ريال وستمئة وخمسين ريالاً"³

وفي هذه الأثناء - أيضًا - عمل على تشييد "دار الصَّافية" بحي بير العزب بصنعاء. كما انشغل بعد ذلك بتشييد "دار الفُتوح" وسط صنعاء، في الوقت الذي بنى نجله أحمد "دار الذهب" ثم انتقل الإمامُ إلى الروضة وشيَّد دار الروضة، وعاد إلى صنعاء لتشييد قصرٍ آخر في البونية، وكان

¹ - الأوضاع السياسية الداخلية لليمن، سابق، 50.

² - حوليات يمانية، اليمن في القرن التاسع عشر الميلادي، "مؤلف مجهول" تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، دار الحكمة، صنعاء، 1991م. 243.

³ - تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، عبدالواسع بن يحيى الواسعي، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، ط:2، 1991م 252.

"دار الحجر" في وادي ضهر¹ غربي صنعاء آخر دار شيدته، ولا يزال إلى اليوم معلماً سياحياً ساحراً، وفيه من فنون العمارة ما يعجز الواصف عن وصفه، والمستمع عن استيعابه!²

وعودةً إلى الإتاوات والمكوس التي يفرضها الأئمة، فقد كانت المقياس الحقيقي للولاء والشريعة من وجهة نظرهم، وقد ذكر المتوكّل أن تسليم الرعيّة للحقوق واجبة حيث نفذت أوامر الإمامة أو لم تنفذ؛ أمّا عدم تسليم المكوس والإتاوات والضرائب فيؤدي إلى بطلان الإمامة، ونكسها على الهامة كما يذكر! في الوقت الذي لا يقابل هذه الالتزامات أي حقوق أخرى على الإمام تجاه رعيته، ولذا فقد كان هؤلاء الحكام أئمةً وملوكًا في نفس الوقت جراء الأموال المهولة التي تحصلوا عليها من الرعيّة بهذه الطريق!

ولم تقتصر تصرفاته هذه على المسلمين فقط؛ بل - أيضًا - اليهود "الذميين" .. فاتخذ ضدهم سلسلة من الإجراءات العقابية القاسية حين شاعت فكرة "المسيح المخلص" في صنعاء، في رجب 1075هـ، فاعتقل زعماءهم وعذبهم وسجنهم، ومنعهم من لبس العمائم، وألزمهم بدفع نصف محصولاتهم، ثم صادر أموالهم كاملة بعد ذلك، وأبطل عقد الذمة المبرم بين اليهود والأئمة سابقًا، وحكم عليهم بالعبودية بعد أن كانوا ذميين. وقد وجّه بطرد اليهود وإخراجهم وهو في مرض الموت قبل وفاته. واستكمل المهدي أحمد المهمة بعد ذلك، واقتحم الكنيس اليهودي بصنعاء، فمزق كتبها وأحرقها ودمر مقتنياتها، وهدم المبنى وأراق الخمر، وبنى مكانه مسجد الجلاء المعروف اليوم هناك، مع أن مبنى الكنيس قد تم إنشاؤه من قبل الإسلام، وقد أجبّر اليهود بين خيارين الإسلام أو الرحيل، فاختاروا الرحيل، فطردهم إلى موزع قريبًا من المخا!.

¹ - يُخطئ البعض فيكتب وادي ضهر، بالطاء المعجمة، والأصح كما وردت. بالضاد، كما ذكر الهمداني، نسبة إلى ضهر بن سعد، وقد ورد اسمه في نقش النصر للمكرب السبئي كرب إل وتر، في القرن السابع قبل الميلاد، وكذا وردت في كتاب صفة بلاد اليمن لابن الجاور..

² - الأوضاع السياسية الداخلية لليمن، سابق، 50 فما بعدها.. وقد ذكر الواسعي في تاريخه أن الوزير أحمد فابع قد رش شوارع الروضة بماء الورد قبل قدوم الإمام المنصور إليها، تفخيماً له! ولكن ما هي إلا أيام وغارت المياه عن الأبار نتيجة قحط وجذب شديدين أصابا البلاد. تاريخ الواسعي، سابق، 65.

المبحث الخامس الخروج والخروج المضاد.. الفوضى المقدسة

من الحقائق المسلّمة بها، أنّه كلما تنّاهت المثُلُ صَعِبَ تحقيُّفُها. وأنّه كلما كثرت النواهي قلّت الفضيلة. والنظرية السياسيّة الهادويّة نظريّة مثاليّة الفكرة، صعبة التنفيذ العملي، إن لم تكن مُستحيلة في الغالب الأعم. هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية فإنّ هذه النظريّة لا تؤسّس لبناء دولة، بكل ما تعني كلمة دولة، أي دولة المؤسّسات، ودولة النظام والقانون للجميع، بقدر ما تبني مركزًا مُقدّسًا لأسرة أو سلالة ما، يقابله خنوعٌ وخضوعٌ عامّة للناس لهم.. أي أنها عبوديّة دينيّة - سياسيّة بامتياز. فالدين لم يأت إلا لمساواة الناس كلهم بلا استثناء، ولم يأت إلا ليجمّد مفهوم الكرامة الإلهيّة لبني آدم جميعهم على اختلاف أشكالهم وألوانهم وألسنتهم، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) الإسراء:70.

ومن مُقتضيات التكريم الربّاني ألا يكون أحدٌ دون أحدٍ لأسباب تتصلّ بالجنس أو السلالة أو اللون أو ما شابه ذلك؛ عدا ما يحقّقه بعض الناس لأنفسهم من مكانة اجتماعيّة أو سياسيّة أو علميّة، وذلك بناءً على ما يتفاضلون به من إضافاتٍ تتصلّ بمجهوداتهم الشخصيّة، وهو تفضيلٌ قائم على الجهد والعناء والإبداع؛ وهو - مهما بلغ - لا يرتفع إلى مرتبة القداسة مُطلقًا - إذ لا قداسة لشخصٍ أبدًا؛ فحتى رسول الله - ﷺ - ذاته لم يدع لنفسه القداسة، وهو أعظمُ الإنسانيّة قاطبة؛ مُبينًا لأصحابه: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف:110.

ومما ذهبت إليه المطرفيّة أن الله قد ساوى بين الناس في ستة: في الخلق والرزق والموت والحياة والتعبد والمجازاة. وخالف بينهم في ثلاثة: في الصور والألوان واللغات.¹

¹ - - انظر ابن الأمير، حياته وعصره، سابق، 46.

أما أن يكون التفضيلُ مستمداً من "ماء دافق" فهذا ما لا يتفقُ وطبيعة الفكر السليم والعقل الرشيد. ومن منظور نفسي فإنَّ مَنْ ركنَ إلى المجدِ والتميزِ عن الآخرين لكونه - فقط - من سُلالةِ ما، فحتمًا سيتوقفُ إبداعه، ويتكلس نشاطه ويتجمدُ عند نقطة البداية، فلن يسعى نحو الكمالِ - في حده الإنساني - أو التميزِ أو الإبداع؛ لأنه قد ضَمَنَ لنفسه كلَّ ذلك، بمجرد ولادته؛ وبالتالي فمؤهله الوحيدُ هو نَسَبُه أو سُلالته، كما أن الآخرُ من غير هذه السُّلالة سيتوقفُ طموحُه ونشاطه عند نقطةٍ محدَّدة وسقفٍ معينٍ لا يستطيعُ تجاوزه؛ لأن ذلك قد يُسيء لمن هو أرقى منه نسبًا، ومهما حاول من التمجُّد أو السَّعي حثيثًا نحو الكمالِ في حده الإنساني فإنه سيبقى محدودًا بحد "السَّيد" الذي لا ينبغي له تجاوزه مهما كان!

وبهذا يكونُ قد عمل على تعطيل أعظم ما خلق الله فيه وهو العقل. وبمعادلةٍ سهلةٍ وواضحة، فأبي دينٍ يفاضلُ بين أبنائه وأتباعه على أساس سُلالتي عُنصري فليسَ بدين، ناهيك عن أن يسلبَ بعضًا من حقوقهم، مانحًا إياها لمن يعتبرهم أفضل. وواحد من هذه الحقوق حق وصول الإنسان - أي إنسان تتوافر فيه معايير الكفاءة والنزاهة المتفق عليها في دساتير وقوانين الشعوب - إلى الحكم، كشأن بشري أرضي وإنساني غير مقدس، ولا علاقةٌ للسَّماء به مُطلقًا.

ومما يؤسفُّ له أن صَمِيَّةَ الحكم والرجلِ الأول في الدَّولة لا تقتصرُ على النَّظَرِيَّةِ الهادِويَّةِ فحسب؛ فهي موجودة - أيضًا - عند أهل السُّنة، الذين لهم صَمِيَّةُ "القرشية" عدا الخوارج منهم. مع الإشارة إلى أنَّها في النَّظَرِيَّةِ الهادِويَّةِ أصلٌ من أصول الدين، مثلما هي عند "الاثنا عشرية" فيما هي عند أهل السُّنة مجردَ شرطٍ تفضيل - كما يقولون - لا شرطٍ وجوب، ولا يرتقي إلى "الأصلية" الشيعيَّة. وعدم العمل بهذا الشرط عند أهل السُّنة لا يترتب عليه حكمٌ ديني. ثم إن كثيرًا من علماء أهل السُّنة وأقطابها المعترين قديمًا وحديثًا - عدا قلة قليلة منهم - قد أنكروا هذا الشرط من أساسه، وبعضهم خرَّجه وفسَّره على نحو آخر، كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته؛ إذ الحديثُ على سبيل الإخبار لا الإلزام. وهو ما يستصوبه الكثيرُ اليوم، ويقره الواقع.

وعودا على بدء.. فإن فكرة التمايز العنصري والسُّلالي بقدر ما هي مثيرةٌ للجدل الفكري والسياسي، بقدر ما هي - أيضًا - عاملٌ من عوامل الشِّقاق والنزاع والفرقة والاحتراب بين الناس، بحكم أن النَّفسَ الإنسانيَّةَ السُّوية تأبى الضيمَ والقهرَ والعبوديَّةَ والاستعلاء، وتميل للعدالة والمساواة،

كغريزة إنسانية بالمقام الأول. وهذه النظرية هي نظرية تمايزية وعنصرية، لسان حالها يقرر: "أنا سيدك وأنت عبدي. أحكمك أو أقتلك" مهما قال البعض بخلاف ذلك. ولأي قائل أن يقول: إن الهادوية ليست شيئاً يُذكر إذا ما نزعنا منها مسألة الإمامة، فستحول مباشرة إلى مذهب فقهي، مثله مثل أي مذهب من مذاهب أهل السنة، وربما كانت إلى مذهب أبي حنيفة الشني، على شيعيتها أقرب إليه من مذهب الإمام مالك على سنيته!

هذه الرؤية التي ارتكزت عليها النظرية لما يزيد على ألف عام ونيف، هي التي جعلت تحت كل حجر وشجر قتيلًا، وجعلت من الصراع الدموي خبرًا يوميًا لدى صنعاء وما حولها خلال هذه الفترة كاملة، ولا تزال! لم يخلُ بيتٌ من قاتلٍ أو قتيل، ولم يخلُ ميدانٌ من موقعة دموية، على امتداد ربوع هذه الجغرافيا. ومن يقرأ تاريخ اليمن وصراعات الأئمة يجد ذلك واضحًا وجليًا.

من ناحية ثانية، بقيت هذه المادة في أصلها الأول منذ نشأت وإلى اليوم أشبه بالمادة الخام، أو النص الدستوري، فلا قانون يفصلها أو لائحة تشرحها؛ إذ كانت عملية نقل السلطة من إمام إلى إمام أشبه بالعملية القيصريّة، وأصبح موت أي إمام مقدمةً لاندلاع حربٍ بين من يرى نفسه أهلاً للإمامة من بعده، وما أكثرهم! بمن ذلك احتراب الأبناء أو الإخوة فيما بينهم البين. ومن العجب العجيب أن صحّة قبول الإمامة أو الدعوة والمبايعة لا بد أن ترتبط بالخروج وإشهار السيف..! لذا كان من السهولة بمكان بالنسبة لمن ضمن المال والأتباع أن يعلن الدعوة، ويُشهر السيف. وكم دعوة صدحت؟ وكم سيفٍ أُشهر؟!!

وقد كان هذا الخروج غير المحسوب سلقًا، وبتلك الطريقة العشوائية هو ما جعل مذاهب السنة المتأخرة تقرر حرمة الخروج على "أولي الأمر" حيث لم تحقق كل هذه الخروجات - على الرغم من عدالة بعضها - أية نتائج إيجابية، وكانت جميعها إلى المفسدة أقرب منها إلى تحقيق المصلحة العامّة المنشودة، ليس خروج هذه الجماعة أو السلالة فحسب؛ بل لمن حُسب على أهل السنة أيضًا خروجهم على "أولي الأمر"¹ في وقتٍ مبكر، كثورة الفقيه أحمد بن نصر الخزاعي على الخليفة العبّاسي الواثق، وكل هذه الثورات جميعها قد فشلت، وبالتالي كان تحريم الخروج، حالة موضوعية

¹ - ذكر القرآن الكريم لفظة "أولي الأمر" بالجمع، لا "ولي الأمر" بالمفرد، وفيهما فرق كبير، معنى ومدلولاً.

وواقعيّة، لا خنوعًا أو استسلامًا كما يرى خصومهم العلويون وأتباعهم، مع الإشارة هنا إلى أن عمليّة الخروج على أولي الأمر كانت مَفْتُوحَةً المجال لدى أهل السُنّة المتقدمين، وغير محرّمة بفتوى أو ممنوعةٍ برأي؛ ولذا خرج أبو ذر الغفاري على عثمان بن عفان، رضي الله عنهما. وخرج الحسين بن علي على يزيد قبل أن تبلور فكرة التشيع والتسنن من أساسهما. وخرج الفراء في معركة شهيرة على عبد الملك بن مروان التي قمعها الحجاج بن يوسف الثقفي. وخرج أحمد بن نصر الخزاعي أيام الواصل، وهو من الجناح السني الذي كان قد بدأ بالتبلور مقابل الجناح الشيعي الذي ظهر يومها، وحركات أخرى كثيرة غير ما ذكرنا، ولم تظهر فتاوى التحريم بالخروج إلا في وقت متأخر، كما أسلفنا..

وإذا كان أهل السُنّة قد قالوا بعدم الخروج؛ بل حرّموه، نتيجة لما سبق، فإن الشيعيّة المتأخرة أيضًا بدورها قد مالت إلى التقيّة السياسيّة، مقابل ميلان أهل السُنّة إلى التحريم الديني، وهو ما كان عليه الأمرُ مذ ذاك وإلى اليوم؛ وصارَ الاثنان في مقام واحد، على الرغم من تعيب الجناح "الشيعي" اليوم للجناح "التسنني" بأنهم خانعون وموالون للحكام الظلمة!

زارَ الإمام الهادي - ومعه بعض رفاقه - ابنَ عمّه إلى بلدة "آمل" في طبرستان وهو حاكمها يومذاك، فلما علم الناسُ بمقدمه اجتمعوا إليه ولاقوه في الطرقات للسلام عليه، وكانوا يحترمونّه ويجلّونه كثيرًا، فقلق ابن عمه، وكتب إليه أن يغادر البلاد، ومع أنّ الإمام الهادي طمأنه، قائلاً له: ما جئنا ننازعكم أمركم، ولكن ذكر لنا أن لنا في هذه البلدة شيعةً وأهلاً، فقلنا عسى الله أن يفيدهم منا؛ فخرجوا مُسرّعين وثيابهم عند القصار وخفأهم عند الإسكاف ما استرجعوها!!

وعينَ الإمام الناصر الأكبر الملقب بالأطروش ابنه أبا القاسم والياً على "آمل" بعد أن فتحها، الأمر الذي أغاضَ عليه قائد جيشه ووزيره المفوض، الداعي الحسن بن القاسم، فقام بالقبض على الإمام نفسه وإيداعه في سجن قلعة اللازر هناك، احتجاجاً على تعيين ابنه على آمل؛ لأنه كان طامعاً فيها لنفسه.

الأعجبُ من هذا، ذلك الصِّراع الذي دار بين بين القاسم بن الناصر الذي تلقّب بالمختار لدين الله، وأخيه يحيى بن الناصر الذي تلقّب بالمنصور بالله، وكلاهما من أحفاد الإمام الهادي نفسه،

وانقسمت القَبَائِلُ بين مؤيد لهذا أو ذاك من طَرَفِي الصِّرَاعِ على الإمامة، حتى انتهى الأمرُ بخراب مدينة صَعْدَةَ يومها!

أيضًا حينَ قام الإمامُ القاسم العياني 389هـ بالدعوة لنفسه، كأول إمامٍ من غير ذرية الإمام الهادي فاعترضه - بقوة - أحدُ الأَخْفَادِ، وهو الداعي يوسف بن المنصور يحيى بن الناصر بن الهادي، وجمع ما استطاع حوله من قبائل صَعْدَةَ، التي تمرت على القاسم العياني بعد مبايعتها لها، مُستغلاً خروجه باتجاه قبائل نجران، الأمر الذي جعل العياني يستعين بقبائل نجران، قافلاً إلى صَعْدَةَ بها، فأخرب ديارها وطرده الداعي، وولى ابنه جعفر بن القاسم عليها!

الأعجب والأغرب معاً أن قدم إلى الإمام القاسم العياني الحسين بن القاسم الزبيدي من الطائف، فأكرمه العياني، وولاه قيادة جيشه وجعله وزيره المفوض؛ لكنه لم يلبث إلا فترة قصيرة ثم انقلب عليه، وأسر ولده جعفر، والي الإمام على صنعاء يومها، واستولى عليها، ولم يفك رباطه إلا بعد أن ولاه الإمام ولاية عامّة من جبل عجيب في وسط بلاد همدان حتى ذمار جنوباً بما في ذلك صنعاء، وأعلن بعد ذلك ولاءه للداعي يوسف، بعدها اضطر الإمام العياني للتخلي عن الإمامة، واستقرّ في منطقة عيَّان حتى مات!

وتتواصل سلسلة الدماء والعنف..!

بايع النَّاسُ الحسين بن القاسم إماماً بعد وفاة أبيه ولا يزال صغير السن يومها، وعيّن أخاه جعفر والياً على صنعاء، إلا أن مُجَّد بن الحسين بن القاسم الزبيدي - ابن خصم أبيه - قد عارضه معارضة قوية، ودخل صنعاء لإخراج جعفر بن القاسم أخي الإمام الجديد، فخرّب بيوتها وأرعب أهلها، الأمر الذي جعل الإمام الحسين بن القاسم ينتقم لأخيه ويدخل صنعاء بنفسه ليقود المعركة، ويحرر المدينة من مُجَّد بن الحسين الزبيدي، فقتله في صنعاء، ثم عاد إلى صَعْدَةَ ودخلها مع قبائله وأخرب بيوت آل الهادي وأتباعهم هناك، حتى انتصر عليهم، ثم دخل في معارك أخرى مع قبائل آل الضحاك، إلا أنهم قتلوه في نهاية الأمر!

وعن أحداث هذه الفترة وحروبها الدامية يقول المؤرخ يحيى بن الحسين: من سنة 405 إلى سنة 448هـ عمّ الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن، لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع الكلمة الواحدة.. وأظلم اليمن وكثر خرابه وفسدت أحواله... وكانت صنعاء وأعمالها كالحرقة، لها في كل

سنة أو شهر سلطاناً غالباً عليها، حتى ضعف أهلها وانتقلوا إلى كل ناحية. وتوالى عليها الخراب وقلت العمارة في هذه المدة حتى أصبح عدد دورها ألف دارٍ بعد أن كانت مائة ألف دار في عهد الرشيد... إلا أن صنعا تراجعت بعض التراجع في زمن الصليحيين لما اجتمع لهم ملك اليمن. في سنة خمسمئة واثنين وثلاثين، خرج الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان داعياً لنفسه، وله موقعة واجه بها المعارضين له، أسفرت عن مقتل خمسمئة قتيل وخمسمئة أسير. أشار إليها القاضي محمد بن عبدالله الحميري في إحدى قصائده:

فخمس مئین حزرٌ منها وريدها وخمس مئین أثقلتها قيودها
وطاروا إلى رؤوس الجبال شلائلاً من الخوف منها خافقات كبودها

وقد خرج بعد ذلك بفترة، قاصداً القضاء على من تبقى من أبناء العياني في بلاد الأهنوم ووادعة، بعد أن عارضوه هناك بشدة، وفي الطريق وبينما هو مع نفرٍ من جماعته ترصد له القاسميون، بقيادة الأمير فليته بن قاسم القاسمي، فوثبوا عليه وأسروه وسجنوه في مصنعة "أثافت" بالقرب من مدينة خمر في حاشد، فغضبت له همدان، وبعض القبائل وجاءوا إلى ابن فليته يتوسطون لديه لإطلاق سراحه، ففعل بعد أن كتبوا فيه قصائد الشعر، وتعاون معه في محنته هذه حتى خصومه ضد بني عمه، ولم تطل له حياة بعد ذلك؛ إذ مات وقد فقد بصره.

وعلى الرغم من قوة شخصية الإمام عبدالله بن حمزة وحنكته السياسية ودهائه وسعة علمه، فإنه قد اعترضه ثلاثة معارضين من أحفاد الأئمة السابقين له، وهم: الأمير يحيى بن الإمام أحمد بن سليمان، الذي تحالف مع المعز بن طغتكين ضد ابن حمزة، واستحلف الناس له، وقد دخل في حرب مع الإمام في موقعة "الجئات" بعمران، انتهى به الأمر أسيراً لدى ابن حمزة، فمقتولاً في السجن.

وكان المعارض الثاني علي بن يحيى بن الحسين من آل الهادي الذي خرج سنة 596هـ، معارضاً الإمام عبد الله بن حمزة، وملتحقاً بالمعز إسماعيل بن طغتكين الأيوبي، في كوكبان، وكفل له أخذ بلاد الشام، وتحالفاً معاً، إلا أن هذا الحلف لم يدم. وذات الأمر - أيضاً - مع المعارض الثالث

ابن جعفر بن القاسم العياني الذي كان والي الإمام على بني عبد وظليمة وحجور، فعزله الإمام عنها عقب شكوى الناس به، إلا أنه رفض العزل وقاوم فترة طويلة، ممتنعاً عن طاعة الإمام.

وعارض الإمام يحيى بن حمزة - وهو من كبار أعلام وعلماء الزيدية/ الهاديّة وأكثرهم اعتدالاً - ثلاثة من المعارضين الطامعين بالإمامة في عهده، وهم علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين، والواثق بالله المطهر بن الإمام محمد بن المطهر ابن يحيى، وأحمد بن علي بن أبي الفتح. مع أن الإمام يحيى بن حمزة كان على قدر كبير من العلم والتفقه، إلا أن هذه المؤهلات لم تشفع له عند حُصومه لإعطائه مكانته.

أمّا الإمام أحمد بن يحيى المرتضى فقد أسره مُعارضه ومناوئه علي بن الإمام الناصر صلاح الدين، وهو ابن خاله، وأبقاه في سجنه سبع سنّوات، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن كثر الشّافعون والمتوسّطون لديه!¹

وفي عهد الإمام شرف الدين انقلب عليه ابنه المطهر بن شرف الدين، وقد كان قائداً لجيوشه، ومفوضاً له، ودخل في معارك داميّة، مع أبيه وإخوته، مُواصلًا عهد أبيه الدموي. واضطّر للاستعانة بالعثمانيين الأتراك لدخول اليمن، وإسقاطها من حكم أبيه إلى الدوّلة العثمانيّة..!

وبعد وفاته اشتجر أولاده وأقاربه؛ لأنّ كلاً منهم يدعي أنه صاحب الحق في وراثته الإمامة بعد والده، فقام علي يحيى بن المطهر مدعيًا الإمامة لنفسه في بلاد ثلا وعمران وجبال عيال يزيد! وقام لطف الله بن المطهر مدعيًا إياها في نفس الوقت في بلاد دمرمر،² ونصف بلاد الشرق! كما قام عبد الرحمن بن المطهر بالدعوة إلى الإمامة لنفسه في بلاد حجة وما إليها! وعارضه أخوه غوث الدين بن المطهر مدعيًا لنفسه الإمامة في حصن عفار! وقام حفظ الله بن المطهر مدعيًا لنفسه الإمامة في نصف بلاد الشّرق الأخرى التي أخذ أخوه لطف الله نصفها! في الوقت الذي استقلّ الإمام أحمد بن الحسين المؤيدي ببلاد صعدة! وعارض الكل الإمام الناصر الحسن بن علي بن داود بعد ذلك غير معترف بإمامتهم جميعًا، في الوقت الذي يرفض كل واحدٍ منهم إمامة الآخر ويردها!! بل لقد حارب الأخ أخاه في ذلك! ليأتي الأتراك العثمانيون بعد كل هذا الصّراع ويلتهموهم جميعًا

¹ - للدكتور الشهيد عبد الكريم جديان دراسة في هذا الأمر اقتضينا منها تلك الإشارات..

² - ذو مرمر، أو دمرمر، كما ينطقونها، في بلاد السر من بني حشيش، وفيها حصن يعرف بهذا الاسم.

حين بسطوا نفوذهم على اليمن، فأسروهم القائد التركي حسن باشا، ويرسلهم إلى استانبول أسرى سنة 994هـ، وهناك قضوا نحبهم!

وحين توفي الإمام المؤيد ابن القاسم، ثاني الأئمة القاسميين أعلن ثلاثة أئمة إمامتهم، وأحقيتهم في الحكم، وهم: إسماعيل ابن القاسم الذي كان واليًا على ضوران وريمة وعتمة، وأحمد بن القاسم، والي صعدة، ومُجد بن الحسن بن القاسم الذي كان متوليًا لمناطق اليمن السفلى، وبعد جدل طويل ظفر بها الإمام المتوكل على الله إسماعيل الذي دام حكمه ثلاثة وثلاثين عامًا. وقد خلفه ابنه المؤيد في الحكم عقب وفاة والده عام 1087هـ.

"وقد اختلفت آراء الناس حينئذ، فمنهم من قال: الأولى بها إسماعيل، لأجل رُسوخ قدمه في العلم؛ لاسيما الفقه. ومنهم من قال: أحمد؛ لأنه أئخص وأصلح، ولأجل تقدم دعوته، واضطربت الأمور؛ إذ أن كلا الأخوين كان يرى أن لديه ما يؤهله للوصول إلى الإمامة، إلا أن القوة هي التي حسمت الخلاف بينهما، وكانت القوة آخر الحلول التي لجأ إليها إسماعيل، والتي اتبعها من جاء بعده من الأئمة." ¹

وأثناء حكمه خرج عليه كل من السيد عبدالله بن عامر بن علي الحسيني، عام 1054هـ داعيًا لنفسه في حوث، وفي عام 1061هـ خرج عليه أيضًا السيد مُجد بن علي الحيداني، مدعيًا لنفسه الإمامة في بلاد حيدان، ثم مدعيًا أنه المهدي المنتظر! وأيضًا خرج عليه السيد مُجد بن علي الغرابي سنة 1075هـ، في صنعاء؛ أما إبراهيم بن مُجد بن عز الدين المؤيدي فحكايته مع الخروج على الإمام أشبهه بالأسطورة والخرافة؛ إذ ادعى لنفسه الإمامة أولاً يوم خروج المتوكل نفسه، ورأى أحقيته بها، لأنه سبقه بساعة أو ساعتين، ولما لم تلق دعوته صدقًا واسعًا أمام دعوة المتوكل راسله وأقره على إمامته، معلنًا عن تنازله هو له؛ إلا أنه بعد فترة خرج عليه إلى بلاد برط، وأعلن إمامته من هناك، فلم يجبه أحد، ولما لم يجبه أحدٌ سكت فترة، وخرج بعدها إلى خولان صعدة وادعى

¹ - بهجة الزمن، سابق، 32. ويعلق المؤلف على هذا بقوله: " وإذا كان إسماعيل بن القاسم لديه ما يؤهله للوصول إلى الإمامة، إذ لم تكن القوة فحسب؛ فإن من جاء بعده من الأئمة لم تكن لديهم إلا القوة!" وقد روى الحرازي في تاريخه من حوادث عام 1288هـ أن الإمام المتوكل كان في قرية جدر، والإمام الهادي في قرية ضلاع. وكلا القريتين اليوم تقعان من أطراف العاصمة صنعاء، وبينهما تقارب واضح! مضيًا عن حياة الناس في هذه اللحظة: "والناس في هرج ومرج، والتربُّس في الطرقات كائن!" مرجع سبق ذكره، 160.

الإمامة من هناك، فلما علم بذلك الإمام المتوكل أرسل له ابن أخيه أحمد بن الحسن، فعلم بذلك المؤيدي وهرب إلى منطقة أخرى، معلناً الصلح والبيعة للإمام من جديد. وسكت فترة إلى العام 1061هـ وادعى الإمامة من جديد للمرة الرابعة، مُستغلاً خروج أحد المشايخ على الإمام حينها، فأرسل له الإمام المتوكل عدداً من الجنود، ولما عجز عن مواصلة دعوته أظهر الندم وأعلن الصلح، وأجزل له الإمام العطاء "الزجاج" كما أقطعه - أيضاً - بلاد رُغافة بصعدة. ولم يتوقف عند هذا فحسب؛ بل لقد ادعى الإمامة للمرة الخامسة في عهد إمامة المتوكل نفسه، حين علم بوفاة أحد الأشخاص وكان اسمه مشابهاً لاسم الخليفة فسارع على الفور لادعاء الإمامة!¹

كما خرج عليه - أيضاً - عامله على صعدة علي بن أحمد بن القاسم "خرج عليه والده سابقاً" محتجاً بمرض الإمام، وأنه لم يعد صالحاً للإمامة، إلا أن دعوته هذه لم تلق أية استجابة. وعقب وفاة الإمام المتوكل نفسه خرج بعده ثمانية أئمة داعين لأنفسهم بالإمامة، وهم: أحمد بن الإمام المتوكل في شهارة، والقاسم بن الإمام المؤيد في الأهنوم، ويحي بن الحسين بن المؤيد بالله في عُذر بحاشد، ومُجد بن الإمام المتوكل في ضوران، والحسين بن الحسن بن القاسم في رداغ، وأحمد بن إبراهيم بن مُجد المؤيدي في العشة، ومُجد بن علي العُرباني في برط، والأمير عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب في كوكبان!

وقد عمّت الفوضى والحروب كل أنحاء اليمن الواسعة في تلك الفترة، بسبب فوضى الدعوة للإمامة من قبل هؤلاء، فانتهبت القصور والأسواق والمدن، وقُطعت الطرق وعمّ الصرّاع أرجاء البلاد، وأصبح الناس في خوفٍ لا نظير له قبل ذلك، ودام الصرّاع فترةً طويلة. وعلى الرغم من أن الإمام أحمد بن الحسن هو الذي حسم الأمر لصالحه، ملقباً نفسه بالمهدي، بعد جدلٍ طويلٍ ومفاوضاتٍ كثيرة بين الداعين، وذلك لقوة شخصيته ومكانته من الإمام المتوكل نفسه سابقاً، ودوره الكبير أيامه، فإن الأوضاع قد بدأت تتفكك في عهده، وقد زاد طمع الأبناء والأحفاد وأولاد العم، وكلّ يطمع فوق ما كان له من سابق.

¹ - انظر، بهجة الزمن، سابق، 37 فما بعدها..

ومن العجب العجيب أن تمرد عليه ابنه في بلاد اليمَنِ الأسفل، بسبب عدم الموافقة له على ضمِّ بعض المناطق التي كانت خارج ولايته إليه، طامعًا بالمزيد من الإقطاعيات، وأعلن بيعة ابن عم والده الداعي القاسم بن المؤيد ضدَّ والده؛ الأمر الذي اضطرَّ الإمام المهدي أحمد أن يرسل إليه حملة عسكرية بقيادة أخيه علي بن أحمد بن الحسن لمحاربتَه وإخضاعه، وبعد مفاوضات بين الطرفين التقى والدَه وتَصالحا، وأطلق يد ابنه في الأوامر والنواهي، مضيِّقًا إليه بلاد حيس من تهامة، إلى جانب ما تحت يده من بلاد تعز، بعد أن كتب إلى والده مع عمه الحسين بن الحسن، أنهما ما داما قد بايعاه، وخطبا له، واعتمدا التُّقود التي ضَرَبها، فما عليه إلا أن يترك لهما بلادهما يتصرفان فيها كيفما شاء، دون تدخل منه.¹

وإلى جانب من تمرد عليه - أيضًا - القاسم بن المؤيد، ملقبًا نفسه بالمنصور، ومنافسًا إيَّاه على الإمامة في شهارة، طالبًا من الإمام أن يضمَّ إليه بلادَ عُذر إلى جانب ما تحت يده من بلاد الشرفين وحجَّة والظفير وكحلان عفار والسَّودة وظليمة والأهنوم..²

وبعد وفاة الإمام أحمد بن الحسن، ومع بداية إعلان الإمام مُجَّد بن المتوكل الذي لقب نفسه بالمؤيد، أعلن ثمانية أئمَّةٍ أحقيتهم بالإمامة، وهم: القاسم بن الإمام المؤيد في شهارة، ملقبًا نفسه بالمنصور، والحسين بن الحسن في رداق، ملقبًا نفسه بالواثق، وعلي بن الإمام المتوكل في إب ملقبًا نفسه بالناصر، والحسن بن الإمام المتوكل في تهامة، وعلي بن أحمد القاسم في صعدة، وعبد القادر بن الناصر بن عبد الرب في كوكبان، والسيد مُجَّد علي الغرباني، الذي قال بإمامته في "الزكاة والحقوق" فقط!

وعقب وفاة الإمام المؤيد بالله مُجَّد بن المتوكل إسماعيل، افتردت أجنحة الحكم المتصارعة إلى شلليات وجماعات، وقد استقلَّ كلُّ أميرٍ على منطقة بعينها، فكان إبراهيم بن المهدي مُستقلًّا بولاية ذمار، وأخوه إسحاق أميرًا مُستقلًّا على حبيش وذي السفال، وأخوهما الثالث مُجَّد بن المهدي متمركزًا في المنصورة من بلاد الحجرية. كما كان إلى جانبهم كلُّ من حسين بن علي المتوكل في إب والعدين، وحسين بن الحسن بن القاسم في رداق وما تلاها، وحسين بن مُجَّد بن أحمد بن القاسم كان

¹ - انظر اليمين في ظل حكم الإمام المهدي، سابق، 61.

² - نفسه، 156، فما بعدها..

واليًا على عمران وحاشد، وقاسم بن الإمام المؤيد على شهارة، وعلي بن أحمد بن القاسم على بلاد الشام. وكان كل واحد من هؤلاء أشبه بإمامٍ بنفسه.

ونتيجة لهذا التشطي فقد أعلن أكثر من إمام الإمامة لنفسه، سواء من آل القاسم أم من غيرهم، فأعلن مُجَّد بن أحمد صاحب المنصورة "المواهب لاحقًا" الإمامة ملقبًا نفسه بالناصر. وأعلن يوسف بن المتوكل الإمامة لنفسه في ضوران، مدعيًا أن الإمام المؤيد قد أوصى بالإمامة له وهو على فراش المرض، وأعلن الحسين بن مُجَّد بن أحمد بن القاسم الإمامة في عمران، وتلقب بالمتوكل، وأعلن علي بن أحمد بن القاسم الإمامة في صعدة، والحسين بن عبد القادر في كوكبان، والسيد علي بن الحسين الشامي الخولاني في خولان، والسيد عبدالله بن علي بن خالد في بلاد الشرف تحت شهارة. وظفر بها الإمام الناصر مُجَّد بن أحمد الذي عرف بصاحب المواهب لاحقًا، وقد عُرف قبلها بصاحب المنصورة، ودام حُكمه فيما بين 1097 - 1130هـ.

وعليه تدور الدائرة، فقد خرج عليه في حُكمه آخرون؛ إذ عارضه يوسف بن المتوكل سنة 1098هـ، ثم لحقه بعض من إخوته وأبناء أعمامه، والأعجب - وما ذلك بعجب عند هؤلاء - خروج ابنه عبدالله بن النَّاصر عليه، بعد أن أخضع له إِب وجبله، وكان طامعًا فيها، إلا أن والدَه عيَّن عليها أخاه إسماعيل، مما جعل الابن عبدالله يكتب يوسف بن المتوكل ويبيعه ضدَّ أبيه؛ بل لقد حاصره يومًا ما بعد ذلك مع آخرين، مطالبين إياه بالتنازل عن الإمامة بقوة السِّلاح، فأسره والدُه مع من أسر من الخارجين عليه، ثم كان التصالحُ والسَّيطرةُ على الوضع الذي بدأ بالتفكك. كما أعلن الحسين بن القاسم إمامته من شهارة، والخروج على الإمام الناصر، مستغلًا التذمر السائد في الأوساط العامَّة من سياسة الإمام الناصر

ومن الفوضى المثيرة للسُّخرية والغرابة، ما كان من أمر عمِّ الإمام الناصر "الحسين بن الحسن" فحينَ تَمرَدتْ قبائلُ يافع على الإمام، أعدَّ الإمامُ الناصر جيشًا كبيرًا مبالغًا فيه لحرب يافع، وعيَّن عليه عمَّه الحسن بن الحسين أميرًا على الجيش، وفي رداغ رأى أن العدد كبيرٌ، وما داموا تحت امرته فلم لا يقرُّ خلع ابن أخيه، معلنًا الإمامة له!!

وفعلًا.. كَانَ ذَلِكَ. فبدأ بتوجيه الجيش بالتمرد على الإمام الناصر؛ الأمر الذي جعل الإمام الناصر يجهز جيشًا آخر بقيادة أخيه المحسن لمواجهة عمه، فأضربت نيران الحرب، ودارت رحاها، حتى انتهى به الأمر أسيرًا سجينًا في قلعة كوكبان!¹

وذكر الدكتور العمري أن الإمام المنصور حسين بن القاسم، قد تحالف سنة 1139هـ مع علي بن قاسم الأحمر، رئيس حاشد، وناصر جزيلان رئيس بكيل وآخرين ضد أبيه القاسم بن الحسين في قصة طويلة، وقد خَلَفَ أباه الذي مات بصنعاء في نفس العام.² وإلى جانب من خرجوا على الإمام المنصور حسين بن المتوكل أخوه الأمير أحمد حاكم تعز يومها، وجرى بينهما أكثر من حرب، إلا أنه لم يستطع الانتصار عليه. ويُقال إن سلطان الحج يومها قد اهتبل الفرصة واستقل بمنطقة الحجرية من تعز ضمن سلطنته..

وخرج على الإمام المهدي عباس بن الإمام المنصور عقب توليه الإمامة مباشرة بعد وفاة أبيه، السيد أحمد بن محمد بن حسين شرف الدين، ت: 1181هـ، من كوكبان، ملقبًا نفسه بالمؤيد بالله، وأرسل الإمام المهدي إليه وفدًا مفاوضًا يدعوه للمبايعة والدخول في الطاعة، تاركًا له بلاد كوكبان، وأيضًا حفاش وملحان، إلا أنه رفض، معللًا ذلك بأنَّ دعوته لم تكن لأمرٍ دنيوي، فأرسل إليه المهدي جيشًا جرازًا عليه أحد عشر أميرًا، وأحاط الجيش بمدينة كوكبان، وهزم ابن شرف الدين، وأعلن بعد ذلك البيعة للإمام المهدي، ولم تدم هذه الاتفاقية طويلاً، ففي العام التالي، عادت الحرب من جديد، وأرسل المهدي جيشًا لإخضاع أمير كوكبان، وهزم مرة ثانية، داعيًا إلى الصلح مع الإمام من جديد والاعتراف به!

كما خرج على الإمام المهدي السَّاحِرُ أحمد المخطوري الحسني المكنى بأبي طير،³ والذي لقب نفسه بالمنصور، عام 1111هـ، وقد ادعى معرفته بالسِّحْرِ وعلومه، فتبعته جماعة من عامة القبائل، سُمُّوا بالمجاذيب، لانجذابهم إليه، وانتشروا في أرجاء البلاد، وخرَّبوا الكثير من الحصون والقلاع في بلاد حاشد وبكيل، وأخرجوا جنودَ أتباع الإمام المهدي، وسيطروا بعد ذلك على ميناء اللحية،

¹ - بهجة الزمن، 214، فما بعدها..

² - انظر: تاريخ اليمن الحديث، الدكتور حسين عبدالله العمري، ط: 1، 1984م، 147

³ - يتصل نسبه بالإمام القاسم بن علي العيَّاني، ولذا تعاضد القاسميون أجمعهم ضده، متناسين كل الخلافات التي كانت بينهم حينها.

ثم حرض، وبايعه أهلُ صعدة، فجهّز له المهدي جيشًا قوامه ثلاثين ألفًا، وأرسلَ مفاوضًا، في الوقت الذي كان السّاحرُ قد أقنع قبائل عسير القحطانيّة بالخروج معه، فخرجوا معه، ثم اختلفَ معهم، وقتله أحدُهم وأرسلوا برأسه للإمام المهدي!. وتذكر روايةٌ أخرى أنه تمّ إعدائه في باب المنصورة بصعدة، على يد علي بن أحمد من قبيلة سحار، وقد خاف هو وقبيلته من معرّة جيش الإمام المهدي ومداهمته لبلادهم، كما فعل في حجّة وحبور والشّرف، حيثُ نهبوا جميع ما فيه وقتلوا الأطفال واستباحوا النساء وسجنوا المشتبه فيهم، وكذا أخرب قرية المدائر في حبور، حتى خلت من سُكاتها بين قتيل ومُشرّد.¹

وذكر الواسعي في تاريخه أن "الغرامة" التي كلفت الإمام المهدي في حربه هذه وصلت إلى سبعين مليون ريال، وأنّ القتلى قد بلغوا من 12 رجب إلى شهر شوال عشرين ألف قتيل!² وللعلامة ابن إسحاق صولاتٌ وجولاتٌ في عمليّة الخروج على الإمام المنصور علي، وهي أكبرُ من أن تختزلها هذه العجالة؛ إذ خرج عليه مغاضبًا إلى أرحب، غضبًا لله ولأرحامه كما زعم، بعد وفاقٍ حميمٍ بينهما لخمس سنوات كاملة. ذكر لطف الله جحّاف أن أسبابَ هذا الخروج ودوافعه عدم إنصاف الإمام له من عامله على حيس من بلاد تهامة؛ حيثُ زاد في مقدار الضرائب المفروضة هناك على وكيل ابن إسحاق في تجارته!

وخرج له الإمامُ في جيشٍ إلى بني جرموز، ووقعت مصادماتٌ بينهما، إلا أن هذه الواقعة لم تحسم النتيجة لأحد. وأضاف لطف الله جحّاف: أن الإمامَ قد رأى مصالحته سياسيًا فأرسل إليه وفدًا من بلاطه إلى أرحب للتفاوض معه، فقبلَ ابنُ إسحاق المصالحةَ مشرطًا على الإمام "خيلاً وعبيدًا وجواري ودراهم تجري له كل شهر، ومصروفات لمن يعول تترًا، وكيالات، واستماع الشفاعات، والانفراد بوصاب وحيس، وليس للدولة إلا الكاتبُ كما كان العهدُ عليه مع الآباء، فأجابه الإمامُ إلى ذلك المرام، فاشترط آخرًا البقاء في أرحب، فأهمله الإمام وتركه في العناد"³

¹ - اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، 207.

² - تاريخ اليمن، الواسعي، سابق، 55.

³ - - درر نحور الحور العين، مصدر سابق، 273. وانظرها في البدر الطالع، 1/21.

وقد خاضَ الطرفان بعد ذلك جولاتٍ من الحربِ والمفاوضاتِ والرحيلِ حتى انتهى أمرُه بالوفاة عام 1220هـ. وتالت على الإمامِ الخروجاتُ الكثيرة من برط وخولان، حد حصاره في منزله، ولم يحرك ساكنًا..

وأرسل الإمامُ المنصور عام 1203هـ حملة عسكريّة، من القبائل التابعة له إلى منطقة العرش برداع، لمطاردة الشّيخ أحمد ابن حسين عون الله، ففر الشّيخُ وأتباعُه، الأمر الذي جعلَ أتباع الإمام المنصور يعملون على تدمير حصونٍ وقرى المنطقة كاملة، وكانت تسمى مدينة الخضراء وفيها من المعالم الأثرية الكثير يومها. كما خربتُ الحملةُ حصنَ الشرزة، وقرى بيت اللمع، وبيت الوزان، وحصن الخوذة فيما بين سنحان وخولان سابقًا، عقب تمرد أبو حليقة على الإمام الذي فرّ من حصنه، فقام الجنودُ بهدم الحصون والقرى لمدة عشرين يومًا.. كما أرسل - أيضًا - إلى عنس عقب تردها عليه، حملة أخرى فقامت الحملةُ بتدمير معقل وحصون وقرى عنس ورُصابة وغيرها من القرى، ثم عادتُ إلى صنعاء.¹

وقاد الأميرُ أحمد بن المنصور علي انقلابًا مدبرًا مع بعض أعوانه ضد والده، عام 1223هـ، فحاصره في دار الحكم وحاصر رجاله، وحصلتُ مناوشاتٌ كبيرة بين الأتباع، ولولا توسط الإمام الشوكاني لدى الإمام المنصور "الأب" لترك السُلطة لابنه لكانت حلت الكارثةُ بالجميع يومها، ففعل الأبُ واستمع لنصيحة الشوكاني. وأصبح الابنُ إمامًا بقوة الغلبة.²

وما هي إلا أيام قليلة حتى قام الأمير عبدالله بن المنصور أخو الإمام الجديد بمحاولة الانقلاب على أخيه، فأرسل جماعة من جنده للإطاحة بدار الإسعاد "دار الحكم" والتمركز في أماكن أخرى من المدينة، إلا أن الإمام أحمد تدارك الأمر، فصرف رجال أخيه، وتصلح معه. وبعد أيام تمرد عليه أخوه الآخر مُحمَّد، في ذمار، وحدثت مناوشاتٌ سيرة، استطاع الإمام بعدها استمالة القبائل التي في معسكر أخيه، وأقنعهم بضرورة التّصالح، واستدعى الإمام أخاه "محمدًا" وأعطاه ما

¹ - الأوضاع السياسية الداخلية لليمن، سابق، 114 فما بعدها.

² - خلال فترته أيضًا حاول الأمراء من بيت شرف الدين في كوكبان الاستقلال ببلاد كوكبان، مستعينين بالشريف حمود الذي وصلت قواته إلى كوكبان لمساعدة بيت شرف الدين، إلا أنه قمعهم وثبت الحكم له..

طلب من المال وتصالحا بعهود ومواثيق!¹، كما قام العديد من الانقلابات بعد ذلك ضده، في خولان وكوكبان ونهم وغيرها.²

وفي عهد الإمام المهدي عبدالله، خرج عليه عمه يحيى بن المنصور علي والتجأ بقبائل أرحب، وسار المهدي بجيش إلى أرحب وهزمها، وفرَّ منها عمه إلى تھامة.

وخرج عليه - أيضاً - السيد العالم أحمد بن علي السراجي، أحد أكبر علماء صنعاء، عقب قتل الإمام المهدي للفقير الشيخ محمد بن صالح السماوي، المعروف بابن حريوه حين انتقد سياسة المهدي، إلا أن القبائل التي ناصرته قد خائته وتفرقت من حوله.

ومن عجيب أمر الإمام علي بن المهدي عبدالله الذي خلف والده في الحكم أنه حكم وعزل أربع مرات في حياته، وغير لقبه ثلاث مرات أيضاً، وبلغ الجوع والمرض في عهده مبلغاً لم يُعرف من قبل، فقد كانت الجنائز التي تُخرج من أبواب صنعاء لا تقل عن مئة وخمسين جنازة في اليوم؛ بالإضافة إلى نحو ثلاثين ممن يموتون من الجوع.³

ومن خرج عليه - على الرغم من هذا السوء في الأوضاع العامّة - السيد قاسم بن منصور الذي غادر صنعاء مغاضباً إلى تعز التي اتخذها مقراً لدعوته وقدّ تلقب بالهادي. وأيضاً علي المنصور

¹ - تاريخ اليمن الحديث للعمري، سابق، 164.

² - قال عنه الواسعي في تاريخه: "... وقدّ ملأ بيتاً من الذهب والفضة، ومن جميع أنواع الملبوسات والأحجار النفيسة من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، ومن آلة السلاح ما يفوق على العد، ومن آلة الطب وعقارتها ما تعجز عنه الملوك، حتى إنه وصل إليه طبيب فاحتاج إلى ريش الذباب الأخضر، وهو من المستحيلات، فأعطاه المتوكل ملء إناء، وغير ذلك مما يطول ذكره، والمسك والعنبر والساعات ملء الصناديق، وجميع الذخائر والقماشات الغربية الوجود والخيل الكثير..." تاريخ اليمن للواسعي، 61.

³ - انظر تاريخ اليمن الحديث، العمري، 247. وانظر أيضاً: فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، د. حسين العمري، دار الفكر، دار الحكمة اليمانية، ط: 1986م، 11. وقدّ حدثت مجاعات مشابهة لها للناس في عهد الإمام يحيى أكثر من مرة، في الوقت الذي كان ينام على كنوز من الذهب والفضة وعلى مئات مخازن الحبوب، ولم يصرفها للناس، فكان ابنه الحسن يقوم بتصدير بعضها إلى الخارج لحسابه الشخصي وهي المحسوبة على بيت المال. وحين تقدّم إليه أحد الوجهاء بمذكرة شرح له فيها حالة الناس التي بلغت بهم حد الموت من الجوع، فأجاب: من عاش فهو عتيق، ومن مات فهو شهيد! كما أن هناك أجوبة أخرى تجري على لسان الناس من هذا القبيل تعكس مدى سادية ووحشية هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم ولاة وأوصياء على الشعب!

علي بن المهدي عبدالله من بيت المؤيد، وهو من تلاميذ العلامة السراجي وأتباعه، داعيًا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.¹

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين، وبينما كانت الخلافة العثمانية متواجدة في اليمن قام إلى جانبها أيضًا أكثر من إمام في وقت واحد، كلٌ منهم يدعي الإمامة لنفسه، جامعًا ما استطاع أن يجمع من الناس حوله، بالحق وبالباطل، فقد قام الإمام المحسن بن أحمد والإمام محمد بن عبدالله الوزير والإمام أحمد بن هاشم والإمام الهادي شرف الدين، داعين لأنفسهم بالإمامة. وقد تكلم عن هذه الواقعة العنيفة شعرًا، وبصورة ساخرة، الشاعر أحمد القارة، في قصيدة "شعبية" مطولة، نذكر بعضها منها. قال في مطلعها أولًا:

ضاعت الصعبة على الخلفاء خبط عشوا والسراج طفا

لا تصدق أن ثم وفا حسبنا.. لا إله إلا الله

حتى يقول:

والذي في "السر"² كان إمام قد نبع منها بغير كلام

وزحر زحرة بغير وحام ونزق.. لا إله إلا الله

¹ - ذكر المؤرخ الكبسي حال الدولة عشية تولي الإمام المهدي الإمامة بقوله: "لم يبق إلا المدخر في خزائن بيوت الأموال من آلة الحرب والذخائر. فكان ينفق منها ويعول عليها، وموارد البلاد انقطعت، وكان الجنود يهجمون عليه ويتسلطون في المطالب، ولم يكن له عليهم يد" الكبسي، اللطائف السنية، 303هـ.

² - السر منطقة ببني حشيش، مشهورة بجودة أعنابها، وبنو حشيش اسم لم يعرف إلا منذ عصر الإسلام، وهو اسم فارسي فر إليه أيام حركة قيس بن مكشوح المرادي فصاهرهم وانتسب إليهم، ثم سميت القرية باسمه بعد ذلك، وحين توسعت حملت معها نفس الاسم، وكان اسمها قبل ذلك بنو سخيم.

وابن شمس الحور¹ في "غُرْبَة"
 وخرج منها إلى الرحبة
 والإمام محسن إمام عظيم
 وهو في حصن الغراس مقيم
 وابن غالب أين جا وضوى؟
 ورجع ضل الطريق وغوى
 وابن شُوع الليل أين سنحت
 كودته هل مات أو نجحت؟
 وأمير المؤمنين معيـض
 شاربه قالوا طويل عريض
 كلهم قاموا بغير رُكـب³

قد دعا حتى جته الشحبة
 لا لشيء.. لا إله إلا الله
 بالخلافة والشروط عليم
 منتظر.. لا إله إلا الله
 قد وصل داخل برط وذوى
 لا رجوع.. لا إله إلا الله
 قدرة الله به؟ وأين درجت؟
 ساد.. لا إله إلا الله
 قد جعل فيها طرق وفريض
 مجعلي².. لا إله إلا الله
 من ملك رطلين نحاس ضرب

¹ - شمس الحور: بنت علي بن إسماعيل الشهرية، من فاضلات بلدة شهارة بحجة. وكانت من معاصرات الشاعر، أديبة وشاعرة، وواعظة فصيحة، اشتهرت بالعلم والأدب، وتوفيت عام 1298هـ. لها: كتاب "مواظ ووصايا" وقصيدة الريحانة: في التوحيد. تُرجم لها في هجر العلم في اليمن، وأعلام المؤلفين الزيدية. ولها واحدة من أطرف القصص العلمية؛ حيث كانت تُدَرِّس متن الأزهار في الفقه، وفيه في باب ما يرتكبه الحاج من المحظورات عبارة: "وفي تحرك الساكن والساكنة شاة" ويقال إن هذا الموقف كان سبب انقطاعها عن التدريس والوعظ لاحقاً؛ إذ دخل درسها أحد الهازلين، وسألها بخبث: قد عرفنا كيف يتحرك الساكن، فكيف تتحرك الساكنة؟ فأجابته بدهاء: كتحرك شفتيك!!

² - لقب يطلقه الإماميون على القبيلي من غير آل البيت..

³ - كناية عن ضعف الإمكانيات..

وقشاش.. لا إله إلا الله	والوقيد قالوا كُبا 1 وقصب
خلوا الدنيا ملان رهج	ورعايا ذا الزمان همج
عسبوا.. لا إله إلا الله	من دعاه "المام" 2 ضحك وزبج
كل يوم ناموسية وسجاف	فضحونا آل عبد مناف 3
ديولة.. لا إله إلا الله	وفرأش زوجين بساط ولحاف
عاونوا إبليس حين سها	شيطنة قامت من الفقهاء
مفجعين.. لا إله إلا الله 4	دخلوا للشيطنة بدهاء

وما حال هؤلاء إلا كحال ممالك الأندلس أثناء تَسَاقُطِهَا، وصَوَّرَهَا الشَّاعِرُ ابنُ أَبِي شَرْفٍ، قَائِلًا:

أسماء معتمد فيها ومعتضد	ما يزهدني في أرض أندلس
كاهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد	ألقاب مملكة في غير موضعها

وفي شهر ربيع الأول من العام 1256 هـ خرج الشَّيْعَةُ الإِسْمَاعِيلِيون في همدان على الإمام الناصر عبدالله بن الحسن، وقتلوه في كمين غادر في وادي ضهر، غرب صنعاء.

وخرج مُجَّد بن يحيى على الإمام علي بن المهدي عبدالله، بعد أن تقدم من رِيْمَةَ إلى آنس بخمسة عشر ألف مُقاتل، ومدعومًا من الشريف حسين بن علي حيدر،¹ واعترك جيشه بجيش

¹ - مخلّفات الأبقار، يُقرص ويجفف، وكان يستخدمه الأوائل في الوقود والتدفئة.

² - تخفيف كلمة الإمام.

³ - يقصد بهم الأئمة المتصارعين من آل البيت.

⁴ - في العام 1969م، وإبان تدهور الوضع في اليمن، وسقوط مدينة صَعْدَةَ بيد الملكيين، عارض هذه القصيدة الشَّاعِرُ محمد الذهباني بقصيدة أخرى، قال في مطلعها: سقطت صَعْدَةَ علي العمداء بعدما سالت دماء الشهداء والشيوخ والجيش والعداء لا إله إلا الله

المهدي علي في قرية ضَاف، ثم خِدار، خارجَ صَنعاء، ولم تحسم المعركةُ النصرَ لأحد، إلا أن المهدي اضْطُرَّ للتنازل لمحمد بن يحيى الملقب بالمتوكل عام 1261هـ.

وعلى الرغم من المكر السِّياسِي الذي تميز به الإمامُ مُحَمَّد بن يحيى، فإنه قد أقدم قبيل انتهاء فترة إمامته، في العام 1265هـ على تسهيل عمليَّة دُخول الأتراك إلى صَنعاء، فقد نزلَ إلى تھامة على رأسِ وفدٍ من كبار مقرَّبِيه وحاشِيته، ومعه الهدايا الثمينة لهم، والتقى توفيق باشا، والي الحجاز يومها، والشريف مُحَمَّد بن عون "شريف مكة" وأيضًا الشَّريف حسين بن علي حيدر، كما تذكر بعض المصادر، واتفقوا على أن يكون الإمامُ تابعًا للباب العالي في تركيا. وأن يتم تقسيم عائدات البلاد إلى قسمين، نصفٌ يدفعه لخزانة الباب العالي، ونصف تحت تصرُّفه، ينفقه على المصالح العامة. ووضع حامية تركية في صَنعاء بعددِ ألف جندي من القوات النِّظامية. ورابع هذه النقاط أن يحتفظ الإمام بمصرفاته الشَّخصية، وكان مبلغًا وقدره سبعة وثلاثين ألف دولار شهريًا، تُخصم من العائدات قبل قسْمتها.²

وقبل ذلك كانت قد بدأت الاضطرابات والخروجات عليه؛ حيثُ خرج عليه أولًا أبناء ريمة، وحاصروا عامله الحاج عبدالله الحبابي عليها، فذهب بنفسه إليها وفك عنه الحصارَ وعيّن خلعًا له القاضي أحمد بن حسين العنسي، وكذا أهالي زيد بتهامة فقد حاصروه حصارًا شديدًا هناك.

وخرج عليه - أيضًا - رفيقه السَّابق وأحدُ أقربائه الأمير حسين بن المتوكل في ذمار، ودعا لنفسه بالإمامة، ولقَّب نفسه بالهادي، وتقدم لحصار ذمار، عام 1264هـ إلا أن أغلب من كانوا معه قد تفرقوا عنه، وقد حبسه الإمام بعد ذلك في صَنعاء! كما صحب معه النقيب أحمد ثوابه الذي تمرد عليه بعد اتفاق بينهما على أن يُقطعه عمالة يريم.. ولم تدم له حياةٌ طويلة؛ إذ قام المهدي علي في ولايته الثالثة بسجن آل المتوكل جميعًا في صَنعاء ومصادرة أموالهم لبيت المال، وإعدام الإمام

¹ - كان الشَّريف حسين طموحًا لأن يقوم بإجلاء البريطانيين من عدن، إلا أن ذلك غير ممكن بالنسبة له وحده من إقليم عسير ما لم يتحالف معه الإمام في صَنعاء، وقد حاول إقناع الإمام المهدي إلا أنه لم يتفاعل معه، الأمر الذي جعله يساعد أقرب الخارجين عليه لتنفيذ مشروعه الوطني لاحقًا، فكان محمد بن يحيى أقرب من ارتآه، إلا أن ذلك ما لم يكن، فقد خذله الإمام الجديد أيضًا في مشروعه الوطني.

² - الأوضاع السياسية الداخلية لليمن في النصف الأول من القرن التاسع عشر، صادق محمد الصفواني، وزارة الثقافة والسياحة، ط: 1، 2004م، 253. وقد ذكر الباحث أن الإمام نزل إلى الحديدة بطلب من توفيق باشا وابن عون، للتفاوض معه، كما أشار إلى رسالة للشريف محمد بن عون إلى السلطان العثماني؛ ذكرت أن المبلغ الذي تم تخصيصه للإمام هو مئة وخمسة وأربعون ألف ريال فرانصي سنويًا، مشيرًا إلى أن صرفه يقترب من صرف الدولار يومها..

المتوكل يوم 24 محرم عام 1266هـ في السجن، ولكن؛ ما هي إلا أشهرٌ قليلةً وتمَّ خلعُ الإمامِ علي بن المهدي نفسه، بسبب قيامِ إمامٍ آخر منافسٍ له، هو المنصور أحمد بن هاشم الويسي، الذي لم يدمَ حكمه عدا أشهرًا قليلةً فقط، لتدخلَ البلادُ أزمةً خانقةً جديدةً مع وجود الأتراك في حملتهم الثانية آنذاك، وعقبها عاد الإمامُ علي بن المهدي إمامًا من جديد للمرة الرابعة؛ فخرج بعد أشهرٍ لتفقد أحوال يريم؛ فاهتبل الفرصةَ عليه ابنُ عمه غالب بن مُجَّد بن يحيى المتوكل، مدعيًا الإمامةَ لنفسه، وملقبًا نفسه بالهادي! وقد عيَّن على صنّعاء وكيلًا له فيها السيد أحمد بن عبدالله "شوع الليل" من آل أبي طالب من الروضة، فرغب الأخيرُ في الإمامة! فأعلن نفسه إمامًا، ولم تتجاوز إمامته على الروضة فقط!! وظهر إلى جانبه أئمة آخرون، ثم مشايخ قبائل، آلت إليهم السُّلطة في صنّعاء، أفضى الأمر في النهاية إلى استدعاء العثمانيين للحكم فيها من قبل البعض، وفعلاً دخلها العثمانيون سنة 1289هـ، وقد كانت مدينة صنّعاء تحت إمرة شخصٍ آخر هو الحاج أحمد بن أحمد الحيمي، واتخذ لنفسه لقب "عاقل صنّعاء" فقط!! وبدوره هذا فقد استبدَّ بالناس استبدادًا كبيرًا، وعات في المدينة فسادًا، وخرَّب كثيرًا من دُور صنّعاء التاريخية، وتم خلعه من قبل أهل صنّعاء، فقام بتحشيد القبائل وتحريرها على نهب صنّعاء بعد أن حاصرها، إلا أنه فشل في نهبها وتدميرها، فالتجأ إلى الأتراك في تهامة، لاستقدامهم إلى صنّعاء، تأثرًا له من أهلها؛ إلا أنه وقع أسيرًا وهو في الطريق إليها من قبل إمام جديد لم يُسمع به بعد!! وهو الهادي حسين بن مُجَّد الهادي في الطويلة بالحويت، فعاد به إلى صنّعاء وأودعه السجن، وبقي فيه حتى مات!!¹

¹ - في قصة الإمام محمد بن يحيى مع المهدي من غرائب السِّياسة ومواقفها ما يستدعي التأمل فيها كثيرًا، إذ لم يكن الإمام المهدي يخطر على باله أنه سيعود للحكم يومًا ما بعد الإمام محمد بن يحيى الذي غلبه في موقعة نقيل يسلمح، فحين قام الإمام محمد بن يحيى بالتعاون مع الأتراك في حملتهم الثانية وإدخالهم إلى صنّعاء وتسهيل الأمور لهم، وفي غمرة الفوضى والمشاكل التي عمت صنّعاء ليلة 6 رمضان 1265هـ وبعد أن وقعت معركة طاحنة راح ضحيتها ما يزيد على مئة قتيل، ثار عليه الناس وحاصروه في داره حتى انتهى به الأمر سجينًا في دار الحكم، باعتباره خانئًا للوطن. في هذه الحالة لم يكن من حل عاجل إلا أن يعود الإمام السابق "المهدي" إلى الحكم لبيدًا جولة جديدة من الحكم ويتفاوض مع الأتراك من أجل الخروج، وفعلاً خرجوا يوم العيد بعد ثلاثة أسابيع على دخولهم صنّعاء، متجهين إلى تهامة تاركين صنّعاء للإمام فقط. وحين خرج الأتراك بدأت الفوضى من جديد وخرج الإمام الويسي من صنّعاء على الإمام الهادي "المهدي سابقًا" وخشي الهادي من أن يتحالف الإمام السابق المتوكل وأسرته مع الإمام الجديد الويسي فقرر قطع رأس الإمام محمد بن يحيى في السجن يوم 24 محرم 1266هـ. وخلع نفسه أو خلع للمرة الثالثة من الإمامة. وقد كان هذا أول رأس يُقطع من آل القاسم بأمر سياسي من داخل الأسرة نفسها، وكان آخرها أمر الإمام أحمد قطع رأس أخيه عبدالله عقب فشل انقلاب 1955م الشهير. ومن أغرب وأعجب الأمور أيضًا أن الإمام المهدي قد عاد للحكم للمرة الرابعة! فبعد أن تنازل أو خلع نفسه للإمام الويسي الذي لم يتمكن من الإمامة، إذ قام إمام آخر هو السيد عباس بن عبد الرحمن بن محمد الحسيني الشهاري، وتمت مبايعته في رجب 1266هـ، وقد تلقب بالمؤيد، لكن لم تدم =إمامته

ودعا الإمام يحيى لنفسه في العام 1904م، بعد وفاة والده، وهو وإن كان عالماً مجتهداً في علوم الفقه والشريعة بشكل عام؛ إلا أنه غير مُستوف الشَّرط حسب نُصوص المذهب، كونه بخيلاً، مشهوراً بالشُّح، وقد كان يدرك ذلك؛ فلما اجتمع العلماء للتداول وانتخاب إمام "أغلق على المجتمعين باب غرفة الاجتماع، وترك الشَّيخ ناصر مبخوت الأحمر حارساً عليها، فلما سمعهم الحارس يتداولون الرأي في انتخاب الإمام يحيى أو انتخاب غيره، هاجم الاجتماع وهُدِّدَهم بالقتل وقال: "مايش" إمام غير سيدي يحيى.."¹ وثمة روايات أخرى، قريبة من هذه الرواية، ذكرها الأكوع في كتابه هجر العلم وغيره..²

ولم يكن الإمام يحيى أول إمام أكره الناس على البيعة له، فقد فعلها قبله الأُميرُ أحمد بن الحسن والي الإمام المتوكل على الله إسماعيل على صنعاء؛ حيث دخلها عنوة بعد حصارٍ وحرب، وكانت تحت إمامة أحمد بن القاسم، فلما سَيَّطر هو لصالح عمه المتوكل إسماعيل، أُجبرَ كلاً من القاضي سعد الدين المسوري، والقاضي إبراهيم السحولي - والأخيرُ خطيبُ الجامع الكبير يومها - على البيعة بالإكراه للإمام المتوكل على الله إسماعيل وحوّل الخطبة له، وقد كانت لأخيه قبل ذلك.

وكانت هذه هي المخالفة الأولى لشروط المذهب بالنسبة للإمام يحيى، فيما كانت الثانية الرضا الضمني عما شاع أو سعى إليه البعض من تعيين ابنه أحمد ولياً للعهد، صحيح أنه لم يصدر

إلا - تسعة أشهر وسبعة عشر يوماً فقط! فقد قام إمام آخر بالخروج عليه والدعوة لنفسه هو الإمام أحمد بن هاشم الذي اضطر الشهاري أن يتنازل له، وبقي الأخير إماماً لأشهر قليلة فقط، والفوضى لم تسكن، فعاد الناس للإمام المهدي ليعود للحكم للمرة الرابعة في ربيع الآخر 1267 هـ ليقوم بدور المنقذ أو الإطفائي؛ لكن لفترة لم تزد على ستة أشهر فقط. انظر في هذا: فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، الدكتور حسين بن عبدالله العمري، 34 فما بعدها..

¹ - هجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط: 1، 1995م. 3/1700. وأيضاً: تكوين اليمن الحديث، سيد مصطفى سالم، ط: 4، 1993م، 72. وانظر أيضاً: مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني، 58، وكلمة "مايش" هنا تعني لا يوجد.

² - من المفارقات العجيبة في علم الإمام يحيى وسياسة الكيل بمكيالين التي يتبعها السياسة عادة أن أولاده - ما عدا الحسن - كانوا مولعين بالشرب كثيراً، "سمعتُ شهادات بذلك لمعمرين لا يزالون أحياء إلى اليوم، وأيضاً ذكر ذلك الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه مغامرات مصري في مجاهل اليمن، ص 64. بل لقد ذكر ما هو أكثر من ذلك، وكم تمنيت ألا يذكرها!!" وقد حاجبه بعض فقهاء عصره على فعل أولاده، فرد عليهم: "الشريعة على الظاهر والله يتولى السرائر" فأحرجوه أكثر حين ذكروا له أنه جلد مواطنين آخرين غير أولاده، ولما عرف قصدهم عاد للجدل معهم وقال: إن الشريعة لا تنص بحد على شارب الخمر! فاحتجوا عليه بفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرد عليهم: إن فعل الصحابي ليس بحجة، إنما الحجة آيات الكتاب وأفعال النبي وأقواله وتقاريره. والعجيب هنا أنه استغور أحكام الشريعة باحثاً عن مخرج له، لكن فيما يتعلق بأحقيته الشَّرعية "الوهمية" في الولاية لن يعدم عشرات الأدلة الوهمية أيضاً من كتاب وسنة وقياسات على انعدامها جميعاً...!!

"فرمانا" رسميًا بذلك، إلا أن الشائعة قد أخذت مجرى الحقيقة، في الوقت الذي لم يقم بنفيها، وتعامل معها بحذر وذكاء؛ إذ عيّن نجله أحمد في مناصبٍ رسميَّةٍ في قيادة الجند وإمارة الألوية..
وثالث المخالفات التي تُعتبر جوهرية في المذهب، تلقيب نفسه ملكًا، واليمن مملكة، في بعض العقود الرسميَّة، وقد أثارَت عليه ردودُ أفعالٍ غاضبةٍ من قبل بعض كبار الزيدية يومها الطامحين للإمامة من بعده.¹

ولذا فخلال فترة حُكمه نافسه على الإمامة الحسن بن يحيى الضحياي، الذي ألحق الإمام به الهزيمة، وحاصره في صعدة حتى توفي فيها عام 1924م. وقد كان أكبرَ علمًا منه، فكان علمه سرَّ تخوف الإمام منه. كما سجَن منافسًا آخر كان طموحًا للإمامة في عهده هو مُجدِّ بن إبراهيم المؤيدي ثلاثين عامًا متتالية، بسبب شعبيته الكبيرة في صعدة ونفوذها فيها.²
كما نافسه أيضًا السيد يحيى شيبان في حجة، وهو أحد رفاقه السابقين، وممن عملوا معًا إبان الحكم التركي في مجال الأوقاف والزكوات، وخاضَ معه جدلًا كبيرًا، إلا أن الإمام استطاع السيطرة عليه، وإدخاله السجن حتى مات.

وخرج عليه - أيضًا - نجله السيف إبراهيم معلنًا انضمامه إلى الثوار الأحرار في عدن عام 46م، ثم لحقه بالخروج أخوه علي، ونظم قصيدة في والده منها:

بني وطني إلى كم نحن نشقى وأنتم في المضاجع راقدون؟
وهذا المستبد الغر "يحيى" عدو الله يظلمكم سنينا!

وقد تعددت الانتفاضات والحركات في عهد الإمام يحيى³ بصورة متلاحقة خلال فترة حكمه؛ إذ قامت تمردات وانتفاضات بعضها يحمل صبغة العشائرية، كتمرد مُجدِّ بن علي بن أحمد

¹ - استخدم لقب ملك لأول مرة في المعاهدة التي وقعها مع إيطاليا في سبتمبر 1926م.
² - انظر: حياة الأمير على الوزير، أحمد بن محمد الوزير، منشورات العصر الحديث، 1987م، 383.
³ - تفاصيل هذه الانتفاضات ماثورة في أكثر من مرجع، مثل تاريخ الشماحي، ونزهة النظر لزبارة، واليمن الجمهوري للبردوني، أما ما يتعلق بانتفاضة ريمة عام 1920م، فلم أجدها إلا في كتاب كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، للمؤرخ عبد الكريم مطهر؛ لكنها مروية بصيغة أخرى على طريقة كُتاب السير للأئمة، باعتبارها حركة "بُغاة" قضى عليها المجاهدون، أتباع الإمام! كما قضوا على الجبهة الأخرى هناك وفيهم من رجال الحداد من دمار، وقد ذكرها المؤرخ حيدر علي ناجي العزي في بحث غير مطبوع له.

الوزير عليه في خولان، سنة 1922هـ، وقد كان عامله في خولان يومها، وبعضها أشبه ما يكون بالانتفاضات الشعبيّة، كانتفاضة حاشد ومعها حجة، فالمقاطرة، والحداء، وصعفان في حراز، والبيضاء، وبيت الفقيه بتهامه، وريمّة، حتى انتهى به الأمر صريّعا، في حادثة اغتيال شهيرة في منطقة حريز، وهو يتفقد أملاكه الخاصّة هناك، لتقوم ثورة 1948م الدستورية عقب مصرعه التي نصّبت عبدالله بن أحمد بن الوزير إماما دستوريا، دامت إمامته ثلاثة أسابيع فقط؛ انقلب نجلُ الإمام السابق عليه، واستولى على الحكم، ثم قتل ابن الوزير وآخرين، على ذمّة الثورة.¹

وفي مُنتصفِ فترة حُكم الإمام أحمد 1948 - 1962م الذي أعقب أباه، خرج عليه أخواه عبد الله والعباس، في انقلاب مدعوم شعبيا ضده، إلا أن الانقلاب لم ينجح، وظفر بهما الإمام وقتلهما في العام 1955م. كما احتدم الصِّراعُ بين الحسن أخي الإمام وابن أخيه مُحمَّد البدر على وراثته الإمامة بعد الإمام أحمد، ودخلا في صراعٍ قويٍّ نهاية الخمسينيّات من القرن الماضي، واستمرَّ حتى بعد الثَّورة التي أتت على حُكمهم ونظامهم جميعًا من قواعده؛ بل نظام الإمامة بأجمعها، فانهى الحال بالإمام أحمد مقعدًا عقب حادثة محاولة اغتيال اللقية والعلفي له في الحديدة عام 1961م؛ حيثُ أمضى بقية عمره بعد هذه الحادثة شبه كسيح، وعاجزًا عن الحركة، حتى توفي في 19 سبتمبر 1962م. وورثه ابنه مُحمَّد البدر لفترة لم تزد على أسبوعٍ واحد، انتهى به الحال طريداً شريداً بقيام ثورة السّادس والعشرين من سبتمبر، عام 1962م. فآرا بجلده من قصر البشائر، خوفاً من غضبِ الثوار، ومتنكراً في رداء امرأة، متجهاً نحو همدان، ومنها إلى عمران فحجة..

والحقيقة أنّ آل بيت حميد الدين قد أساءوا من خلال حُكمهم إساءاتٍ بالغة لكل الأُسَر الهاشميّة من قبلهم ومن بعدهم، وشوّهوا بعض الملامح الإيجابية التي وُجدت خلال فتر حُكم الإمامة

¹ - روى الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه المشار إليه سابقاً ما اعتبره الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح واحداً من أسرار ثورة 1948م الدستورية، ومن أغرب أسرار الطغاة، وقدرتهم على التضحية بأقرب المقربين في سبيل تحقيق مطامعهم الشخصية، وهو أن السيف أحمد وقتها قد عمل بكل الوسائل على الإطاحة بوالده من أجل اغتصاب الحكم بعده، وقد تكلأ في الوصول إلى صنعاء على الرغم من علمه بمخطط الثوار، ليجعل من قتل الثوار لأبيه قميص عثمان، وهو عين ما حدث. ولهذا فقد قرر الثوار اغتيال السيف أحمد مع والده في وقت واحد للتخلص منهما معاً، وحدث لهما ما حدث لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه وعمرو بن العاص حينما نجّاه نومه من القتل، ذلك أن أحد المُقربين إليه قد تعهّد للثوار بقتله، وفي اليوم المعين نام الإمام أحمد نوماً عميقاً، بعد أن أغلق حجرته برتاج سمين، ولم يستيقظ إلا على خبر مقتل أبيه، فنجا من القتل بأعجوبة، ومن المدهش أن الشخص الذي كُلف بقتله بقي من أقرب المقربين إليه! ص 155.

كاملًا؛ بل أساءت لليمن واليمنيين أجمع، وجعلت الناس لا ينظرون إلى الإمامة إلا من خلاهم، مع أن بعض الأسر الإمامية هي أسوأ منهم، في الوقت الذي وجد أئمة آخرون أقل منهم وحشية، وإن كانوا ثلة قليلة وسط هذا الركام من الوحشية والتخلف؛ ولذا فقد كانت غضبة الشعب منهم زافرة وقد بلغت ذروتها، واتخذت منهم، ومن طبيعة هذا الحكم موقفًا نهائيًا حتى قيام الساعة.

ويستعرض طرفًا من هذا الصراع المحموم بين الأئمة وأقاربهم العلامة صارم الدين بن الوزير، ت: 914هـ، بقوله: ". المختار بن الناصر وعمه الحسن بن الهادي، تعارضًا وحربًا بينهما صعدة القديمة خرابًا مستمرًا إلى الآن. ثم يوسف الداعي، والقاسم بن علي عليهما السلام تعارضا، وجرى بينهما ما هو مذكور في سيرة الإمام القاسم. ثم الحسين بن القاسم بن علي، ومُجَّد الحسين بن القاسم الزيدي، جد السيد العلامة صلاح الدين عبدالله بن يحيى بن المهدي رحمهما الله تعالى، وكانت بينهما ملحمة كبرى بقاع صنعاء، قتل فيها ابن الزيدي وخلق كثير معه. ثم الأمير عماد الدين يحيى بن أحمد بن سليمان عارض الإمام المنصور على سبيل الاحتساب، ثم عارضه بعده الأمير الكبير مُجَّد بن منصور بن المفضل، وتكنى بالمهدي، وهو المعروف بالمشرقي، وكان من علماء العترة. ولالإمام الناصر مُجَّد بن علي - عليهم السلام - فيه كلام جميل، وثناء عريض طويل، ثم الإمام الداعي يحيى بن الحسن، عارضه الأمير مُجَّد بن المنصور محتسبًا، وجنح إليه شيعة الظاهر برمتهم. ولقد حكى الداعي في بعض رسائله في معرض التجرم من الفقيه الشهيد حميد المحلي رحمه الله تعالى، أنه كان إذا سُئل عنه قال: ليس فيه من شروط الإمامة إلا الذكورة، بعد أن كان يقول لا أعلم في العترة من يصلح لهذا الأمر إلا الداعي. ثم الإمام المهدي أحمد بن الحسين عليه السلام، عارضه الحسن بن وهاس، وكان من عيون علماء العترة، وتابعه خلق كثير من العلماء. ثم إن الإمام المنصور بالله الحسن بن مُجَّد عارض الحسن بن وهاس، وقال به جمهور الناس، كصنوه الأمير الحسين، وعبدالله بن زَيْد ومُجَّد بن معرف. ثم الإمام إبراهيم بن أحمد، والإمام المطهر بن يحيى، وولده الإمام مُجَّد بن المطهر عليهم السلام، وهؤلاء الثلاثة لم يُسمع لهم بداع معارض، إلا أن شيعة الظاهر لم يحفلوا بدعوتهم رأسًا، ولا رأوهم لها ناسًا، ولا رفعوا إليها رأسًا، وكان يصدر منهم التهجين والاستحقار ما لا يحسن ذكره، ولا ينبغي صدوره من عاقل. ثم الإمام يحيى بن حمزة، وكان بعد وفاة

الإمام علي بن صلاح، ويُقال إن ابن أبي الفتح كان أفقه أهل زمانه. ثم الإمام المهدي علي بن مُجَّد عارض ابن أبي الفتح. ثم الإمام الناصر مُجَّد بن علي، عارضه السيد مُجَّد بن علي بن وهاس¹ وهذه صورةٌ أخرى يعرضها علينا صاحب كتاب "روح الروح"، وهو يتحدث عن سنة إحدى وتسعمئة: "ودخلت هذه السنة والدنيا شعوبٌ وقبائل، وسيوفٌ وعواسل، ومقتولٌ وقاتل. وكانت التهايم واليمن وزبيد وعدن ولحج وأبين إلى رداع وجبن تحت سلطنة السلطان عامر بن عبد الوهاب، وصنعاء ومخاليقها تحت سلطنة مُجَّد بن الإمام الناصر، وكوكبان وما إليه تحت أولاد المطهر بن سليمان، والشرف والظواهر وصعدة وما إليها متفرقة بين آل المؤيد والأشراف آل منصور والإمام مُجَّد بن علي السراجي الوشلي.."²

هذا غيضٌ من فيض سلسلة الانقلابات والثورات التي كان يقوم بها الأئمة وولاؤهم على بعضهم البعض، ووقودها هو الشعب وأبناء القبائل الذين عادة ما ينقسمون فريقين، ما بين مؤيدٍ لهذا ومعارضٍ لذلك، لينتهي بهم الأمر قتلًا بلا سبب، غير سبب الصِّراعات التي يديرها الأئمة فيما بينهم؛ لأن الأئمة نادرًا ما كانوا يقاتلون بأقربائهم القبائل أو الجماعات الخارجة عليهم، بقدر ما كانوا يجعلون على رأس حملاتهم الحربيّة رؤوسًا منها يقتل بعضها بعضًا. وقد اتخذوا القيادات المحليّة لإمارات الحروب وسادات التصالح، اجتنابًا لطموح ذويهم الذين كانوا ينفردون بحكم المنطقة التي يُخضعونها أو يقيمون فيها، كما فعل "مهدي المواهب" مع "مهدي شهارة" فقلما حارب إمامٌ بذويه؛ لهذا اتخذ الأئمة وزراءهم وقادة أكثر حروبهم من غير ذويهم، ولم يمنع هذا من مزيدٍ الخارجين تحت مبدأ الخروج على الظالم، ولو من الآل، وذلك لتعدد عوائل الحاكمين وفروعها، ولشعور كل بيتٍ بأحقّيته واستيفائه الشُّروط المكتسبة شخصيًّا.."³

ولعل كل تلك الصِّراعات السِّياسيّة المحمومة، وما نتج عنها من دمارٍ مهولٍ وكوارثٍ مُرعبةٍ في مُقدّرات الشعب اليمني وتاريخه الحضاري العريق، هو ما دفع المؤرخ والأديب أحمد مُجَّد الشامي -

¹ - انظر: حوار في الإمامة بين الإمام عز الدين بن الحسن والعلامة عبدالله بن محمد النجدي والعلامة علي بن محمد البكري والعلامة صارم الدين ابراهيم الوزير، جمع وتحقيق: محمد يحيى عزان، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، ط 1، 2003، ص 187.

² -- روح الروح، سابق، 11.

³ - اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، د. د. ط: 1، 1983م، 31.

وهو أحد أعلام الزيدية الكبار - بقوله: "ولعل من واجبي، لا كمؤرخ؛ بل كناصح يتحرى الصواب أن أفصح عن وجهة نظرٍ اقتنعتُ بها منذ أمدٍ بعيد، وأشرتُ إليها مرارًا في بعض كتبي وأشعاري، وفحواها أنه لا خير لمن حرمت عليهم الزكاة من أهل البيت في الولاية العامة؛ بله الاستئثار بها واحتكارها. ولم أتوصل إلى قناعتي بأن الأجدى لهم والأخلق بهم الابتعاد عنها والزهد فيها، بكل صورها وأشكالها وأسمائها. ولاسيما إذا كان لن يصل إليها من يطمع فيها إلا شاهرًا سيفه - إلا بعد دراسة لأسباب ومسببات المآسي والكوارث التي حلت باليمنيين خلال أحد عشر قرنًا.. ولو لم يكن من تلك المآسي إلا الصراع المرير الذي نشب عدة مرات قديمًا وحديثًا بين ورثة النظرية، والذي رأينا فيه وشاهدنا كيف يقتل الأخ أخاه، وكان من نتائجه التناحر بين أولاد العم، وذوي القرى، وأبناء الأسرة الواحدة من آل الهادي أو العياني أو السليمانيين أو الحمزات، إلى آل شرف الدين والقاسم، وأخيرًا آل الوزير وحيد الدين لاكتفينا بذلك عبرة وعظة"¹

وإلى هذه الفكرة أشار أبو الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري في كتابه "الإمامة وخطرها على وحدة اليمن"، تحت عنوان، خطر الإمامة على الهاشميين أنفسهم، بقوله: "فما من خطرٍ يهدد الهاشميين في الحاضر والمستقبل كخطر الإمامة، فكلُّ إمام ينهض في عائلة هاشمية واحدة، ويلوح له أن خصومه ومنافسيه إنما هم الرجال البارزون في العائلات الهاشمية الأخرى، فيتجه أول ما يتجه للتخلص منهم قبل غيرهم."²

ومن عجائبٍ وغرائبٍ هذه النظرية "نظرية البطين" أنها أجازت إقامة أكثر من إمامٍ في وقتٍ واحد. صحيح أنهم برروا ذلك بمبرراتٍ نظرية معقولة، منها تباعد الأماكن، والكفاءة وغير ذلك؛ لكن ما حصل على الصعيد العملي غير ذلك؛ حيث قام أكثر من إمامٍ في وقتٍ واحد وفي أماكن متقاربة، لأنَّ مسألة القرب والبعد هي مسألة نسبية أصلاً، وما يكون قريباً عند فلان قد يكون بعيداً عن علان، والعكس - أيضاً - صحيح، وبدا الأمر كما في قول الشاعر:

**وتفرقوا شيعاً فكلُّ قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر!**

¹ - تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، سابق، 1/121. ومما يجب التنويه له هنا أن العلامة الأديب أحمد بن محمد التمامي الذي نتكلم عنه هو غير العلامة أحمد محمد التمامي أمين عام حزب الحق السابق، رحمهما الله.
² - الإمامة وخطرها على وحدة اليمن، محمد محمود الزبيري، وزارة الثقافة والسياحة، 2004م، د. ط. 25.

والواقع أن هذه المسألة الجديدة - قيام أكثر من إمامٍ في وقتٍ واحد - ما هي إلا حل وسطٌ إذا ما اشتجرَ أولادُ الأعمام من نفس السُّلالة فقط، أمّا إذا قام آخرٌ من غير السُّلالة أو العرق فالأمرُ محرّمٌ عليه أصلاً، سواء تناءت الأمكنة أم تقاربت، وسواء كان كفوًا لذلك أم لم يكن؛ فالقبيلة - بطبيعتها تركيبها - ضمانةٌ أكيدة لأي إمامٍ طمحٍ للحكم ووثقَ علاقته بها، وما عدا ذلك فمجرد تفاصيل..

وقد أفتى الإمام الهادي بعدم جواز أكثر من إمامٍ في وقتٍ واحد، وكان الخليفة العبّاسيَّة لم تكن يومها قائمةً في بغداد، وعمّالها في اليمن! فقد قال حين سئل عن خروج إمامين في وقت واحد: "الأمر لأفضلهم فضلاً، وأبرعهم علمًا، فإن قلت قد استتوا في ذلك، فلن يستتوا، ولن يشتبهوا عند من جعل الله له لبًا وتمييزًا وفهْمًا.."¹

وأجاز ذلك الإمام القاسم بن علي العياني، ولكن قبل أن يتولى الإمامة؛ أمّا بعد أن ولي الإمامة فقد حرّم ذلك، وحارب من خرج عليه!

أمّا الإمام يحيى بن حمزة، وهو من علماء وأئمة الزيدية المتأخرين، فقد أجاز إقامة أكثر من إمامٍ إذا تناءت الديار .. فأما مع التباعد في الأوطان والأقاليم فلا مانع منه"²

وللعلم فالهادي قد أجاز، بل أوجب على نفسه الخروج على الخليفة الحاكم في عصره، مؤكّدًا أنه جهادٌ في سبيل الله، في الوقت الذي حرّم الخروج عليه من الآخرين، في أغرب صورة متناقضة، لا تفسير لها إلا سياسة الكيل بمكيالين التي تتسمُّ بها نظريته السياسيّة. قال: "ولو لم أكن في هذا الأمر لم يمنعني ترك الفكر في هذا الأمر حتى ناظرْتُ نفسي فيه طويلاً، فما وجدت إلا الخروج أو الكفر بما أنزل على مُحَمَّدٍ ﷺ" مشيرًا إلى أحقيّته في الحكم بيت شعر:

أرى حقنا مُستودعًا عند غيرنا ولا بدَّ يومًا أن تُرد الودائعُ

¹ - مجموع كتب ورسائل الهادي، تحقيق: عبدالله بن محمد الشاذلي، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء، 599.
² - الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار في تقرير المختار من كلام الأئمة وأقوال علماء الأمة في المباحث الفقهية والأسرار. الإمام يحيى بن حمزة، الجزء الثاني عشر، 143. وهي مذكورة في رسالة دكتوراة بعنوان: الأسس الفكرية للتناقضات في السلطنة الزيدية، للباحثة سلوى علي قاسم المؤيد، نسخة منها بمكتبة مركز الدراسات والبحوث اليمني.

وقد تم إصاق لفظة "مفسد" أو "فاسد" على أي خارجٍ على السُّلطة الظالمة - وهي في أغلبها ظالمة - استغلالاً للفظ القرآني الوارد في الآية الكريمة: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} المائدة: 33. على الرغم من اختلاف الأسباب والمسببات، واختلاف الزمان والمكان؛ بل اختلاف المفهوم ذاته.

ولم تقتصر مثل تلك الجنايات التي قام بها الإمام الهادي على أبناء جيله وفترته من اليمينين فحسب، باعتباره المؤسس الأول؛ بل مارسها ملوك وأئمة هذه النُّظريَّة من بعده، وكانوا يقيسون قمعهم واستبدادهم ووحشيَّتهم على أفعال إمامهم الأول الهادي، التي اعتبروها حُجَّةً كافيةً لمنازلة الخُصوم!

الفصل الثالث

من مثالية الفكرة إلى برجماتية التنفيذ قراءة في الأدوات والآليات

المبحث الأول الرهائن

الرهن في اللغة مأخوذ من الأصل الثلاثي "رهن". ورهن الشيء: احتجزه وحبسه وأبقاه.¹
أما الرهينة في الاصطلاح فهي تسمية تطلق على شخص يقدمه المغلوب للغالب، ليبقى
محبوساً عنده ضماناً لولاء المغلوب وطاعته للغالب.²
والرهينة: قيام الإمام باسترهان بعض من أولاد أو إخوة المشايخ وكبار القوم على مستوى
العزل والقرى لديه، كضمانة سياسية لولاء أهلهم للإمام، ونوعاً من أوراق الضغط السياسي على
زُموذج القبائل، خشية خروج أحدهم عن بيت الطاعة. وعادةً ما تكون هذه الرهائن أطفالاً صغاراً
ودون سن التكليف، يقضون سنوات في مساكن جماعية، هي من ملحقات دار الحكم، محرومين من
حقوق الطفولة، إلا ما ندر. بعض هؤلاء الأطفال يقضي فترته داخل الدار الملحقة بقصر الإمام
وعليه القيود والأغلال، إمعاناً في الإهانة والتحقير لأسرة أو لقبيلة هذا الطفل المرتهن - قسرًا - لدى
الإمام؛ خاصةً مما عُرف برهائن "العطف" وهم الرهائن الذين يتم تسليمهم من قبل أهاليهم أثناء
الأحداث التي تحدث من البعض، خلافًا لرهائن "الطاعة" في الأوقات الطبيعية. وتكون تكاليف
هذه الرهائن داخل دار الحكم على حساب ذويهم وأقربائهم، يتم دفعها بداية كل سنة بواسطة
المحصلين والجباة، مقداره ما بين سبعين إلى مئة ريال "ماريا تريزا" وهو مبلغ كبير قياسًا إلى دخل
المواطن حينها. وأيضًا هناك رهينة الضمان ورهينة الطاعة ورهينة الجهاد ورهينة الاحتياط ورهينة
الشملة ورهينة الستر ورهينة الإدارة.³

¹ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971م، ط:1، 622.

² - البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي، منشورات دار اليمامة، الرياض، 1967م، ط:1، 77.

³ - ذكر الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه، مغامرات مصري في مجاهل اليمن أن هذه الرهائن كانت توضع في السجن، وأن هذه السجون قد حفرت في نفوسهم الكراهية للإمام ونظامه، وأججت الحقد عليه، وأن بعضًا من طلائع الثائرين عليه لاحقًا قد تشكلت من بين هؤلاء الرهائن. وصدق المثل السائر: من آمنه يؤتى الحذر! وقد أوتي فرعون - رمز الجبروت والطغيان - من داخل قصره بموسى عليه السلام.

وتعتبرُ الرَّهَائِنُ أَسَاسَ الْمَلِكِ لَدَى الْأُمَّةِ كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلَانِي فِي كِتَابِهِ "مَلُوكِ الْعَرَبِ"، حِينَ رَأَى الْأَطْفَالَ بِصُورَةٍ شَائِنَةٍ دَاخِلَ الدَّارِ الْمَلْحَقَةِ بِقَصْرِ الْإِمَامِ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ مَفْتَقِدًا أَصْلًا لَشَرْعِيَّةِ الْحُكْمِ الَّتِي اغْتَصَبَهَا، فَيَلْجَأُ إِلَى أَسَالِيبِ الْقُوَّةِ وَالضَّغْطِ السِّيَاسِيِّ عَلَى الرَّعِيَّةِ لِإِجْبَارِهِمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي تَحْرِمُ الطِّفْلَ مِنْ بَقَائِهِ فِي مَنْزِلِهِ بَيْنَ أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ. كَمَا تَحْرِمُ أَبُويهِ وَإِخْوَانَهُ وَأَسْرَتَهُ مِنْ مُتَعَةِ الْعَيْشِ مَعَهُمْ؛ بَلْ بِقَتْلِ هَذِهِ الرَّهَائِنِ إِذَا مَا تَمَلَّطَتْ أَسْرَتُهُ أَوْ قَبِيلَتُهُ أَوْ ثَارَتْ عَلَى ظُلْمِ الْإِمَامِ - أَيِ إِمَامٍ - كَمَا فَعَلَ الْمُطَهَّرُ بْنُ شَرْفِ الدِّينِ حِينَ قَامَ بِقَطْعِ يَدِ وَرَجُلِ ثَمَانِينَ رَهِينَةً مِنْ قَبَائِلِ خَوْلَانَ، عَقِبَ انْتِفَاضِ خَوْلَانَ ضَدَّهُ.

وتفِيدُ الْمَصَادِرُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ ارْتِهَانِ الْأَطْفَالِ مِنَ الْأُمَّةِ هُوَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ سَلِيمَانَ؛ حَيْثُ أَمَرَ أَهْلَ كُوكْبَانَ مِنْ بَنِي الزُّوَاحِي بِرَهْنِ أَوْلَادِهِمْ لَدَيْهِ، لِتَسْلِيمِ الْحَصَنِ لَهُ وَاسْتِقَامَةِ طَاعَتِهِمْ.¹

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُ الْيَمِينِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكَبْسِيُّ، وَهُوَ يَسْجَلُ بِطَوْلَاتِ الْمُطَهَّرِ بْنِ شَرْفِ الدِّينِ، بَعْدَ أَنْ انْتَفَضَتْ بِلَادُ خَوْلَانَ ضَدَّ حُكْمِهِمْ: "... فَكُتِبَ إِلَيْهِمُ الْمُطَهَّرُ كِتَابًا أَنَّ رَهَائِنَكُمْ الَّذِينَ فِي الْقَصْرِ عَلَى شَفِيرِ الْهَلَاكِ وَالتَّلَافِ، مَقْرُونُونَ بِتَمَامِ ذَلِكَ الْخِلَافِ، فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الرَّسُولُ الْكِتَابَ أَجَابُوا بِغَيْرِ الصَّوَابِ، فَأَمَرَ الْمُطَهَّرُ بِقَطْعِ أَيْدِي الرَّهَائِنِ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ؛ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أَهْلِيهِمْ سَقَطَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَاجْتَمَعَ خَوْلَانُ وَتَحَشَّدُوا وَاجْتَهَدُوا. وَقَدْ كَانَ قَبْلَ قَطْعِ رَهَائِنِهِمْ أَنْبَرَى بَعْضُ شَيْطَانِيهِمْ إِلَى بَابِ الْيَمَنِ، وَقَدْ أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَجَنَ، فَأَضْرَمَ فِيهَا شِهَابًا، وَأَذْكَاهُ التَّهَابًا، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمُطَهَّرُ الْبَطْلُ الْغَضَنَفَرُ، فَاجْتَمَعَتِ الْقَبَائِلُ لِقِتَالِهِ، فَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ، أَفْضَتْ إِلَى هَزِيمَتِهِمْ وَانْحِلَالِ عَزِيمَتِهِمْ، فَدَمَّرَ الْمُطَهَّرُ بِلَادَهُمْ، وَقَطَعَ أَعْقَابَهُمْ، وَتَرَكَهَا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا.. وَدَخَلُوا فِي حُكْمِهِ، فَقَبِضَ مِنْ شَيْطَانِيهِمْ ثَلَاثِمِئَةً أَوْ يَزِيدُونَ، وَأَوْدَعَهُمُ السُّجُونَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَقَطَعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ.."²

وَقَدْ بَلَغَ عَدْدُ هَؤُلَاءِ الرَّهَائِنِ بِالْآلَافِ. وَيَذَكَرُ نَزِيهٌ مُؤَيَّدُ الْعِظَمِ - وَهُوَ أَحَدُ الرَّحَّالَةِ الْعَرَبِ - مَا رَأَاهُ فِي قَصْرِ الْإِمَامِ مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْمَهُولَةِ بِقَوْلِهِ: "رَأَيْتُ مِنْ نَافِذَةِ عُرْفَتِي فِي السَّرَايِ الْمَقَامِ

¹ - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، 167.

² - اللطائف السننية، سابق، 150.

الشَّريف " صَبِيَّةٌ يَلْعَبُونَ فِي صَحْنِ دَارٍ مَتَسَعَةٍ، ظَنَنْتُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مَدْرَسَةٍ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا تَبَدَّلَ هَذَا الظَّنُّ؛ إِذْ رَأَيْتُ بِالْقَرْبِ مِنْهُمْ جَنْدِيًّا حَامِلًا بِنَدَقِيَّتِهِ، وَوَاقِفًا لِحِرَاسَتِهِمْ، وَقَدْ دَهَشْتُ لِهَذَا الْمَشْهَدِ الْعَرِيبِ، وَسَأَلْتُ الْبَعْضَ عَنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الصَّبِيَّةِ، فَقِيلَ لِي: هَؤُلَاءِ مِنَ الرَّهَائِنِ".¹

وقد بلغ الأمرُ ذروته بالنسبة لنظام الرهائن في عهد الإمام يحيى الذي عمِد إلى إذلال الشعب بهذه الطريقة، وهو ما جعلَ العامَّة من النَّاسِ تنظرُ إلى السُّلطة الحاكمة نظرة توجسٍ وريبةٍ وازدراء، وظلَّت متوارثةً في الوعي الجمعي ربما إلى اليوم. والواقعُ أنَّ نظامَ الرهائن يؤكِّدُ عدمَ شرعيَّة هَؤُلَاءِ الأئمَّة في الحُكم أبداً، ويؤكِّدُ اغتصابهم للحُكم؛ إذ لو كانوا حكاماً شرعيين لما احتاجوا للرهائن أصلاً؛ بل لما خرجت عليهم القَبائلُ ابتداءً؛ لكن لما كانوا فاقدين للشرعيَّة كانت الاضطراباتُ، وكان الخروجُ عليهم عادةً القَبائلِ اليمينيَّة على الدوام، وما أكثرَ خروجها على الأئمَّة خلال فترات حُكمهم.²

وقد اختلفت آراءُ الكُتَّابِ والمؤرخين حولَ عددِ الرهائن التي احتفظَ بها الإمامُ في قصوره، سواء في العاصمة صنعاء أو خارجها، إذ يذكرُ البعضُ أنَّهم وصلوا إلى أربعة آلاف رهينة في العام 1934م، في الوقت الذي يرى آخرون أنَّهم أكثرُ، وآخرون يرون أنَّهم كانوا أقل، وكانوا يُوضعون تحت حراسةِ الجند ومراقبتهم، وبعضُهم يُسمحُ له بالتجوالِ داخلَ المدينة، ولكن بالقيود التي على قدميه، ليحصلوا على أرزاقهم من المتصدقين عليهم، ثم يعودون إلى سُجونهم!.

يقولُ الرَّحَّالَةُ العربيُّ الشَّهيرُ أمينُ الريحاني: "سَمِعْتُ بِالرَّهَائِنِ فِي الْحَجِّ، فَاسْتَعْرَبْتُهَا وَاسْتَنْكَرْتُهَا، وَكَدْتُ أَنْكُرُ صِحَّةَ مَا سَمِعْتُ، إِلَّا أَنَّ أَغْرَبَ الْأُمُورِ هِيَ أَقْرَبُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَى الْحَقِيقَةِ. فَالْإِمَامُ يحيى يتقاضى من كلِّ موظفٍ من موظفي حُكومتِهِ الكبار، الملكيين والعسكريين رهينةً واحدة، ابناً أو أختاً أو نسيباً عزيزاً، يُبقيه في حوزته، كفالة الإخلاص والاستقامة في الخدمة وضمَّانة الصدق والوفاء في التابعية، وهؤلاء الرهائنُ عند الإمام - على ما قيل - أربعة آلاف، يقيمون في المدن

¹ - رحلة في العربيَّة السعيدة، نزيه مؤيد العظم، منشورات المدينة، ط:2، 1986م، ص 70.
² - ذكر الدكتور مصطفى الشكعة ص 93. أن القردعي قاتل الإمام يحيى كان رهينة في السجن لديه، وقد تشكلت لديه داخل السجن غريزة الانتقام والانتصار للذات، فأقسم أن ينتقم عقب خروجه، لأنه أمضى في سجن الإمام ثلاثين عاماً، وفعلاً أبر بقسمه. والله في خلقه شئون..

المختلفة، كلٌّ بعيدٌ عن أهله ومسقطِ رأسه، فتعلّم الحكومة بعضهم وتأسر البعض، وتمنح الآخرين بكفالةٍ أحدٍ وجهاءِ المدينة حُرّيّة الجولان فيها..¹

وذكر المؤرّخ والسّياسيّ البريطاني "فريد هاليداي"، المهتمّ بالشأنِ اليمّني أنّ عددَ الرّهائن قد وصل في العام 1939م أربعة آلاف رهينَةً في قصورِ صنّعاء، وتراجع إلى ألفي رهينة في العام 1955م في تعز وأماكنٍ أخرى. وحينَ زار الإمامُ أحمد "روما" عام 1959م للعلاج أخذَ معه بعضَ الرّهائن إلى هناك!²، كما أخذَ معه القيود الحديدية التي كان يقيدُ بها المخالفينَ معه إلى روما، حسبما تذكر كثير من الروايات الأخرى..

وذكر المؤرّخ إدجار أوبلانس أن الإمام يحيى تُوفي وهو يحتفظ بأربعة آلاف رهينة.³ ويبدو أنّها قد تناقصت بعد ذلك في عهد الإمام أحمد؛ إذ ذكرت المؤرخة الروسية جلوبوفاسكايا إيلينا، نقلًا عن مُجدِّ سعيد العطار، في كتابه "التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمّني" أنّ الرّهائن كانت قد بلغت حوالي الألفي رهينة تقريبًا، عاشَ أغلبهم في ظروفٍ قاسيةٍ من ناحية الغذاء السيئ، والملابس الرديئة، فأصيب الكثيرُ منهم بأمراضٍ مزمنة.⁴

¹ - تكوين اليمن الحديث، د. سيد مصطفى سالم، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط:4، 1993م. 501. وانظر أيضًا: ملوك العزب أمين الريحاني، دار الجيل، بيروت، ط:8، 1987م. 109.

² - الصّراع السّياسيّ في شبه الجزيرة العربية، فريد هاليداي، تعريب وتقديم: الدكتور مجد الرميحي، دار الساقية: ط:2، 2010م. 146.

³ - اليمن.. الثورة والحرب، إدجار أوبلانس، ترجمة: عبد الخالق مجد لاشيد، مكتبة مديولي، ط:2، 1990م، 56.

⁴ - ثورة 26 سبتمبر في اليمن، إيلينا جولوبوفسكايا، دار بن خلدون، بيروت، ط:1، 1982م، 151.

المبحث الثاني الدعايات والشائعات

تأتي عمليتا الدعَايات والشائعات المعرَّضة ضمَّن التكتيك السِّيَاسِي لأية جَمَاعَةٍ أو دولةٍ أو كيانٍ سِيَّاسِيٍّ في الغالب؛ إذ تُستخدم الدعَايات والشائعاتُ سِلاحًا في الحروب، وفي الخُصومات السِّيَاسِيَّة، التي تتخذ عادةً وجهين، فإمَّا أن تهوَّل من شأن قدراتها لصناعة الرُّعبِ في نفوسِ الطَّرَفِ الآخر، وإمَّا أن تشيِّع أخبارًا شائنة على الطرف الآخر، من شأنها أن تضعف قواه، في الوقت الذي تُعزز القوى المعنويَّة لها ولأتباعها..

والإمامة ليست استثناءً من بين كل القوى أو الدول أو الكيانات السِّيَاسِيَّة، فهي جزءٌ من كلِّ في هذا الجانب، وقد استُخدمت الوجهين من الدعَاية معًا..

لقد أضفى كاتبُ سيرة الهادي "علي بن مُحمَّد العلوي" على الإمام الهادي من الصِّفات مَا يجعله في مقام النبيين، مع أننا لا نغمطُ الإمام الهادي أية فضيلةٍ له، إن وجدت؛ إلا أنَّ ما نُسب إليه من المعجزات لم تتحقق لنبيِّ قط! وهذه لا يمكنُ أن تنطلي على عاقلٍ أبدًا، ولا يمكنُ أن تجد لها متسعًا إلا في العوام من النَّاسِ الذين يقبلون مثل هذه الروايات بلا تمحيص أو نقاش، لمحدودية تفكيرهم، وبساطة عقولهم، ولعاطفتهم الدينيَّة الجيَّاشة، المفتقدة للعقل والتعقل في الغالب!

ذكرَ كاتبُ سيرة الإمام الهادي مما يعتبرها من مُعجزاته، أن العَمَامَ قد ظلَّته في "مذاب" يوم شمسٍ حار، وركدت فوق رأسه وأصحابه حتى راح، ولم يكن في السَّمَاء غيمةٌ غيرها.

كما ذكرَ أنه قد أُتي بصبيٍّ وقد ذهب بصره من مرضِ الجُدري، فأمرَ الهادي يده على بصره، ودعا له فأبصر..!! وأخرُ كان له ولدٌ أخرسٌ لا يتكلم، فلما أتاه كتابُ الهادي، أخذ خاتمَهُ من الورقةِ ووضعها في ماءٍ، ثم سقاه الصَّبِي، فأفصح في الكلام على التو..! كما أكل الخاتم آخرون طلبًا للدواء من عللٍ أصابتهم. وأن المطرَ قد تأخرَ في أحدِ أسفاره إلى "خيوان" إجلالًا للهادي، فلمَّا دخلها وصار النَّاسُ في منازلهم نزلَ المطر..! كما أن الغيثَ قد عمَّ همدانَ مطرًا لم يروا مثله، بعد

أن قدم إليها، وقد كانت مجدبةً مُحملة، وأن الأرضَ قد أعطتْ خيرًا كثيرًا بعد أن سلّم أحدُ أبنائها الزكاة للهادي.. مشيرًا إلى أنه لو جمع علامات إمامة يحيى بن الحسين لكانت في كتاب..¹

وروى الشَّيخُ مجد الدين المؤيدي، نقلًا عن كاتب سيرته - أيضًا ما نصه: "روى سَلِيمُ الذي كان يتولى خدمته: أنه تبعه في بعض الليالي، وكان يسيرُ مع الإمامِ إلى الموضع الذي يبني فيه ثم ينصرف، وفي تلك الليلة رأى أن يبني على الباب - ولم يعلم به الإمامُ - لينظر ما يصنع، قال: فسهرَ الليلَ أجمع ركوعًا وسُجودًا، وكنت أسمعُ وقعَ دُموعه، ونشيجًا في حلقه"² فمن أين تأتي تلك الدموعُ، وتلك الروحانيَّةُ المحلَّقةُ بأثيرِ صُوفي مع كل هذه القسوةِ البالغةِ، والجرائمِ الوحشيَّةِ بحقِّ أبناءِ اليمن؟! ثم أي دُموعٍ هي التي يُسمع لها وقعٌ ولو كانت من الحصى!؟

بل لقد ذكرَ صاحبُ كتاب العروج إلى الأنوار الهادويَّةِ، يحيى المؤيدي عن الإمامِ الهادي، ما نصه: "فلما وُوري جسده الشَّريفُ، في مسجده الشَّريف بصعدة، انبعثت رائحةٌ طيبةٌ، لتخلدَ ذكره، وتنبئ للناس عن رضاء الله عن فعله، ولم تزل تلك الرائحةُ تنبعثُ إلى يومنا هذا، فما أشقى من انتقصَ من حقه"³

هذا إلى جانب ما يمكنُ أن تكون معجزاتٍ، أن عُوقب أشخاصٌ بعقوباتٍ سماويةٍ لإساءتهم للهادي، أو التعريض به، حسبما ذكر كاتبُ سيرته!.

ونسب للإمام الشاب المهدي الحسين بن القاسم العياني ما يُضحك ويُيكي معًا. فقد قال عنه صاحب الحقائق الوردية: ".. وكان من عيون العترة في زمانه، وتيجانهم المكلمة في أوانه، برز في العلم حتى فاق أهل عصره، وسبق فيه أبناء دهره، وهو عُصن خلافة نضير، وروضة فضل وغدير، مشهور بالزهادة، معروف بالعبادة، له التصانيف الرائقة في علم الكلام، والكتب الحسنة في مخالفتي العترة عليهم السلام، وهي كثيرة، قيل إنها تبلغ ثلاثة وسبعين تصنيفًا.."⁴

1 - سيرة الهادي، سابق، 128، فما بعدها..

2 - التحف شرح الزلف، مرجع سابق، 206.

3 - الإمام الهادي يحيى بن الحسين وأراؤه العقديّة، دراسة نقدية مقارنة، د. عبد الحميد أحمد مرشد، مؤسسة النبأ الاجتماعيّة التّنمويّة، ط:1، 2010م، 81.

4 - الحقائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، الشهيد حميد بن أحمد بن محمد المحلي، تحقيق: الدكتور المرتضى بن زبيد المحطوري الحسني، مكتبة مركز بدر ط: 1، 2002م، 2/120.

كل هذا الثناء والمدح لشاب توفي وعمره بضع وعشرين عامًا. وله من المؤلفات ثلاثة وسبعين مؤلفًا. وقد ملك ما بين إلهان وصعدة. بعد أن استخلف أباه في الإمامة وعمره سبعة عشر عامًا..!

وعن الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، رُوي أنه وجدت ورقة من ورق الدُّرة، وفيها مكتوبٌ بالحُمرة خلفها: لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله، الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان. وأنه مسح على عَيْنِ أعمى، وقدَّ جاء إليه، فرد الله عليه بصره، وعندما قَالَ له الأعمى: لم آت لهذا، عادَ كما كان!. وأن السَّيْلَ قد نزلَ عليه من السَّماءِ مع جنوده، في يوم قحط، وكان الغيثُ يسيرُ معهم من قريةٍ إلى قريةٍ، إنقادًا لهم من الهلاك، أمَّا في الجوفِ فقد سَارفوا على الهلاك ذات مرة فاهتدى الإمامُ لحفر بئر، فشربَ النَّاسُ كلهم وسَقوا بهائمهم ومكثوا هناك إلى اليومِ الثاني، وحينَ غادروا المكانَ غَار الماءُ من البئر ولم يجدوه بعدَ ذلك..! وغير ذلك الكثيرُ مما يُعتبر معجزاتٍ، أو شبه معجزاتٍ، لا يصدِّقها عقلٌ، ولا يقبلها منطِق.¹

بل إنَّه - أحمد بن سليمان - رقى على أذن أحدِ النَّاسِ في "بيت بوس"، وقدَّ كان لا يسمعُ قبل ذلك، ونفثَ فيها، فعادَ له سمعه للتو!. كما أنه مسح على عين كفيفٍ أتاه هُنَاكَ طالبًا إياه أعطيةً، فعادَ إليه بصره فورًا، وحينَ قَالَ له هَذَا الكفيفُ: لم آتِكَ لهذا عادتِ الظُّلمةُ في بصره كما كانت..!!²

وعن الإمامِ يحيى بن حمزة، قيلَ عنه: إن كراريسَ مؤلفاته بعددِ أيامه! وأنه منذ دُفِنَ بدمار، فُقدتْ منها الحَيَاثُ والهوامُ، حتى إنَّ بعضهم تعمَّدَ إدخالَ ثعبانٍ في قفصِ إلى دمار، فلما دخلَ إلى المدينة بقيَ يحاولُ الخروجَ، ثم اضطربَ ومات. كما أن الترابَ الذي فوق قبره إذا وُضع في محلٍّ لم يبق فيه حيَّةٌ ولا ثُعْبَان، ويبقى نفعُ هذا الترابِ سنَّة، ثم يُبدل. وأيضًا من كراماته أن النَّاسَ يحاولونَ إطفاء المصْبَاح الذي فوق قبره، ثم لم يلبثوا أن يروه مشتعلًا متقدًّا بعدَ ذلك!!³

¹ - نفسه، ص: 2/17 فما بعدها. وأيضًا سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص 151.

² - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، 155.

³ - تاريخ اليمن، المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، العلامة الشَّيخ عبدالواسع بن يحيى الواسعي اليماني، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1346هـ. 36.

وقبله كان الإمام المتوكل على الله، المطهر بن يحيى بن المرتضى، ت: 699هـ، قد ظللته الغمامة وهو يقاتل جيوش المؤيد الرسولي بخولان، فسترت ما بينه وبين ذلك الجيش، حتى خلس من تلك الجهة ونجا مع أصحابه، وقد نظم أصحابه في ذلك الشعر.¹

ليس علي بن محمد العلوي من فعل مع الهادي كذلك؛ بل كلُّ كُتَّابِ سِيرِ الأئمَّةِ وتاريخهم، نسبوا لهم مما يعدونها مكرماتٍ وفضائلٍ ما لا يسعُّ العقلُ إلا أن يضعها في خانة الأساطير والخرافات!

ذكر الحسن بن المطهر بن محمد الجرموزي، كاتب سيرة الإمام القاسم - أن الإمام المنصور بالله، القاسم بن محمد² حين أخذ أمه الطلق أثناء ولادته، دخلت بيتاً مظلماً توارث فيه، وأنه لما وقع على الأرض سمعت قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأما القاضي شمس الإسلام أحمد بن سعد، فقد زاد: أن أمه سمعت أذاناً كاملاً بألفاظه المعروفة.³

ومما أورد أيضاً: أن رجلاً من "ذي حسين" كان قد أشار بيده إلى الثياب التي على الإمام وأصحابه، وتكلم بكلام فيه أذية للإمام عليه السلام، فسقط الرجل، فغابت أصبعه في كفه، فندم الرجل وسأل الإمام - عليه السلام - أن يرضا عليه ويدعو له، فدعا له الإمام، فرجعت يده كما كانت من قبل صحيحة!⁴

وأيضاً أنه اشتهر للعام والخاص، والقريب والبعيد، والعدو والصديق، في صنعاء أول دعوته عليه السلام أنه كان يُسمع من الصوامع النداء المتكرر، منذ شهرين أو نحوهما في الليل بصوتٍ شهير تخين يسمعه الناس، ولا يرون شخصه، يقول: "يا إمام قاسم" بتفخيم القاف، وروى بعضهم أنه رأى صورة طائرٍ من جهة الصوت...!⁵

¹ - نفسه، 34.

² - قال عنه كاتب سيرته، معرفاً، مانصه: "كنت سمعت كثيراً من أخبار مولانا وإمامنا، ووسيلتنا إلى ربنا، الإمام الأعظم، والحجة لله سبحانه على أهل عصره من ولد آدم، المنصور بالله، القاسم بن محمد، بن رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه..!!"

³ - النبذة المشيرة، سابق، 5.

⁴ - نفسه، 27.

⁵ - نفسه، 29.

ومنها - أيضًا - أن رجلا من أهل الظاهر سلم عليه في مكان قفر، وقال له: يا مولانا أنا راع غنمًا لي وقد أضرت بنا القحط، وقلة الماء، فادع لنا، فتوجه القبله ودعا، والوقت قريب غروب الشمس، وما في السماء قزعة، فما جاء وقت العشاء إلا وقد مطر، وأرسلت السماء غرايلها، وأقبلت الشّعب بما فيها، وما توضع أكثر الناس إلا من الجرب والأموال.¹

وأن أحد المشايخ ذبح شاة، فوجد في لوح الشاة مكتوبًا "الإمام القاسم" فحلى ذلك اللوح بالفضة.²

وروى الجرُموزي أيضًا أنه "كان يتردد على سوق بيت "عذاقة" من بابه، وكان المسيح الدجال يتردد - أيضًا - على هذا السوق؛ ولكن بصفة خفية ليضل الناس، ويفسد عليهم دينهم، فاكتشفه القاسم؛ إذ كان لا يراه أحد من الناس غير القاسم، فاتبع المسيح حتى أخرجه، واضطره إلى الفرار، ولم يعد إلى سوق "بيت عذاقة" بعد ذلك"³

وأورد مصحح ومقابل كتاب "التحف شرح الزلف" إبراهيم بن مجد الدين بن محمد المؤيدي مما اعتبره من كرامات والده الكثير، ومنها كرامة السحاب وكتابة اسمه فيها، وكرامة الرجل الذي أكلته الآكلة في رقبته، وفي رجله، فصنع له من تراب الإمام الهادي، فطاب بإذن الله، على حد قوله⁴!..

ثانيًا: الشائعات المضادة

كما أشرنا سابقًا.. تعمل الشائعات عمل السحر في أوساط العامة؛ خاصة إذا ما تم استخدامها بطريقة مدروسة ومُنهجة، وكما تعمل الشائعات أو الدعايات في رفع الروح المعنوية في أحد أوجهها، فإنها من وجه آخر تعمل على غرس اليأس والهزيمة في نفس الخصم المستهدف، ويعلم الكثير ماذا يترتب على انخفاض الجانب المعنوي للجيش وللجماعات..

¹ - نفسه، 29.

² - نفسه، 170.

³ - ابن الأمير وعصره، 22.

⁴ - التحف شرح الزلف، ص 35.

وكما استخدم الأئمة الدعاية لصالحهم، فإنهم قد استخدموا الشائعات ضد خصومهم، للنيل منهم، وللتقليل من شأنهم، ولاستغلال عواطف العامة التي تُعتبر السند الرئيس في أية عملية سياسية.

كان الشيخ الدعام - زعيم همدان يومها، وصاحب الإمام الهادي - على علاقة وثيقة ببعضهما أول الأمر، وساند الشيخ الدعام الإمام الهادي في كثير من المواقف السياسية والاجتماعية، إلا أنهما اختلفا، وتصادما، الأمر الذي جعل الهادي يتهم الدعام بما ذكره صاحب سيرته بقوله: "وكان مع الدعام جُنْدٌ فسَّاقٌ يشربون الخمرَ ويركبون الذكور، ويفجرون بالنساء علانية.." ولا يدري عاقلٌ كيف كان هذا الشيخ بالأمس مؤمناً موحداً، وبين عشية وضحاها أصبح كافرًا ا مُلحدًا!¹

وزاد على ذلك: "إنه كان في عسكر الدعام في "بيت ذؤد" أربعمئة امرأة فاجرة، يظهرن الفجور علانية، لا يستترن بذلك؛ بل يتحاكمن العسكر فيهن إلى سلاطينهم وعمّاهم، وكن كل عشية يجتمعن إلى باب سلطانن الفاسق فيلعبن بين يديه، وينشرن شعورهن، ويدين زينتهن، ويُظهرن محاسنهن، ويلبسن أرقّ ما يقدرن عليه من الثياب، ليبدو ما خفي من أبدانهن، فيأتي العسكر، فإذا هوى الرجلُ منهن واحدةً، دفع إليها دراهمَ بحضرةٍ من يحضرن معهم، فلعلها لا تروح إليه تلك الليلة، فإذا أصبح أتى إلى السلطان، وأعلمه بأن ملعونته لم ترح إليه، وقد أخذت دراهمه، فيأمر سلطانه عند ذلك بأدبها، وبأن تصيرَ إلى صاحبها!"²

وهكذا نترك الحكم للقارئ ليرى حجم الافتراء المهول، الذي لا يمكن أن يحصل اليوم في أكبر مواخير العالم بهذا العدد كله، على ما يتوافر اليوم من الوسائل لذلك، والتي لم تكن متاحة آنذاك؛ أمّا عن الإشاعات التي لاحقت "علي بن الفضل" ففوق أن تُحد أو يستوعبها خيال، فقد قال كاتب سيرة الهادي: إن علي بن الفضل سبي من النساء في مدينة زبيد خمسة وثلاثين ألف

¹ - سيرة الهادي، 94.

² ، نفسه، 94.

امرأة، وأنه أمر بنكاح الأمهات والأخوات، وأحل جميع الخمر، وكفر بمحمد ﷺ، وشرب الخمر!! إلخ.¹

وعن "الجفاتم" قال الهادي وأتباعه: "وأما الجفاتم فسمعتُ بعضَ أهل صنعاء، يذكر أن الرجلَ منهم ربما حملَ الغلامَ من السُّوقِ للفسقِ، وكذلك المرأةُ يحملها بعضهم من بعضِ الطريقِ، وكذلك كانت معهم الطنابيرُ والغلمانُ في الأسواقِ، وكانوا يأخذونَ أموالَ النَّاسِ غنوةً لا يقدرُ أحدٌ أن يكلمهم"²

وحين نَظَمَ لِسَانُ اليمَنِ الحسن بن أحمد الهمداني، 280هـ / 893م - 356هـ / 967م قصيدته الشهيرة "الدَّامِعة" التي تتغنى باليمَنِ وحضارته، وتذكر محاسنَ القحطانيَّة، جُنَّ جُنون أبناء الهادي من بعده، ورأوا أن ذلك مساس بكرامتهم ومكانتهم في المجتمع، فهم يرونَ أنَّهم أفضلُ النَّاسِ عرفًا وسُلالة، فقرروا سجنه وتعذيبه؛ لكن لا بد من تهمَةٍ قبل إدخاله إلى السِّجَنِ، حتى لا يَستثيروا العامَّة من النَّاسِ عليهم، فأشاعوا بينهم أنه يُفضل القحطانيَّة على العدنانيَّة، ومن ثمَّ سجنوه سنتين متتاليتين، ثم أخرجوه، ثم أعادوه إلى السِّجَنِ مرة ثانية، ثم نفوه بعد ذلك عن بلده، وساموه ألوان العذاب، لا لشيء إلا لأنه قال بتفضيل القحطانيَّة! وهي تهمَةٌ عندهم تخدشُ وجه الصنم المقدس.³ ومن المعروف للجميع حجم وسعة الخلاف الكبير بين الصُّوفيَّة وعلمائهم و الهادويَّة وعلمائهم تاريخيًّا، وذلك خشية منافستهم شعبيًّا، متهمين إياهم بأنهم أخذوا فكرة تصوفهم عن المجوس، وأنهم قد أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام، حقنًا لدمائهم فقط، وقد رموهم بأقذع التهم، وشنُّوا عليهم أرذلَ الدعايات، فقد قالوا فيهم: "... وهؤلاء لم يجعلوا إلههم إلا الحسان من النساءِ والمردان، ولا يعرفون لهم ربًّا غيرَ ذلك، قاتلهم الله..⁴

¹ - نفسه، 394.

² - نفسه 205. والجفاتم نسبة إلى جفتم القائد العسكري العباسي في اليمن في تلك الفترة القادم من بغداد ضد المناوئين للخلافة العباسية.

³ - يعتبر الهمداني آية عصره وصفقة زمانه، علمًا وفكرًا، فلقد بحث من وقت مبكر في عدد من المسائل العلمية، وتوصل إلى حقائقها النهائية قبل أن يتكلم عنها علماء الغرب، كالأكسوجين، وكروية الأرض وطبائع الأجسام وطبقات الأرض، وغير ذلك. وثمة رواية عنوانها: "الهمداني يطل من أورليان" للمفكر والسياسي اليمني الدكتور أحمد محمد الأصبحي، تلخص جزءا كبيرا من حياته وعلمه، صدرت في العام 2013م.

⁴ - النبذة المشيرة، 31.

وحين توسَّع الإمامُ المتوكل على الله إسماعيل جنوباً وشرقاً استخدمَ هذه الإشاعاتِ تبريراً للسيطرة والاستيلاء، فحينَ دخلَ بلادَ حضرموت أشاعَ أن ثمةً منكراتٍ وجهلٍ وعدمَ تطبيقٍ للشريعة الإسلامية الصحيحة في هذه المناطق، مع أن الهدفَ الخفيَّ من وراء ذلك هو السيطرةُ على ميناء الشَّحْر الذي يدرُ خراجهُ مئة ألف أوقية كلَّ عام. وحينَ أرادَ السيطرةَ على "عدن ولحج" عام 1055هـ أشاعَ أن أميرها قد هدمَ قواعدَ الإسلام، وأظهرَ المنكرات، وجعلَ للبغياءِ جوانب، وللخُمور كذلك. ودخلها، وسيطرَ عليها وعيَّنَ عليها مولاه "ياقوت" عائداً محملاً بالغنائم، وفيها الكثيرُ من العبيد والإماء!¹

وهي ذاتُ الإشاعةِ أيضاً التي كررها قبل أن يدخلَ بلادَ الرِّصَّاصِ وبلادَ يافع، بأنهم جهلةٌ ولا يطبقون الشريعةَ الصحيحة!

وقد كانَ اهتمامُ الإمامِ المتوكل بالموانئ والمدنِ السَّاحلية كبيراً، نظرًا لما تجلبُه من ضرائبٍ وتدره من دخلٍ مالي كبير؛ ولذا فإنَّ من عيَّنتهم عليها كانوا - في الغالب - من الموالي والعبيد الذين يثقُ فيهم كثيرًا، والذين يسهلُ عزلم دون إثارة في أي وقت، كما حصلَ مع الحسن بن الإمامِ المتوكل حين ولاه أبوه بندر اللحية، وفيها الميناءُ الشَّهير، وكانت من الإقطاعاتِ الخاصَّةِ بوالي الإمامِ عليها "المجزي" الذي لم يعترضَ أمرَ سيده، مضيئًا: الأمرُ أمره، والبندُرُ بندره، وأنه من جملة الخدمِ ليس إلا، فسلمها لابن الإمامِ ثم عادَ إلى ضوران عاصمةِ الحكم، وهذا خلاف ما إذا كانت تحت تصرفِ شخصٍ آخر من أولاد العم أو الأسرة، إذ من الصَّعب انتزاعها منه إلا بالقوة، وربما لن يكون!.
 وحين حارب الإمامُ يحيى أبناءَ تعز، خاصَّة بعد انتفاضة المقاطرة، عمد أولاً إلى التشجيعِ عليهم، ورميهم بأقبح الصفات، كما قال كاتبُ سيرة الإمامِ عن أبناءِ تعز، وتحديداً المقاطرة: ".. فقد تهاونوا بأمر الدين حتى لم يبقَ لديهم منه ومن تعاليمه ما يُعدُّون به من أهل الإسلام، إلى حدِّ إهمالهم لعقود الأنكحة، وترك الصَّلَاة وخراب المساجد..!!"²

¹ - بهجة الزمن، سابق، 1/46، فما بعدها..

² - سيرة الإمام يحيى، المسماة كتيبة الحكمة، سابق، 248، سابق. وانظرها في اليمن الجمهوري، للبردوني، 93.

كما أشاع عن المعارضين السياسيين من رجالات الحركة الوطنية في عصره في الأربعينيات أنهم يريدون اختصار القرآن الكريم، ويدعون إلى ترك الصَّلَاة والصيام، وأنهم زنادقة يريدون أن يدخلوا النصارى إلى البلاد، وقد باعوا البلاد للبريطانيين!

أما الإشاعات التي طالت الإسماعيليين فهي فوق أن تُحَدَّ أو تحصر، وقد كفروهم وأخرجوهم عن الملة، وألّفوا فيهم الكتب، ونسبوا إليهم من الأقاويل ما لا علم لهم به!

المبحث الثالث

تجهيل الشعب

اليمن مهد العروبة وأصل حضارة الإنسانية قاطبة، عرفت الدولة المستقرة منذ آلاف السنين، وعرفت القوانين والدساتير المنظمة لشئون المواطنين، في الوقت الذي لا تزال المعمورة بكافة أرجائها تعيش حياة البداوة الأولى. ونُصوصُ المسند التي تنتشر في أرجائه شاهدةٌ على ذلك؛ مثلما هي شهادات المؤرخين من يونان ورومان شاهدةٌ على ذلك إلى اليوم؛ بل إن أصل الخطِّ يعني كما تقررُ كثيرٌ من المصادر التاريخية، وكما أشرنا سابقاً.

وقد شهدت فترة نكوص حضاريٍ مُنذ القرن الرابع الميلادي تقريباً، الأمر الذي جعله مطمعاً للقوى الدولية المتصارعة يومها، فارس والروم، وشكل واحداً من مسارح صراعاتهما السياسيّة التي تحكي عنها صفحات الكتب.

والمأمل في طبيعة هذا النكوص أو التراجع الحضاري يجده قد أبقى على جذوة الروح الحضاريّة لدى الشخصيّة اليمنيّة التي لم تنسلخ تماماً عن ماضيها الحضاري، وكان الأمر أن خبت الروح المتقدة، كما يخبو الجمر تحت الرماد. وما تنقلُ اليمن سريعاً بين الأديان السماويّة الثلاثة وفي فتراتٍ زمنيّة متقاربة جداً إلا دليل قاطع على مدنيّته وحضارته؛ إذ تعامل مع هذه الأديان تعاملًا سياسياً بالدرجة الأولى، لعله يسترجع من خلالها ذاته الحضارية وشخصيته التاريخيّة التي فقدّها..

وذاث الأمر مع المذاهب الدينيّة بعد دخول الإسلام، كما ذكرت آنفاً، ومنها الهادويّة التي استقبلها بالترحاب، إلا أنّ رجاءه قد خاب.

زاد الأمر سوءاً، وزادت البلاد تخلفاً؛ ذلك الجهل المتعمد، لأن سياسة الأئمة - في غالبهم - تعمدت إلى تجهيل الشعب وجعله تابعاً لنزواتهم ورغباتهم التي يتصارعون من أجلها بفئات الشعب ذاتها التي مثلت وقوداً بشرياً وحطباً لصراعاتهم التاريخيّة، داخل البلاد، غير مأسوف عليها من قبلهم. ولم

تكن فتاوى القتل والتنكيل والتشريد واستباحة الأموال والحرمات بحق خصومهم إلا انعكاسًا مباشرًا لجهل الشعب بحقوقه الطبيعية قبل الحقوق السياسية!

لفترة طويلة تمتد بامتداد فترات حكمهم يكاد العلم والتعلم يكون محصورًا بينهم، إلا ما ندر، ومن تعلم من غيرهم ونبع في العلوم ففي علمه نظر، خاصة إذا ما أخذ علمه عن غيرهم! لأنَّ علم آل البيت - حد زعمهم - غير علم العامة من الناس؛ فعلم آل البيت متوارث من الإمام الوصي، خص الله به أهل البيت الشريف، ومؤلفاتهم قد ملأوها بحجج العقول، وأكدوها بصحاح المعقول..¹ وسياسة تجهيل الشعوب قديمة، لم يكن الأئمة إلا متأثرين بها، أو ناقلين لها، ضمن ما نقلوا وتأثروا به عن الفرس، وخاصة في عهد الملك كسرى أنو شروان "الساساني" الذي منع أبناء العامة من التعلم، وحرّم عليهم ذلك، وكان يعتقد أن "السفلة" إذا تادبوا طلبوا المعالي، فإذا نالوها تحكّموا في وضع الأشراف!

وقد تسرّبت إلى بلاد العرب من وقت مبكر، فقد كانت ضمن أدبيات الكاتب المقامي أبي حيان التوحيدي ونصائحه؛ حيث يقول، ناصحًا الخليفة: "لا ترفهوا السفلة فيعتادوا الكسل والراحة، ولا تجرّوهم فيطلبوا السرف والشغب، ولا تأذنوا لأولادهم في تعلم الأدب، فيكونوا لرداءة أضولهم أذهن وأغوص، وعلى التعلم أصبر. ولا جرم فإنهم إذا سادوا في آخر الأمر خرّبو بيوت العلية، أهل الفضائل"²

يقول الإمام عبدالله بن حمزة، في رسالة وجهها إلى أهل مارب أيام حكمه: "واعلموا أنا أولاد الرجل الصالح، صلى الله عليه، الذي شرع هذه الشرائع، وسنّ هذه السنن، وأوضح رسوم العدل، وطمس رسوم الجور، فنحن أعلم الناس بآثاره وسننه وطرائقه وعلومه، فلا تهلّكوا أنفسكم بالجهالة، والعمل على غير بصيرة، واعلموا أنّا روينا عن أمير المؤمنين أنه قال: أيها الناس، اعلموا أن العلم الذي أنزله الله على الأنبياء في عترة نبيكم، فأين يتاه بكم عن أمر تُنوسخ من أصلاب

¹ - انظر التحف شرح الزلف، سابق، 207. وللعلم ففكرة الوصي فكرة يهودية قديمة؛ حيث اعتقد اليهود أن يوشع بن نون هو وصي موسى عليه السلام. وقد ورد في العهد القديم أنه لم يخل الزمان أبدًا من نبي يخلف موسى، ومن نوعه. وهي ذاتها فكرة الوصي الذي يخلف النبي محمدًا ﷺ.

² - الإمتاع والموانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عبدالمنعم فريد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط: 1، 2006م، 181.

أصحاب السَّفينة؟ هؤلاء مثلها فيكم، وهم كالكهف لأصحاب الكهف، وهم بابُ السِّلْم، فادخلوا في السِّلْم كافة، وهم بابُ حطة، من دخله عُفِر له.. واحمدوا الله الذي أوصلكم وقتًا تقتدون في دينكم بعتره نبيكم، تأخذون الحق من أهله، وتقتبسون النور من معدنه، وتتسبون إلى العتره الطاهرة التي حُلقت من طينة عليين، ورُبيت في حُجور النبيين.. إلخ.¹

مضيفًا إليهم في رسالةٍ أخرى: " .. وقد أمرنا إليكم بهذا الكتاب، فإن كنتم على ما بيننا وبينكم أمرتم المؤذن بالأذان بحج على خير العمل، وكان الخطيب من جهتنا، وحضرتم جُمعتنا، فسيفان في غمدِ إذن لا يصلحان، واعتقدوا بعد ذلك ما شئتم، دعوا الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن، ولنا الظاهر والله الباطن.."² لأننا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومهبط الوحي، ومختلف الملائكة، ونحسُّ أهل الذكر الذي أوجب الحكيمُ سبحانه سُؤالنا، وأولو العلم الذين أمر تعالى بطاعتنا، ورد ما التبس من الأمر إلينا، وبنا يفتح ويختم، ونحن سُفن النجاة..³

وأيضًا له في رسالةٍ أخرى: "وإنَّ الله عبادًا اصطفاهم لدينه، وفضلهم على جميع بريته، واستخلفهم في أرضه، واستشهدهم على خليفته، هم عتره نبيه، ﷺ، المستحفظين بقية النبيين، وسُلالة خاتم المرسلين، هم في النَّاسِ منزلة الرأس من الجسد، بل بمنزلة العين من الرأس، فأحلُّوهم من الجلالة حيث أحلهم الله سبحانه، واقتدوا بهم تُسعدوا وتُرشدوا..⁴

وأيضًا، له في رسالةٍ أخرى لهم، ومنها: "واعلموا أن الله تعالى قد صنع لإمامكم، وابن بنت نبيكم - ﷺ - ما يحبُّ شكره وذكره من تذييل الجبابة، وقصم القرون الفاجرة.. وقد علمت ما كان في مآرب في سنين الجهل والعمى، وخالفه رب السَّماء، ومنهاج العلماء، فإياكم، ثم إياكم أن تبادوا فيها، فإنها سبب الهلاك، فلم نقم إلا لتجديد معالم الدين، وطمس رسوم الجور، فاحفظوا أنفسكم يحفظكم بارئكم، والسلام"⁵

¹ - مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، سابق، 18.

² - نفسه، 18.

³ - نفسه، 21.

⁴ - نفسه، 78.

⁵ - نفسه، 305.

وتأتي هذه السِّياسةُ التي اتبعوها خُلُقًا عن سلفٍ نُهَجًا منظمًا ومدروسًا، وإحدى ركائز الحُكم والتحكُّم بالبلاد؛ لأنَّ تعليمَ النَّاسِ، ناهيكَ عن تثقيفهم وتوعيتهم سيكشفُ زيفَ ادعاءاتهم، وسيبطلُ حقائقَ القداسةِ والطَّهارةِ الموهومة التي يدَّعونها لأنفسهم زورًا ومُهْتانًا، وحسبُك ما وجَّه به السَّيِّفُ عبد الله بن الإمامِ يحيى العلامةُ النَّائرُ أحمدُ المطاع حين كان ثالثَ ثلاثةٍ تمَّ تعيينهم لكتابةِ تاريخِ اليمَنِ، وكان عليه أن يكتبَ تاريخَ اليمَنِ من لدن الإمامِ الهادي إلى أيام آل شَرَف الدين؛ إذ قال له: "يا صنو أحمد أمرَ الإمامِ بأن يكونَ التَّاريخُ على منهجِ مُحمَّد كَرْد علي، وأن تتحروا في الكتابة، وتجعلوا الدولَ التي قامت في اليمَنِ من القحطانيين أو غيرهم تجعلونهم هم المتغلبين، وأن الأئمَّةُ هم المالكون للبلاد"¹

ويقتضي الإنصافُ هنا الإشارةَ إلى وجودِ طفراتٍ زمنية استثنائيةٍ في تاريخ بعضهم، سمَّح البعضُ من أئمتهم بالتعلم وتأسيسِ المدارس، بصرف النظر عن طَبِيعَةِ هَذِهِ المدارسِ إلا أنه تخرَّجَ من بين جناباتها علماءٌ أفذاذ، أبدعوا على الصَّعيدِ الفردي، بجهودهم الذاتية، لا بجهودِ الدَّولةِ التي يعيشون في ظلها. وحتى الآن - ومنذ زمن بعيد - لا يزال الإبداعُ المؤسسي غائبًا عن اليمينين. مع العلم أن أغلب هؤلاء الرُّموزِ العِلْمِيَّةِ والتاريخيَّةِ قد لاقوا من صنوف الأذى والحن ما لاقوا، بسببِ خُروجهم عن الفكرِ التقليدي الذي يريدُ هؤلاء تسويقه للناس وإيهامهم به؛ كالمطرفيَّةِ مثلًا التي استطاعت أن تتجاوزَ خرافاتِ وأساطيرِ النَّظَريَّةِ الهادويَّةِ، فلقبت من التنكيلِ والأذى والإبادةِ ما لا يخفى على أحد!

ومن غيرِ المطرفيَّةِ نشأ علماء آخرون بعد ذلك، مثل مُحمَّد بن إبراهيم الوزير، والحسن بن أحمد الجلال، وصالح بن مهدي المقبلِي ومُحمَّد بن إسماعيل الأمير، والشُّوكاني وغيرهم الذين تجاوزوا الفكرَ الهادوي كثيرًا، وتحرروا من أوهامِهِ وخُرافاتِهِ، ولذا فلم يسلمَ من أذى الأئمَّةِ الذين عاصروهم أحدٌ، بمن في ذلك الإمامُ الشُّوكاني، على الرغم من مكانته الفكرية والعلمية الكبيرة، وعلى الرغم من حاجةِ الأئمَّةِ أنفسهم إليه. فقد تُعرض للتكفيرِ والتعريضِ به من قبل أتباع الإمامةِ وأذيالها؛ بل الاعتداء عليه إلى الجامع الكبير في خلقته من قبل بعض الأتباع، وإلى الطُّرقات؛ على الرغم من

¹ - الطريق إلى الحرية، سابق، 94.

صمته الذي اتخذته تجاه هؤلاء المتعصبة الذين ألبوا عليه الإمام المنصور وبعض وزراءه، بضرورة سجن الإمام الشوكاني واقتحام بيته ومصادرة جميع الكتب التي بحوزته وهي تخالف المذهب الهادي¹ ولما لم يفلحوا في إقناع الإمام حرّضوا عليه عامة الناس في صنعاء، وشنوا عليه وابل ادعاءاتهم أنه ناصبي، ويجارب مذهب آل البيت، ونصح به بعض أصدقائه ألا يواصل حلقة الدرس اليومية في الجامع الكبير، إلا أنه أصرَّ على مواصلة رعايته رغم إرسال بعض وزراء الإمام جماعةً من العامة الهمج لإيذائه والتحرش به. يقول الشوكاني عنها: "فوصلوا وصلاة العشاء الآخرة قائمةً. ودخلوا الجامع على هيئة منكورة، وشاهدتهم عند وصولهم، فلما فرغت الصلاة قال لي جماعةً من معارفي: إنه يحسن ترك الإملاء تلك الليلة في البخاري، فلم تطب نفسي بذلك. واستعنت بالله وتوكلت عليه، وقعدت في المكان المعتاد، وقد حضر بعض التلاميذ، وبعضهم لم يحضر تلك الليلة لما شاهد وصول تلك الأجناد. ولما عقدت الدرس وأخذت في الإملاء رأيت أولئك يدورون حول الحلقة من جانب إلى جانب، ويقفون بالسلاح، ويضربون سلاح بعضهم في بعض، ثم ذهبوا ولم يقع شيء بمعونة الله تعالى وفضله ووقايته"²

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن تعيين الإمام الشوكاني في هذا المنصب بعد وفاة القاضي يحيى الشجري، الملقب بالسحولي عام 1209هـ، من قبل الإمام المنصور علي قد مثل إنقاذاً لحكم المنصور نفسه الذي لم يكن يأبه للدولة ولشؤونها بشيء، وكان غارقاً في لهوه، بين قصوره المتعددة، ونسائه، فقد كان مزواجاً، ميّالاً للراحة والدعة واللهو والتنقل بين بساطينه وقصوره، وفي عهده تراجعت أحوال الدولة التي كان قد شرع والده بوضع بعض أسسها، فلعب الإمام الشوكاني دوراً مهماً في العمل على إدخال كثير من الإصلاحات القضائية التي ساهمت - إلى حد كبير - في تثبيت دولة المنصور، وعلى وجه أخص عقب التهديد الذي أرسله أحد أمراء آل سعود إلى الإمام المنصور، أثناء الهجوم الوهابي على اليمن آنذاك، فاجتمع الإمام مع رجالات دولته، ومن بينهم الإمام

¹ - بلغ الحقد بالإمام الناصر، عبدالله بن الحسن، ت: 1256هـ أنه كان قرر نبش قبر الإمام الشوكاني وإحراقه، لولا أنه تراجع في الأخير حين هددت قبائل خولان التي ينتمي إليها الشوكاني بالهجوم على صنعاء، كما قام بأمر اليهود بالوقوف على قبر المهدي عبدالله وقراءة التوراة عليه!

² - أدب الطلب، محمد بن علي الشوكاني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1979م، ص 32.

الشوكاني، وأصدرَ مرسومًا أسماه "طلوع شمس العدل" الذي صاغه القاضي بنفسه، وذلك للقيام ببعض الإصلاحات الضرورية التي تقتضيها الدولة وقد بدأت بالتفلسف والانهيار.¹

وعودة إلى ما لاقاه كبار أئمة هذه الفترة من اضطهاد؛ فمثلًا.. نسي العلامة الإمام ابن الأمير الصنعاني أن يدعو للإمام المهدي في إحدى خطب الجمعة بالجامع الكبير بصنعاء، فأثار هذا غضب كثير من المتعصبين من القاسميين وأتباعهم؛ الأمر الذي أودى بابن الأمير سجينًا في القلعة، جوار ورشة سك النقود لمدة شهرين متتاليين. وقد نظم ابن الأمير قصيدة شعرية في ذلك، صورت حالته في السجن، وانزعاجه الدائم من أصوات الطرقات وآلات سك النقود التي لا تكاد تتوقف، والتي كانت من وظيفة اليهود حينها، ولم يكن يهدأ له بال إلا يوم السبت فقط، لأنه يوم مقدس عند اليهود لا يعملون فيه كما هو معروف..

جوار يهود ما لهم في الهدى ثبت

وجاورت دار الضرب كرها وبئس ذا

فما لمنام العين في قريهم بخت

مطارقهم هن الطوارق للفتى

ولا عوج فيه لمثلي ولا أمت

فأنشدت بيتا قد تقدم عهده

حنيفٌ ولكن خير أيامي السبت!!

ومن أعجب الأشياء أني مسلمٌ

ويأتي هذا التجهيل للشعبِ وصرفهم عن العلم والتعلم، ليسهل قيادهم وتحشيدهم في العمليات السياسية التي تخدم فكرهم ومصالحهم هم وأتباعهم؛ لأنَّ قيادة العوام بالعاطفة الدينية أمرٌ سهل، وسلاح جاهز.

¹ - ثمة مؤشح يماني شهير للمقري الشَّيخ محمد حسين عامر يشير إلى حياة الإمام المنصور في إطار الوعظ والاعتبار بمن لم يغبه ماله عن ماله، ومنه:

انظر إلى قصة المنصور أتوه بغتة إلى البستان.
والشملة قد مزق الديجور بالنبل والسيف والنيران

وأخرجه منها مأسور وكان في العز والسلطان
فلا نفع عبود مسرور ولا السماوي ولا مرجان

ولذا فلا غرابة أن كان جهلة الشعب - وهم عاظمته أيامهم - يرون في الإمام - أيّ إمام - أنه ظلّ الله في الأرض، وأنه قبله المسلمين، ولا يجوز الاعتراض عليه، رضاه من رضا الله، وغضبه من غضب الله..

أمّا لسانُ اليمَنِ العلامة أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني فالإساءةُ إليه من قبلهم أكبر من أن توصف، حين اختلفوا معه، فقد سجّنه أكثر من مرة، إحدى هذه المرات عشر سنوات؛ وحرّضوا عليه الناس، وربطوه إلى ظهر جمارٍ وجلدوه، ثم طأفوا به القُرَى، إمعاناً في الإهانة منه، وذلك بدعوى تفضيله القحطانيّة على العدنانيّة! وهي واحدة من التُّهم السّافرة التي وُجّهت له كما وُجّهت لغيره. والحقيقة أنّ الهمداني كان عالماً متبحراً في شتى فنون العلم، وضليعاً في حِصارة اليمَن القديم، وقد ساءه تصرفات الطبريين والعلويين وإساءاتهم لليمنيين، فنادى باليمنيّة، وأن يستعيد اليمانيون دورهم الريادي والحضاري بأنفسهم دون اعتمادٍ على أحد، وقد كانت قصيدته الشهيرة "الدامعة" التي تنوف على ستمئة بيتٍ أشبه ببيانٍ سياسي بالنسبة لمتعصبة الهادويّة وأتباعهم، فأذوه وسجّنه ونفوه..

ولنتوقف هنا مع هؤلاء الثلة من العلماء الفطاحلة، والأئمة المجددين، المذكورين سابقاً وغيرهم ممن لم يُذكروا، فقد يقول قائل: كيف نبغ هؤلاء؟ ومن أين أتوا؟ ألم ينشأوا ويتعلموا في ظلّ حُكم الأئمّة؟

والجواب: نعم. نشأوا في ظلّ حُكم الأئمّة وحكمهم؛ لكن، ومن ناحية أخرى، لماذا تميزت هذه الفترة فعلاً عن غيرها من الفترات، سواء السابقة أو اللاحقة؟

أقول: لم يكن للأئمّة - في الغالب، وكتوجه سياسيٍّ مدروسٍ - اهتمامٌ بالعلم والتعليم ونشره إلا في أضيق الخدود؛ فكان ثمة ردودٌ فعلٍ على المستوى الشعبي؛ حيث بنى الناس هجر العلم ومعاقبها ومدارسها في أنحاء اليمَن بجهودهم الخاصة، وأوقفوا لها الإقطاعيّات والصّياغ الواسعة من خصوصيّة أموالهم؛ بل من أحصبها وأرغدها، فكانت هذه المدارس التي تخرّج فيها كثيرٌ من طلاب العلم والعلماء.

وهنا قد يقول قائل ما، لم تكن بنية الدولة الضامنة أو دولة الكفاية، قد تشكّلت في أذهان الناس والحكام يومها. فتنفق على التعليم والصحة والغذاء وغيره، كما هو الشّأن في كثيرٍ من

الأماكن. أقول: هذا غير صحيح؛ فقد شهد عصرُ الصليحيين "عاصمتهم جبلة في إب" وعصرُ الرسوليين "عاصمتهم الجند في تعز" فيما بين القرنين الرابع والسابع، حالة ازدهارٍ علمي وثقافي وفكري لم يكن لها مثيل ربما على مستوى المنطقة العربيّة كاملة. وتأسست المدارس وهجر العلم ومعقلها ولا تزال آثارها شاهدةً حتى اليوم. ولم تُشتهر زيد مدينة العلم والعلماء إلا من تلك الفترة؛ حيث بلغت مدارسها بالعشرات، وإليها تقاطر طلبة العلم من كل صقع من أصقاع اليمن؛ بل من خارج اليمن. وعلى إثر هذه النهضة العلميّة تحسّنت معيشة الناس كثيرًا، وتطورت بصورةٍ غير معهودة، وبلغت أنواع الوقف في اليمن حينها مبلغًا لا مثيل له في المنطقة كلها؛ بل يذكر البعض أنها وصلت ثمانين نوعًا، كما ذكرنا سابقًا..

وعودةً إلى الفكرة السابقة فيما يتعلق بالعلماء الذين نشأوا وصاروا أئمةً مجددين كما ذكرنا، فثمة أسبابٌ أخرى - أيضًا - لبروزهم وتمييزهم، ومنها التقاء مصالح الأئمة السياسيّة مع توجهات هؤلاء العلماء، الذين خرجوا من رتبة التقليد والطاعة العمياء للمذهب إلى رحاب الاجتهاد والترجيح لما صح عندهم؛ كونهم أصبحوا إلى مذهب أهل السنة أقرب، ومذهب أهل السنة منضبطٌ إلى حدٍ كبيرٍ فيما يتعلق بالعلاقة بين الناس وبين الحكام؛ خلافًا للمذهب الزيدي/ الهادي الذي قرّر شروطًا مثاليّةً، استعصت على التنفيذ العملي على أرض الواقع إلا فيما ندر وهي شروطٌ جيدة، ولا غبار عليها نظريًا؛ لكن ما تم عمليًا وعلى أرض الواقع هو غير ذلك. ومن يتأمل بعمق تاريخ التحولات السياسيّة وطبيعتها وآلياتها خلال حكم الإمامة كما لا يجد أنّ الحكم لمن امتلك القوة والغلبة فقط، وبقية تلك الشروط بعيدة المنال في الأغلب الأعم. وسواء كانت هذه القوة ماديّة أم معنويّة، أم الاثنان معًا. وقد ذكر المؤرخ يحيى بن الحسين بن القاسم أن الإمام المتوكل على الله إسماعيل حين تصارع على الحكم مع أخيه أحمد على أحقيته بالإمامة كان يعد كل من يبائع بالبدل والعتاء، خاصّةً محمد بن الحسن وأخاه أحمد بن الحسن اللذين كانا السند الأول له "فجعل لهما اليمن الأسفل. ولم يقتصر عطاؤه لهما فقط؛ فقد أعطى الكثير من أبناء إخوته ما يهواه، فولى الحسين بن الإمام المؤيد على بلاد عفار وشهارة والشرف الأسفل، وأعطى محمد بن الحسين خفّاش

وملحان والشرف الأعلى، وكان توزيعه الولايات لأبناء إخوته قبل أن يجسم الأمر، وكان يعدهم بالعبء؛ لأنه كان عند إعلان إمامته يشكو من قلة ذات اليد، ولم يكن أمامه إلا الوعود..¹

ولأيّ مُتسائلٍ أن يتساءل: أين هو تاريخُ اليمَنِ العامِّ وتاريخُ اليمَنِ الحضاري والفكري الذي كان يجبُ أن تتم كتابته خلال فترة حُكم الأئمّة مُنذ الهادي وإلى مُنتصفِ القُرْنِ العَشرين؟!!

أين تاريخُ اليمَنِ السبئي والحَميري والقُتبي والحِمْيري الذي يجبُ أن نفاخرَ به العالم؟!!

لا نكادُ نجدُ مؤلفًا جامِعًا في هذا المجال خلال فترة حُكم الأئمّة كلهم، باستثناء ما كتبه الهمداني الذي سجنوه ونفوه وعذبوه، لهذا السبب! فقد محوا وطمسوا حضارةَ اليمَنِ وتاريخه عمدًا، من أجلِ القضاء على هوية الشعبِ الأصيل، ولربط اليمَنِ بهم زورًا وبهتانًا! وما عسى القارئُ أن يجد غيرَ الفواجع والآلام التي تمتلئُ بها كتبُ التاريخِ عنهم!²

لقد أبقى الأئمّة اليمَنَ معزولًا على نفسه، ومنغلقًا على ذاته، حتى لا يرى الشعبُ نورَ العلم، فتتكشفَ سوءاتُ حُكمهم وعوارِ سياسَتهم. لقد كان أولُ ما عمَله الإمامُ يحيى عندَ دخوله صنعاء - مظفرًا بالنصرِ على حُصومه الأتراك، وقد رحلوا عن اليمَنِ - أن هدمَ دار المعلمين التي بناها الأتراك لليمنيين، وقضى على كثيرٍ من المعالم الحضاريّة التي من شأنها أن تنيرَ عقولَ الشبّابِ والنّاشئة.³

إبان العهد التركي في اليمَنِ مارس الأتراك من المخالفات وأعمال القمع ما جعلَ اليمَنيين يثرون عليهم، ويتحالفون مع الإمام يحيى للنضالِ ضدّهم، فيلى جانبِ الصرّامة الإداريّة والسّياسيّة التي كانوا يميزونَ بها فقد أضافوا إليها القمعَ والحدة في التعامل. وهذا ما لم يألّفه اليمَنيون، ولكن مع هذا

¹ - بهجة الزمن، سابق، 33.

² - بلغ عدد دور صنعاء أيام خلافة هارون الرشيد مئة وعشرين ألف دار، فيما بلغ عدد مساجدها عشرة آلاف مسجد، يعتبر كل مسجد فيها إضافة إلى كونه مسجدًا أيضًا مدرسةً تعليمية، كما هي عادة تلك الفترة، ليس في اليمن فحسب؛ بل في أرجاء العالم الإسلامي.. وقد أشارت إلى بعض معالمها الحضارية كل كتب التاريخ؛ أما هذا العدد فمن كتاب: تاريخ مدينة صنعاء، أحمد عبدالله الرازي، تحقيق الدكتور حسين عبدالله العمري، دمشق، ط: 1، 1981م، 106.

³ - أنشأ الإمام يحيى المدرسة العلميّة بصنعاء، المخصصة لأبناء الذوات وعلية القوم، وأنفق عليها من أموال الدولة عقب هدم دار المعلمين التركية التي كانت لا تعرف هذا التمايز أثناء الوجود التركي. ويقتضي الإنصاف هنا أيضًا الإشارة إلى دور السيف عبدالله، نجل الإمام الذي لم يكن يتسم بعقلية والده أو أخيه السيف أحمد، فقد كان منفتحًا إلى حد كبير قياسًا إلى بقية إخوانه، وقد عمل على تأسيس أكثر من مدرسة في اليمن يومذاك، وسط معارضة أبيه وأخيه أحمد.

لنقارن بين ما قاله أحد الشعراء مصوراً قمع الأتراك وفسادهم وجورهم، وبين ما صار عليه الأمر من بعد، يقول الشاعر الشعبي:

أشكو من الترك لو يُسمع لي الشكوى وأرتجي من إلهي يدفع البلوى
قد ضروا الناس جمعه وأحموا المكوى ميرى، حقوق، فرق، دمغة، كل يوم مدوى

لكن بعد رحيل الأتراك عاد اليمينيون للترحم على فترتهم وذكرها بكل خير، لأنها حققت لهم بعض الإنجازات اليسيرة مما يمكن أن نسميه اليوم "مشاريع البنية التحتية" التي عمل الإمام يحيى على هدمها بعد ذلك، إضافة إلى أن الإمام يحيى بدا كالأتراك أو أكثر، إذ لم تنته مطالبته، أو يكف عن الناس جنده وأتباعه، وقد قال أحد الشعراء معبراً عن ذلك:

قد كانت الأتراك أحسن خطة من سيّدٍ قد غرّنا بدعائه
كم قام فينا خاطباً متضرعاً مستنصراً متوسلاً ببكائه
ويعدُّ للأتراك بعض مثالب قد أصبحت من بعد من سيمائه
حتى المكوس أحلها لكأنما حلّ الحرام معلّق برضائه

وفي عهده منع اليمينيين من شراء الراديو، وأيضاً منع السماح بدخول الصحف التي كانت تصدر في عدن خلال فترة حكمه، أو التي تأتي إليها من خارج عدن. ويُسجل القاضي عبد الرحمن الإيراني رئيس الجمهورية العربية اليمنية الأسبق قصته مع الراديو وهو في تعز عام 1947م بقوله: " .. وقد كان السيد حسين الويسي ينزل في غرفة مجاورة لغرفتي في الدار الشرقي من مقام العرضي، وكان يتردد على عدن، ويعود بالكثير من الكتب والصحف، بما فيها صوت اليمن. وكنت أطلع على كل ما يأتي من صحف ومجلات وكتب. وقد لا يُصدق القارئ إذا قلت له إننا لأول مرة نستمتع إلى الراديو؛ ولذلك تاقت نفسي لشراء جهاز، ولكن كيف لي بذلك وقد كان شراء الراديو

منوعاً تحت حجة أنه يذيع أغاني يجرمُ استماعها؟! وبعثت رسالةً رجاءٍ إلى الإمام يحيى أطلبُ "فيها" السَّماعَ بشراءِ راديو للاستماعِ إلى الأخبارِ وما يُذاع من برامجٍ ثقافيةٍ وعلميةٍ، وجاءَ الجوابُ بقلمِ الإمام يحيى نفسه على ظاهِرِ رسالتي يأذنُ بشراءِ الراديو، ويقول: "ومثلكم ممن لا يلهو بسماعِ الملاهي" ليؤكدَ بذلك أنَّ منعَ اقتناءِ أجهزةِ الراديو على المواطنين إنما باعتهُ خوفُ الفتنةِ عليهم بما يُذاع من الأغاني المحرَّمة، ولما أمِنَ عليَّ الفتنةَ أذنَ بالشِّراءِ. أسجلُ الحادثةَ لأعطي للمطلعِ صورةً عن العزلةِ التي كانتَ مضروبةً على اليمنِ في عهدِ الإمام يحيى، إلى حدِّ أنَّ المواطنَ يحتاجُ من أجلِّ أن يقتنيَ جهازَ راديو إلى إذنٍ خاصٍ من الإمامِ وبقلَمِهِ، وكانت أشبه ما تكونُ بدائرةٍ مغلقةٍ لا يزورها أحد، ولا تزورُ أحدًا، حتى إنه لم يكن في اليمنِ من الأوروبيين خلال فترةِ الإمام يحيى غير خمسةِ أشخاصٍ فقط، كما ذكرَ الدكتور الشكعة!¹

وحين بدأتُ تتسللُ بعد ذلك عن طريقِ التجارِ والمغتربين كان النَّاسُ يستمعون للراديو في سرِّيَّةٍ مُتناهيةٍ، خشيةً أن تطالمهم عُيُونُ الإمام، ومن ثم تنزلُ بهم العقوبة؛ أمَّا حين تم تأسيسُ إذاعةٍ خاصَّةٍ بدولةِ الإمام فلم يكن بثَّها يتجاوزُ غير ساعتين إلا الربع فقط، مقتصرًا على برامجٍ تقليديةٍ، وظلَّ نشرُ الأغاني عملاً محرَّمًا حتى وقتٍ متأخِّرٍ من عقد الخمسينيات!²

ولم يكنِ يسمَعُ بالسَّفرِ للتعليمِ في الخارجِ للشبابِ إلا من مطلعِ الثلاثينياتِ فقط، خشيةً أن يتأثرَ هؤلاء الطلابُ بالوضعِ في الخارجِ، فيعودون بثقافةٍ جديدةٍ ومطالبَ جديدةٍ! كما لم يسمَحَ بإنشاءِ بريدٍ يمتدُّ يربطُ البلادَ غيرها من الدُّول على الأقلِّ المجاورة، وقد كان أبناءُ تعز على وجهِ التَّحديدِ إذا أراد أحدهم أن يرسلَ رسالةً لقريبٍ له في الخارجِ يذهبُ إلى عدن لإرسالها من هناك، وإذا ما أراد معرفةَ الجوابِ يعود ثانية إليها! ولعلَّ السَّببُ في هذه الجزئية على وجهِ التَّحديدِ أن الإمامَ كان

¹ - مذكرات الرئيس القاضي عبد الرحمن بن يحيى الإيراني، سابق، 130. وقد ذكر البعض أن الإمام يحيى كان يلاحق المغنين والمطربين في صنعا لحبسهم، إذ لم يكن الغناء في عهده من المسموح به! وانظر أيضًا: مغامرات مصري في مجاهل اليمن، سابق، 48.

² - اظر الثقافة والثورة في اليمن، سابق، 426 فما بعدها. ذكر الدكتور مصطفى الشكعة أن تاجرًا هنديًا كان يقيم في الحديدة، ففكر بفتح سينما هناك، فاستأذن الوالي إلا أن الوالي لم يستطع البيت في ذلك، وأرسله إلى الإمام بصنعا، وشد الهندي الرحال إلى صنعا، وبعد انتظار ثلاثين يومًا في صنعا استطاع مقابلة الإمام، وعندما طرح عليه أمر فتح سينما، أجابه الإمام بأن له عليه ثلاثة شروط، أولها: ألا تُعرض السينما أفلامًا خليعة، والثاني: ألا تفتح في وقت الصلاة، وثالثها: أن يكون الدخول إليها مجانًا!! فصعق الهندي، وأقسم ألا يقيم باليمن بعد ذلك اليوم يومًا واحدًا، وفعلاً فقد عاد إلى الحديدة ومنها إلى الهند مباشرة!! مغامرات مصري في مجاهل اليمن، سابق، 86.

متفوقاً على نفسه، فلم يكن يُسافر هو ليس خارج البلاد؛ بل خارج صنعاء! ولك أن تتخيل أن الإمام يحيى لم يخرج من صنعاء منذ أن دخلها عام 1918م إلا مرتين فقط، مرة إلى حمام دمت¹، عام 1942م² وقبلها رحلة واحدة فقط إلى كوكبان سنة 1928م أثناء تهديد بريطانيا بضرب صنعاء بالطيران. وقد توفي ولم ير البحر قط! كما توفي ولم يؤد فريضة الحج على الرغم من استطاعته على أدائها!

"لقد رفض الإمام يحيى أن يقيم سفارة له في أي بلد، كما رفض أن تُقام أي سفارة في بلدنا. ولقد رفض الانضمام إلى الجامعة العربية، لأنها من تأسيس الاستعمار البريطاني، كما لم يهتم بالدخول في عُصبة الأمم، أو هيئة الأمم.."³ كما كان يرفض أن يحصل اليمني حتى على جواز السفر، وفي فترة متأخرة، وبعد تزايد ضغوطات الطلبات عليها أعطى أحد مقربيه آفاقاً من جوازات السفر، فكان يبيع الجواز الواحد بقيمة تتراوح ما بين 60- 100 ريال للجواز الواحد، وهو مبلغ يعجز المواطن العادي أن يحصل عليه، بينما سعره الرسمي 17 بقشة!⁴

¹ - كانت حينها إحدى نواحي محافظة إب التي كان ولده الحسن أميراً عليها، وقد أصبحت تتبع محافظة الضالع بعد التعديلات الإدارية التي أعقبت الوحدة اليمنية. وفيها حمام مياه كبريتية للاستشفاء..
² - ذكر البردوني أن زيارة الإمام إلى دمت، كانت سنة 1946م، وأنا أرجح هنا رواية القاضي الإيراني، لاعتماد الإيراني على التوثيق في غالب ما كتب، ولا اعتماد البردوني - غالباً - على الرواية أو الاستنكار، والذاكرة خيانة أحياناً، ثم إن للبردوني هئات هينات فيما يتعلق بتاريخ الأحداث التي طالما كتب عنها في كتبه، وهي كثيرة، وليست هذه الوحيدة. وقد ذكر أن زيارة الإمام هذه كانت في سيرة تامة، خوفاً من انتشار الفوضى في العاصمة أثناء غيابه. وتذكر بعض المراجع أن الإمام يحيى اندهش في يوم مطير هناك بالماء يغمر الحقول والزرور المخضرة، وهي في كامل تسنيلها، فجز ذلك في نفسه أن يكون لها مثلها، وعلق قائلاً: "عاد احنا ما عرفنا ما مع الناس إلا اليوم!" وليس ذلك ببعيد فقد روى أحمد عبد الوهاب الوريث في كتابه "الأسود" أنه كان إذا لبس أحد الناس قميصاً جديداً ظهر السؤال والغضب في عين الإمام يحيى، ولا يتحرج أن يسأل من أين لك هذا القميص؟! كما كان الإمام يحسد الشيخ الطرماح على علمه، كونه أكبر علماً منه، ولم يكن يذكره إلا بقوله: الأعمى الشرير!! بل لقد ذكر الدكتور الشكعة أن الإمام لم يكن يسمح لأحد بإرسال "العذبة" المتدلية من قذال الرأس لأحد أبداً، باستثناء عبدالله الوزير، وإلا فهذا مما يختص به الإمام دون غيره من الناس. 161. وذات الشأن تكرر مع الإمام أحمد الذي خرج إلى جدة في المملكة العربية السعودية لأول مرة عام 1958م، ولمدة يومين فقط، أما سفرته الثانية فقد كانت في العام التالي 59م إلى روما للعلاج "اصطحب معه بعضاً من الرهائن!!" وأثناء غيابه في روما تفجرت شرارات النضال ضده بغياؤه. ولم تُحسم إلا بعودته، وقتل حميد، وحسين الأحمر، وسعيد فارح، وغيرهم. وهذا دليل على أن الدولة الإمام والإمام الدولة!
³ - قضايا يمنية، سابق، 270.

⁴ - انظر: ثورة 26 سبتمبر في اليمن، سابق، 149. وللعلم فقد كانت المطالبة بحق اليمنيين في الحصول على جواز السفر إحدى بنود الإصلاحات الوطنية التي طرحها المناضل ناشر عبد الرحمن العريقي باسم الجالية اليمنية في شرق أفريقيا.

لقد كان الإمام يحيى يرى نفسه الأوحَدَ في قيادة البلاد، فيتدخل في كل صغيرة وكبيرة، غير أبه بالحكم فلسفة وإدارةً ومسؤوليةً، في فترة تحوُّلٍ مهمةٍ هي بعد خُروج العثمانيين من اليمن؛ بل من الوطن العربي أجمع، وبحسب البردوني: "كانت هذه الفترة تستدعي نظريتهً سياسيةً جديدةً، وشكلاً مختلفاً من الحكم، فقد كانت الديموقراطيات - على أي شكل - معلنة ومطبقة في أكثر شعوب العالم، وبالأخص بعد سُقوط النير العثماني، فقد نشأت أحزابٌ، وتشكلت برلماناتٌ في مصر وسوريا والعراق، على حين كان الميدانُ في بلادنا مهياً لفارسٍ واحدٍ هو الإمام يحيى، وكان "العقد الاجتماعي" لعهدِه هو كتابُ "الأزهار" لأحمد يحيى المرتضى، من علماء القرن الثامن الهجري، بالإضافة إلى شُرُوحاتِ الكتابِ واختياراتِ الإمام الجديد.."¹

وحين ولى الإمام يحيى ابنه إسماعيل وزارةَ المعارف لم يكن بوسعه، وهو الوزير أن يدخل طالباً في أية مدرسةٍ إلا بموافقة أبيه، كما لم يكن في مقدور نجله الآخر وزير الصحة أن يدخل مريضاً في المستشفى إلا بموافقة أبيه، ولا في مقدور وزير المواصلات أن يوظف ساعي بريدٍ إلا بموافقة الإمام نفسه، كما ذكر ذلك البردوني² بل إنَّ العزي السنيدار حين اضطرَّ لدخول هذا المستشفى في صنعاء نتيجة لكسرٍ في اليد، طلبت منه إدارةُ المستشفى أمراً ملكياً بالسَّماح له بالدخول وأخذ العلاج، وحين ذهب إلى الديوان الملكي طلبوا منه أولاً حُكماً شرعياً يُثبت فقره واستحقاقه للعلاج المجاني، وهكذا فقد يموت المريض ولا يزال في إجراءات ما قبل الدُّخول..³

ولنستمع هنا لشهادةٍ تاريخيةٍ بقدر ما تبعثُ على الأسى والحزن، بقدر ما تثيرُ من السُّخرية، رواها الدكتور مصطفى الشكعة، وقد كان قريباً من الإمام يحيى، خاصةً خلال فترته

¹ - اليمن الجمهوري، سابق، 467.

² - نفسه، 270. يذكر الدكتور الشكعة، في كتابه المذكور ص 103 وهو الخبير المطلع بشئون التعليم يومها، أنه في نهاية حكم الإمام يحيى لم يكن يوجد في اليمن كلها حافظ واحد للقرآن الكريم، كما لم يكن الطلاب يدرسون اللغة الإنجليزية أبداً في المدارس الموجودة، وهي ثلاث مدارس في مستوى الإعدادية تجوزاً تُدعى بالثانوية، في كل من صنعاء وتعز والحديدة، وثلاث مدارس أخرى في مستوى الابتدائية تجوزاً، وتدعى المتوسطة في المدن الثلاث ذاتها، ثم مجموعة من الكتاتيب في المدن الأخرى وبعض القرى، مشيراً إلى واقعة طريفة يومها وهو أن قام سيف الإسلام الحسن بتصريح للصحافة المصرية حين سألوه عن نسبة التعليم في اليمن، فأجاب بكل جرأة وبغير خجل: إنها مئة في المئة! كما أن عقوبة التلميذ يومها إذا أخطأ أن تُقيَّد قدماء بالحديد كأنه مجرم! وقد أشار الدكتور عبد العزيز المقالح إلى أن الوثائق قد أشارت إلى أن عدد الملتحقين بالتعليم في اليمن كله أثناء قيام ثورة 26 سبتمبر 62م ستة آلاف طالب فقط، في الوقت الذي وصل عددهم منتصف الثمانينيات وأخرها إلى ما يقرب من مليون طالب، وهذا في اليمن الشمالي سابقاً فقط! وللقارئ أن يتخيل الهوة بين العديدين!

³ - الطريق إلى الحرية، سابق، 247.

الأخيرة. يقول: "والحكومة اليمينية لا تؤمن بالأطباء، ولا بالعلاج الحديث، وترى أن الأطباء يفدون ومعهم الثورة، كما ترى أن العلاج الحديث رجس من عمل الشيطان؛ ولذلك فقد شجعت الشعب على العلاج بالتمائم، وقد شاهدتُ بنفسي تائم كان يكتبها الإمام يحيى، ملك اليمن، لكي تستشفى بها الرعية، وحتى يكون العلاج ناجحًا، كان يتقاضى عن كل حجاب "تميمة" نصف ريال يمني. إنه ثمنٌ رخيصٌ ولا شك، لأنه يشتملُ على الكشْفِ والدواء معا!!"¹

مضيفًا: ".. وعلى عهدي باليمن كان في الدولة كلها ثلاثة أطباء، واحدٌ في الحديدة،.. واثنان في صنعاء.."²

ولو عُدنا إلى ما قبل فترة الإمام يحيى، باحثين عن حال مدينة صنعاء وحال الطب فيها لأصبنا بالدهول والدهشة، حين يحدثنا الرَّحالة الإيطالي "مانزوني" الذي زارها في العام 1877م؛ قبل حُكم الإمام يحيى، "أثناء حكم الأتراك"؛ حيثُ يصفُ لنا المستشفى العام بصنعاء: ".. فهو مبنى رائعٌ وضخم، مصمَّمٌ على الطريقة الأوروبية، يتألف من طابقين، له أروقةٌ عريضةٌ جدًّا، وعشرون صالةً واسعةً للمرضى، مقسَّمةٌ بحسبِ الأمراض؛ لذلك نُجدُ صالَّةً للمصابين بداء الزهري، وصالَّةً للجراحة، وصالَّةً للمصابين بالحمى، وصالَّةً للأمراض المعديَّة، وصالَّةً للأمراض البصرية.. إلخ. وهناك دُرجان وإسكان على جانب المبنى الرئيسي. وللنوافذ العالية والعريضة زجاجٌ على الطراز الأوروبي، وستائرٌ ملونةٌ للتخفيفِ من حدة الضوء. ونجدُ - أيضًا - صيدليَّةً غنيَّةً ومختبرًا كيميائيًا مُرتبًا ومزودًا بشكلٍ جيد، وغرفةً للأموات. ويحتوي على 370 سريرًا، مصنوعًا من الحديد، وكل سرير له فرشان ووساداتان وغطاءان من الصُوفِ وملاءتان، وبجانب كل سرير توجد طاولةٌ عليها كأسٌ وصحنٌ أبيضٌ معدني، وعلى رأس السرير توجد لوحةٌ سوداءٌ معلقةٌ على الحائط، يُكتبُ عليها بالخط "الطباشير" اسمُ المريض، ومرضه بالفرنسيَّة. يقومُ بالواجبِ الطبي سِتُّه أطباء، كلهم مسيحيون، على رأسهم طبيبٌ تركيٌّ برتبة عقيد، وهناك ثمانية جراحين، وعشرة صيدليين، وخمسة عشر ممرضًا، وكثيرٌ من الخدم العربِ والأتراك. هناك أيضًا رجلٌ دين، وهو قاضٍ تركيٌّ يلبسُ عمامةً

¹ - مغامرات مصري في مجاهل اليمن، الدكتور مصطفى الشكعة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط:1، 1985م، 125. وانظرها أيضًا في كتاب: من الأنين إلى الثورة، الدكتور عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط:1، 1983م. 105.

² - نفسه، 126.

خضراء، ويوجدُ مطبخٌ كبير، يقوم عليه ثمانية طُهاة، يجهزونَ الطعامَ للمرضى حسب طلب الطبيب.. لجميعِ المرضى زِيَّ خاص، يتألَّف من خُفين، وسروالٍ واسعٍ من القُماش الأبيض، وقميصٍ أبيض، ورداءٍ زهرِيّ اللون، وقبَعَةٌ بيضاء.. ومع أنَّ هذا المستشفى عسكريٌّ في أساسه؛ ولكون مدينة صَنعاء تفتقرُ لمستشفى مدني، فإن المدنيين الأتراك والمسيحيين والعرب يستطيعون مراجعته بعد تقديم طلبٍ إلى الرئيس باشا. الأغنياء يدفعون، أما الفقراء فيتم استقبالهم مجاناً..¹

أمَّا عن وضعِ مُدن اليَمَن حينها، ولم تكن غير صَنعاء وتعز والحديدة تقريباً، مقارنةً بغيرها، فيقول: "فإن كلَّ مدينةٍ من هذه التي ذكرنا لا تزيد من ناحية السُّكان على أية قريةٍ مصريةٍ متوسطةٍ، فضلاً عن الفارق الحضاري الذي يفصلُ بين المدينة والقرية المصرية؛ إذ القرية المصرية على ما بها من تأخر - تسبق المدينة اليمينية بخمسة سَنَة على الأقل، فالعاصمة نفسها ليس بها ماء ولا كهرباء ولا شوارع، وبالتالي ليس فيها وسائل مواصلات. وحتى أكون مُنصفاً أذكرُ أن في صَنعاء جهازين صغيرين لتوليد الكهرباء، أحدهما تُدار به محطة الإذاعة الصغيرة التي تشتغل لمدة نصف ساعة، بعد صلاة المغرب يوم الخميس من كل أسبوع. والجهاز الثاني لإضاءة بعض جوانب "دار السَّعادة" وهو قصرُ الإمام يحيى، والقومُ هناك يعتبرون هذا الضوء العجيب من مُعجزات الإمام، وكثيراً ما يراهنون على إطفاء المصباح الكهربائي بالتَّفخ بالفم، ولكن دون جدوى بطبيعة الحال، فيكون ذلك سبباً في تثبيت كرامة أمير المؤمنين، كما يُطلقون عليه هناك"²

ونقفُ هنا أمام قصةٍ هي من الطَّرافة بمكان، رواها المناضل القاضي عبد السَّلام صبرة، يقول: "وكان الشَّهيد حسين الكبسي العالم الورع، الذي كان يحترقُ ألماً أمام ما يشاهدُ من طغيان الإمام يحيى وأولاده، فقد تقدم بعد عودته من اليابان بتقريرٍ عن رحلته، قدمه للإمام يحيى، وفيه بعضُ ما شاهده. وقال في آخره: ما أحوجنا إلى أن نبدأ بمشروعٍ زراعي، أو صناعي، يعود نفعه

¹ - اليمن.. رحلة إلى صنعاء، رينزو مانزوني، الصندوق الاجتماعي للتنمية، اليمن، ترجمة: ماسيمو خير الله. ط: 1، مارس 2011م، 203.

² - مغامرات مصري في مجاهل اليمن، سابق، 77. وقد سمعت - شخصياً - من الدكتور عبد الكريم الإرياني، يوم 16 مايو 2013، في إحدى كلماته بنادي ضباط الشرطة - أن ثورة 26 سبتمبر 62م حين قامت، كان يومها طالباً في أمريكا، فقال إنه قرأ في الصحف الأمريكية التي تناولت حديث الثورة عن اليمن: أن ثورة قامت في بلد عربي اسمه اليمن، يسير حثيثاً نحو القرن الثالث عشر الميلادي!! لا عجب فالعملة الرسمية يومها نمساوية ضربت في النمسا عام 1785م!!

على الدَّوْلَةِ وعلى الشَّعب، وأن الإمام يحيى في اليوم التالي قد التقى بوزير خارجيَّته، القاضي راغب، وبعامل صنعاء، حسين عبد القادر، وقال لهما متهمكًا: الولد حسين الكبسي قد صار مرتدًا، "إنه" يريد أن يفعل في بلادنا مثلما يفعلُ النصارى في بلادهم!!"¹

وفي واحدةٍ من الحماقاتِ التاريخيَّة، وسياسةِ الهمجيَّة والحقد التي اتَّبعها هؤلاء أن عمدَ الإمامُ يحيى عام 1928م، إلى مُصادرةِ الوقفِ على أكبرِ مدرسةٍ دينيَّة، عُرفت عند البعض بجامعةِ الأشاعرة، كانت تُدرِّسُ مختلفَ فنونِ العلم، في زبيدِ بتهامة، ولمدينةِ زبيدِ شهرتها العليمة التي تجاوزتِ المحليَّة إلى القطرية، وتوافدَ عليها آلافُ المريدين على ما يزيد على ثمانمئة عام، وتخرج فيها آلافُ العلماء في مختلف المجالات، ولم يبق بعد تلك المصادرة، إلا المدارسُ الصغيرة، والكتاتيبُ الأولية؛ وتبع ذلك مصادرة العديد من أموال الأوقاف وإغلاق المدارس في أكثر من مكانٍ على طول اليمنِ الأسفل!²

وواصلَ الإمامُ أحمد نفسَ سياسةِ أبيه في تجهيلِ الشَّعبِ وتغييبه عن العالم من حوله، بمبرراتٍ وهميَّة لا تنطلي إلا على الجهلة من أتباعه، وذلك بحجة الحفاظ على الدين!
وقد قال ردًا على منتقديه في هذا الأمر: "على المرء أن يختار بين أن يكون حُرًا وفقيرًا، أو يكون مقيدًا وغنيًا، وأنا اخترتُ الاستقلال"³

ولهذه السِّياسةِ الانغلاقيَّة، ونتيجة لما عرف بالثالوث القاتل في عهده "الفقر والجهل والمرض" فقد هاجرَ من البلاد ما يزيدُ على مليونٍ يعني، يمثلون، ما يقارب 20% من سُكانِ اليمنِ الشَّمالي يومها إلى الجزيرة العربيَّة وإلى شرقِ أفريقيا، وبعضُهم إلى الولايات المتحدة الأمريكيَّة، متحملين كلَّ مخاطرٍ وقساوةِ الهجرةِ والاعتراب - بما تمثله من انقطاعٍ تامٍ أو شبه تامٍ عن الأهل والوطنِ يومها - على البقاء في الوطن، الذي لا يمثل لهم غير قطعةٍ أرضٍ مزروعةٍ يسطو عليها عساكرُ الإمام وقتَ الحصاد، فيحصدون المرارة ويقتاتون البؤس طوال العام!⁴

¹ - وثائق أولى عن الثورة اليمنية، المشير عبدالله السلال، القاضي عبدالرحمن الإرياني، القاضي عبدالسلام صبرة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:2، 1992م، 192.

² - ثورة 26 سبتمبر في اليمن، سابق، 154.

³ - التطور الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، د. محمد سعيد العطار، الجزائر، 1964م، 73.

⁴ - ذكرت الباحثة الروسية جولوبوفسكايا إيلينا أن عدد المهاجرين اليمنيين، وفقًا لما ذكرته جريدة الفضول في 26 ديسمبر عام 1952م، وقد أكدت حكومة الجمهورية اليمنيَّة أن الذين كانوا يعيشون في المهجر أثناء قيام ثورة 26=

وكانت الدول التي يصل إليها اليمانيون تنظرُ شزراً وبدويّة لليمنيين، نظراً لوضعهم المأساوي، وملكانة الدولة اليمانية نفسها لديها، وكانوا يتخذون من أرصفة الشوارع مأوىً وتُزلاً لهم إلا ما ندر. وكان من أكثر المهاجرين أبناء حضرموت في القرن الثامن عشر، والنصف الأول من القرن التاسع عشر إلى بلدان جنوب شرق آسيا، كأندونيسيا والهند وماليزيا وسنغافورة وبروناي وغيرها.¹

وثمة قصيدتان تاريخيتان صوّرتا حال اليماني المشرّد البئيس في بلاد الله، بحثاً عن الرزق الحلال، وقد يمس من بلاده على خيراتها، الأولى للشاعر والمؤرخ مطهر الإرياني، بعنوان: البالة:

والليلة البال ماللنسة السارية	هبت من الشرق فيها نفحة الكاذية
فيها شذى البن، فيها الهمسة الحالية	عن ذكريات الصبا في أرضنا الغالية
والليلة العيد وأنا من بلادي بعيد	ما في فؤادي للظوفان الأسى من مزيد
قلبي بوادي بنا، وأبين، ووادي زايد	هايم وجسمي أسير الغربة القاسية
خرجت أنا من بلادي في زمان الفنا	أيام ما موسم الطاعون قالوا دنا
وماتوا أهلي ومن حظ النكد عشت أنا	عشت أزرع الأرض و احصد روعي الذاوية
ذكرت أخي كان تاجر أينما جا فرش	جوا عسكر الجن شلوا ما معه من بقش
بكر غبش، أين رايح؟ قال أرض الحبش	وسار واليوم قالوا: حالته ناهيه
بكرت مثله مسافر والظفر في البكر	وكان زادي مع اللقمة ريالين حجر

=سبتمبر 62م مليون ومئتا ألف مهاجر، شكلوا ما يشبه المستعمرات أو الكانتونات في بلاد المهجر التي سكنوها، عاد بعضهم إلى المملكة العربية السعودية عقب ثورة النفط، وبعضهم إلى شرق أفريقيا، وبعضهم إلى عدن.. انظر كتاب: ثورة 26 سبتمبر في اليمن، 155. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن اليمن الشمالي كان إبان قيام ثورة 26 سبتمبر 62م في حدود خمسة ملايين مواطن، وهو ذات العدد الذي كان عليه اليمانيون مطلع القرن العشرين، كما تذكر بعض المصادر التي أشارت إلى ذلك على وجه التقريب.. أي قبل ستين سنة، وكان أرحام اليمنيات قد عقلت عن التناسل، غير أن الأمراض الفتاكة وأمراض القرون الأولى قد غادرت كل بلاد العالم واستقرت في اليمن تقنات من أرواح اليمنيين وأجسادهم!!

¹ - تاريخ القبائل اليمنية، حمزة علي لقمان، دار الكلمة، صنعاء، ط:1، 1985م، 351.

وأبحرت في ساعة تحمل جلود البقر
بحث عن شغل في الدكة وداخل عصب
شكيت لاخواني البلوى وطول التعب
وعشت في البحر عامل خمسة عشر سنة
وسودّ الفحم جلدي مثلما المدخنة
مثل الطيور القواطع طفت كل الجزر
واخترت "بر الدناكل" مُتَجَرِّبًا بِالْحَصْرِ
غريب في الشاطئ الغربي بجسمه نزل
يا ليت والبحر الأحمر ضاق ولا وصل
من كان مثلي غريب الدار ماله مقر
أبكي لك أبكي، وصب الدمع مثل المطر
غنيت في غريبي: يا لله لا هنتنا
راجع أنا يا بلادي يا ديار هنا

والبن للتاجر المحظوظ والطاغية
وفي الطرق والمباني ما وجدت الطلب
فقالوا: البحر. قلت البحر وا ساعة
في مركب "اجريكي" أعور حازق الكبتنة
وطُفَّت كم يا بلود أرضها قاصيه
غويت لي ما غويت لما كرهت السفر
من حي لا حي يا مركب بلا سارية
والروح في الشاطئ الشرقي وقلبه رحل
جسور تمتد عبر الضفة الثانية
فما عليه إن بكى وأبكى الحجر والشجر
ومن دم القلب خلي دمعتك جاريه
ومزق الشوق روحي في لهيب الضنا
يا جنتي يا ملاذي يا أمي الغالية

هذه أبلغ صورة من الشتات وعذابات الاغتراب لليمني الذي أضنته الإمامة جوراً وقتلاً
وتشريدًا، وهو نجل سبأ وجميّر، وفي أرضه من الخيرات الكثير لو سلمت - فقط - من نهب واستحواذ
جلاوزة الإمامة التي أكلت الأخضر واليابس وجعلت من المواطن مجرد عامل لها على مر العام فقط.
والقصيدة الأخرى - أيضًا - للشاعر عبدالله البردوني، وليست بعيدة عن سابقتها، بل مجسدة
تلك الحالة المزرية بصورة أجلى وأوضح. والقصيدتان كلتاهما تتذكران المآسي، وكلتاهما تتغنيان

بالوطن، وكتلتهما تنتهيان بأملٍ مغدور. كما أن كلتيهما أشارتا لفترة الإمام يحيى، والحقيقة لكل فترات الأئمة سابقًا ولاحقًا.. وعنوان الأخيرة: "غريبان وكانا هما البلد".

من ذلك الوجه؟ يبدو أنه "جَندي" لا
أظنه "مكرد القاضي" كقامته
لعلّه "دبعي" أصل والده
عرفته يمينًا في تلقّته
من خضرة القات في عينيه أسئلة
رأيت نخل "المكلا" في ملامحه
من أين يا بني؟ ولا يرنو، وأسأله
ضَمَيْتُهُ مِلءَ صَدْرِي. إنّه وطني

بل "يرمي" سادعو، جدّ مبتعد
لا.. بل "مثنى الرداعي" "مرشد الصّيدي"
من "يافع" أمّه من سورة المسد
خوف وعيناه تاريخ من الرمذ
صفر تبوح كعود نصف متّقد
ثمّيت عنب "الحشا" في جيده الغيد
أذن قليلاً.. صَباح الخير يا ولدي
يبقى اشتياقي وذوي الآن يا كبدي

يسعد صَباحك يا عمّي. أتعرفني؟
لاقيت فيك "بكيلاً" "حاشداً" "عدناً"
رأيت فيك بلادي كلّها اجتمعت

فيك اعتنقت أنا، قبّلت منك يدي
ما كنت أحلم أن ألقى هنا بلدي
كيف التقى التسعة المليون في جسد؟

عرفتُ من أنت يا عمّي، تلال "بنا"
"شمسان" تنسى الثرياً فوق لحيته

"عيبان" أثقله غاب من البرد
فاها وينسى ضحى رجليه في الزبد

قميصه المرمريّ البارد الأبدي
ثانٍ ينادي صدها: من رأى عُمدِي؟

"بينون" عريان يمشي ما عليه سوى
صخر من السدّ يجتاز المحيط إلى

"سيلان" "يحيى" وفي "غانا" "أبو سند"

ما اسم ابن أمي؟ "سعيد" في "تبوك" وفي

وفي "الملاوي" دعوي "ناصر العندي"

وأنت يا عمّ؟ في "نيجيريا" "حسن"

عمّي غداه قبرنا "ناجي الأسدي"
خلف "اللُّحْيَة" في جيش بلا عُدد
وقابلوها: بجيش غير محتشد

سافرت في سنة "الرامي" هربت على
من بعد عامين من أخبار قتل أبي
أيام صاحوا: قوى "الإدرسي" احتشدت

كأنها ساعة يا "سعد" لم تزد
حبلِي و"حيكان" لم يجبل ولم يلد
أغاني العار والأشواق والحسد
حتى أعود، وحتى اليَوْم لم أعد

رحلت في ذلك التَّاريخ أذكره
صباح قالوا: "سعود" قبل خطبتها
و"الدودحيّة" همّي في مراتعنا
ودّعتُ أغنامي العشرين "محصنة"

فصول مأساتنا الطولى بلا عدد
أخشى وقوع الذي ما دار في خلدي

من مات يا ابني؟ من الباقي؟ أتسألني!
ماذا جرى في السنين الست من سفري؟

تقودني فطنة أغنى من التود
كان القتال بلا داع سوى المدد

مارست يا عمّ حرب السبع متقددا
كانت بلا أرجل تمشي بلا نظر

نوح نموت كما نحيا، بلا رشد
فلم يعد أحد يبكي على أحد
في اليوم يسألني: ما لون معتقدي؟
يا عم ما أرخص الإنسان في بلدي!
اليوم أدجي لكي يخضّر وجه غدي

وكيف كنتم تنوحون الرجال؟ بلا.
فوج يموت ونسأه بأربعة
وفوق ذلك ألقى ألف مرتزق
بلا اعتقاد، وهم مثلي بلا هدف
والآن يا ابني؟ جواب لا حدود له.

حين زار سيفُ الحق إبراهيم نجلُ الإمام¹ يحيى شرق أفريقيا عقب انضمامه لحركة الأحرار اليمنيين في عدن، شاهد تلك المناظر المزرية، ورق قلبه لحالم فكتب إلى أخيه السيِّف أحمد: "أخي أحمد أمير لواء تعز، حفظه الله، وبعد: فإنَّ الحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وقد رأيت المناظر التي توجب غضب الله علينا، رأيتُ اليمانيين المشردِّين، العُراة الجائعين في كل شارعٍ ومحل في أسمره، وأديس أبابا، وعدن وغيرها، ورأيتُ اليمانيين الذين يشكون أشدَّ أنواع الظلم الذي نزل بهم من أولي الأمر في اليمن، فتركوا بلادهم فرارًا من الظلم الصَّارخ الذي أصابهم، وسمعتُ ما أذهلني، ولست بحاجةٍ إلى شرح قضايا اليمن التي تعلمونها والله وتتغافلون عنها، غير أنه يجبُ عليَّ أن أحيطكم علمًا بأنَّ موقفكم وموقفنا وموقف الحكومة محاطٌ بالخطر، ولذلك فأنا لا أستطيع الرجوع إلى اليمن بعدما تجلت لي الحقيقة الناصعة، بيد أني أنصَحكم نصيحة أخٍ لكم أن تبدلوا خطتكم القاسية وأحكامكم التي جلبت السخط وحب الانتقام في النفوس.."²

¹ - كان لقبه السابق سيف الإسلام، وحين انضم للثوار، سحب والده عنه اللقب، فخلع عليه الثوار لقب سيف الحق بدلًا عن سيف الإسلام، اللقب الرسمي لأولاد الإمام.
² - من الأئين إلى الثورة، سابق، 59.

ومما يبعث على الأسى أن اليمنيين في بلاد المهجر - وهم بهذا السوء، من ضنك المعيشة ونكد الحال - كانوا يفضلون تلك البلدان على العودة إلى بلدهم، وكم هي الفجائع التي كانت ترزؤهم حينما كانوا يسمعون أحياناً أن سلطات هذه البلدان ستقوم بترحيلهم إلى بلدهم. وكفى بالمصيبة حين تسمع من يهددك بإعادتك إلى بلدك الذي جئت منه! ففي الوقت الذي يتشوق الكثيرون إلى العودة إلى أوطانهم فرحين مستبشرين، إلا أن اليمنيّ - يومها - كان يرى ذلك من قبيل العذاب الأكبر الذي لا طاقة له به!

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنأيا أن يكنّ أمانياً.

أما عن الحالة الصحيّة للناس يومها فيمكن للقارئ أن يقيّمها من خلال وجود فقط خمسة عشر طبيباً عام 1962م لليمن كله، وجلهم من الأطباء الأجانب؛ أما عدد المستشفيات فلم تكن تزيد على عدد أصابع اليد، وعدد أسرّتها إجمالاً كلها فقط 600 سرير مهترئ، وكان أكثر من 50% من المواطنين "الرعايا" مصابين بنوع من الأمراض التناسليّة، وأكثر من 80% يعانون التراخوما¹، وكان أقل من 5% من الأولاد يذهبون إلى المدارس، يكادون يكونون كلهم في المدن؛ أما الريف فعليه السلام، وكل اليمن - يومها - ريف في أغلبها؛ بل إن مدنها أقرب ما تكون إلى مدن القرون الوسطى حسبما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى الشكعة! وكان معدل دخل الفرد السنوي 70% دولاراً فقط!!²

ويختزل الشاعر الزبيري هذا المشهد بيت شعر، قائلاً:

جهل وأمراض وظلم فادح ومجاعة ومخافة وإمام!

كما اختزله البردوني أيضاً نثرًا بقوله: "لم يكن لليمن وجودٌ قبل ثورة سبتمبر. إن عمر اليمن هو عمر الثورة، لم يكن في اليمن قبل الثورة أي مستوى من التعليم، ولا أي نصيبٍ من الثقافة، ولا أي مقدارٍ من الطب"³

¹ - التراخوما: من أمراض العيون.

² - انظر: الصّراع السّياسيّ في شبه الجزيرة العربيّة، فريد هاليداي، تعريب وتقديم: الدكتور محمد الرميحي، دار الساقى، ط:2، 2010م، 145.

³ - الثقافة والثورة في اليمن، سابق، 59.

أما الشاعر أحمد عبد الوهاب الوريث، فقد قال:

أفي اليمَن الميْمونِ وهو مُقدَّسٌ نرى الملك مشغولاً بجمع الدراهم
أفي اليمَن الميْمونِ نظر أهله يتيهون في ليل من الجهل فاحم
أفيه يسود الظلم والجهل والرُّشا وفيه نرى الدينار أحكم حاكم

وقد خاطب الإمام أحمد أثناء افتتاح مدرسة ابتدائية بالعاصمة صنعاء إبان حكم أبيه الطلاب قائلاً: "من أزد منكم أن يتعلم غير الفاتحة وأركان الوضوء وضعته في فم المدفع"¹ ومما يزيد مقولة الإمام أحمد تأكيداً، ما ذكره العزي السنيدي في مذكراته عن النقيب حمود شريان، أحد أعيان بكيل، حين خاطب أحد الأمراء بلهجته المحلية قائلاً: "أنا مستغرب لأعمال الإمام، كأنهم يدرسون دراسة أخرى، أما نحن فلا يسمحون لنا بالقراءة إلا إلى سورة الزلزلة، وأنتم تقرأون مطلع كيفه!"²

ومن مظاهر هوسه وفجوره، وطبعه المتوحش، وكذا سيطرته على كل مقاليد الأمور، أنه عمد إلى إخفاء خزانة الدولة في مخابئ سرية، وقام بعد ذلك بقتل كل العبيد الذين نقلوا الأموال إلى

¹ - اليمن.. الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال، د. محمد علي الشهاري، دار ابن خلدون، بيروت، 1972م، 13. ثمة قصة أوردها الأستاذ البردوني عن الإمام أحمد تعكس مدى سادية الرجل ووحشيته وتجرده من الإنسانية وهي حادثة محمد علوس، مضحك الإمام، فقد كان مضحك الحركة والكلام، وكان يتسلى به ولي العهد أحمد "قبل أن يكون إماماً" وكان أكثر ما يكون إضحاً إذا خوَّفه أحد بتسليط حيوان أو رمي حبل أو تحريك حشرة، فقد كان يتصور الحبل حية، والعصفور صقراً، ويتحرك حركة خانقة تفجر الأعماق من الضحك، وذات يوم أراد ولي العهد أحمد أن يتمتع أكثر، فدلى محمد علوس في حبل إلى بئر، فانقطع الحبل، فسقط علوس، وولي العهد ومن حوله يضحكون!! وقد انتشرت القصائد الشعرية التي نددت بالحادثة، ومنها قصيدة لحسين أحمد العنسي، قال فيها:

حدث أضحك الأنام وأبكى هل سمعتم بكأ يخالط ضحكاً؟
ضحكوا إذ أتى يمثل عصراً تترياً بغياً وعسفاً
ومزاحاً أودى بمهجة مزاح مضيئاً للسيف فعلاً وتركاً

كيف أودى علوس في غيهب الجب صريعاً يا ما أشد وأنكى!

وثمة قصة أخرى لا تقل عنها بشاعة، وهي أن قام الإمام أحمد برمي رجل إلى قاع البئر في تعز بينما كان يتحاكم لديه مع زوجته، تأديباً له! انظر: مغامرات مصري في مجاهل اليمن، 99.

² - الطريق إلى الحرية، سابق، 91. وقوله: مطلع، مطلع، تعني فصاعداً، و "كيفه" لهجة يمنية، لعلها تختصر السؤال: كيف هي؟ أي كيف هي الحكاية..

تلك المخابئ! كما أخفى ذخيرة الجيش في مستودعاتٍ سرية، لكي يمنع الجيش من توجيه البنادق إليه، ولم يكن يصرف من الرصاص إلا العدد المحدود والمعدود وبنفسه لأغراضٍ خاصّة؛ أما الطائرات والدبابات المستوردة فقد كان يعتمد إلى انتزاع بعض أجزائها المهمة، لشلها عن الحركة أو القيام بأية مهمة إلا تحت إشرافه المباشر!¹

وإذا كانت هذه سياسة رجل الدولة، فإن ثمة نصيحة "فقيه مقامي" آخر، من أقرب الإمام، هو المفتي أحمد بن محمد زبارة الذي وجّه رسالةً للشهيد الزبيري، ينصحه هو ورفاقه بعدم الاهتمام بالقبائل وأبنائها، وتركهم على حالهم: " .. وإن من الأوفق لهم ألا يسعوا إلى تحسين وضع القبائل وتعليمهم، وإدخال الوسائل الحديثة لإسعاد أهل اليمن، من بناء مدارس ومؤسسات وطرق، وأن عليهم السمع والطاعة للإمام وإن ضرب ظهرهم.. وأنه لا حاجة لهم من التعليم غير معرفة فروض العبادة، وأن الأولى والأجدر بالقبيلي أن يبقى فلاحًا، فلا يحتاج إلى نعال، ولا إلى ملابس، ولا إلى علاج؛ بل يجب أن يستمر في جهالته وشقائه وبؤسه ومرضه، بجوار ثوره ومحراثه وماشيته"²

وتعكس هذه القصيدة الشعبية طبيعّة تعامل الأئمة مع القبائل والمواطنين بشكل عام، وهي للشاعر الشعبي أحمد بن شرف الدين القارة، وفيها يقول:

القيلي عدو نفسه صدق قد قالها الجرب
كم يطيش في الضلال حسه حين تشرق وحين تغرب
حق برميل يسد نخسه ويذرّه وهو مسنب

¹ - الصِّراع السياسي، مرجع سابق، 147. ولم يملك الإمام يمتلك أكثر من طائرة إلا في نهاية حكمه، أما في بدايته فلم يكن له إلا طائرة واحدة فقط، وباخرة واحدة، كان يستخدم الطائرة الوحيدة لتتنقل له السمك طرياً من الحديدية إلى صنعاء، حسبما ذكر الدكتور مصطفى الشكعة، ولو عدنا إلى التَّاريخ اليمني القديم لأصبنا بالذهول حين يتكلم عنه الرَّحالة اليونانيون والرومانيون الذي تكلموا عن السفن اليمينية التي كانت تمخر عياب البحار، وكيف كان اليمينيون ملاحون مهرة، يفوقون غيرهم في هذا الجانب كثيرًا، على الرغم من مئات السنين، التي من المفترض أن تكون قد أضافت خبرات جديدة وكثيرة، لا أن يتراجع اليمينيون إلى الخلف بهذه الصورة المقيتة!

² - هجر العلم، 2/604.

ويشامق تدوس ظهره وفرق كل يوم فرقة
 وزناجير تفك صدره كل حلقة تلز حلقة
 وحزام أكل تكد "ج.." كل ضربة تشل نتفة
 ما عليك في الجعيل ملامة لك ثواب تبعد الشناعة
 لا ترح له السلامة لا ولا تطلب له الشفاعة

ولطالما أُوهِمَ الأئمَّةُ النَّاسَ والشَّعبُ أنهم يملكون من الجنِ أضعافَ ما يمكن من الإنسانِ، وأنهم واقعون تحت إمرتهم وتصرفهم، ولا يجيدون عنهم، وأن الإمامَ إذا غضبَ على الشَّعبِ أرسلَ الجن، وفتح قيودهم لمعاقبته!

ولا تزال قصةُ إشاعة قتل السُّلطان الأحمر، ملك الجن، حديثاً يروى وخبراً يحكى بين العامَّةِ والخاصَّةِ في اليمن، التي أشاعها الإمامُ يحيى حين أراد أن يختبرَ العامَّةَ من الناس؛ بل يختبر الشَّعبَ كافة في مستوى الجهل الذي بلغ بهم.. أشاع في مجلسه خبراً أن السُّلطان الأحمر قد قُتل، وأن شعبَ الجن أصبح هملاً بدون سُلطان يحكمه، وقد أصبح الجنُّ يتصرفون كما أرادوا، وأرسلَ الرسائل إلى العمَّال والقضوات يوجه النَّاسَ بالحذر من الجنِ حتى يتمكن الإمامُ من إحكام سُلطانه عليهم، وتعيين سلطانٍ أحمر آخر عليهم من قبله، وبالتالي فعلى النَّاس أن "يتقطنوا"، جرَّاً من الجن، وفعلاً "تقطنت" الأغلبيةُ من الشَّعب المسكين على الجباه، وطُليت كذلك أبوابُ البيوت!

وعثرَ الإمامُ أحمد ذاتَ مرة على صخرةٍ من فوق حصانه، فوجَّه حرسه من حوله بسرعةٍ تقييد الصَّخرة، وحين سأله عن السَّبب، أجب: أن جنياً قد اعترضه منها، فأراد أن يؤدبه!¹
 لا عجب، فهذا الذي قيَّد الصخرة، ليؤدب الجني - حد زعمه - هو الذي ألقَ القبائل عقب الثَّورة الدستورية أنَّ الدستورَ يعني الإباحيةَ، ويعني اختصار القرآن، ويعني إدخال النصارى إلى

¹ - انظر ابن الأمير، حياته وعصره، سابق، 46.

البلاد! وقد أفصح أحد عقلاء القبائل يوماً عقب هجومهم على صنعاء مع السيف أحمد ومناصرته، للمناضل العزي صالح السنيدار، بقوله: "والله لو عرفتمونا ما هو الدستور من قبل ما قامت لأحمد قائمة"¹

"لهذا فقد سيطر على اليمن، والمجتمع القبلي فيه على وجه الخصوص الجمود والتخلف الفكري والثقافي في كل نواحي الحياة؛ حيث توقفت الحياة الفكرية والثقافية طيلة عهود الإمامة عند مستوى الدراسات الفقهية، والتي اقتصر العمل فيها على الملخصات الفقهية وشروحها التي حولتها الإمامة من أصول ومبادئ تمشي مع جوهر العقل الإنساني، وتتفق مع الفطرة الإنسانية إلى غطاء سياسي، ومن ثم فقد وقفت عندما وصل إليه السلف في ميدان العلوم الفقهية بعد الإحالة في تفسيراتها وتفصيلها، وانصرفت كلية عن العلوم العقلية والإنسانية الحديثة والعصرية في عهدها الأخيرة"²

¹ - الطريق إلى الحرية، سابق، 196.
² - القبيلة والدولة في اليمن، سابق، 118.

المبحث الرابع تخليق الصِّراع الاجتماعي

تأتي هذه الوقائع المشار إليها آنفًا ضمنَ مئات المشاهد والمآسي التي ذكرتها حوليات المؤرخين، بعضها لا تزال مخطوطة إلى اليوم، والتي تؤسس لسياسة "فرق تسد" حيثُ استخدم الأئمة على مر تاريخهم القبائل بعضها لضرب بعض، كما أعلن ذلك صراحة الإمام المتوكل أحمد بن سليمان، قائلًا:

ولأبدلنَّ مع السماح سماحًا	لأحكمنَّ صوارمًا ورماحًا
ولأسلبن من العدا أرواحًا	ولأقتلنَّ قبيلةً بقبيلة
فإذا روين أفدتني إصلاحًا	ولأروين السُّمر ممن أبتغي
حتى يعود دجى الظلام صباحًا	ولأجلونَّ الأفق عن ديجوره
نقعًا مثارًا أو دمًا سفاحًا	ولأكسونَّ الأرض عما سرعة
لا ينثنين ولا يردن مراحًا	ولأجلبنَّ الخيل من أقصى المدى
ولأنجحنَّ ملوكهم إنجاحًا	ولأرمينَّ بها الخصب وأهله
والمشرقين وأنثني صرواحًا	ولأرمينَّ الوادين بصيلم
كأنين من يشكو عنى وجراحًا	جيش تئن الأرض من جولاته
تدع البلاد من الدما أقداحًا ¹	ولأمطرنَّ عليهم مني سما

¹ - سيرة الإمام أحمد بن سليمان، 182.

ولا يخفى على أحد أن هذه من ضمن السياسات الفرعونية التي اتبعها فرعون مصر، لتسهيل سيطرته على شعب مصر، فقد قال الله عنه: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) القصص:4.

وقد طبق - عملياً - ما أعلنه هنا؛ فحارب قبيلة بقبيلة، وقومًا بقوم، فقد قاتل قبائل "يام" بأهل "سنحان" في جمادى الأولى سنة خمسمئة وتسع وأربعين، وكذلك قبائل وادعة - الذين وصفهم بالأنذال - مع سنحان، وخربت القبائل التي كانت معه من جنب وسنحان بلادًا كثيرة من نجران، استمر التخريب والنهب ثلاثة أيام، وفي ذلك قال الإمام:

ونادى المنادي يا لجنب فأقبلوا	كسيلٍ حثيث في مثنائه تطلع
فيا ليت عينا للشريفي دهمشا	بدت رأس نشو والأباطيل صرع
فينظر ما يشفي الفؤاد من العدا	منازلهم هدمًا والأعقاب تقطع
أقمنا ثلاثًا في ثلاث عليهم	وسرنا وهي خال من السكن بلقع
لحوم الضأن في عقر دارهم	بلحم السواني فهي للقوم توزع ¹

قبل الإمام المتوكل أحمد بن سليمان، يأتي الإمام الهادي الذي حارب القبيلة بالقبيلة، ضاربًا بعضها ببعض، لأن الجنود الذين أتى بهم لم يكونوا كافين لخوض معارك كبيرة من التي خاضها ضد القبائل التي رفضت حكمه ودعوته؛ إذ قاتل ابن بسطام في نجران وعشيرته وعامة بني الحارث بقبائل من همدان ونجران وثقيف، ثم ترك الجميع هناك ورجع إلى صعدة.² كما قاتل الأكيليين الذين كانوا موالين للعباسيين بأبناء أعمامهم الفاطميين المياليين إلى التشيع.. وشق عصا التحالف بين

¹ - نفسه، 200.

² - سيرة الهادي إلى الحق، سابق، 159.

الأكيليين، والكلبيين، بعد أن حاربوه، بل لقد أخرج الكلبيون الأكيليين من بلادهم، وعاشوا في منطقة أخرى..

أما هو فقد دخل صنعاء بقبائل من الشمال، واستطاع التغلب على السلطان حاتم بن مُجَدّ اليامي، وأخرب داره الشهيرة في صنعاء، وقد كانت مضرب المثل في البهاء والجمال.

وفي عهد نجله الناصر، ومع مطلع توليه الإمامة عقب وفاة أخيه المرتضى سنة 310هـ أوقع بين قبيلتي دُهمّة وأختها وائلة ابني شاكر، قُتل فيها ثلاثمئة رجل، بسبب جارٍ لوائلة قتلتته دُهمّة.¹

وبعده - وضمن هذه السِّيَاسَة - أرسل الإمامُ عبدالله بن حمزة جيشًا من حاشد وبكيل على أهل مُدع، ثم واصل حربه على بني الفليحي "فقتلهم وسباهم وأرعب قلوب تلك الجهة. وحارب أهل الأعبل في صرواح من مأرب بحملةٍ قبليةٍ من آل الدعام وآل بدر ونهم وأرحب، فحاربهم وغنم أموالهم من متاع وفضة وزرع.²

وبقدر ما كان يزدرى القبائل ويحتقرها بقدر ما كان يستعطفها ويمدحها إذا أملت به الملمات، لأنه لا غنى له عنها أبدًا، ومعروف مدى فاعلية النظم والبيان الذي يحرك نخوة القبائل ويستجيش عواطفها، فهو يعمل عمل السحر. قال مخاطبًا هذه القبائل عند انصرافها عنه نحو الأيوبيين:

وما عُذري إذا لم يؤمنوا بي
ومُنقلي إلى حصن حصين
وهل رجلًا يقول أبي علي
وجدي أحمد يرضى بهون؟
فقل لي للقبائل من معد
ومن قحطان آساد العرين
أجيبوا واسمعوا لدعاء داع
إلى سبل الهدى بر أمين

¹ - غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، سابق، 213.

² - السيرة المنصورية، ابن دعثم، 2/138.

وللقارئ أن يستغرب أكثر حين تتضمن القصيدة الإشارة - مدحًا - إلى قحطان من قبل عدناني أو من يرى نفسه كذلك، والعدنانية والقحطانية في صراع تاريخي، أفضت فيما بعد إلى القيسيّة واليمانية..

وتذكر المصادرُ التَّاريخيَّةُ أن للإمام المهدي صَاحِبِ المواهب وحده أربعين غزوة على قبائل بلاد المشرق وحدها بقبائل شمال الشمال الذين سَلَطهم عليهم؛ بل إنَّ عددَ القتلى من يافع وحدها في إحدى المعارك بلغ سبعمئة قتيل؛ وفي موقعة أخرى في "المعسال" من البيضاء بلغ عدد القتلى من قبائل يافع والبيضاء ألف قتيل، بينهم نساء؛ الأمر الذي ورث العداوات والإحْن لعقودٍ من الزمن بعدها، ولا تزال، ومن هذه الغزوات إرساله أخاه الأكبر المحسن غازيًا على البيضاء على رأس قوة قوامها ثلاثمئة فارس وثلاثة آلاف من المشاة، فكان الهجوم على سوق الأربعاء في شهر شعبان، عام 1099هـ. أتت هذه الحملة على السوق، فقتلت النَّاسَ ورَوَّعت الأهالي ونهبت الأموال، وخرجت القَبائلُ هاربة بعد هذه الحملة المباغتة، ولا تزال هذه القَبائل تتوارث الشؤْمَ من يوم الأربعاء إلى اليوم، وإذا ما ذكره أحد أمامهم رد قائلهم: "على قرنك وقرن أبوك" بل لقد تم تغيير اسم يوم الأربعاء عندهم إلى يوم "البرك" اتقاء لسماح كلمة الأربعاء!..¹

أما قبائل خولان والحيمة فقد جرد عليهم جيشًا جازًا كان في أهبة الاستعداد لغزو قبائل يافع، فقطع أعناقهم وأشجارهم وهدم منازلهم وغنم أموالهم وأثاثهم وجميع ممتلكاتهم، وقد وصف هذه الواقعة الشَّاعر المرهبي في سياق الفخر بقوة الإمام وشدة بطشه، فقال:

فاجتاحهم في جُمعة اليمانية بنكبة لم تبق فيهم باقية
أتت على الأنفس والأموال ولم يطل تمنع الطيال

¹ - انظر: اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، سابق، 101. وأيضًا: 161. ذكر أبو طالب أن أول غزوة للإمام المهدي على يافع كانت عام 1098هـ، وقد أجبر الرَّعيَّة من أهل رَيْمَة وتَهامة على تمويل هذه الحرب؛ حيث جمع عامله علَّيها كرائم أموالهم وادعى طيب نفوسهم، وفرض رسومًا على من لم يشترك في الحرب.. انظر: اليمن في ظل حكم الإمام المهدي 247.

صبحهم منه عذاب مستقر حل بهم في يوم نحس مستمر¹

وفي عهد الإمام المنصور حسين، ت: 1161هـ خرجت قبائل حاشد، وبرط من بكيل سنة 1145هـ بقيادة القاضي عبد الرحمن بن محمد العنسي البرطي، إلى مدينة "اللحية" في تهامة، فنهبها كاملة ودمروا دورها ومبانيها، وعاثوا فساداً فيها، حتى لم يبق لأهلها إلا "الشمال" التي عليهم فقط، وبلغ خبر هذا النهب الآفاق، وسمعت به الخاصة والعامة، والإمام لم يحرك ساكناً في ذلك، الأمر الذي جعل العلامة ابن الأمير ينظم قصيدة مطولة من خمسة وخمسين بيتاً، ويرسلها للإمام المنصور بصنعاء من شهارة، ومنها:

يا ساكني السفح من صنعاء هل سفحت
لکم علی ما جرى في الدين أجفان
عن اللحية هل وافاكم خبر
تفيض منه من الأعيان أعيان
تجمعت نحوها من كل طائفة
طوائف حاشد منها وسفيان
وذو حسين وقاضيها وقائدها
درب الصفا وقشنون وجثمان
أسماء شر وأفعال مقبحة
طوائف ما لهم يمن وإيمان
فما يخافون من يوم المعاد ولا
عليهم لذوي السلطان سلطان

ولم تكن اللحية وحدها هي التي طالها هذا النهب فقط، بل لقد أشار إلى ما حصل لبيت الفقيه وهي إحدى مدن تهامة وإلى الجنوب الشرقي منها، على يد قبائل يام من نجران، قبلها بثلاث سنوات، سنة 1142هـ، يقول:

¹ - نفسه، 109.

وهل نسي أحد بيت الفقيه وقد
صُكَّتْ بأخبار يام فيه آذان
كم من عزيز أذلوه وكم جحفوا مألًا
وكم سُبيت خود وصبيان
فالنظم يعجز عن حصر لما دخلت
من المواطن في أخبار قد كانوا¹

وسلَّط الإمام المنصور علي قبائل خولان وعلى قبائل برط وأرحب، حين هاجمته إلى صنعاء وحاصرته في المدينة.

كما أرسل قبائل "ذو حسين" البكيلية، لمطاردة قبائل "بني جبر" الخولانية، حين أقدمت الأخيرة على نهب المدن والأسواق وقطع الطرقات، وجرت بينهما معركة، كبيرة قتل فيها الكثير، في منطقة "شعب العثرب" وفرت قبائل بني جبر من أرض المعركة مخلَّفة ما تحمل من منهوبات..

وفي مطلع العام 1192هـ خرجت قبائل بكيل من ذي مُجَّد، متوجهين غربًا نحو ملحان من بلاد الخويت، وعلم أهل ملحان بذلك وعاملها السيد حسين الشرعي، فجمع ما استطاع من قبائل حاشد لصددهم إلا أن حشود المهاجمين كانوا أكثر، وتشاور مع أصحابه، ليتفقوا على تحمل أخف الضَّربين، وعلى مُصالحة هذه الحشود الغازية قبل أن تعيثَ فسادًا في البلاد، وتَأْكُل الأخصر واليابس، فتقتل وتنهب وتسلب بلا شفقة ولا رحمة. وكانت المصالحة أن تعودَ قَبِيلَةُ "ذي مُجَّد" مقابلَ مبلغٍ وقدره ثلاثة آلاف قرش فرانصي، وثلاث كسوات، وثلاث خيل. وقد منَّ عليهم الإمام بذلك، وقرر قطع مقررات هذه القبائل، وألا يسلمَ لهم في ذلك العام شيئًا مما ألفوا عليه!²

ولم يمكثوا إلا قليلًا في بلادهم ليعودوا بعدها في حشودٍ مهولة أكثر نحو صنعاء في شهر شعبان من العام نفسه، وعسكروا أيامًا في منطقة عصر غرب المدينة، ولم يجرؤوا على مُهاجمة المدينة في الوقت الذي لم يجرؤ الإمام على مهاجمتهم أو صددهم، وتوجسوا في أنفسهم مكروهًا، متوجهين غربًا باتجاه تهامة، فعسكروا أيامًا في منطقة يقال لها "صنפור"، فيما بين الحيمة ورمبة وحراز، وهناك قطعوا الطريق وتخطفوا المسافرين وسلبوا القرى القريبة من هذا المكان، وواصلوا السَّير بعد أيام نحو

¹ - انظر: تاريخ اليمن الحديث، الدكتور حسين عبدالله العمري، ط:1، 1984م، 97.

² - درر نحر الحور العين، 245.

تامة فهاجموا قرى بيت الفقيه والزيدية، واتجهوا نحو وادي مور، ليلتقوا بجماعاتٍ أخرى من "ذي مُجَدِّ" و "بني صريم" و "خيار" وعاقلهم ابن ناشر، بالإضافة إلى قبائل العُصيمات وسحار، وجميعهم بقيادة السيد حسين بن علي بن قاسم، صاحب صَعْدَةَ الذي قال عنه جحاف: إن الداعي لخروجه هو الطمع في الإمام للزيادة منه على المعتاد، بعد أن كاتبَ أيامًا إلى وزير الإمام، يطلب منه الإغاثة له ولأهله في الشفاعة عند الإمام بتفويض المعتاد، ويحتج عليهم بأن النغاضي سيُجر إلى الفساد..¹

وفي سنة 1205هـ، أغار أربعة آلاف غازٍ من حاشد وبكيل على تعز، فعاثوا فيها فسادًا، أذلوا أهلها واستحلوا أموالهم بالقوة، وكانت جُملة البقر والغنم والجمال التي تم نهبها من إحدى مناطق تعز لوحدها أكثر من عشرين ألف رأس؛ أما أحد مشايخ صبر، فقد حاصروه أسبوعًا كاملاً، وفرضوا عليه ستمئة قرش "فرانصي" عن كل ليلة حتى ضاقَ به الحال، وغلَّه النَّهَابَةُ هو وأولاده في الحديد وخربوا حصونه الستة، وهكذا فعلوا في شتى المناطق والغزل..²

وفي العام 1214هـ خرجت قَبِيلَةُ "يام" كاملة ووصلت إلى منطقة حيس بتهمامة، حين اختلف أبناؤها مع عامل الإمام يومها صالح بن عبدالله الأموي، وانتهبوا كاملة، بعد أن أقاموا فيها نحوًا من ثلاثة أشهر!³

وفي السنَّة التالية لها تحركت قبائل ذي حسين بقيادة محسن بن أحمد الشَّايِف، ومروا على بابِ اليَمَنِ بصنعاء متجهين جميعًا في موكبٍ غازٍ نحو اليَمَنِ الأَسْفَل، ووصلوا إلى بلاد عُتْمَةَ، وهناك عاثوا فيها فسادًا، وأخذوا أهلها وسيطروا على أموالهم، وقتلوا منهم من قتلوا وتحكموا واستحكموا، وعادوا بالقبيح على نسائهم، وأظهروا منكرات شنيعة، ومع هذا فلم ترفع الدَّوْلَةُ إليه رأسًا، حتى عادوا محمّلين بالأثقال إلى بلادهم مما انتهبوه..⁴

وفيها أيضًا "سارت قَبِيلَةُ يام كالذي قبلها من الأعوام، وقصدوا تامة اليَمَنِ، العائد حُكْمها إلى الإمام، فأظهروا بها المنكرات من السَّيِّ والزنا والقتل، وعاملوا أهل الإسلام معاملة الكفرة اللغام، ورفعت إلى الدَّوْلَةُ أخبارهم، فلم يعبأوا بشيء منها، وكانت قَبِيلَةُ يام إذا مرت بمحلِّ

¹ - تاريخ اليمن الحديث، سابق، 100.

² - درر نحر الحور العين، 487.

³ - درر نحر الحور العين، 732.

⁴ - نفسه، 760.

دمرته، وأخذت محاسن ما فيه من الأموال والثَّماش، وكانت طريقتهم على الخضارية،¹ فقتلوا أهلها، وانتهبوا ما بها من الأموال، وقتلوا النِّساء ودفنوهن إلا العورات فأبقوها منكشفة، وهذه الحملة قريب "الضَّحِّي"، ثم ساروا وأرادوا دخول بيت الفقيه، وبها الأمير مُجَّد وفد الله، وكان رتبها ترتيبًا كبيرًا فلم يستطيعوا، وساروا إلى تَهامة اليمين، وانتهبوا بالطرق ما وجدوه، وسبوا النساء، وانتهى بهم السَّير إلى زبيد، فحصروها ودخلوها وما حولها، فضمُّوا أشتات المتاع والمال النقدي والحلي، فأعوزهم حملة، فتخيروا أحسنه، وسلطوا على ما لا طاقة لهم بحمله النار...!"²

وفي سنة 1217هـ، .. في رجب منها سار علي بن عبدالله الشايف بقبائل "ذو حسين" ناشرًا لأعلام الفساد، فقصد بلاد رِيمة والجبلي فانتهب الرعايا، ووقع على الأموال، وفعل أصحابه القبائح، واستحلوا الحرِّمات، وما زالوا كذلك إلى شهر شَوال بالانتقال..³

وسكت الإمام المنصور عن هجوم قبائل يام على قبيلة الزرائق بتهمته عام 1224هـ، التي خلَّفت وراءها مجزة مروعة هي من أوحش المجازر التي راح ضحيتها خمسمائة قتيل من الزرائق، بمن فيهم رئيسها، وثلاثمائة قتيل من الياميين، وقد قُتلوا على أساس أنهم مشركون، وتزعَّم هذه المعركة الشَّريف حمود.⁴

أيضًا، في العام 1239هـ، وفي عهد الإمام المهدي عبدالله، كان أن عين حسين بن مُجَّد حنش، من حاشد، عاملاً على بلاد رِيمة، فنزل بجنود كثيرة معه من حاشد، فتملَّك أتباعه حصون رِيمة، طامعين في خيراتها، وما تنتجها أرضها الخصبة، وعندما حاول الإمام المهدي عبدالله أن يعزل هذا العامل تمرَّد عليه هو وأتباعه، وأرادوا أن تصبح رِيمة إقطاعية خاصَّة ببلاد حاشد، مثلما لقبائل "ذو مُجَّد" البكيلية في إب وتعز، ودخلوا مع أبناء المنطقة في حروب ذاعت شهرتها على مستوى اليمين.⁵

¹ - اسم مدينة قديمة بتهمته إلى الشَّرْق منها.

² - نفسه، 760. دخل الياميون زبيد منتهبين إياها مرة ثانية في العام 1263هـ بداية حكم الإمام محمد بن يحيى، وبدعوة من الشريف حسين علي حيدر، انتقامًا من الإمام محمد بن يحيى، وعاثوا فيها فسادًا، وقتلوا فيها الشَّيخ العلامة الحافظ محمد بن علي العمراني، أحد تلاميذ الإمام الشوكاني؛ حيث طعنه أحد النَّهابة بخنجره في عنقه بعد أن اقتحم داره للنهب، وتوفي بعد يومين منها.

³ - نفسه، 784.

⁴ - درر نحر الحور العين، 1183

⁵ - انظر: الأوضاع السياسية الداخلية لليمن، سابق، 215. وقد ذكر المؤلف أن قبائل برط قد هاجرت جماعيًا إلى اليمن الأسفل عام 1238هـ، 1822م، بالأطفال والنساء والحيوانات، للاستيطان هناك، بسبب القحط والجفاف الذي اجتاح بلادهم، وانقطاع المقررات المالية التي كانت الدولة تدفعها لها سنويًا، وهو ما لقي قبولًا عند الإمام..

كل هذا العبث ودولة الإمامة قائمة، لم تحرك ساكنًا؛ بل لقد كانت تغض الطرف عن تصرفات قبائل اليمَن الأعلى حين تنتهبها سنويًا بهذه الصورة العبثية، كما حدث في هذه الفترة؛ حيث التزمت الدولة الصَّمَتَ جراء الخلاف الذي جرى بين قبائل "ذو مُجَدِّ" البكيلية، وقبائل "ذي السفال باب"، ولم تستمع لنداءات المظلومين في "ذي السفال" حين نُهبَت أموالهم وبيوتهم من قبل "ذو مُجَدِّ". وصمَت الإمام - أيضًا - جراء قيام قبيلة بني جبر الخولانية بالهجوم ونهب مناطق عنس ووصاب وعممة، وقطع الطريق الواصل بين صنعاء واليمن الأسفل ونهب المسافرين والتقطع لهم، لمدة سنة كاملة، في الوقت الذي تسلط كل قوتها وعساكرها على أضعف مواطن من هذه البلاد في حال عجز عن تسديد ما عليه من الضريبة الجائرة إلى بيت المال!

وأورد صاحبُ كتاب "رياض الرياحين في أخبار الأولين والآخرين"، المعروف بتاريخ الحارزي عن حوادث سنة 1288هـ أثناء حُكم الإمام حسين بن مُجَدِّ الهادي عنه ما نصه: "وفي بقايا شهر الحجة، والسبلات لا يمر فيها المار إلا على وجلٍ وخطرٍ من أصحاب الإمام المتوكل، وقد جرحوا خلقًا كثيرًا، ولا يكتفون بأخذ ما وجدوا معه حتى يباشرونه بالظعن بالرماح، والإمام في "بيت سبطان" يُعاقب أهل صنعاء بأخذ غلات أموالهم، والاستيلاء على ثمار أشجارهم، وأخذ غلات الأوقاف؛ بل بيع بعض الرقاب، وليت شعري ما يكون الجواب بين يدي الله؟!"¹

كما ذكر أيضًا عن حوادث سنة 1277هـ أثناء حُكم الإمام حسين بن مُجَدِّ الهادي ما نصه: "وفي آخر شهر رجب قلب أهل ريمة لأصحاب الإمام ظهر المجن، وجرعوهم أفويق المهن، وأشاعوا في البلاد الإرجافات بأن قد تم داعي في صنعاء، فما وسع الإمام إلا تولية السيد علي السعيدي على البلاد، وتوجه الإمام راجعًا حتى وصل الحمل إلى جبل، فتعرض للإمام المحافلة أهل بني نفيح، وانتهبوا من تقدم وتأخر من أصحاب الإمام، وآل الأمر إلى توسط الشيخ محسن علي راجح، وأرجف على أهل بني نفيح حتى أرجعوا ما انتهبوا.. ورجع الإمام إلى ضوران، حتى تيقن أن ما ثمة في صنعاء مما أرجف به أهل ريمة شيء.."²

¹ - فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، سابق، 166.

² - فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، سابق، 81.

والشاهد هنا في هذه الرواية هي تولية الإمام للسعيد علي السعدي، وهو من عزلة بني سعيد، الجعفرية، إحدى عزلة ريمة. وقد دخل مع أبناء المنطقة في صراعات هوجاء، بينما الإمام ينظر إلى الطرفين عن بعد!

وعن حرب "باب الثلوث"¹ سلط الإمام يحيى قبائل الحدا من دمار وقبائل خولان على أبناء ريمة، وكما يقول كاتب سيرته: " . . فاستنفر قبائل الحدا وبطونها، وأقبلوا إليه من كل حذب، وجمع منهم زهاء ألف وخمسمئة رام، فيهم أعيانهم ورؤسائهم... ودخل مع الجيش الإمامي بلاد ريمة، فأنزل على الباغين عذاب الهون، وأتاهم من صرامته ريب المنون، بفتكات علوية، وشجاعة قسورية.. وكانت بين الفريقين معارك يطول شرخها وتعدادها.. وقطع الجيش المسافة الطويلة في ظرف يوم واحد، يقتل ويحرق ويبدد ويمزق كالسيل الجارف والبرق الخاطف.. ولم يستقر الجيش الإمامي هنالك إلا برهة، ووصل إليه المدد العظيم من مولانا الإمام عليه السلام بقبائل خولان.. وامتألت أيدي المجاهدين من العنائم، وكانت لا تُحصر ولا تُقدر.. وكان بعض ما جرى عليهم ما يستحقونه من نكالهم.."²

ويروي القاضي عبد الرحمن الإرياني الرئيس الأسبق للجمهورية العربية اليمنية 1967 - 1974م وقائع لا تقل بشاعة عن بشاعة أفعال الهادي وابن حمزة، حين مر جيش الإمام يحيى، المؤلف من قبائل همجية حد تعبیره، من مدينة يريم، ففتحت المدينة أبوابها لجيش الإمام معتزة به، فهالهم ما رأوه في بيوت المواطنين هناك من متاع وأموال لا عهد لهم بها، فأقدموا على نهب كل ما وصلت إليه أيديهم، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن يقطعوا آذان النساء ليأخذوا الأقرات التي عليها، بل حتى نهب فرش المسجد.³ وقد تتالت الأخبار أن بعضاً من أقرات الأذن، الفضية والذهبية بيعت في أسواق صنعاء على بقايا الأذن المقطوعة..!

¹ - باب الثلوث اسم منطقة شاهقة إلى الشرق من مديرية الجبين بريمة.

² - سيرة الإمام يحيى بن حميد الدين، سابق، 203.

³ - لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقطع فيها أذن النساء مع أقراتها؛ بل لقد أورد أبو طالب ما يؤكد ذلك؛ وذلك في العصيان الذي رفعه أهالي ريمة ووصاب على عاملهم ابن مغلص عام 1110هـ، 1699م، بعد ياسهم من الإنصاف أو سماع لشكواهم؛ لكن الإمام سلط عليهم ابن حبيش وقبائله الذين أخذوا أنفاسهم، وأذاقوهم اليأس بالقتل والتشريد والنهب، حتى إنها قطعت أذن حُرْمهم لأجل ما فيها من الأخراص، وبعد إخماد تمردهم فرض عليهم الإمام الآداب المالية المجحفة، ثم عزل الوالي وولى عليهم صهره الثاني، فكان أظلم من ابن عمه الأول. انظر: طيب الكساء، 267. واليمن في ظل حكم الإمام المهدي، 237.

وقد أحدثت هذه الوحشية استنكاراً كبيراً في أوساط المواطنين، ما حدا بوالد القاضي الإرياني أن يصورَ المشهدَ شعراً إلى الإمام بصنعاء، مطالباً بتعويض المواطنين، قائلاً، في قصيدة منها:

فلم يتركوا للمسلمين جميعهم
وقد أخذوهم من محب ومبغض
وناهيك يا شمس الأئمة أن ما
وكم من ضعيفٍ قد أذيق بظلمهم
من المال ما يُجدي بيع ولا سلم
وما فرقوا بين الصحيح وذو السقم
بمسجدها من فرشاه ليس يُحترم
رباطا مع التشديد والهتك للحرم
لقرط حقير لا يقوّم بالقيم
وقطعهم أذن الشريفة واقع

وقد جاء رد الإمام يحيى عليه بقصيدة أخرى، منها:

أفيدك أني لست أرضى فعالمهم
ولا نكر ذي نكر ولا ظلم من ظلم

ولم يتكلم بغير ذلك، أو يعدّ بالتعويض للمواطنين، جراء ما حصل لهم من جيشه!¹
وذكر الأكوغ أيضاً أن رجال القبائل المسلحين عند دخولهم لمدينة يريم قبل عام 1911م
قد أتوا أعمالاً وحشيّة من سلب الأموال وهتك الأعراس لدرجة أن بعضهم كان يقطعُ أذن المرأة أو
البنات ليسلب ما عليها من الذهب أو الفضة.. إلخ. كما أنهم قد أتوا أفعالاً مُضحكة مزرية تعكس
الجهل والغباء، ومنها أكلهم للصّابون ظانين أنه سُكر، وآخرون وجدوا أرزاً فحسبوه دوداً ميتاً فرموا
به، والبعض يرى صورته في المرأة الزجاجيّة فيظن أنّه عدوٌّ فيرمي المرأة وتطير شظاياها إليه
فتجرحه، ويظن أنه قتل عدوه!²

¹ - مذكرات الإرياني، 62. وقد أورد بعض الطرائف المتعلقة بعملية النهب والسلب منها: أن أحد قادة الجيش قد بكى حين خطب بهم الجمعة، فقال أحد عرفاء الجيش: "أمسيد بيكي لأن نصيبه من امفيد قليل" وكان هذا القائد قد شارك الجنود في السلب والنهب!! وأن جنوداً قد دخلوا منزلاً لنهبه، لكنهم وجدوا أن آخرين من زملائهم قد سبقوهم للنهب، ولم يبق في المنزل إلا فرش صغير ينام عليه طفل، فسحب أحد الجنود من تحته، فعاتبه زميل له قائلاً: اترك الفرش للطفل. فرفض. فألح عليه ثانية: اتركه فما عند الله لا يضيع!!

² - صفحة من تاريخ اليمن الاجتماعي وقصة حياتي، محمد بن علي الأكوغ الحوالي، مطبعة الكتاب العربي، دمشق، ص: 105.

وأطرف وأعجب من هذا ما ذكره العلامة مُجَدِّ المجاهد حين دخل جندُ الإمام يحيى مدينةً تعز " أن نقباءهم كانوا يشقون سِرَوال المرأة من وسطه، ويلبسونها مثل الثوب جهلاً بها.. ولكن أندر ما رُوي وهذه حقيقة أن مجموعةً منهم كانت تقيمُ عند إحدى النساء في حارة عبد الهادي، وكانوا يخرجون صَبَاحًا للصيد، ويعودون قُبيل الظهر بقروود قتلى، فيكلفون المرأة بطبخها، وإعدادها للأكل. وهذه لا تمنع أَمَامَ تأكيدهم أن الفرق محدود، ولا يُذكر بين القرد والغزال، وكانوا يلحون على المرأة لتناول الغداء معهم، فتعتذر هذه لكل واحدٍ منهم بعبارة تعزِيَّةٍ مُحَبِّبَةٍ هي: هنيئًا على قلبك يا ولدي¹!

وكما فَعَلَ جنودُ الإمام يحيى مع تعز، كانوا قد فعلوها - سابقًا - مع أبناء إب؛ حيث جلب عليهم قبائلٌ حاشد، فالتهمت الأخضر واليابس، في واحدة من غزواته، فنظم القاضي عبدالرحمن الإرياني قصيدةً مُطولةً إلى الإمامِ على لِسَانِ أبناءِ المنطقة، ومنها:

والعصيماتُ مالنا من أذاهم	قط في هذه البلاد اعتصام
قد غدا من بيوتنا لهم المأوى،	ومن أهلنا لهم خدام
فلهم في البلاد هذي انتشار	ولهم في البيوت تلك ازدحام
والإمام الإمام قد صمّ أذنيه	وأعمى عينيه عنا الحسام
فاصدقوه في النصح منكم وقولوا	قم تفقد ما يشتكيه الأنام
أنصف النَّاس من بنيك وإلا	أنصفتهم من بعدك الأيام ²

¹ - مدينة تعز غصن نظير في دوحة التَّاريخ العربي، محمد محمد المجاهد، د. ط. 1997م، 206.
² - مذكرات الإرياني، 113. وفيها ذكر قصة مروعة حين أباح الإمام أحمد نهب صنعاء لأتباعه، عقب مقتل أبيه، سمعها الإرياني نفسه من القاضي أحمد السياغي شاهد عيان القصة، "كان قد دخل صنعاء مع القبائل الداخلين أنه وكان في طريقه إلى قصر غمدان رأى امرأة حاملًا، خرجت لبعض شأنها، وراها بعض القبائل فظن أنها تخفي خُلِيًا أو مجوهرات تحت ثيابها وتظاهر إنها حامل لتنجو بما معها، وبدلاً من أن يمد القبلي يده ليحس ما عليها ويتعرف على ما تحت ثيابها سل جنبيته "خنجره" وطعن المرأة الحبلى، فبقر بطنها وسقط الجنين إلى بين رجليها على الطريق وماتت المرأة وطفلها. ومر الرجل الجلف القاسي وكان شيئاً لم يكن فاشمأز ضمير القاضي السياغي، وأمر من معه من الجنود بالقبض على القاتل وأودعه في سجن القلعة؛ ولكنه شكأ أمره إلى سيف الإسلام العباس الذي كان على رأس القبائل الذين دخلوا صنعاء، واستباحوا واستحلوا ما فيها، وكان الإمام أحمد قد أباحها للقبائل قبل دخولهم، وكانت

وقد أورد العزي صالح السنيدار في مذكراته من قصص النهب والسلب ما لا تصلح إلا أن تكون من قصص الخيال السينمائية؛ منها أن أحد جيرانه قد سطا على منزله ونهب كل ما فيه مع آخرين، بما في ذلك أن قام بقلع نوافذ العُرف، وقد قال عنها صاحب المذكرات: "وبعد ثورة سبتمبر كنت أمراً من أمام بيته الذي بناه في شعوب، وأرى نوافذ بيتي مركبة في بيته دون خجل، ولا رعاية لما قدمنا له من معروف.."¹

أمّا حين فرّ بجلده عقب فشل الثورة الدستورية، فقد تعرض لنهب ما يملك من مال؛ حتى الملابس التي كانت عليه نهبها بعض القبائل من قطاع الطرق، وحين وصل المسير وهو في حال يُرى لها، وجد عصابة تقطع أخرى، ولم يعد يملك ما ينهبونه، فلاحظ عليه النهاية أن بين فيه أربع أسنان ذهبية، فوجهوا إليه بنادقهم، وأمره بقلع أسنانه الذهبية الأربع، وتسليمها لهم، فحاول ولم يقدر، وعندها أقدم أحد المتقطعين لقلعها ونهبها، وبينما هو يحاول ذلك فاجأهم أصوات الأولاد الذين يصيحون به بأنه من الهاربين، فأمسكوا به وأعادوه إلى بيت العاقل.."²

وذاث الأمر - أيضاً - مع قبيلة الزرائق "المعازبة" من أرض تامة، الذين غزاهم الإمام أحمد بجيش من القبائل من حاشد وبكيل واستمر القتال معهم سنتين متتاليتين، حتى أخضعهم بقوة المال والسلاح لطغيانه، وأرسل مجاميع منهم مكبلّة إلى سُجون حجة، وقد مات أغلبهم في السجن، "فقد أذعن الزرائق ألين إذعان بعد أن أطبق عليهم الحصار، وتغلغلت في كل نواحي منطقتهم الجيوش التي داهمتهم من ثلاث جهات، فقتلت وأسرت واحتلت كل المراكز الحربية، واستقبل سجن حجة مائة وعشرة أسرى غير سُجناء بيت الفقيه وزيد والحديدة.."³

ولم يكتف بذلك فحسب؛ بل ساق منهم بالأغلال مأسورين ثمانئة أسير، وأراد قتلهم بالسيف، فاعترضه والده على قتلهم جهاراً نهاراً بالسيف، ولكن بطريقة أخرى، فقتلهم بالشّم جميعاً

=أطماعهم من أعظم حوافزهم إلى أن يأتوا صنعاء من كل صوب وأوب، فأمر العباس بإطلاق القاتل لأنهم قد أباحوا صنعاء وما فيها ومن فيها للقبائل، وذهبت المرأة وطفلها ضحية طمع القبيلي وظلم الحاكم.. المرجع نفسه: 144. وقد ذكر الدكتور مصطفى الشكعة أن ثلاثة أرباع نساء صنعاء قد انتهكت أعراسهن، وفُحش بهن في هذه الغزوة الوحشية المشنومة. 168.

¹ - الطريق إلى الحرية، سابق، 159.

² - نفسه، 165.

³ - اليمن الجمهوري، سابق، 143.

خلال سنة واحدة، ولم يبق منهم سالمًا إلا الشَّيخ سالم درويش الذي التقى لاحقًا في السِّجْن بثوار 1948م، وحكى لهم داخل السِّجْن ما جرى لرجال الزرانيق. كما فعل بأخرين من بلاد الزَّيْدِيَّة أيضًا في تهامة نفس الفعلة.¹

وبلغ الأمر أكثر من ذلك، حين جعل من بعض الأسر سوطًا وسيِّفًا على البعض الآخر؛ إذ حاربت الإمامة أسرةً بأسرة، وعشيرةً بعشيرة، وقبيلةً بقبيلة، وجنوبًا بشمال، ويمنًا أسفل بيمين أعلى، وزيديةً بشافعية،² حتى غدت اليمَن كلها ساحةً لخلافاتٍ وحروبٍ ومشكلات، يأكل بعضها بعضًا. فمثلاً.. حين بدأت سطوة الإمام المهدي أحمد بن الحسن تتفكك عن السيطرة على زمام الأمور، بسبب جشع أولاد أعمامه وأبنائه وحاشيته، عمد إلى ضرب بعضهم ببعض، ليأمن هو شرَّ اتفاقهما عليه إن هما اتفقا، كما أحدث بين الأخوين مُحَمَّد بن أحمد بن القاسم، وأخيه عبد الله بن أحمد بن القاسم، من صراعٍ على ولاية حجة، إضافةً إلى واليها السابق من آل جحاف، حيث أعطى ولايتها لمن أتاه منهم طالبًا إياها، فتضررت مصالح الناس وحدث فيها اضطرابٌ كبير، بسبب هذه السياسة.³

وأيضًا استخدم الإمام يحيى في حربه على بلاد المقاطرة في تعز، أبناء تعز أنفسهم، ولم يكلف أتباعه من صنعاء لمحاربتهم، نظرًا لمطالبهم التي ستكون أكبر؛ إذ كان عبدالوهاب نعمان، عامل الحجريّة يومها، وأخوه عبد الواسع نعمان وآخرين إلى جانبهم هم قادة الحملة المباشرين على المقاطرة، ولم يكن أمير اللواء علي بن عبدالله الوزير، نظرًا لمكانته من الإمام.

العجيب أنه بعد أن تحقق النصر للإمام يحيى، وشعر الوزير مع آل النعمان بنشوة النصر، توجس الإمام منهما خيفة، فأوقع بينهما حربًا أراد من خلالها أن يكسر شوكة الزعامة النعمانية، ويضعف شعبية "علي الوزير" بتعز، كما ذكر البردوني، فكلف الإمام يحيى أمير تعز يومها علي الوزير

¹ - ابن الأمير، سابق، 72.

² - أثناء حكم الإمام الناصر عبدالله بن الحسن أثار قضية جواز الصلاة في مساجد الشافعية، على قضاة عصره، مشيرًا إلى أن جواب أي عالم منهم سيحدد ما إذا كان مستحقًا للبقاء في منصبه أم لا؟! أما هدم الإمام عبدالله بن حمزة لمساجد المطرفية فهي أشهر من أن نعيد ذكرها هنا! أيضًا ما ذكره المقبلي في العلم الشامخ، أن المقبلي عاتب أحد خطباء عصره وجماعته، لكونهم إذا وفد عليهم إمامي من خارج اليمن هشوا إليه وبشوا، وعشعشوا وانتعشوا، وإذا وفد عليهم واحد من أهل المذاهب الأربعة فكأنما رأوا شيطانًا على حد قوله.

³ - بهجة الزمن، سابق، 162.

بقيادة حملة عسكرية على الحجرية، وإلقاء القبض على عبد الوهاب نعمان، وإيصاله إلى صنعاء مخفوراً، وكان ما أمر الإمام فعلاً.. وقد أدرك الوزير حجم المكيدة التي استهدفته مع صاحبه حتى شعر بالخجل.

ومع هذا عزله الإمام وعيّن ابنه السيّف أحمد مكانه، ليعينه لاحقاً مديراً في المحويت، ويعيّن نعمان مديراً على بني مطر، وتحت إشرافه، علماً بأن الاثنين "الوزير والنعمان" قد جمعهما - لاحقاً - موقف 48م الدستورى، فكانا من رموز ثورة 48 على الإمام! كما التقوا في سجن نافع بحجة، عقب فشل الانقلاب، وتلاقوا تحت حد السيّف "الأحمدي" أيضاً شهيدين بعد ذلك بأيام!¹

وعن هذه السياسة المتبعة لدى سلطات الأئمة عبر تاريخهم، حتى في إطار المذهب الواحد والأسرة الواحدة، قالت الباحثة والمؤرخة الروسية جولوبوفسكايا إلينا: "ومن أجل تقوية السلطة المركزية، استخدمت حكومة الإمام العداء بين القبائل التي تنسب إلى مذهب ديني واحد، ووسّع الإمام وأنصاره الخلافات القديمة بين القبائل، فحرّضوا القبائل القوية منها على الضعيفة. وأشعلوا نيران الفتنة بين مشايخ القبيلة الواحدة. وقد تحدّث شيخ قبيلة الحداء، ناصر بن علي البخيتي لمراسل جريدة الأهرام أنه في القبيلة يوجد شيخان، هو، وابن أخيه، وتخضع لكل واحدٍ منهما نصف القبيلة، فاستخدم الإمام أحمد هذا الوضع من أجل أن يجذب له هذا الشيخ أو ذاك، وفي ظل مثل هذا الوضع نشأ عداء دائم بين نصفي القبيلة"²

وتأتي سياسة ضرب قبيلة بقبيلة في إطار العجز عن السيطرة على هذه القبائل، حتى تشغل بنفسها عن نفسها، دون اللجوء إلى الإمام، للمطالبة بما تراه حقاً لها، وأيضاً لعدم قدرة الإمام - أي إمام - على فرض سيطرته وهيمنته عليها، إلا ما ندر وإلى مستوى معين من السيطرة والقهر؛ ذلك لأن المجتمع اليمني مجتمع حر، لم يتعود العبودية والذل أو يعرفها خلال كل فتراته السابقة، كما هو الشأن مثلاً في وادي النيل أو بلاد الرافدين سابقاً، أو حتى أوروبا في تاريخها الوسيط؛ فمن الصعوبة بمكان إذن السيطرة على هذا المجتمع بالقمع والقوة، في الوقت الذي يفتقر هؤلاء إلى الصفة الشرعية لحكمهم؛ لذا فقد لجأوا إلى ضرب قبيلة بقبيلة؛ لتسهل عليهم السيطرة

¹ انظر: اليمن الجمهورى، سابق، 121، فما بعدها..

² - ثورة 26 سبتمبر في اليمن، سابق، 151.

وإدارة البلاد بالأزمات، لأنَّ المجتمعات التي اعتادت الحياة بحرية تمكن السيطرة عليها من خلال مواطنيها أكثر من أية طريقة أخرى، كما ذكر ذلك ميكافلي في كتابه "الأمير"¹

لقد كانت القبائل أشبه بقطع الشطرنج بالنسبة للأئمة، هذه لضرب تلك، لأنها تمثل القوة العسكرية والحريّة التي استند عليها نظام الإمامة في اليمن على مدى فترات حكم ذلك النظام، كما أن قادة الحرب هم في أغلب الأحيان مشايخ القبائل الذين كانوا يقودون القوة العسكرية المحاربة، والمكوّنة من رجال قبائلهم المقاتلين تحت قيادتهم، بينما كانت دولة الإمامة في اليمن تستخدم أيديولوجيتها "المذهب الزيدي" وانتسبها إلى العلويين من أجل تثبيت سلطتها السياسيّة والاقتصاديّة والعسكرية، والقيام بفرض نوع من القهر السياسي والاقتصادي على مجموع السكّان في المناطق غير القبليّة في اليمن..²

يقول الأستاذ النعمان "الابن" متحدّثاً عن سياسة الإمام يحيى في تعامله مع القبيلة: "بل إنه أثار بين قبائل الشمال نفسها المشاكل العديدة، سواء بين القبيلة وجارتها، أو بين أجنحة القبيلة ذاتها؛ لتظلّ القوى القبليّة مشغولة ببعضها، ولم يحسم إشكالاً على الإطلاق. وقد كانت المحاكم الشرعيّة أداة مهمّة من أدواته التي استخدم بها تعقيد المشاكل، حتى لتظل بعض القضايا ثلاثين عاماً، يستصفي خلالها القضاة أموال الفريقين، ويضيع أصحاب القضايا خلال المنازعات، ويفتقرون ويتشردون ولا تزال القضية معلقة"³

إلى جانب الآثار السلبيّة التي تركتها الحروب على الجانب العلمي والثقافي كما أشرنا، يبقى أثرها الكبير على الجانب النفسي وما تركه على سيكولوجيّة الإنسان؛ خاصّة أنّ هذه الحروب ذات طابع معايير لأية حروب أخرى، فليست حروب جيوش نظاميّة تقتصر على فرق مدرّبة ومقاتلة فقط، بل تُعتبر القبيلة كلّها جيشاً محارباً، غازياً أو مغزياً، قاتلاً أو مقتولاً.. فكل فرد في القبيلة هو جنديّ مقاتل بالفطرة، ولديه من قصص الموروث الحربي التي تفتّح وعيه عليها منذ الصّغر، ما يفوق الجنديّ النظامي من المعارف النظريّة والعملية في مجال الحرب! وعادةً ما تدور رحى هذه الحروب في

¹ - انظر في هذا كتاب الأمير، نيقولا ميكافلي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ترجمة: أكرم مؤمن، د. ت. 36.

² - القبيلة والدولة في اليمن، سابق، 140.

³ - الفكر والموقف، سابق، 336.

الأغلبِ الأعم على مقربةٍ من الديارِ والأهلِ والسكنى؛ لذا فقد ذكر التَّاريخُ لنا بعضًا من النِّساءِ المحارباتِ اللاتي حملن التروسَ وتقلدنَ الدروعَ، كالشَّيخةِ صالحةِ الحجريَّةِ، وأيضًا تحفة حُبَلِ في شَرعِ السَّلامِ بتعز، ونورة بنت معوضة بن مُجَّد بن عفيف في يافع، والتي قُتلت في إحدى المعارك مع جنود الإمام المهدي صَاحِبِ المواهب، وأيضًا "أم أولاد أبو دنيا" و فندة الدرويشة. وأخريات كثيرات..¹

وثمة قصيدة لأبي الأحرار الزبيري عنوانها: "العجوز وعسكري الإمام" تُجسد نضالاتِ المرأةِ ضد هذا الطغيانِ الغاشم، في حوارية ديناميكية، يقول فيها:
المرأة:

يا رب كيف خلقت الجند ليس لهم عندي طعامٌ ولا شاء ولا نعم
ويلاه مالي أرى وحشًا وبندقه أذلك العسكري الغاشم النهم

العسكري:

نعم أنا البطلُ المغوار جئت إلى عجوزة لم يهذب طبعها الهرم
إنا جنود أمير المؤمنين فلم لا تدبجي الكبش يا حمقاء دوهمو؟

¹ - تزعمت الشبيخة صالحة الحجريَّة مواجهة قبائل خولان التي قادها أحد كبار أعيانهم يومها "... وقد عيّنه الإمام المنصور قائدًا لقبائل خولان، وكان متعطفًا لجمع الأموال بأية طريقة، فاتجه بقبائله إلى الحجريَّة بتعز لتهيئها، إلا أن أهل الحجريَّة تصدوا له، وبرزت الشبيخة صالحة قائدة شجاعة، فصدت هذا القائد ومن معه. وثمة قصيدة للشاعر محمد سعيد جرادة يجسّد فيها نضال المرأة اليمينية في الشمال والجنوب معاً، ومنها:

ورب فقير عرسه قد تمنعت عليه وهزت فيه نخوة جبار
وقالت له: فيم وقوفك والحمى محاط بشر مستطير وأشرار؟

فقال لها: قد تعلمين بأنني أخو فتكات في الوغى غير خوار
ولكنني من عدة الحرب أعزل وذلك ظرف لا يضير بمقدار

فأهدت إليه قرطها وسوارها وما تدخر الأنثى لحالات أطوار
وقالت له: بعها لتشتري كرامة وحرية لا يشتري مثلها الشاري

أين الدجاجة؟ أين القات؟ فابتدري
إنا جياغٌ وما في حيكم كرم

المرأة:

يا سيدي ليس لي مالٌ ولا نشبٌ
إلا بني الذي يبكي لمسغبةٍ
وهذه البيدُ فاقطف من هواجرها
ماذا يريدون من جوعي ومسغبي
يطلبون زكاةَ الأرض؟ ليس بها
أم جزية الكوخ؟ لا كانت جوانبه
أم قيمة القبر قبل الموت وا أسفًا
ولا رجالٌ ولا أهلٌ ولا رحم
وتلك أدمعه الحمراء تنسجم
ما شئتُ إنا إلى الرحمن نحتكم
إني لك الحمل المشوي بينهمُ
إلا الحمام وإلا الحجر والرخم
السوداء ولا تهضت في ظله قدم
الكوخُ قربي فما للظالمين عموا؟!
العسكري:

إني إذن راجعٌ للكوخ أهدمه
يا "شافعية" إن الكذبَ دأبكم

ويذكر محسن بن الحسن، صاحبُ "طيب الكساء" عن سياسة الإمام المهدي صاحب المواهب ما نصه: " .. وكان قاعدة الإمام يُسلم بكيلا طورًا، ويباين حاشدًا، ويحارب هؤلاء هؤلاء، وتارةً يسلِّط حاشدًا على بكيلا، وما يزال هذا دأبه، ولا يعجبه غير عدم الاتفاق بينهما.."¹
وظلت القبيلتان متوجستين من بعضهما في عهده، وحتى بعد وفاته، ولم يكن يجمعهما - وهما كبريات قبائل اليمَن إلا النهبُ والسلبُ لقبائل اليمَن الأسفل وتهامة، كما حصل عام

¹ - طيب أهل الكساء، محسن بن الحسن أبو طالب، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، صنعاء، د. ت. ص: 317.

1122هـ حين تحالفت القبيلتان بقيادة ابن الأحمر وابن جزيلان؛ حيث جمعا قبائلهما، وسارا إلى تامة، فنهبا وادي مور، وعادا إلى بلادهما.¹

هذه الحالة طبعث النفسية اليمينية، سواء على الصعيد الشخصي أو الجمعي بطابع الحذر الدائم والتوجس المستمر من الآخر، ولم تكن العلاقة الاجتماعية علاقة طبيعية في غالبها، يغلب عليها الأمان والطمأنينة، كما كان عليه الأمر سابقاً قبل الإسلام مثلاً؛ لذا فقد لجأ الناس إلى الاجتماع بالطبيعة لمساوتها في حد ذاتها؛ حيث سكن الشواهد الجبلية، فلا يكاد يخلو شاطئ أو مرتفع على طول اليمين وعرضه من بيت أو آثار بيت أو حصن منيع لهذا السبب، مع أن المكان الطبيعي للسكنى في المنبسط من الأرض أو القرية من الوديان، كما هو الشأن لدى كل الأمم في شتى بقاع المعمورة. وظلت هذه العادة إلى اليوم راسخة في الذهنية العامة، وفي نفس كل يمني، مع ما أصبح يمتلكه من مقومات الدفاع عن نفسه من السلاح الفتاك بالأعداء، ومع وجود الدولة ولو في حدها الأدنى. إنها حالة من الشعور بالخوف أو عدم الطمأنينة، تسكن أعماق أعماقه، شعر بذلك أم لم يشعر. ويبدو أن التخلص منها أمر بعيد المنال؛ لذا تعتبر اليمن من أكثر الدول العربية توزعاً سكانياً، فهي تفوق مصر البلد الكثير السكان، في هذا الجانب أكثر من الضعف تقريباً لهذا السبب! ولم تكن ظاهرة حمل السلاح الناري أو التمتع بالسلاح الأبيض "الجنبية" إلا أحد أشكال وتظاهرات هذا القلق الدائم، وضعف الطمأنينة، على الأقل لدى مناطق الشمال اليمني وبعض مناطق الشرق منه!²

وقد عمدت سياسة الأئمة إلى تقريب المشايخ الأكثر تحشيداً، والأكثر ولاء، وعادة ما تتركز المكانة الجهوية للشيخ على مقدار مقتنياته من "فيد" الغزوات على "أعداء الله"، وجعل مثل هذا السلوك حاجة مستدامة لدى هؤلاء، وذلك بغرس ثقافة تحتقر المهن، وتزدرى أصحاب الحرف،

¹ - اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، سابق، 218.

² - تذكر بعض الإشارات التاريخية أن الخنجر اليمني "الجنبية" هو في الأصل رمز وعلامة للصناعة التي اشتهرت في حضارة اليمنيين سابقاً.

وتحطُّ من قيم الإنتاج والكسبِ باليد والكد؛ الأمر الذي تميَّعت فيه، لدى بعض القبائلِ حُرْمَةُ أموال الآخرين دولةً أو أفرادًا، في تراكمٍ مقعَّد مسنود بسند فقهي أعوج، نعاني آثاره حتى الآن..¹

وقد أحسنَ الحكيمُ العربي قديمًا زهير بن أبي سلمى حين وصفَ الحربَ ومآلاتها النَّفْسِيَّةَ في معلقته الشهيرة، داعيًا إلى تجنبها وسُرْعَةِ الصَّلْحِ بين الخصوم، قبل أن يستفحلَ الداءُ النفسي قبل المادي في الذهنيَّة العامَّة للمجتمع.

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ
مَتَى تَبَعْتُوهَا تَبَعْتُوهَا ذَمِيمَةً
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِنِفَالِهَا
وَتَضُرُّ إِذَا ضَرَيْتُمُوهَا فَتَضُرُّم
فَتُنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشَامَ كُلَّهُمْ
وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تُنْتِجُ فَتُنْتِجُ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَفْطِمُ

أمَّا أثرُ الحربِ على البناءِ والتنميةِ وصناعةِ المستقبلِ فأمرٌ معلومٌ وواضحٌ عند الجميع، ولا يحتاج الأمرُ فيه إلى توضيح.

لهذا السَّبَبِ ولغيره من الأسبابِ تعززتْ في النَّفْسِ اليمينيَّةِ فكرةُ الهجرةِ والاعترابِ عن الوطنِ، وشكّلَ اليمينيِّ بمعارفه وخبراته وتفانيه عاملَ بناءٍ وتقدمٍ للغيرِ خارجِ وطنه، في الوقتِ الذي يحتاجُ وطنه فيه لنصفِ تلكِ الجهودِ منه؛ بل لقد تم استغلاله خارجَ وطنه بصورةٍ تبعثُ على الأسى والحزنِ، كما تم هجر الأَرْضِ اليمينيَّةِ على حُصوبةِ تُربتها، وتُركتْ هملاً من قبل أهلها؛ لأنَّ ناتجَ ثمرتها لم يعد في يده، بقدر ما يؤوّلُ ظلمًا إلى الإمامِ أو حاشيته، فكانت تلكِ المشاهدُ والمآسي الإنسانية التي نقرأ عنها ونسمعُ، خاصَّةً في الريفِ اليميني، الذي مثل مسرحًا دراماتيكيًا لأحداثٍ لا تحطُرُ على ذهنِ الشَّيطانِ.

¹ - عادل الأحمدى، مقالة بحثية على صفحته الإلكترونية، على الرابط: -

<https://www.facebook.com/adel.alahmadi.5/posts/1683574391659994>

ذات الشَّانِ نَفْسِهِ مَعَ التَّجَارَةِ الَّتِي كَادَتْ تَنْتَهِي تَمَامًا مِنْ ثَقَافَةِ الْمُجْتَمَعِ، مَعَ أَنَّ الْمُجْتَمَعِ الْيَمَنِيَّ - تَارِيحِيًّا وَمِنْذَ آلَافِ السَّنِينَ - قَدْ تَمَيَّزَ بِهَاتَيْنِ الْحَرْفَتَيْنِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الشُّعُوبِ وَبَرَعَ فِيهِمَا، وَهُمَا الزَّرَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ؛ إِلَّا أَنَّ عَصُورَ الْإِمَامَةِ كَادَتْ تَجْعَلُهُمَا نَسِيًّا مَنْسِيًّا؛ لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ وَجُودَ زِرَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ هُمَا مَعًا فِي ظِلِّ مُجْتَمَعٍ مُضْطَرَبٍ أَمْنِيًّا وَسِيَّاسِيًّا، فَهُمَا أَبْنَاءُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَنَتَاجِهِ؛ عَلَمًا بِأَنَّ صَنَاعَةَ قَدْ كَانَتْ يَوْمًا مَا وَاحِدًا مِنْ أَشْهُرِ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ التَّارِيحِيَّةِ؛ بَلْ لَقَدْ كَانَتْ الْيَمَنُ مِنْ أَهَمِّ دُولِ الْعَالَمِ الْمَسِيطِرَةِ عَلَى التَّجَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ سَابِقًا، وَمِنْهَا وَعَبْرَهَا تَمَرَّ أَعْلَى السِّلْعِ الْعَالَمِيَّةِ وَأَثْمُنُهَا، وَكَانَ الْيَمَنِيُّونَ بِحَارِينَ مَهْرَةً، لَا تَضَاهِيهِمْ أُمَّةٌ فِي الدُّنْيَا فِي هَذَا الْفَنِّ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْمُؤَرِّخُ الرَّومَانِي الشَّهِيرُ "هِيروودت"، مَشِيدًا بِخَبْرَةِ الْيَمَنِيِّينَ فِي صِنَاعَةِ الْمَرَاقِبِ وَالسُّفُنِ وَالْإِبْجَارِ صَيِّفًا وَشِتَاءً.. إلخ. وَلَمْ يَكُنِ الْغَزْوُ الرَّومَانِي لِلْيَمَنِ سَنَةَ 23 قَبْلَ الْمِيلَادِ إِلَّا مَنَافَسَةً لِلْيَمَنِ مِنْ قَبْلِ أَعْتَى وَأَكْبَرَ إِمْبَرَاتُورِيَّةِ عَالَمِيَّةٍ يَوْمَهَا، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ هُرِّمَتْ هَذِهِ الْإِمْبَرَاتُورِيَّةُ أَمَامَ الْيَمَنِيِّينَ وَدُجِحَ جَنُودُهَا ذُبْحًا فِي صَحَارَى الْجُوفِ وَمَارِبِ! وَمَا حَالُنَا الْيَوْمَ وَحَالُ تِلْكَ الْفَتْرَاتِ التَّارِيحِيَّةِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي يَوْمًا:

وما الدهرُ إلا من رِوَاةِ قِصَائِدِي إِذَا قَلْتُ شِعْرًا رَدَدَ الدَّهْرُ مَنَشِدًا

إِنَّ صِنَاعَةَ السِّلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالرِّفَاهِ الْحَضَارِيِّ تَسْتَدْعِي قِيَادَةً رَاشِدَةً بِعَقْلِ مُسْتَنِيرٍ، تَسْعَى جَاهِدَةً قَبْلَ تَحْقِيقِ هَذَا السِّلْمِ وَالرِّفَاهِ إِيجَادَ "الْعَمَلِ لِكُلِّ يَدٍ، وَالطَّعَامِ لِكُلِّ فَمٍ، وَالكَرَامَةَ لِكُلِّ مَوْطِنٍ" حَسْبَمَا ذَكَرَ الْبَرْدُونِيُّ؛ لَكِنْ مَقَابِلَ هَذِهِ الْأَسَاسِيَّاتِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْحَيَاةِ، كَانَتِ الْمَهْلَكَاتُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْبَدِيلُ عَنْهَا، أَوْ مَا عَرَفَ بِالثَّلَاثِ الْقَاتِلِ الَّذِي ارْتَبَطَ تَارِيحِيًّا بِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ وَحُكَامِهَا "الْجَهْلُ وَالْفَقْرُ وَالْمَرَضُ" وَذَلِكَ لِعَدَمِ رُشْدِيَّةِ الْقِيَادَةِ ذَاتِهَا، وَلِأَنَّ الْحُكْمَ/ التَّحَكُّمَ لَدَيْهَا غَايَةٌ فِي حَدِّ ذَاتِهَا، لَا وَسِيلَةَ؛ فَكَانَتْ عَمَلِيَّةُ تَخْلِيْقِ الصِّرَاعِ أَقْصَرَ الطَّرِيقِ لِلْبَقَاءِ عَلَى كُرْسِيِّ الْحُكْمِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَلَا عِلْمٍ لَيْسَ أَكْثَرَ مِنْ تُرْسٍ فِي آلَةٍ تُدِيرُهَا أَصْبَاحُ السِّيَاسَةِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا بَلَا إِدْرَاكِ وَلَا مَعْرِفَةَ، خَاصَّةً فِي مُجْتَمَعِ الثَّارَاتِ وَالغَزَوَاتِ وَالتَّقَطُّعَاتِ خَبْرُهُ الْيَوْمِي، بَعْدَ أَنْ رَسَّخَهَا أَسَاطِينُ الشَّرِّ، حَتَّى صَارَتْ ثَقَافَةً عَامَّةً!

وَبَدَلًا مِنْ تَحْرِيكِ السُّوَاعِدِ لِاسْتِصْلَاحِ الْأَرْضِ وَشَقِّ الثَّرْعِ وَعِمَارَةِ الْمَدْرَجَاتِ وَصِنَاعَةِ السُّفُنِ، وَالانْشِغَالِ بِالتَّجَارَةِ، كَمَا كَانَ الْحَالُ عَلَيْهِ فِي الْعُهُودِ السَّبْعِيَّةِ وَالْحِمَيْرِيَّةِ، تَحَوَّلَتْ هَذِهِ السُّوَاعِدُ

حمالةً لسيفِ الثأرِ أو بندقيةِ الغزو، أو هراوة الانتقام، في أقبح تحولٍ تاريخي.. من حضارةٍ عريقة
بهرت العالم بعراقتها وأصالتها ومدنيتها، وبانفتاحها على العالم، إلى "كانتونات" منغلقة، تفتتت
البؤس وتحتسي الحرمان.. وأرخص ما فيها هو الإنسان!

وتعكس هذه القصيدة "الشعبية" طرفاً من تلك الحالة الفوضوية التي كانت عليها فترات
الإمامة في غالبها، لشاعرٍ غير معروف، تُفلسف دلائلها طبيعة الصراع، ونوع المواجهة، وكيفية
التعامل معها من قبل العامة الذين أصبحوا مُدركين حقيقة كل تلك الصراعات على جهلهم
وبساطتهم، يقول:

حين قالوا: هيا شرق يا قبيلي قلت هيا مره، قومي وهاتي صميلي
أصبحت بين دولتين أغتمها شوري اليوم شور، والقبل قبلي
قبلما يسيروا يسدوا علي ذاك يا صنو لك، وهاذاك لي.. لي
وأنت سر لك هناك واذبح وهات قات واعصدي يا مره، وزد يا قبيلي
أجرة العسكري وإلا باب سيدي القصب والحبوب وأدي حمولي

ونترث هنا ملياً لاستقراء طبيعة الروابط الاجتماعية التي تُميز الشعب اليمني عن غيره من
الشعوب، حتى صارت الدولة والشعب يغلب عليهما "الطابع الاجتماعي"، وهو ما لا نجده في كثيرٍ
من دول المنطقة على الأقل.

إن ما تبقى اليوم من هذه الروابط الاجتماعية - وهي إيجابية في أغلبها - تعود إلى الجذور
الأولى التي نشأت وترعرعت مع المجد السبئي اليمني إبان ازدهار اليمن؛ إذ أنه بقدر ما في القبيلة
من السلبيات إلا أنها تحمل بموازاة ذلك من الإيجابيات والخلال الحسنة التي مثلت في كثيرٍ من
الأحوال ضماناً حقوقية؛ بل إنسانية من خلال ما تبقى من منظومة الأعراف القبلية السائدة، وهي
القوانين الشفاهية غير المكتوبة، ويتسم كثيرٌ منها بالطابع الإنساني والحضاري والمدني، كان من
الممكن أن تشكل هذه المنظومة العرفية بإيجابياتها رافداً ثقافياً وسياسياً لمنظومة القوانين الرسمية للدولة

لو وُجِدَت الدَّوْلَةُ التي تحملُ مشروعًا حضاريًا، خاصَّةً أن جزءًا كبيرًا لا يُستهان به من هذه المنظومة ذات الطابع الإنساني والمدني مَهْمَا كان تحامل البعض على القبيلة أو ازدراء بعض تصرفاتها. ومما يحسب لهذه المنظومة العرفية "القانونية"، أنها صمدت آلاف السنين، رغم محاولة الإمامة طمسها والقضاء عليها وتشويهها، كما أنها - لرسوخها التاريخي - استطاعت أن تُنافس قوانين الدولة الرسمية، بل تتجاوزها إلى حد أن يُقدِّم رئيس الدولة - أحيانًا إلى اللجوء إليها، عجزًا عن تطبيق القانون الرسمي للدولة، مهما كانت النوايا المتخفية خلف هذا الإجراء.¹ فضلًا عن أن 80% من مشاكل المواطنين تُحلُّ بالصلح الثنائي، أو العرف القبلي، كما تشير إلى ذلك بعض الدراسات الميدانية.

ومما لم يفتن له الأئمة على طول تاريخهم، ولم يدركوا حقيقته، لعمى التعصب الذي سيطر عليهم، هو المآلات المترتبة على اضطراع القبائل واحترابها؛ حيث كانت تقوم دولة إمام ما بموجب انتصار هذه القبيلة على تلك، وبالعكس - أيضًا - يسقط إمامٌ بموجب سقوط القبيلة الأخرى.. أي أن القبيلة هي المحدد الرئيس والمعادل الموضوعي لعملية الوصول إلى الحكم، فضلًا الأئمة يقتتلون بها على مر تاريخهم، في واحدة من صور المأساة والملهاة معًا التي تعكس ضباية التصور الفكري والسياسي للحكم، من لدن الإمام الهادي 284 - 298هـ، وحتى الإمام البدر "دامت مملكته أسبوعًا واحدًا فقط!!" في آخر الحروب الأهلية عقب ثورة 1962م التي استمرت ثماني سنوات، وانتهت بمصالحة سياسية عام 1970م؛ لأن هذه القبائل هي جيش الدولة "المجازية" أصلًا، التي لا تمتلك جيشًا رسميًا مثل باقي الدول، أو كما كان عليه الحال في العهود السابقة من التاريخ القديم؛ لأن سلطات الطغيان تخشى الجيوش المنظمة، ولا تأنس لها أبدًا مهما كان ولاء قادتها، خشية أن تتبلور منها قيادات وطنية تطيح بسلطة الطغاة؛ لذا فقد كانت القبيلة هي جيوش الأئمة وقت الحاجة، وهي أدوات الصراع الاجتماعي/ الاجتماعي متى ما رأيت أن ذلك قد يحقق لها مكسبًا سياسيًا، على أي نحو كان.

¹ - في العام 2010م أقدم الرئيس السابق علي عبدالله صالح على تحكيم قبائل آل شنوان في مأرب، وتحديدًا والد القتل جابر علي جابر الشبواني، أمين عام محلي مأرب، نائب المحافظ، الذي قتل بطائرة بلا طيار في مأرب، اتهمت أسرته الدولة وراء مقتله، وكان والده مصرًا على تطبيق النظام والقانون، في الوقت الذي بدأ الرئيس السابق أكثر إصرارًا على التحكيم القبلي، وحل المشكلة بالطرق القبلية!

ولو كانت هذه التَّظَرِيَّةُ وأهلها راشدين، لجعلوا من الصِّراعِ الدموي صِراعًا ناعمًا، بما يسمونه هم البيعةَ أو صناديقَ الانتخابات، أو مجلس أهل الحل والعقد، أو ما أشبه، لنوفرَ على شَعْبِنَا مآسي الحروب وآلام الصِّراع؛ لأنَّ عمليَّةَ إسقاطِ إمامٍ بقبيلة، وقيام آخر بقبيلةٍ أخرى يعني انهيار بُنيةِ الدَّوَلَةِ نفسها لا جهاز الحُكْمِ فقط، "السُّلْطَة" على تقليديَّةِ هذه البُنيةِ وبدائيتها، فتتغير - أحيانًا - عاصِمَةُ الدَّوَلَةِ "السُّلْطَة"، ويتغير رجالها، ناهيك عن النمط الثقافي السائد، وإن كان الحال من بعضه في هذه الجزئية تحديدًا.. فلم يكن التغير - دائمًا - إلا بين السيئ والأسوأ فقط.¹ ويعني - أيضًا - تخليق جماعاتٍ كبيرة من العبيد والإماء الذين يصيرون في عدادِ المملكيَّةِ الخاصة، ووفقا لأدبيات الفقه التقليدي "الفقه الحربي" فبدتِ الدَّوَلَةُ - على مر تاريخها - أشبه ما تكون بسلطاتٍ عشائرية، كل واحدة منها تأتي على النقيض من الأخرى، بينما الأصلُ أن تكون مكملةً لها، كالتسلسلِ الواحدة، كلُّ حلقةٍ فيها مكملةٌ لما قبلها وموصلةٌ للتي بعدها.

وما يُلفت الانتباه، ويستدعي التأمل، هو مدى ذكاء وسياسة القبيلة اليمينية ذات التاريخ العريق والمجد المؤثل، فقد كانت كل حروبها التَّاريخيَّةِ سياسيَّةً تغلب عليها "البراجماتية" ولكن البراجماتية العشوائيّة، غير المنظمة، وعادة ما تميلُ أية قبيلةٍ إلى من يدفع أكثر، أو ستكون مصلحتها معه، وهي أخف الحروب بطبيعتها، وأقل ضررًا من الحروب المذهبيَّةِ أو الدينيَّةِ. وتروي المصادقُ التَّاريخيَّةُ أنَّ بعضَ القبائلِ كانت تبايع مرتين لإمامين متصارعين، أو لثلاثة، أئمة وربما لأكثر، كما

¹ - خلال فترة حكم أسرة آل القاسم الذي ابتدأ في العام 1006هـ وانتهى بقيام ثورة 26 سبتمبر 1962م، تغيرت العاصمة أكثر من مرة، ففي عهد المؤسس الأول للدولة القاسمية القاسم بن محمد كانت العاصمة في شهاة، وأيضًا في عهد ابنه المؤيد الذي خلفه مباشرة، ثم انتقلت في عهد المتوكل على الله إسماعيل إلى ضوران أنس. وفي عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسن الذي تلا المتوكل إلى شباام الغراس "بني حشيش" وعادت مرة ثانية إلى ضوران أنس في عهد المؤيد بن المتوكل على الله إسماعيل. وفي عهد الإمام المهدي نقلها إلى منطقة اسمها المواهب شمال شرقي دمار. وفي عهد الإمام المتوكل القاسم بن الحسين أحمد بن الحسن، نقلها إلى صنعاء، وظلت في صنعاء لدى من أعقبه من الأئمة، حتى عهد الإمام أحمد الذي نقل العاصمة إلى تعز. أما فيما يتعلق بتغيير رجالات الدولة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، حين ولي الإمام المنصور علي بن المهدي قام بعزل رجالات الدَّوَلَةِ الذين تم تعيينهم في عهد أبيه، وتعيين فريق من أصدقائه والمقربين منه، وحين انقلب عليه ابنه، قام أيضًا بتغيير رجالات أبيه كلهم، مستبدلاً إياهم بفريق جديد، وحين انقلب عليه ابنه بعد ذلك، قام بعزل رجالات أبيه، وإعادة بعض من رجالات جده المنصور، وآخرين من المقربين إليه، وهكذا دواليك!!

هو الشَّأْنُ مع الإمام المتوكل على الله إسماعيل الذي بايعته بعضُ القبائل مرة ثانية لأنه اشتهر بالكرم، وقد كانت بايعت أخاه أحمد ابن القاسم قبل ذلك الذي لم يعطهم شيئاً. وغيرهما الكثير.¹ كما أن هذه الحالة التي سارت عليها جعلت القبيلة مع مرور الزمن تتخذ أكثر حول مكوناتها الاجتماعي الذي تعصبت له أكثر من تعصُّبها للدولة، لأن الدولة في نظر القبلي - وهي بحق كذلك - ليست غير مجرد "سلطة" سياسية استحواذية، فاقدة للشرعية مهما كانت ادعاءاتها؛ غير أن ما فات القبيلة، أو مما لم تظن له أيضاً - بدورها، هو ذلك التكتيك الخطير، المنطوي على حُبث سياسي، مُتمثلاً في أن قادة هذه الحروب - على الأغلب - لم يكونوا من أقرباء الأئمة أو من ذويهم، إلا ما ندر، وفي حال اقتضى الموقف تحقيق امتياز النصر لشخص ما من أقرباء الإمام، وما عدا ذلك فرؤساء القبائل هم رأس حربة المعارك التي أدارها الأئمة، التي تنتهي بهم أو بغيرهم. وهذا ما أكسب القبائل اليمينية - خلال مئات السنين - تجربة حربية وعسكرية، قل أن نجد لها نظيراً بين كل الشعوب، فلم يخرج اليميني من بطن أمه إلا إلى دُخان البارود، وما أن يصل مرحلة اليقظة، إلا وقد قذفت به ثارات الصراعات إلى جبهات القتال، لتكون مرحلة الشباب لديه هي الأكثر سخياً قتالاً، والأكثر شراسة حربية، ليلقى حتفه في الأخير خلف أكمة التمرس أو بين منحرجات الفرار. وقل أن تجد من يموت على فراشه، فذاك بالنسبة لبعض القبائل من الموت الخاسر "لا قضاء ولا سلف"! كما أن الأمر من وجهة نظر الأئمة أمر طبيعي، إن لم يكن لا بد منه..

- في العام 1275هـ أشاع الإمام حسين بن محمد الهادي أن الله مكَّنه من كنوز الأرض، وأن تحت يده من المال ما لا حصر له ولا عد؛ وذلك ترغيباً للقبائل لمبايعته، خاصة أن الرجل كان شائعاً عنه أن له علاقة بعلم الجفر وتحضير الأرواح وكتابة التمانم.. وفعلاً، بايعته كما تذكر المراجع التاريخية قبائل المشرق والمغرب، بعد أن أجزل لهم - الأعتيات وأنفق عليهم الأموال. وقد كان حازماً وإدارياً ناجحاً؛ إذ تحسنت في عهده العملة، وارتفع قدرها، خلافاً لما كان عليه الأمر قبل ذلك..

الفصل الرابع النَّظَرِيَّةُ وَالْمُسْتَقْبَلُ

المبحث الأول بين نظريّة البطنين والنظريات السياسيّة الأخرى

المتأمل في النّظريّات السّياسيّة، وخاصّة الحديثة منها يجد أنّ لكلٍ منها غايةً مثاليّة أو شبه مثاليّة على الأقل، وإن كانت وسائلها غير إيجابيّة. فالاشتراكيّة مُحصّلتها النهائيّة تحقيق العَدالة الاجتماعيّة، أو الوصول إلى مرحلة المشاع بين جميع النّاس في أعلى ذروتها المثاليّة، التي لن تكون بالطبع، وإن تباينت كثيرٌ من الآراء حول طبيّعة هذه العَدالة وهذا المشاع! والنازيّة التي تأسّست بعد نكسة "ألمانيا" في الحرب العالميّة الأولى مهمّتها في النهاية استرداد مجد "الرايخ"، وبحسب أدبيّاتهم هم، تحويل السّيفِ أداةً للمحراث من أجل أن يبقى الشّعب الألماني، ويبقى مجد "الرايخ"، وإن كان العقل والمنطق ضد تلك المجازر البشعة التي ارتكبت بحق الإنسانيّة من قبل السّلطة النازية المتطرفة!

ذات الشّأن - أيضًا - مع الفاشيّة الراديكالية التي تبلورت بفعل ثقافة تلك المرحلة بالنسبة لبعض شعوب أوروبا، والتي لم يكن همّها في النهاية إلا توحيد تلك الشّعوب الواقعة في إطارها، وتنظيم مجتمعاتها، ووصولاً إلى الإمبراطورية العظيمة والدولة الجامعة، وإن كان الجميع أيضًا ضد ديكتاتوريتها.

حتى صَاحِب "الأمير" نفسه نيقولا ميكيافلي الذي تبني مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" الشهير، لم يكن هدفه في النهاية إلا توحيد إيطاليا المتفرقة حينها إلى خمسين ولاية.. أي أنّ هدفه مثالي، وإن كانت وسائل تحقيق الهدف غير مثاليّة!
لكنّ ماذا عن نظريّة البطنين؟! ما وسائلها وما أهدافها؟

لنعدّ إلى التّاريخ البعيد قليلاً، وتحديدًا إلى ثاني شعارٍ رُفِع منذ بواكير فجر التّاريخ الإسلامي بعد شعار "الثّار من قتلة عثمان" الذي رفعه الأمويون بفرعهم السّفياني والمرواني يومها.. إلى شعار "الرضا من آل مُحمّد" الذي ابتكره العلويون في وجه خصومهم الأمويين، وساعدهم في ذلك العباسيون

الذين تبنا نفسَ الشِّعار في وجهِ حُصومهم الأُمويين أيضاً، حتى وصلوا إلى السُّلطة، وكانوا أولَ من انتقم من آلِ مُجَدٍّ!! وقد قيل في ذلك على لسانِ العلويين أنفسهم:

يا ليتَ ظلمَ بني مروان دام لنا وليت عدلَ بني العبَّاس في النار!

ولنُعَدُّ إلى ما يُسمى في الأدبيَّاتِ الدِّنيَّة/ السِّياسِيَّة لنظرِيَّةِ البطينين بالعلَمِ القَائِمة، أو الحُجَّةِ القَائِمة من آلِ مُجَدٍّ، وكذا قرناء القرآن من آل البيت الذين هم - من وجهةِ نظرِ الجَماعَةِ نفسِها - الثقل الأصغر، وسفينة نوح، وباب حطة، ونجوم أهل الأرض، وورثة الكتاب، والمطهرين من الرجس، والمصطفين بين الأمم!! وهي نعوتٌ وصفاتٌ يخلعها القوم على أنفسهم، تصل إلى حد القداَسَةِ لبعضهم، كما ذكر مجد الدين المؤيدي، وهو يتكلم عن الإمامِ الهادي بأنه قد أقام الله به الدين في أرضِ اليمن! وكأنَّ أهلَ اليمنِ قبله كانوا على دينٍ آخر غيرِ دينِ الإسلام، ناهيك عن الاستشهاد بما يراه أحاديثٌ نبوية فيه! ووراثه ذي الفقار! وسعة المعرفة وغزارة العلم! وأنه كرسول الله لم يغب عن أهلِ اليمنِ منه إلا شخصه! وقد نشرَ الله به في الدنيا أنواره! وبثَّ في اليمنِ الميمون بركاته! وأنه لم يختط الجامع "المقدس" بصعدة إلا بعد أن رأى نوراً ساطعاً في حال حياته! وأنه حين توفي نعاه الناصر الأطروش بقوله: اليوم اهدَّ ركنُ الإسلام!!¹ وأيضاً ما أشار فيه إلى فضائل أهل البيت، من قصيدة ولي آل مُجَدٍّ التميمي:

قوم أبوهم رسول الله حسبهم بأن يكون لهم دون الأنام أبا
من ذا يُفاخر أولاد النبي ومن هذا يداني إلى أنسابهم نسا

¹ - انظر: التحف شرح الزلف، سابق، 196 فما بعدها. ومما لا يستقيم مع العقلانية الرِّيديَّة التي يدعيها أتباع الرِّيديَّة - والواقع كذلك إلى حد ما - ما ذكره الشَّيخ العلامة مجد الدين المؤيدي عن الإمام الناصر الأطروش، مشيراً إلى كراماته "أنه قصده بعض الأعداء وهو منفرد وليس عنده سلاح، فتناول من صخرة عظيمة، فألأنها الله له، وموضع يده الشريفة هناك يُتبرك بأثره" مضيفاً: "ومنها أنه توجه إليه بعض الملوك لحربه، فاشتغل أصحابه بذلك، فخرج عليهم يوماً، وقال: قد كُفيتم أمر الرجل، قد وجهت إليه جيشاً، فقالوا: ومتى أنفذتهم؟ فقال: صليت البارحة ركعتين، ثم دعوت الله عليه، فورد الخبر أن الله أهلكه، وكراماته كثيرة شهيرة!! التحف، سابق، 212. وللقارئ أن يتريث ملياً، ليتساءل: أين العقل والمنطق مما أورد الشَّيخ المؤيدي؟ ثم ما الفرق بين هذا وبين أساطير وأحجيات كتاب "آيات الرحمن في جهاد الأفغان" الذي ينتقده الرجل وينتقده الكثير، وهو بحق أساطير وأحجيات لا تستقيم أيضاً مع العقل والمنطق!؟

قوم إذا افتخر الأقسام واجتهدوا
لولا الإله تلافانا بدينهم
أقام جبريل في أبياتهم حقا
أنتم أناسٌ وَجَدْنَا الله صيركم
وجدت كل فخار منهم اكتسبا
لما فتينا عكوفنا بعد الصلبا
يتلو من الله في حافاتهما الكتب
لنا إليه إذا لُذنا به سببا

ومنها:

لا يصلح الدين والدنيا بغيركم
من عابكم حسداً عاب الإله ومن
لم يفرض الله أجراً غير حكمكم
ولا يُقال لمن سامى بكم كذبا
عاب الإله فقد أودى وقد عطا
لجذكم خاتم الرسل الذي انتخبنا¹

هذه الأوصاف والنعوت تجعل - في مجملها - من هذه السُّلالة صنماً يُعبد من دون الله! وهو ما لم نجده في بقية النَّظَرِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ الأخرى. ولا توجد معتقداتٌ من هذا القبيلٍ تقدسُ جنساً أو سُلَّالَةً لذاتها، إلا لدى بعض طوائفِ الهند مما تبقى من الخرافات القديمة وهي في طريقها إلى الاندثار، في الوقت الذي يحرصُ البعض على إحياء مثل هذه الصَّنَمِيَّاتِ في يمنٍ سبأً وجميماً!

فكلُّ النَّظَرِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ على تبايناتها واختلافاتها وعلى تطرفها الشديد أيضاً - وأغلب النَّظَرِيَّاتِ القَائِمَةِ على أساسٍ أيديولوجي هي متطرفةٌ بطبعها - لم تذهب ما ذهبت إليه هذه النَّظَرِيَّةُ من جعلٍ عرقٍ معينٍ بذاته سيِّداً وغيره عبيداً! فإذا كانت كلُّ النَّظَرِيَّاتِ الأخرى تتطرفُ أو تتعصَّبُ أو تقتلُ من أجل الغير، ومن أجل العاقمة من الناس، ومن أجل الصَّالح العام، فإنَّ هذه الجَمَاعَةَ تتطرفُ لذاتها هي! فهي هدفٌ في حد ذاتها!

¹ - التحف، سابق، 219.

ومن يتتبع مجموعة الأحاديث المنسوبة للنبي - ﷺ - في كثيرٍ من كتبهم، التي تتكلم عن آل البيت يقفُ مندهشًا من هول تلك الامتيازات والفضائل التي حُلعت على ما سموه آل البيت، لم يحظَ بمثلها أنبياء من عند الله.. من ذلك ما أورده العلامة المؤيدي، منسوبًا إلى الرُّسول صلى الله عليه وسلم: "من زارَ قبرًا من قبورنا أهل البيت، ثم ماتَ من عامِهِ الذي زار فيه، وكل الله بقبْرِهِ سَبْعِينَ مَلَكًا يَسْبِحُونَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"¹

وأيضًا: "أهلُ بيتي أمانٌ لأهلِ الأرضِ، والنجومُ أمانٌ لأهلِ السَّماءِ؛ فإذا ذهبَ أهلُ بيتي من الأرضِ أتى أهلُ الأرضِ ما يوعدون. وإذا ذهبَتِ النجومُ من السَّماءِ أتى أهلُ السَّماءِ ما يوعدون!!"

وأيضًا: "في أهل بيتي عدولٌ ينفون عن الدين تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين، ألا وإنَّ أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من تقدمون في دينكم وصلاتكم!!"²

وأيضًا حديث: "إن الله أنزلَ قطعةً من نورٍ، فأسكنها في صُلبِ آدم، فساقها حتى قسَمها جزئين، فجعل جزءًا في صُلبِ عبدالله، وجزءًا في صُلبِ أبي طالب، فأخرجني نبيًا، وأخرج عليًا وصيًّا"

وكذا حديثٌ منسوبٌ إلى جبريلَ عليه السَّلَام أنه قال: "يا مُحَمَّد قَلْبَتِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَلَمْ أَجِدْ بَنِي أَبِي أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ"³

وعن الإمام الهادي أيضًا، أورد صاحبُ كتاب الحقائق الوردية حديثًا فيه، قال: ".. وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ بَعْضِ عُلَمَائِنَا - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - رَوَايَةً عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: يُخْرَجُ فِي هَذَا النَّهَجِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْيَمَنِ، رَجُلٌ مِنْ وَلَدِي اسْمُهُ يَحْيَى الْهَادِي، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، يُحْيِي اللَّهُ بِهِ الْحَقَّ، وَيَمِيتُ بِهِ الْبَاطِلَ " مَضِيئًا: فَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَام - هُوَ الَّذِي نَشَرَ الْإِسْلَامَ فِي أَرْضِ الْيَمَنِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ظُلُمَاتُ الْكُفْرِ فِيهِ مَتْرَاكِمَةً، وَمَوْجَاثُ الْإِلْحَادِ مِتْلَاطِمَةً، حَتَّى أَهْلَ مِنْ نُحُورِهِمُ الْأَسْلَ النَّاهِلَةَ، وَأَنْقَعَ مِنْ هَامَاتِهِمُ السِّيُوفَ الظَّامِئَةَ، فَانْتَعَشَ الْحَقُّ بَعْدَ عَثَارِهِ، وَعَلَا بِحَمِيدِ سَعِيهِ مِنْ مَنَارِهِ..⁴

¹ - التحف، سابق، 214.

² - التحف، 56.

³ - التحف، 75.

⁴ - الحقائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، الحسن حسام الدين حميد بن أحمد المحلي، 2/26، فما بعدها.

وروي - أيضاً - عن بعضهم، قال: سَمِعْتُ رجلاً يَقع في الهادي - عليه السَّلَام - ويُنتقصه في أصله، فما مكثَ إلا أيامًا حتى أخذه بلاء، فانقطعتُ رجله قبل أن يموت، ثم مات بعد ذلك. قال: وسَمِعْتُ - أيضاً - أن امرأةً تكلمت بكلامٍ سُوء، فقامتُ سَحْرًا، فأخذتها النَّارُ فاحترقت.¹

وأنه كان يومَ حر في نجرانَ مع بعضِ أصحابه، فأنشأ الله تعالى سَحَابَةً حتى ركدتُ فوق رأسِ الهادي، وجميعِ أصحابه، وأظلمهم الله بها في ذلك اليومِ الشديدِ الحر، وأن السَّحَابَةَ بقيتُ تظله حتى راح، وكانت السَّمَاءُ مصحية لا سحابَ فيها غير هذه السَّحَابَةَ فقط.. إلخ!!²

وفي سيرة الإمام الهادي حديث منسوب للنبي ﷺ: "أهل بيتي أئمة الهدى، فقدموهم ولا تَقدموا عليهم، وأمروهم، ولا تُأَمروا عليهم، وتعلّموا منهم ولا تعلّموهم، فإنهم أعلمُ منكم"³ وأيضًا حديث، أو ما يُسمى كذلك، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أورده عبدالله بن حمزة، ضمن خطبة له في رجاله بمدينة حوث، أن رسول الله - ﷺ - قال: "ذخرت شفاعتي لثلاثة من أمتي: رجلًا أحب أهل بيته بقلبه ولسانه، ورجل قضى لهم حوائجهم لما احتاجوا إليه، ورجل ضاربٌ بين أيديهم بسيفه"⁴

وأيضًا حديث: ".. لو أنّ رجلاً لقي الله بعمل سبعين نبيًا، ثم لم يلقه بولاية أولي الأمر من أهل بيتي، ما قبل الله منه صَرفًا ولا عدلًا"⁵

وثمة كثيرٌ من هذه الأحاديث وأمثالها، الخارجة مضامينها عن حُدود العقل ودوائر المنطق؛ بل خروج عن مقاصد الدين الحنيف ومعانيه السَّامية، وتنافي ما ورد في القرآن الكريم، كتاب رب العالمين على لسان نبيّه الذي يقرر هو بنفسه، عن نفسه: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)⁶

إنّ مثل هذه الإشارات التي تمجدُ آل البيت وتقدّسهم، واستمات من أجلها من يدعون أنهم آل البيتِ لاحقًا، وخاصّة في العهد الأموي، ليست في حقيقتها إلا بمثابة المؤهلات العِلْمية

¹ - المرجع السابق ، 36.

² - نفسه، 36.

³ - سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، سابق، 26.

⁴ - مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، سابق، 334.

⁵ - النبذة المشيرة، سابق، 93.

⁶ - كان يُحرم تقديم اليمني على السيد في صف أو كلام أو مصافحة أو ركوب أو مأكّل، أو كل ما يوحي بشرف أو تشريف. ابن الأمير، سابق، 39.

والسياسية التي يتكون عليها، ومنها ينطلقون لتحقيق أمنياتهم وغاياتهم الدنيوية؛ أمّا الدين فلا علاقة له بادعاءات البشر، سواء من هؤلاء أو من غيرهم، فقد تكفل الله بحفظه من السماء، ولا يمكن لجماعة أو شخص أن يؤثر على الدين أو ينتقص منه بأي حال من الأحوال.

وللأسف فإنّ هذه الدعوة وأمثالها قد لاقَتْ رواجًا بين أوساط العامة كثيرًا، خاصة من الجهلة، ومحدودي العلم والتعلم، في السابق واللاحق؛ أمّا في المجتمعات التي لاقَتْ حظًا من العلم والثقافة فقد أصبحت نسيًا منسيًا؛ بل من الخرافات والأساطير؛ ولذا حرص دهاقنة هذه النظرية عبر تاريخهم على تجهيل الشعب عمدًا، ليكتب لمشروعهم النجاح والاستمرار.

لهذا كانت تلك الحروب والقلاقل وكانت تلك الدماء التي سالت أنهارًا في صنعاء وما حولها، وكانت القبائل التي لم تحظ ولو بالحد الأدنى من التعليم، ناهيك عن الثقافة، هي وقود كل تلك الصراعات التاريخية على مر الزمن..

ليس القبائل فحسب؛ بل حتى بعض أبناء هذه النظرية الطامحين إلى الحكم، لم يكن كثير منهم على قدرٍ وافرٍ من العلم حسبما تقرّر النظرية التي تشترط وصوله إلى مرحلة الاجتهاد؛ بل لقد كان النسب في حد ذاته الضامن الأكبر، إلى جانب المعطيات الأخرى من المال والأتباع؛ ولهذا السبب كان نهمهم على المال جنونياً كيفما اتفق، بحق وبدون حق، ليحققوا به المجد السياسي من خلال التحشيد القبلي الذي يميل دائماً إلى من يدفع أكثر، ومن خلال شراء الولاءات وإسكات الأصوات المعارضة، ناهيك أنّ كثيراً من العوام يقاتلون بلا "جعل" أو مكافأة؛ لأن العوام من الناس يكادون يلحقون الإمام بالنبي، كما أشار إلى ذلك العلامة المقبل في "العلم الشامخ". وفي المباحث السابقة من الحديث عن تهافتهم على جمع المال واستغلال البسطاء من الناس، ومشاركتهم أموالهم ما يُغني عن التكرار.

ومن يتتبع سير الأئمة ونشأتهم وتاريخهم السياسي يجد أنّ كلا منهم - تقريباً - قد عمل قبل إمامته واليًا في اليمن الأسفل، إب، تعز، تهامة، ريمة، وصابين، عتمة، وخلال فترة ولايته يكون قد صار المال عنده كالتراب، وكوّن ثروة مادية مهولة، يستطيع بها شراء الولاءات القبليّة والعشائريّة لاحقًا، إذا ما أعلن لنفسه الإمامة، أو إخماد المتمردين والخارجين عليه بهذا المال؛ لأنهم يدركون جميعًا أن القوة هي المؤهل الوحيد والحقيقي في الوصول إلى الإمامة، ومن بين هذه القوة قوة المال؛

حيث يقوم بتوزيعه على القبائل والمقربين منه حتى يستنزفه بصورة كاملة أو شبه كاملة، لبدأ من ثم دورة جديدة في التحصيل والإثراء غير المشروع من جديد! وتذكر المصادر التاريخية أنهم كانوا يفرضون العقوبات المالية على تاركي الصلاة ومرتكبي الجرائم الكبرى كالزنا والسرقه والقذف، وغير ذلك، حتى صار وقوع الرعايا في هذه المعاصي أحب الأشياء إلى العامل لأنه يفتح عليه باب أخذ الأموال، فيتكاثر عنده الحرام، ويتوافر له المقبوض.¹

وقد تمثلت مصادر الدخل والإثراء غير المشروع لدى الأئمة جميعاً، منذ الهادي وإلى الإمام أحمد على ثلاث جهات، جعلت المواطنين يعيشون فقراً مدقعاً، فيما اليهود أحسن حالا منهم، أما الأئمة فحدّث ولا حرج. وهذه المصادر:

1- الواجبات والضرائب، المشروعة منها وغير المشروعة التي أرهقوا بها كاهل المواطنين وأدموا فؤاده، والتي تصل أحياناً إلى كامل غلاته السنوية؛ لذا لجأ كثير من المواطنين إلى بيع أموالهم لليهود، مقابل تسديد ما يتم فرضه عليهم من جلاوزة الأئمة وخرّاصيهم. "حصل بيع جماعي للممتلكات أيام الإمام الهادي نفسه" وهذا هو السبب الرئيسي، وربما الوحيد الذي جعل اليهود في اليمن على قدر عالٍ من الثراء، قياساً إلى المواطنين، عامة الشعب "المسلمين"!! فقد تفردوا بامتلاك الإقطاعيات الواسعة، والمسكوكات الذهبية والفضية، وكافة "عروض الباطن" التي استجلبوها من العامة بطريقة الاستحواذ، بمساعدة الأئمة في ذلك؛ ولهذا فقد كان بعض الأئمة الجشعين يعمد إلى نهب اليهود أنفسهم نهباً جماعياً حين تتكاثر لديهم الأموال، كما ينهب - أيضاً - عماله من غير السُّلالة، حين يرى أثر النعمة قد بدت عليهم. كما حصل مثلاً مع الإمام المهدي مُجَّد مع اليهود، والإمام المنصور علي بن المهدي عباس مع ولاته من "الموالي" ربحان ومسرور وغيرهم، وأيضاً مع اليهود!

2- الجزية. والجزية في أدبيات الفقه الهادوي مما يختص به الإمام وعماله دون غيرهم، فهي حلال لهم، ولا شبهة فيها. ولهم مطلق التصرف فيها. مع أنهم لم يتورعوا عن أية شبهة في الواجبات والضرائب أصلاً.

¹ - اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، سابق، 239. ذكر البعض أن صبياً سقط في البئر، فسلم من الهلاك، فعاقب العامل أهل القرية بالمال، ومن بين من عاقبهم أم الصبي!. المصدر نفسه: 248.

3. الغنائم. والغنائم "الفيد" بلغة "الهضبة" فلماذا جعلوا من تاريخهم وسلطاتهم حروبًا وغارات، طمعًا في "الفيد" الذي يجلب لهم الغالي والنفيس. بل لقد نُقلت أثاثات البيوت من مختلف اليمن الأسفل إلى صنعاء، وشاهد بعضُ أعيان اليمنِ الأسفلِ أثاثهم مفروشًا داخلِ دوواينِ عمالِ الإمامِ بصنعاء!!

هذه الحالة من الهوس على المال، أفضت إلى خلق معادلة شاذة في دورة رأس المال، وقد قال الله عنه: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) الحشر: 7 ولم يكن خلال حكم الإمامة إلا كذلك.

إضافة إلى ذلك تكون قد اتسعت دائرة معارفه القضائية والفقهية، من خلال احتكاكه وعمله وسط بيئة زراعية في غالبيتها، كثيرًا ما يلجأ أهلها إلى التقاضي "المشاعة" فيما بينهم بصورة دائمة، لفض النزاع وحل الخصومات بالطرق الشرعية "التقليدية" والتي لا تعتمد العنف أو المواجهات الدامية، كما هو الشأن لدى أغلب سكان المنطقة الأعلى، فتشكّل فترات توليهم عمالة أو ولاية مناطق اليمنِ الأسفلِ نوعًا من التخصيب الثقافي والمراس السياسي الذي يكسبهم بعض التجارب، ناهيك عن احتكاكهم بعلماء وفقهاء هذه البلاد، أبناء الأريطة العلمية الأصيلة في أغلب مناطق اليمنِ الأسفلِ.

ونتيجة لهذين العاملين، "جمع المال، واكتساب الخبرة والمراس السياسي" يتولد الصراع، وتتخلق العداوات بين أولاد الأعمام الذين يرى كلٌّ منهم في نفسه أنه الأحقُّ والأولى بالإمامة والحكم.. ومن هنا تطلّ الثورات برؤوسها والانقلابات بأذانها، وبغست الثورات والانقلابات على تلك الشاكلة التي يدفع المجتمعُ ثمنهما على الدوام، في الوقت الذي يصلون هم إلى برِّ الأمان والسلامة، من خلال المصالحات السياسية التي تنتهي بها دورات الحروب، أو هروب قائد الجماعة مع من تبقى من أتباعه وخاصته.

ثم إنَّ من انتصر منهم لا يأنس لنصره أو نجاحه على خصمه أبدًا؛ لأنَّ الدمَ يجرُّ بعضه بعضًا، والعنفُ وقوده العنفُ المضاد، ولأن حاسة الثأر لا تموت أبدًا، خاصة في المجتمعات القبلية،

فكانت متاعب ما بعد الإمامة أو الوصول إلى الحكم، أكثر من المتاعب التي قبلها على مشاقها الحادة والعنيفة.

يقول صاحب الأمير: "إنَّ من ارتفع من مكانة المواطن العادي إلى منصب الأمير بمحض الصدفة، لا يواجه سوى متاعب قليلة حتى يصل لهذه المكانة؛ إلا أنه يواجه كثيراً من الصعاب عندما يريد الحفاظ على هذا المنصب، وهم لا يجدون أيَّ صعابٍ في طريق المناصب لأنهم يطرون إليها؛ أمَّا ما يجدونه من صعابٍ فإنها تحدثُ بعدما يستقرون فيها."¹

ولهذا السبب لم يخلُ حاكم قط من صعوباتٍ وانقلاباتٍ عقب وصوله إلى الحكم، حتى وإن كان مؤهلاً له، ومستوفياً لأغلبية شروطه!.

¹ - الأمير، مرجع سابق، 42.

المبحث الثاني الانعكاسات الشرطية للنظرية

تكلّمنا - سابقًا - عن مُخرجاتِ هذه النَّظريَّةِ خلالَ مسيرتها التاريخيَّةِ، والآثارِ السِّلبيَّةِ المهولةِ التي خرجتْ بها بعد كلِّ هذهِ الفترةِ، وهي فترةٌ طويلةٌ جدًّا، كان بإمكانِ هذهِ النَّظريَّةِ - لو كانتْ تحملُ بذورَ الصَّلَاحِ والإصْلَاحِ - أن تراجعَ نفسَها بين الفينة والأخرى؛ فتعمل على تلاشي أخطائها التي وقعتْ فيها؛ إنما ما حصلَ كان العكسُ تمامًا، فكانتْ كلُّ فترةٍ زمنيَّةٍ تضيفُ من الأخطاءِ والخطايا ما تنوُّهُ بحملها الأجيالُ وتتشعُّرُ لهُولها الأبدان! وهذا دليلٌ قاطعٌ على عدمِ صلاحيتها، وكما كانتْ في الماضي فاشلةً، فإنها في الحاضرِ أفضلُ، وفي المستقبلِ أكثرَ فشلًا، بل إنَّ مجردَ التفكيرِ فيها في الوقتِ الحاضرِ ضربٌ من العتَّةِ والجنون!

الآن، وبعد ما ينيفُ عن ألفٍ ومئتي عامٍ مضتْ على ميلادِ هذهِ النظريةِ، قد يقول قائل: ما جدوى الحديثِ عنها اليوم؟ وما الذي يمكنُ أن يمثِلَ الحديثُ عنها من إضافةٍ إلى عالمِ الفكرِ والثقافة؟ ثم ما مدى فاعليَّةِ هذهِ النَّظريَّةِ بعد قيام ثورة 26 سبتمبر 1962م في الشمال، و14 أكتوبر في الجنوب؟! و

وكما تكلّمنا عن مُخرجاتها وآثارها السِّلبيَّةِ، فسنشيرُ بعد ذلك إلى المخاطرِ المستقبليةِ التي يمكنُ أن تشكلها هذهِ النظريةُ، وعلى أكثر من صعيد..

أولاً: على الصعيدِ الديني

لا يخفى على الجميعِ أهميَّةُ الدينِ في المجتمعاتِ الإنسانيَّةِ قاطبةً، ومدى تأثيره على حياتها وسلوكها وتفكيرها، سواء في القديمِ أم في الحديثِ. وقد لعبتْ الأديانُ قاطبةً من يهوديةٍ ومسيحيةٍ وإسلاميةٍ، بل حتى الأديانِ الأرضيةِ دورًا كبيرًا وفاعلاً على مجرياتِ الأحداثِ الإنسانيَّةِ وغيَّرتْ معالمَ وملامحَ التاريخِ كافةً، كما ساهمتْ في صناعةِ حضاراتٍ عالميَّةِ كبرى..

ظلَّ الفراعنةُ قُرُونًا طويلةً أسيري ثقافةً دينيةً مزورة، ترى في ملكها إلهًا أو نصفَ إله، مع ما يملكون من مقومات تجاوز مثل هذه الخرافة، لا يعصون ملوكهم، ويفعلون ما يؤمرون! وظلَّ الفرس أسيري ثقافةً أفضليةً سُلالة الدم الأزرق..¹

واعتقد اليهودُ بأفضلية سُلالتهُم على كافة الأمم، معتبرين غيرهم همجًا ورعاعًا "جويم" ولسانًا حالهم كما ذكر القرآن الكريم: (لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) آل عمران:75.

واعتقد الآريون أنهم الجنسُ الأرقى بين البشر، والذي ينبغي أن يحكم ويسود.² ورأت المسيحيةُ في نفسها أنها الأكثرُ رقيًا وحضارةً ومدنيَّةً، وأنها المخلصُ لعذابات الأمم وشقاء الإنسانية، واستطاعت أن تؤثر في الحضارة الرومانيَّة، ولو بصورة نسبيَّة وتسود كثيرًا من أرجائها..³

وكلُّ هذا بفعل التبريرات الدينيَّة من نُصوصٍ وتفسيراتٍ وهميَّة بعيدة كل البعد عن مقاصد الأديان، كل الأديان، بما في ذلك الأديان الأرضيَّة!

وجاء الإسلامُ، وساهم في صناعة حضارةٍ امتدت مختلف أرجاء المعمورة، ولا تزال.. وعلى امتداد الفترة التَّاريخيَّة التي تلت الخلافة الراشدة وإلى اليوم، حصل تشويهٌ متعمدٌ ومقصودٌ لمقاصده السَّامية وغاياته النبيلة، كما كانت تلك الإساءات القاصمة من قبل من يدعون محبته وتبعيته أكثر من حُصومه أو أعدائه!

¹ - ذكر الدكتور مصطفى الشكعة أن اليمن لم تكن تملك في عهد الإمام يحيى إلا طائرة واحدة فقط، وكان استعمالها آنذاك مقصورًا على أفراد العائلة المالكة فقط، وكان الشعب ممنوعًا من ركوبها، أو ركوب أية طائرة، والحجة في ذلك أن الشعب ممنوع أن يطير في السماء في وقت يكون الأمراء فيه على الأرض؛ لأن مكانتهم لا تعلق عليها مكانة أخرى! مؤكَّدًا: "أقسم أن هذا الكلام قد سمعته من أحد سيوف الإسلام في مجال الحديث عن ركوب الطائرات، وقد اضطرت إزاء حماقته وسخافته أفكاره أن أسخر منه، وأهزأ به إمام جمع من أصدقائه!!"

² - يقول هتلر: "كان الآري - ولا يزال - المشعل الإلهي الذي يضيء السبيل أمام البشر، فشرارة العبقريَّة الإلهية انبعثت دائمًا من جبينه المشرق، وهو الذي قاد الإنسان على دروب المعرفة، ودله على السبل التي تجعل منه سيد الكائنات الحيَّة على هذه الأرض، فإذا توارى الآري يغشى البسيطة ظلام دامس، وتتلاشى الحضارة البشرية في بضعة قرون، ويستحيل العالمُ قفرًا..!!" كفاحي. أدولف هتلر. بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:3، 2014م، 202.

³ - الواقع أن المسيحيَّة تأثرت بالثقافة الوثنية الرومانيَّة، بعد أن أصبحت ديانة رسمية عقب اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول للمسيحية في القرن الرابع الميلادي، أكثر مما تأثرت الإمبراطورية الرومانيَّة بالمسيحية نفسها، باعتبارها الدين الجديد. وهذا راجع إلى قوة الإمبراطورية التي دخلت الدين وهي في أوج قوتها، ولو دخلته في حالة ضعف لتأثرت به أكثر، والله أعلم.

وليس من المبالغة القول بأن النَّظَرِيَّةَ الهَادِيَّةَ - في حد ذاتها - واحدةٌ من هذه الإساءات لقيم الدين الإسلامي الحنيف ومقاصده العائمة التي تنزل من أجلها؛ فالإنسان قيمةٌ في حد ذاته، عنده تنتهي كلُّ القيم، وفيه تقاس كل المبادئ. وأي انتقاصٍ منه هو إساءة لله في علاه، وهو ازدراءٌ لأعظم مخلوقاته، باعتباره نفخة من روح الله. (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء: 85.

الإمام في هذه النَّظَرِيَّةِ صَنَمٌ معبودٌ، ووثنٌ مقدسٌ. هو الشريعةُ، والشريعةُ هو، ولا فرق. كلامه وحيٌّ من السماء، وفعله حجةٌ من التنزيل.. الاعتراضُ عليه فسقٌ، ومقاومته كفر. وقد أحسن الشاعر حين قال:

وعدنا بشرًا أمثالنا	عبد الأحرار آباء مضوا
من طعام وشراب يُقتنى	كانت "العزى" خليًا جوفها
قم ترى أمثاله ما بيننا	هبل الأعلى الذي حطمته

لقد تأسست هذه النَّظَرِيَّةُ منذ بواكيرها الأولى على أساسٍ مذهبي خالص، وعلى نحوٍ يرفع من شأن سُلالة، ويحطُّ من شأن باقي السُّلالات! ناهيك عن أنها تقدم الدين وتعاملُ معه وفقًا لتصورٍ معين، وقالبٍ جاهزٍ في اللاشعور، إنه دينُ الحاكم المتغلب، لا دينُ السماء.. وفيما أسلفنا من الحديث في المباحث السابقة ما يغني عن تكرار الكلام هنا.

من جهةٍ أخرى.. إنَّ استغلال الدين من قبل السَّاسة، واستدراج عواطفِ العائمةِ به من أخطر أنواع الاستغلال الذي تعقبه الكوارث المهولة في الحروب والانتقالات وهلاك الحرث والنسل. وهذه النَّظَرِيَّةُ قائمةٌ على أساسٍ ديني، ومن السُّهولة التغير على العوام بالذب عنها والجهاد في سبيلها، باعتبارها دينًا وعقيدة، مهما كلف من ثمن، ومن هنا أتت المصائب والكوارث والنكبات! لقد أصبحت المذاهبُ الفقهيَّةُ جميعها من التاريخ، والحديثُ اليوم عن العودة إلى مذهبٍ فقهي ما ضربٌ من الجنون والانفصام الحضاري، في ظل قرية كونيَّةٍ معولمة، لم تعد المحيطات والبحار

والجبال هي التي تفصل بين قارة وقارة؛ بل شاشة زجاجية رفيعة، وهذا لا يعني أن نتنكر أو نتجاوز كلياً ما يمكن أن نعتبره إنجازاً تشريعياً في كل أبواب الفقه الإسلامي على تفرعاته وتشعباته، ففيه ما يمكن أن نستفيد منه؛ لكن أن نجعله اليوم هو المرجع الأساس، أو السند الرئيس فذلك ما يجبرنا على العودة إلى تلك القرون الغابرة التي تأسس فيها ذلك الفقه. وهذا من المحال.

ثانياً: على الصعيد الوطني

أثبتت الوقائع التاريخية أن الأيديولوجيات المستوردة، العابرة للحدود، والقادمة من خارج بنيتها الثقافية والجغرافية قد أخفقت جميعها؛ بل فشلت، ولم تكن - بأي حال من الأحوال - خلا لأية جماعة أو شعب أو أمة، بقدر ما كانت مشكلة ووبالاً عليها!

فعلى الرغم من بعض قيم العدالة والمساواة والتحرر من نير الإقطاع التي نادى بها الاشتراكية - دعك من الوجه الآخر لها - وهي في أوج قوتها في الاتحاد السوفيتي، فإنها قد مثلت مشكلة حين انتقلت إلى خارجه في الغالب، وخاصة في الوطن العربي، ولم تقدم حلولاً عملية تذكر، كما قدمت حلولاً عملية وناجحة في الاتحاد السوفيتي حيث نشأت.

وعلى الرغم من قيم الحرية واستنهاض العزائم وتفعيل العقل في الرأسمالية الغربية - دعك أيضاً من وجهها الآخر - فإنها لم تقدم أي نجاح يذكر حين خرجت من بنيتها الثقافية وخارج حدودها الطبيعية التي وُلدت فيها.

الفكرتان ابنتا بيئتهما، سواء في شرق أوروبا؛ بما في ذلك الاتحاد السوفيتي، أو غربها بما في ذلك أمريكا المحسوبة عليها..

والشأن ذاته مع النظرية الهادوية، ليست ابنة اليمن، ولا تمت لشعب اليمن بصلة، مثلما لم تكن ابنة الإسلام بمقاصده السامية، ومعانيه الزاكية، وإن تسببت إليه، وتشبثت بعروقه..

فاليمن بلد حضاري ضاربٌ بجذوره في عمق التاريخ، من قبل أن تكون اليهودية والمسيحية والإسلام. والموروث الحضاري الهائل لا يزال في الوعي الجمعي، على الرغم من القطيعة التاريخية الطويلة، وعلى الرغم مما تعرّض له هذا الموروث من طمس وتشويه مُتعمد وغير مُتعمد.

يقول المؤرخ العربي عدنان ترسيبي: "إنَّ اليَمَنَ بلاد مُدُن عَظِيمَةٍ، وَحَضَارَةٍ عَالِيَةِ الشَّأْنِ، فَسُكَّانُهَا رِجَالٌ تِجَارَةٌ وَصِنَاعَةٌ وَتَعْدِينٌ وَزِرَاعَةٌ وَعُمَرَانٍ وَفِي وَأَعْمَالٍ إِنشَائِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، يَمْلِكُونَ الْأَسَاطِيلَ، وَيَعْرِفُونَ أَسْرَارَ الْمَلَاخَةِ، وَيؤَسِّسُونَ الْمَرَكَزَ التِّجَارِيَّةَ وَالْمَمَالِكَ الْبَعِيدَةَ؛ فَهَمُ أَهْلُ حَضْرَ، وَأَصْحَابُ مَخَافِدٍ وَقُصُورٍ، وَأَلْقَابُ مُلُوكِهِمْ تَسْتَنِدُ إِلَى مَمْلَكَاتِهِمُ الْمُتَحَضِّرَةِ.."¹

إنَّ "جِنَاتِ" الْحَضَارَةِ - إِنْ صَحَّ الْمِصْطَلَحُ - لَا تَزَالُ فِي مَسَامَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الْيَمَنِيَّةِ وَبَيْنَ وَجَدَانِهَا؛ وَهَذَا السَّبَبُ رُفِضَتْ فِكْرُهُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ، بِدَلِيلِ عَدَمِ اسْتِقْرَارِهَا عَقْدًا وَاحِدًا مِنَ الزَّمَنِ، خِلَالَ مَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ سَنَةٍ مَضَتْ! صَحِيحٌ أَنَّهُ طَالَ بِهَا الْعُمُرُ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ عُمُرٌ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ، كَالْكُفَيْتِ أَوْ الْمَفْلُوجِ الَّذِي طَالَ بِهِ الزَّمَنُ كَثِيرًا، وَلَمْ يَهْنَأْ بِحَيَاةٍ أَبَدًا. وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ صَالِحَةً مِنْ حَيْثُ مَرَجَعِيَّتُهَا الْفِكْرِيَّةُ، أَوْ بُنْيَتُهَا الْإِيدِيُولُوجِيَّةُ لَشَكَلَتْ مَشْرُوعًا جَامِعًا لِلْيَمَنِيِّينَ مِنْ يَوْمِهَا، خَاصَّةً أَنَّمَا جَاءَتْ وَالْيَمَنِيُّونَ يَتَعَلَّقُونَ بِقَشَةِ النَّجَاةِ وَالْخِلَاصِ مِنْ هَاوِيَةِ الْإِنْخِدَارِ الْحَضَارِيِّ السَّحِيقِ الَّذِي انْحَدَرُوا إِلَيْهِ، وَكَانَ يَكْفِيهَا لَوْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْعُمُقِ الْوَطَنِيِّ وَالرَّصِيدِ الْحَضَارِيِّ شَخْصِيَّةُ الْإِمَامِ الْهَادِي "الكَارِيزْمِيَّة" الْقِيَادِيَّةُ، وَطَمُوخُهُ الْكَبِيرُ، وَشِدَّةُ عَزْمِهِ وَبَأْسِهِ، فَهُوَ مِنَ هَذِهِ النَّاحِيَةِ شَخْصِيَّةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ، شَجَاعَةٌ وَقِيَادَةٌ وَإِقْدَامًا، غَيْرَ أَنَّهُ افْتَقَدَ الْخَلْفِيَّةَ الْفِكْرِيَّةَ الْجَامِعَةَ لِلْمَشْرُوعِ الْوَطَنِيِّ الْكَبِيرِ. فَكَانَتْ "إِيدِيُولُوجِيَّتُهُ" دُونَ شَخْصِيَّتِهِ؛ بَلْ قُلْ كَانَ حَقْدُهُ الدِّينِ الَّذِي يُوغُرُ صَدْرَهُ أَكْبَرَ مِنْ عَقْلِهِ الَّذِي تَلَاشَى بَيْنَ نِيرَانِ هَذَا الْحَقْدِ.

فِكْرَةُ التَّوْرِيثِ فِي الْحُكْمِ "الْبَطْنِيِّينَ" دَخِيلَةٌ مِنْ أُسَاسِهَا، جَاءَتْ أَصُولُهَا الثَّقَافِيَّةُ وَالْفِكْرِيَّةُ الْأُولَى مِنْ بِلَادِ فَارَسَ، وَمِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ؛ وَلِذَا فَهِيَ مُسْتَقَرَّةٌ فِي بِلَادِ فَارَسَ "إِيرَانَ" إِلَى الْيَوْمِ رَغْمَ طَوْلِ الْعَهْدِ، وَغَيْرِ مُسْتَقَرَّةٍ فِي أَيِّ بَلَدٍ آخَرَ انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ.² وَالسَّبَبُ أَنَّمَا ابْنَةُ الْجُغْرَافِيَا، وَسَلِيلَةُ التَّارِيخِ،

¹ - اليمن وحضارة العرب، الدكتور عدنان ترسيبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط. د.ت. 71.

² - بحكم التقارب المذهبي أقام الأئمة القاسميون في اليمن علاقات ود استثنائية مع إيران الصفوية خلال فترة حكمهم، فتمثالاً أرسل الإمام المهدي محمد بن المهدي أحمد، صاحب المواهب 1097 - 1130 هـ وفداً برئاسة محمد حيدر آغا، حاملاً هدايا كثيرة، منها السيوف والخيول والعقيق وبعض التحف اليمينية الثمينة إلى الشاه حسين بن سليمان الصفوي ت. 1135 هـ. حين لقب الإمام نفسه بالمهدي المنتظر، وبأدله الشاه الصفوي ذات الشعور؛ إذ أرسل له بعد ذلك وفداً كبيراً محملاً بالهدايا النفيسة للإمام. وقبيل وصولهم إلى اليمن كان الإمام قد أعد لهم استقبالاً مهيباً لم يعمله مع أحد قبلهم أو بعدهم، فأمر عماله بتزيين كل المدن التي يمر بها الوفد، ابتداء من ميناء المخا، وانتهاء بمدينة المواهب في ذمار، كما أمر كل عامل باستضافة الوفد حال مرورهم من ولايته. وحال استقبالهم صفت الأجناد من المواهب إلى قريب ذمار، ثم صفت بعد ذلك الخيل إلى ميدان الدار، وقد فرش جميعه بالمفارش الرومية، وعند رأس كل حصان عبد من العبيد حتى وصلوا إلى الديوان.. ثم استقبل الإمام الوفد في وسط مهرجان كبير، كان قد أعده لهذه=

وشقيقٌ طبيعيٌّ لمجملِ الفكر والثقافة هناك، فيما هي في اليمنِ كاللقيط؛ لذا فقد انزوت تاريخياً في جغرافيا محدّدة من اليمن¹، ولم تستطع تجاوزَه مطلقاً على الرغم من مئات المحاولات الممنهجة وغير الممنهجة للتتمدد أكثر فأكثر؛ وعلى الرغم من أدوات القدرة التي أتاحت لها؛ لكنها لم تستطع، وكأما قد ضُرب بين الهضبة الشماليّة وبقية بلاد اليمنِ بسور الصين العظيم، أو لكأما قد أُسدل ستارٌ من السماء فلم تبرح مكانها..!

"كانت الشّيعةُ في حقيقتها فرقةً فارسيّةً، وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين الجنسين العربي الذي يُجب الحريّة، وبين الجنس الفارسي الذي اعتاد الخضوع كالعبيد. لقد كان مبدأ انتخاب خليفة للنبي أمراً غير معهود ولا مفهوم، لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم؛ لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمدٌ لم يترك ولدًا يرثه فإن علياً هو الذي يجب أن يخلفه، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي. ومن هنا فإن جميع الخلفاء - ما عدا علياً - كانوا في نظرهم مغتصبين للحكم لا تجب لهم طاعة.." ²

=المناسبة، حضره أعيان الدوّلة وغيرهم، وألقت فيه كلمات الترحيب وقصائد التهاني. وقد أقامهم بالقرب منه في بستانه الخاص، وأنفق عليهم النفقات الواسعة طوال فترة إقامتهم التي استمرت أربعة أشهر. وعندما أعلنوا موعد الرحيل أتحفهم الإمام بالهدايا الجزيلة التي منها: سبعون فرساً من الخيل العناق، ثم ألبسها جميع ما تحتاج إليه من العدة الفاخرة التي رق لبسها وراق، وغير ذلك مما يُقابل به الملوك من النفائس والذخائر والسيوف المحلاة بالذهب المسبوك. وكان من جملة الهدايا التي خص بها الشاه نسخة من ديوان الشّاعر الحسن بن علي بن جابر الهبل، وفرس عظيم القوة والحجم، مجهز بسرّج وعصى مصنوعة من العقيق.. "الخ. انظر: اليمن في ظل حكم الإمام المهدي. ص 359.

¹ - إلى حد كبير ارتبطت كلمة "زيدية" في الذهنية العامّة بالنسبة لسكان اليمن الأسفل بكل سلوك همجي، بعد تجربة طويلة لمئات السنين من المعاناة والنهب والسلب الذي طالهم، وذلك لاعتماد الأئمة على عساكر وجنود من بيئة معينة، استطاعوا تشكيل ثقافتهم ووعيتهم على النحو الذي يريدون.. ويذكر البعض أن أحد الرّحالة الأجانب وصل إلى تعز، وسأل أحد البسطاء من العامة: من هو الزيدي؟ فأجابه: شخص متسخ الثياب، يحمل على كتفيه بندقا، يأتي ليلتهم الدجاج والسمن والعسل، ويأخذ المال ثم يعود إلى صنعاء. ونفس السؤال كرره أيضاً في صنعاء على أحد العامّة من هؤلاء: من هو الشافعي؟ فأجاب: رعوي من اليمن الأسفل، عنده الكثير من السمن والعسل والدجاج والمقروش. وطرفة أخرى أيضاً سمعتها من المؤرخ حيدر علي ناجي، أن أحد اليهود الذي نزع من صنعاء إلى مديرية كسمة بمحافظة ريمة، نهاية أيام القاسميين، اختلف مع أحد أبناء المنطقة، فذهب الريمي يشكوه عند العامل، وحين حضر اليهودي، قال للعامل، وهو من الزيود طبعاً: هؤلاء أبناء ريمة يتعصبون ضدي بالباطل، ولا شيء لهم عندي، وهم يكرهونني لأنني يهودي زيدي، ظناً منه أن العامل سيتعاطف معه لزيديته الجغرافية!

² - أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، يوليوس فلهوزن، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1958م، 240.

وبنظرة تقيميّة محايدة لا يستطيع أيُّ قارئٍ للتاريخ وللفكر الإنساني، ولفلسفة الزمان والمكان إلا أن يقول: إنَّ هذه النظريّة كانت مُشكّلةً لا حلاً، على الرغم من محاولتها وسعيها الدءوب لأن تكون كذلك؛ ولكن هيهات.. هيهات!¹

"إن الحكام الذين ركبوا ظهر المذهب الزيدي قد أسسوه تأسيساً سياسياً واقتصادياً وجغرافياً يثير الريبة في صفته المذهبيّة، وذلك أننا لا نرى إلا نطاقين جغرافيين متجاورين، ومحددين بالمذهبين الرئيسيين: الزيدي والشافعي، على النحو الذي تُوضع به الحدود السياسيّة بين دولتين مُستقلتين، وهو أمرٌ واضح العرابة"²

بعد كل ما حدث من الصراع التاريخي المهول داخل هذه النظريّة، الذي دفع اليمّنيون بسببه الأثمان الباهظة التي أثّرت على مسيرتنا التاريخيّة، هل نريد اليوم بدء جولة جديدة من صراع جديد؟ ألا نعتبر من الماضي؟!

إنّ الجغرافيا اليوم هي المحدد الرئيس للعيش المشترك بين كل أبنائها، على اختلاف أديانهم وأجناسهم ولغاتهم وثقافتهم في العالم كله. ولم تعد الأيديولوجيات هي المحدد الرئيس أو الثانوي لذلك.³ مع أنّ تعدد اليمّنين ليس بتعدد الصين أو الهند أو أمريكا على اتساعاتها، ولا تعدد سويسرا على صغرها!

تعدّد اليمّنين تنوعٌ إيجابيٌّ خلاق في إطار الثقافة الواحدة، واللغة الواحدة، والدين الواحد، والجغرافيا الواحدة! بالإمكان أن نجعل منه رافداً حضارياً جديداً، وقيمةً سياسيّة ومدنيّة، لنبني عليها مُستقبلاً منضبطاً بالمصلحة الواحدة والعيش المشترك.

¹ - في مذكرات الوالد المناضل يحيى مصلح مهدي أنه عند المصالحة الشهيرة التي تمت عام 1970م بين الجمهوريين والملكيين، تألم وزير خارجية الملكيين يومها الأديب أحمد محمد الشّامي، وقال فيها قصيدة مطولة: منها:

أبلغوا "فيصل" والقصور العوالي أننا نخبة كرام أشاوس
سنعيد الإمامة للحكم يوماً بثياب النبي أو بفكر ماركس
فإذا خابت الحجاز ونجد فلنا إخوة كرام بفارس

² - محمد عبد الوكيل جازم، مقدمة كتاب تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري، المسمى تاريخ طبق الطوى وصحاف المن والسلوى، عبد الإله الوزير، تحقيق: محمد عبد الوكيل جازم، دار المسيرة، بيروت، ط: 1، 1985م، 14.

³ - تعود النزعة الإيرانية اليوم إلى ما يسمونه بالمجد الفارسي القديم، القائم على الجغرافيا وعلى الهوية والعرق، لا على الأيديولوجيا الدينية؛ لذا فقد عمدت إلى جعل مدينة "قم" الإيرانية هي المرجعية المقدّسة لهم بدلاً عن النجف الأشرف بالعراق.

كلُّ الأيديولوجيات العابرة للقارات أو القادمة من خارج الحدودِ إلى زوال، وما أغنانا - كيميئين - عن هذه الفقاعاتِ المستوردةِ من خارجِ حدودنا ومنظومتنا الثقافية، خاصة في تاريخنا من المجدِ والعظمةِ ما يكفي لأنْ نجعلَ منه متكاً لتأسيسِ دولةٍ؛ بل إمبراطوريةً عظيمة، إن وُجدت القيادةُ الرشيدةُ التي تعرف عمقَ وثقافةَ هذا البلدِ العظيم! ولا نرى هذه الأيديولوجياتِ المستوردةِ إلا مثلَ الوجباتِ السريعةِ المستوردةِ أيضاً، وبين أيدينا من المجدِ ما يؤهلنا لأنْ نكونَ من أرقى شعوبِ العالمِ وأقواها.

إنَّ قابليَّةَ أيةِ نظريَّةٍ سياسيَّةٍ بصبغةٍ أيديولوجيةٍ للتنفيذ العملي محدودة جداً، مهما حاولت. وباستقراءِ تاريخِ كلِّ النظريَّاتِ السياسيَّةِ التي حكمت أو تحكمت، نجد أنها لم يطلنَّ بها أمدٌ إلا بقدرِ ما ملكت من أسبابِ القوةِ والقمعِ والبطشِ فقط. هذا فيما مضى من الزمن، أمَّا في الحاضرِ والمستقبلِ فإنَّ الحديثَ عن أيديولوجيا حاكميةٍ لن يكونَ إلا من الهراءِ والوهمِ.

ولأنَّ الدولةَ لما تقم بعدُ بمؤسساتها وبنيتها الإدارية ليس في اليمنِ فحسب؛ بل في الوطنِ العربي كله، فإن الرجلَ الأولَ أو الإمامَ بلغةِ هذه النظريَّةِ سيظلُّ إلى جانبِ كونه "الرئيس" أو "الإمام" أو الرجلَ الأولَ في الدولةِ هو - أيضاً - رجل دين، وهو الناطقُ الرسمي باسمِ الشريعة، يصدرُ الفتاوى والتشريعاتِ والقوانين، بلا رقيبٍ أو حسيب، وبالتالي فإنَّ مصيرِ الحرياتِ السياسيَّةِ والمدنيَّةِ إلى زوال؛ وسيظلُّ الصِّراعُ السياسيُّ هو سيد الموقف. ومنه، وبه ستتخلَّقُ كلُّ الأصولياتِ المتطرفةِ من يمينٍ ويسار؛ لاسيَّما وللنظريةِ من الموروثِ الديني ما يمكنُ أن تعزَّزَ به كلَّ عمليَّةٍ للقمعِ أو الإبادة، وقد كان ذلك من بعضِ حكامهم بعضاً خلال تاريخهم الطويل، كما أشرنا سابقاً.

وقد سعى الإمامُ "أي إمام" في هذه النظريَّةِ إلى جعلِ الدولةِ تتماهى في شخصه، ويكون هو قطبُ الرحي وحجرَ الزاوية، حرصاً منه على معرفة كل ما يجري من صغيرةٍ وكبيرةٍ في الدولة، حتى إن النشيدَ الوطني في عهدِ الإمام يحيى ثم عهدِ الإمام أحمد كان ينتهي بهذه القفلةِ الإنشاديَّة: "تعيش بلادي ويحيا الإمام!" كما كان شعاره أيضاً فيما يتعلق بنظرته الوطنيَّة لا تعدو أرنبةً أنفه، إذ اشتهر عنه كثيراً شعاره المرفوعُ على الدوام "من شهارة إلى سمارة".¹

¹ - شهارة مركز إداري كبير بمحافظة حجة، منها انطلقت دعوة الإمام يحيى، وسمارة نقيل طويل، كثير التعاريج في محافظة إب، ويُعتبر الحد الفاصل بين ما عرف باليمن الأعلى واليمن الأسفل.

لا بأس أن نعود لأحداث التَّاريخ هنا للاستشهاد والإيضاح..

1- بسبب تلك العقليَّة المنغلقة للإمام يحيى حميد الدين، تواصل في عهده انفصالُ الشَّطر الجنوبي عن الشَّمالي، وكان بوسعه توحيدُه، لو كان يحمل مشروعًا وطنيًا جامعًا، بل بقي النَّاسُ في الجنوب متوجسين حدَّ الحذر من سياسة الأئمَّة في صنَّعاء التي لهم معها صولاتٌ وجولات، مع أن الرَّحالة العربي عبد العزيز الثعالبي قد تقدم بمشروع توحيد اليمن عام 1924م، وكان سلاطينُ الجنوب مرحبين بذلك؛ إلا أنَّ الإمامَ يحيى لم يكثر لذلك، ما دامت الأموالُ أو العُشورَ الزكويَّة لن تكون في قبضته كاملة في صنَّعاء. فلم تكن البلادُ والوطنُ بشكلٍ عام هو الأقرب إلى قلبه، بقدر ما كان المالُ الذي يتحصَّلُ عليه الأقرب، وكما ذكر البردوني: كان المدير الأحمليُّ عند الإمام هو الأكثرُ توصيلًا للضرائب.¹ وكان التشتُّ والانفصالُ مع ما ترتب عليه، حتى تمت إعادةُ تحقيقِ الوحدةِ اليَمينيَّة عام 1990م، على يدي رئيس الشَّطر الشَّمالي يومها، علي عبدالله صالح، ورئيس الشَّطر الجنوبي يومها، علي سالم البيض.²

حين رحل الأتراك عن اليمن بعد صلح دعان عام 1911م زهد الإمام يحيى في كثير من المناطق التي كانت تحت سيطرة الأتراك وتركها للإنجليز على أهميتها، لبعدها الجغرافي، ولعدم ضمَّانها وصول ريعها وعشورها إليه، مثل باب المندب ولحج، وباب المندب كما قال أحد السَّاسة الغربيين نقطة تقاطع المصير الإنساني العالمي، ونقف هنا أمام رسالة الوالي التركي في اليمن "سعيد باشا" الذي بدا أكثر حرصًا على اليمن واليمنيين من الإمام نفسه؛ حيث كتب إلى الإمام قبل رحيله مع قواته إلى تركيا، قائلاً: "أما حضرة الإمام ووالي الولاية وجنابكم فلم يكن لكم نصيب في شيء من المعونة المادية أو الفعلية نحونا سوى الكلام لا غير، مع حرماننا من كل شيء، ويشهد على ذلك كلُّ من أرباب الشرف وأصحاب الوجدان من عموم أهالي اليمن من ذكرٍ وأنثى حتى الصبيان؛ وفوق كل شيء فالتواريخُ والوثائقُ ستبين ذلك بالصراحة.. والجاهل أن لليمن مفتاحين مهمين، هما: لحج، وباب المندب اللذين هما من أهم ما يكون لسلامة ومحافظة عموم اليمن. فكلُّ من له علاقة

¹ - اليمن الجمهوري، سابق، 36.

² - انفصلت لحج وعدن عن صنَّعاء عام 1140هـ، عقب وفاة الإمام المهدي صاحب المواهب بعشر سنوات، بعد أن أذاقهم الولايات، وبقيت متوجسة من حكم أئمة صنَّعاء، مما جعلها لقمة سانعة للإنجليز بعد ذلك الذي احتلها عام 1254هـ، الموافق: 1839م.

وصلاحيّةٌ من الداواتِ فليشرفُ سريعاً للاستلام، أمّا نحنُ فقد أمرتُ حكومتنا المنوعة المفعمة بإجازتنا وختمتُ، فلسنا مأذونين بالبقاء بصفة محاربين في هذا الوطن الذي نعتبره وطننا الثاني.. فإننا نرجوكم خاصّةً أن تفضلوا بالتبليغ لمن يلزم، ليسارع بإرسال كائني يكون ممن له حميةٌ وطنيةٌ قهرمانيةٌ بالفود إلى باب المنذب، وإلى لحج لاستلامها قبل فوات الأوان..¹

وقد علّق الدكتور عبد العزيز المقالح على هذه الرسالة بقوله: "ويلاحظ من محتوى النداء أن "سعيد باشا" لم يكن يسيطر على لحج وباب المنذب وحسب؛ إنما كان يسيطر على الشّيخ سعيد،² والنواحي التسع بأكملها وهي بالإضافة إلى لحج، الصبيحة والحواشب والضالع ويافع العليا والسفلى وبلاد الفضلي.."³

مضيفاً: "كان حتماً على حاكمٍ يؤسس دولةً جديدةً أن يسارع إلى استرجاع كل شبرٍ محررٍ من اليمن، وأن ينظر إلى بعيد، وأن تكون رؤيته بعيون المواطنين، وبقلوبهم، ومن خلال أعلامهم ومطامحهم الوطنيّة، لا بأحلامه ومطامحه هو. وكان حتماً عليه أن يستमित في الدفاع عن كل شبرٍ من أرض الوطن الذي ينتمي إليه، والذي يسعى إلى أن يكون هو حاكمه الأول؛ ولكن يبدو أن الانتصار المحدود وهزيمة تركيا في حرب عالميّة لم يكن طرفاً فيها قد أسكراه.. كما أنّ اشتغاله بمتابعة القضاء على قادة المواجهة مع الأتراك وسحق المناوئين والمنافسين قد جعله يوطد العزم على القبول بأية رقعة من اليمن يقيم عليها نظامه العتيق الذي لم يكن له من مهمّةٍ وطنيّةٍ وعربيّةٍ سوى تشويه مفهوم الاستقلال وتعميق الكراهيّة، والنفور في نفوس اليمنيين الواقعين في قبضة الاحتلال"⁴

أبشع من هذا حين كان الإمام يحيى يمنع أيّ مواطنٍ يماني من غير الشمال أن يملك منزلاً خاصاً به في صنعاء، لشدة توجسه مما خلف حدود بلاده، "من شهارة إلى سمارة" حتى ولو كانوا يمنيين! فقد منع أحد المغتربين اليمنيين، لقبه الحبشي "حضرمي" وهو عمُّ المناضل الأستاذ أحمد

¹ - من الأنين إلى الثورة، سابق، 73. ويبدو أن فيها بعض الكلمات غير المتناسقة مع بعضها..
² - اسم لإحدى الجزر القريبة من باب المنذب، ومنها ابتداء ما عرف بالخط الأزرق بين الأتراك والبريطانيين..
³ - نفسه، 73.
⁴ - نفسه، 74.

حسين المروني "والد زوجته" أن يشتري منزلاً بصنعاء عقب عودته من أندونيسيا، لا لأي سبب إلا لأنه من حضرموت فقط!¹

وكان الشَّيْخُ مُحَمَّدُ زكري - والد المناضل الدكتور حسن مُحَمَّد مكي - ذا مكانة عالية وجاه كبير لدى النَّاسِ في الحديدة، الأمر الذي اضطره إلى شراء منزل أو منزلين صغيرين آخرين إلى جانب منزله الأول، فمنعه الإمام من شراء أكثر من منزل، لا لشيء إلا لأنَّ أصله من صيبا، وقد احتال أن اشترى منزلين صغيرين باسم نجل الإمام السَّيْفِ عبد الله، الذي كان يمتاز بعقلية منفتحة وواعية، وقتله السَّيْفُ أحمد عقب فشل انقلاب 55م، إلا أنَّ هذين المنزلين قد صُودرا عقب فشل ثورة 48 الدستورية، لأنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ مكي كان من الدُّستوريين!²

ومن تناقضاته في هذا الأمر أن حارب الأتراك المسلمين في الشمال، وإن كانوا في حكم المحتل، كما حارب الأدارسة المناوئين له، وإن كان لهم حكم الأتراك تقريباً؛ لكنه عقد الاتفاقيات والمعاهدات مع بريطانيا في الجنوب، وكأنَّ الجنوب ليس من اليمن؛ بل إنَّ مجرد التفاوض مع البريطانيين على جزء من الوطن هو اعترافٌ مباشرٌ وصريحٌ بالمحتل الغاصب. وعلى أية حال، فذلك لا يعنيه ما دامت عشورُ الزكواتِ لن تصل إليه!

وقد أشار البردوني إلى أن الأئمة من بيت حميد الدين كانوا يعتبرون اليمن هو الجزء الشمالي الذي يقع تحت سيطرتهم، وفي جزء منه قاعدة نظريتهم السياسيَّة فقط، قد نزلوا عند تسمية الاستعمار للجنوب بالجنوب العربي، بدون إشارة لليمن! ومع هذا فقد انتصرت إرادة الشعب اليمني العظيم بداية ستينيات القرن الماضي شماله وجنوبه، بثورتين عظيمتين، أهدتا الاحتلال وأطماعه والإمامة واستبدالها إلى الأبد، لأنَّ طغيان الاحتلال البريطاني ولَّد الروح الوطنيَّة عند أبناء الجنوب، وطغيان الإمامة المستبدة فجر روح الحرِّيَّة لدى أبناء الشمال، فأكدت الثورتان على واحدية

¹ - أيام وذكريات، د. حسن محمد مكي، دار عبادي للنشر والدراسات، ط:1، 2008م، 74
² نفسه، وقد ذكر المؤلف أنه حين عاد من الدراسة في الخارج عام 1960م وصل إلى مطار الحديدة وهو يحمل جهاز "فونوجراف" واسطوانات موسيقى كلاسيكية تم منعه من إدخالها من المطار، وأجابه المفتشون بالمطار بأن هذه الآلة يجب أن تُعزَّر وتُكسَّر وتُعلَّق على مبنى المطار عبرة لمن يُفكر في إدخالها! كما ذكر أنه حين عاد من إيطاليا بعد غياب طويل عن البلاد فوجئ أنه لم يجد في اليمن كلها شارعاً واحداً مسفلتاً، بما في ذلك العاصمة صنعاء نفسها! وذكر أن عُكفة الإمام عقب محاولة اغتياله في المستشفى كانوا يلاحقون "المُبتظنين" خاصة العائدين من الخارج بثُمة العصرية والحداثة، وقد حكى لي هو شخصياً قبل سنوات قليلة بعض تفاصيل تلك الملاحظات التي تعرض لها آنذاك.

الشَّعبِ، وروح التَّاريخ والجغرافيا المشتركة! وكان يوم 22 مايو 90م يوم اكتمالِ أبرز أهداف الثورتين العظيمتين.

2 بسبب ظلم الأئمَّة واستعبادهم واستغلالهم لأبناء تهمَّة واليَمَنِ الأسفلِ بشكل عام، كان للبريطانيين حضورهم المشبوه فيها، وقد كشفت حربُ الزرائقِ نهايةَ عشرينيَّاتِ القُرْنِ الماضي أحدَ معالمِ هذا الاختراقِ. كما كانتْ تعرُّدُ بمخابراتها في أنحاءِ الوطنِ..

وعقبَ انتهاء الحربِ العالميَّةِ الأولى، ونتيجةً للمتغيراتِ الدوليَّةِ التي حدثتْ بخروجِ تركيا منهُزِمةً فيها أمامَ بريطانيا وحلفها، اضطرَّ أبناءُ تهمَّة وريمَّة إلى إعلانِ انفصالهم عن "دولة صنعاء"¹ بسببِ تعاملهم معهم. وكانتْ لهم تواصلٌهم مع "عصبة الأمم" التي تشكلتْ عقب الحربِ العالميَّةِ الأولى، وذلك بشأنِ طلبِ الانضمامِ إلى بريطانيا، هروبًا من ظلمِ وبطشِ الأئمَّة. وقد ذُكرتْ تفاصيلُها كاملةً في كتاب "كتيبة الحكمة" للمؤرخ عبد الكريم مطهر. وكشفتْ الرسائلُ التي وقعتْ عليها مجموعةٌ من مشايخ تلك الفترة عن أنَّ الحُكمَ العثماني كان أرحمَ باليمنيين من حُكمِ الأئمَّة!² هذا لا يعني - بأي حالٍ من الأحوالِ - التبريرَ لهؤلاءِ أو لغيرهم، الارتحانَ للخارجِ أو التعاملَ معه على حسابِ الوطنِ أبدًا؛ إنما مجرد إشارةٍ إلى واقعةٍ تاريخيَّة، كانت لها مبرراتُها السِّياسيَّةُ على الأقلِ من وجهةِ نظرِ أصحابها يومها؛ لأنَّ النَّفسَ تأبى الظلمَ والعسفَ والاستبدادَ أيًّا كان مصدره، داخلًا أم خارجيًا، وصدقَ الشَّاعرُ الجاهلي طرفة بن العبد حين قال:

وظلم ذوي القربي أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهتد.

3 بسببِ تعاملِ الأئمَّةِ القاسي مع أبناءِ أعمامهم المناوئين لهم سياسيًا، كما هو مع غيرهم، فضَّلَ يمنيو نجران وعسير الانضمامِ إلى مملكة آل سعود، قبل اتفافيَّة عام 1934م الشهيرة بين المملكة واليَمَنِ، ذلك لأنهم يعرفون ما فعله الأئمَّةُ بأبناءِ أعمامهم من الإسماعيليين في همدان وعراس حراز، وغيرهما، من طردٍ ومصادرةٍ للأموالِ والممتلكاتِ، فقد تم نفيهم إلى الهندِ أيامَ الإمام المهدي صَاحِبِ المواهبِ بصورةٍ جماعيَّة، والاستيلاءِ على ممتلكاتهم وأموالهم. وذات الأمرِ أيضًا مع أبناءِ عسير

¹ - دولة صنعاء، مصطلح تهكمي امتعاضي، كان يجري على السنة أبناء اليمن الأسفل أيام حكم الأئمَّة.
² - انظر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، المسماة كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، عبد الكريم أحمد مطهر، دراسة وتحقيق: أ. د. محمد عيسى صالحية، دار البشير، الأردن، ط:1، 1998م. 328 فما بعدها..

اليَمِينِينَ الَّذِينَ فَضَّلُوا الْأَدَارِسَةَ عَلَى الْإِمَامِ يَحْيَى وَظَلَمَهُ، وَقَدْ كَانَ الْأَدَارِسَةُ أَكْثَرَ وِفَاءَ لَهُمْ، تَجَلَّى ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْمَعَاهِدَةِ الَّتِي تَمَّتْ بَيْنَ الْأَدَارِسَةِ وَالْأَتْرَاكِ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْاِتِّفَاقِيَّةُ فِي أَغْلِبِهَا لِصَالِحِ أَبْنَاءِ عَسِيرٍ، خِلَافًا لِاِتِّفَاقِيَّةِ صُلْحِ دَعَانَ مَعَ الْإِمَامِ يَحْيَى الَّتِي لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا الْيَمِينِيُّونَ إِلَّا بِالْيَسِيرِ.

وَذَاكَ الْأَمْرِ مَعَ أَبْنَاءِ الصَّالِحِ وَالشَّعِيبِ وَالْقَطِيبِ الَّتِي دَخَلَهَا الْإِمَامُ يَحْيَى فِي حَرْبٍ ظَالِمَةٍ عَامَ 1921م، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَبَابَاتِ وَالْعُشُورِ مَا لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهِ، كَمَا فَرَضَ عَلَى أَهْلِهَا الرَّهَائِنَ ضَمَانًا لِحُكْمِهِمْ، فَفَضَّلُوا الْإِنْجِلِيزَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْإِمَامِ، نَظَرًا لَوْحَشِيَّتِهِ فِي التَّعَامُلِ، مَعَ أَنَّ الْإِنْجِلِيزَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَيُّ مَطْمَعٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَبَدًا، وَلَمْ تَكُنْ بَرِيطَانِيَا تَطْمَعُ فِي غَيْرِ عَدَنَ أَبَدًا، وَقَدْ تَعَامَلَتْ مَعَهُمْ بَرِيطَانِيَا وَفَقًّا لِمَزَاجِهِمُ النَّفْسِي، وَسَايَرْتُهُمْ بِسِيَاسَةٍ لَمْ تَمَسْ فِيهَا أَيُّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ أَوْ حُصُوصِيَّاتِهِمْ، أَوْ تَفَرَّضَ عَلَيْهِمْ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْمَكُوسِ وَالضَّرَائِبِ الْجَائِرَةِ. حَتَّى بَدَأَ لِسَانُ حَالِهِمْ:

وَبِرْغَمِي يَصْبِحُ الْغَازِي أَخِي بَعْدَمَا أَضْحَى أَخِي أَعْدَى الْأَعَادِي

4. لَجُوءَ بَعْضِ أَعْيَانِ لُؤَاءِ حِجَّةٍ إِلَى الْأَدَارِسَةِ مُطَّلِعًا حُكْمِ الْإِمَامِ يَحْيَى، عَقِبَ اسْتَدْعَائِهِمْ إِلَى صَنْعَاءَ، مِنْ قَبْلِ الْإِمَامِ يَحْيَى، وَقَدْ أَحْسَبُوا بِالْخَطَرِ الْإِمَامِي الَّذِي يَهْدُدُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ، فَكَانَ الْإِدْرِيْسِي "ابْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ" أَقْرَبَ وَجْدَانِيًّا إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِمَامِ يَحْيَى نَفْسِهِ، عَلَى يَمِينِيَّتِهِ! وَغَيْرَ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْكَثِيرِ، مِمَّا لَمْ تُشْرَ إِلَيْهِ كَتَبَ التَّارِيخُ، أَوْ يَسْعَفُنَا الْوَقْتُ لِلتَّنْقِيبِ عَنْهَا.

ثَالِثًا: عَلَى الصَّعِيدِ الْعِلْمِيِّ وَالثَّقَافِيِّ

لَا يَخْفَى عَلَى الْبَعْضِ مَدَى التَّقَدُّمِ التَّكْنُولُوجِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَعِيشُهُ عَصْرُنَا الرَّاهِنَ، وَخَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِثَوْرَةِ الْاِتِّصَالَاتِ وَالْمَعْلُومَاتِ، وَلِلْأَسْفِ فَإِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ لَا تَزَالُ غَارِقَةً فِي أَتُونِ الْخِرَافَةِ وَالْجَهْلِ وَأَضْعَافِ الْأَحْلَامِ الَّتِي لَمَّا نَفَقَ مِنْهَا مُنْذَ مَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ وَمِئَتِي سَنَةٍ. فَفِي الْوَقْتِ الَّذِي صَارَ الْحَقُّ الْإِلَهِيُّ فِي الْحُكْمِ تَارِيحًا يُحْكِي، وَخَبْرًا يُرَوِّي، فَإِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ لَا تَزَالُ مَتَعَلِّقَةً بِوَهْمِ هَذَا الْحَقِّ الْمَزْعُومِ. وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي أَصْبَحَ الْعَقْلُ فِي الْعَالَمِ عَقْلًا عِلْمِيًّا حَرًّا مَفَكَّرًا، لَا تَزَالُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ مُشْدُودَةً بِهَوَسِ آلِ الْبَيْتِ الْمَعْصُومِينَ مِنَ الزَّلِيلِ حَدِّ تَوْهْمِهَا!

وفي الوقت الذي تطورت فيه القوانين والتشريعات والمواثيق الدوليَّة، وتقاربت فيما بينها، وصارت تنظرُ للناس بميزان العدالة والمساواة، فإن هذه النظريَّة لا تزالُ تحنُّ إلى آراءٍ وتعاليم الفقه التقليدي الذي عفى عليه الزمن، ولم يعد جزءٌ كبيرٌ منه صالحًا للحياة المعاصرة بأي حالٍ من الأحوال. أتكلّم هنا عن الفقه كمعطٍ بشري، لا عن الشريعة كمعطٍ إلهي مُقدَّس، حتى لا تختلط الأفهام أو يسوء التأويل.

وإذا كانت هذه النظريَّة قد ضاقت من آراءٍ بعضها بعضًا فنفت أصحابها وسجنتهم وقتلتهم؛ بل أبادتهم في مجازرٍ جماعيَّة، لاختلافها معهم في الرأي، فكيف بقيت الآراء اليوم، وهي أكثر تنوعًا وتعددًا؟ سواء من بني جلدتها، أو من غيرها من خارج إطارها الفكري والمعرفي؟!

الهادويَّة تعتمدُ إلى تجهيل الشعب، وجعل أهله أتباعًا في عداد العبيد، تنظرُ إلى النَّاسِ رعايا تابعين، لا مواطنين أحرارًا، لهم حقُّ المشاركة في الحكم، وحقُّ المساءلة للحاكم، وحقُّ المراقبة العامَّة على الموظف العام. وحين يقتصرُ النشاط السياسي والثقافي في أغلبه على فئةٍ معيَّنة من النَّاسِ في أي مجتمع، فمعنى ذلك تقييد الآخرين عن العمل والفاعليَّة الإيجابيَّة وإدارة شئونهم بأنفسهم؛ لأنَّ النظريَّة قد كفلت لهم التفكير بدلًا عنهم، وما عليهم إلا التسليم. وهو ما كان خلال أكثر من ألفٍ ومئتي عام مضت، فكان هذا الانحدار الكبير والتراجع المهول في منظومة الفكر والثقافة والسياسة، الذي ما زلنا نعاني منه إلى اليوم، وإلا ماذا يعني أنَّ كلَّ الرسائل والمرافعات والشكاوى التي كانت تُرفع للأئمة، خاصَّةً من بيت حميد الدين التي استنطنا الثبوت منها حقيقة، كانت تُذيل من كاتبها على نحو: "خادم تراب نعلكم الشريف"! وعلى أحسن الأحوال: "خادمكم المخلص، أو المطيع"، إلى غير تلك الألفاظ التي تبعثُ على الاشمئزاز!

لقد كان من ضمن ما تم نهبه أو حرقه أو إتلافه مئات المكتبات اليمينيَّة التي كانت زاخرةً بصنوف المخطوطات، وشتى التحف والآثار؛ إذ يعمدُ الخصوم - على الدوام - إلى القضاء على خصوصيتهم، وعلى آثارهم أيضًا حتى لا تكون لهم بقيةٌ باقيَّة في المستقبل، كما هو الشأن ذاته بصورةٍ أجلى مع المطرفيَّة التي لا نكاد نجدُ اليوم من تراثها شيئًا على الرغم من تراثها المعرفي والعلمي يومها، مع أنَّ أربطتها العلميَّة وهجرها كثيرة. وقبلها الإسماعيليَّة التي أتى عليها بنو الهادي، ودمروا كل تراثها حتى لم يبق لهم بقيةٌ باقيَّة إلا النزر اليسير ولا يكاد يُذكر.

ونستطيع القول بأنَّ المطرفيَّةَ هي الجَماعَةُ الفلسفيَّةُ الوحيدة في اليَمَنِ التي انتظمت وتشكلت في إطارِ مدرسةٍ نظاميَّة، في وقت هو زمنٌ جدبٍ معرفي على مستوى المنطقة كاملة. وكان من الممكن أن تكون اليَمَنُ قبلةَ الفلاسفة والمفكرين ورجالات التنوير من أنحاء العالم لو كان لليمن يوماً سُلطة راشدة، بأفقيٍّ واسع، تتقبل الخلافَ والاختلافَ على أي نحوٍ كان، إنما أعمى التعصبُ بصَرهم وبصائرهم، فعملوا على تدميرِ مدرسةٍ فكريَّة وفلسفيَّة تنويريَّة تخلَّقت من بين آكامِ التخلفِ والجهلِ، كما تتخلَّقُ النبواتُ من ظلمةِ الجاهليَّات، وكما تتخلَّقُ أضواءُ الصَّباحاتِ من دياجيرِ العتَمات.

وقد سرد الإمامُ أحمد بن سليمان، قبل الإمامِ ابن حمزة جملة من المسائل التي اختلف هو وأتباعه فيها مع المطرفيَّة بما يعتبره من مثالبهم، بعض هذه المسائل هي من مسائل الخلاف القديمة بين المتكلمين والفقهاء من وقتٍ مبكر، ولا يترتب على أي رأيٍ منها كفرٌ أو فسقٌ مهما كان. والواقع أنه لم يكن يخشى إلا الحكم والتسلط فقط، وقد قال: لو استمرت المطرفيَّة لن تقوم قائمة لدولة آل البيت.

لقد بدأت المطرفيَّة من وقتٍ مبكرٍ تُفسرُ المسائل الطبيعيَّة تفسيراً علمياً، بقوانين الوجود وقوانين الخلق العلميَّة، بعيداً عن الخرافات والتأويلات التي لا تتفقُ ومنطقَ العقل البرهاني؛ بل لقد اتبعوا منهجيَّةً علميَّة أرقى من منهجيَّة الفلاسفة اليونان، والتي ثبت خطأ بعضها، كما هو الشأن في مسائل القياس العقلي التي أضافت إليها المطرفيَّة التجربة العلميَّة، فزواجوا بين المنهجيتين بطريقة تبعثُ على الفخر والاعتزاز.

فمثلاً قالوا: إنَّ المطرَ النازلَ من السَّماءِ هو نتيجةُ تكثفٍ من بخارِ البحر، ثم عودته مرة ثانية على الأرض، وقد كان النَّاسُ يعتقدون أنَّ الأمطارَ تسقطُ من السَّماءِ مباشرةً ولا علاقة للبحارِ بها. وهي الفكرة البدائيَّة السائدة لدى العائمة إلى اليوم؛ كما أن البردَ النازلَ من السَّماءِ نتيجةٌ من رياح باردة، صادفت الماء في الهواء، فأحالته بذلك برِّداً.

وقالوا - أيضاً -: إنَّ أعمارَ الإنسانِ تطوُّلٌ وتقصُرُ بحسبِ التَّغذية وبحسبِ الهواءِ والمناخِ والأحوالِ العارضة للإنسان. وأيضاً خروج الوليدِ مشوهاً من بطنِ أمه؛ إذ لم ينسب المطرفيَّةُ هذا التشوه إلى الله، كما تقول العائمة؛ بل عزوه إلى خللٍ طرأ على الجنين. وجاءت الحقائق العلميَّة اليوم

تقرّر أنّ أيّ خللٍ في المنظومة الكروموسومية للجنين يتخلّق معه ويؤثر عليه بعد ذلك. وأنّ موت الطفل صغيراً ليس من رب العباد، قدراً محتوماً، وأنّ ما نَقَصَ من عمرٍ مُعَمَّرٍ فليس من الله تعالى كتاباً، ولا حكم من ربّ العالمين؛ وأنّ الإنسان قادرٌ على تأخير عمره إلى مئةٍ وعشرين سنة، بإصلاح معيشتِه وغذائه، ومعرفة دائه ودوائه. وأنّ الإنسان لو لم يُفِرط في ذلك ما مات إلا عن مئةٍ وعشرين سنة. وغير هذه من المسائل التي أكدت أغلبها الاكتشافات العلميّة في وقتٍ متأخر.

وقالوا: إنّ العاهات والأمراض وغيرها من الحمى والصداع والعمى والصم والجذام، وما أشبه ليس يجوز أن تكون من عند الله تعالى، ولا من إحدائه، ولا إنشائه، ولا خلقه. وقالوا: إنّ أفعال العباد كلها حسنّها وقبيحها فعلهم هم، لا فعل الله سبحانه الذي لم يشاركهم فيها، ولم يخلقها فيهم، ولا جبرهم عليها، وإنما أقدرهم على فعلها، ومكّنهم من إحدائها، وعزّفهم خيرها وشرها.

وقالوا: لم يُفضل الله عتره نبيه على غيرهم من الناس ابتداءً؛ بل هم وغيرهم في ذلك سواء، ولا فضل إلا بالعمل، ولا تأثير للنسب، ولا فضل به على كلّ الأحوال. وفي قصيدته الشهيرة "المقصورة في أمر المطرفية" يقول الإمام عبد الله بن حمزة بشأنهم، معيراً إياهم، ومحرضاً عليهم العامّة من الناس:

والغيثُ قالوا من بخارٍ نائرٍ لم ينشئه الرب ابتداءً في الهوا

إلى أن يقول:

قالوا: وليس الموت دون غاية من فعله بل لاختلاف في الغذا

وللعلم فقد تزامن نشوء هذه الفرقة وتبازغت ملامحها فُيبل نشوء حركات التحرر الأوروبي ومدارس النقد والفكر هناك. وكان من الممكن أن تشكل هذه الجماعة "المطرفية" حركة إحياء قومي للمنطقة، لو لاقَت من الاهتمام والرعاية نصف ما لاقته من المحاربة والتنكيل؛ وربما قدمت نظريّةً فكريةً وسياسيةً وفلسفيةً متكاملةً في الحكم والاقتصاد والمعرفة؛ وكانت قمينّةً بحقن دماء اليمنيين

وحفظ أموالهم التي أهدرت على ذمة الصّراعاتِ السّيّاسيّةِ مُد ذاك اليوم وإلى اليوم. وما أكثرها!
ولكن هيهات.. هيهات.. "رياحُ الوردِ تضرُّ بالجُعَل" ¹!!

حين وصلَ الطاهريون بجيوشهم من رداع إلى صنعاء أثناء سيطرتهم وحكمهم لها، كان بقصر "عُمدان" من الكتبِ والمخطوطاتِ والمآثرِ ما لا عدَّ له ولا حصر، فنقلوها معهم إلى رداع، وحين غزا آل شرف الدين الطاهريين إلى رداع قاموا بالسيطرة عليها وضمها إلى حكمهم، ثم استولوا على هذه المخطوطات، وكانت من ضمن المنهوبات والغنائم، وضاعت دررٌ ونفائسٌ عظيمةٌ بين هذه الحروب التي يكون من ضمن أهدافها إلى جانب القضاء على الخصم، أيضاً القضاء على ما يحمل من موروثٍ وثقافةٍ وآثار، مع أنّ هذا الموروث هو أولاً وآخرًا ملكٌ بلدٍ وحضارةٍ وأمةٍ، وليس ملكٌ أشخاصٍ بعينهم؛ بل لقد بلغ الحالُ بالفئاتِ المهزومةِ في كثيرٍ من الصّراعاتِ التّاريخيّةِ أن اضطرت إلى إحراق ما مجزتها من وثائق أو مخطوطاتٍ بنفسها، خشيةً مدهامةِ جندٍ وأتباعِ الفريقِ المنتصرٍ لمنازلهم وبيوتهم، فتكون من القرائن التي تدنيهم بأي توجهٍ أو موقف. حصل ذلك كثيراً في مواقف كثيرة..

ويذكرُ العلامةُ مُحمَّدُ المجاهد عن الجيوشِ الإماميّةِ حين دخلتُ تعز " .. أنهم بدءوا بمهاجمة المتبقي من المدارسِ الرّسوليّةِ والمساجدِ، فكسّروا الزخارفَ، وقشروا القبابَ، بحثًا عن كنوزٍ وراءها، فكان وهماً مُدمرًا، ثم مزقوا مكتبةَ الأشرفيّةِ تمزيقًا بغضبًا، وكانت عامرةً بروائعِ كتبِ الحقبِ والمخطوطاتِ النادرة، حتى إنه لم يبق فيها أثر" ²

وتجلى بوضوح ذلك الأثرُ العلمي والثقافي أثناء قيام ثورة 26 سبتمبر 1962م، فحين قامت ثورة 26 سبتمبر في الشمال، كانت نسبةٌ كبيرةٌ من الشّعْبِ تغطُّ في سُباتِ التخلفِ والجهل، الأمر الذي صعبَ عليها قيادةَ دفعةِ مسيرةِ الثّورةِ بعد ذلك، لأنّ التعليمَ يومها كان مقتصرًا على فئة السّادة الهاشميين والفُضاة، وبعضِ الأسرِ الميسورةِ الحالِ من خارجِ هاتينِ الأسرتين، وحتى طَبِيعَةَ هذا التعليمِ كان تقليديًا، وغير مواكبٍ للعصر؛ بل منقطعًا عنه، فكانت تلك المتاعبُ وتلك الصعابُ التي لاقاها الشّعْبُ اليميني كله، ولا يزال يدفعُ ثمنَ ذلك إلى اليوم.

¹ - الجُعَل: دويبةٌ صغيرة، تنشأ في الاسطبلات، فإذا ما انتقلت إلى شجيرات الورد تموت!
² - مدينة تعز غصن نظير في دوحة التّاريخ العربي، سابق، 206.

إن هذه النظرية على مثالية كثيرة من شروطها النظرية لم تعرف كنهه وفلسفة المجتمع اليمني الذي وإن بدا في صورة من التخلف والتراجع، إلا أن روح الحضارة تجري في أمشاج وخلايا جسده مجرى الدم في العروق. فالأعراف القبليّة التي يعيره البعض بما، بقدر ما فيها من الصنمية والتجاوز لبعض الحقوق إلا إنّ فيها من الرقي الحضاري والمدني ما لا يوجد في بعض أنظمة الدول المتقدمة اليوم. هذه الأعراف والتقاليد الإيجابية هي بقايا وترسبات قوانين العهد السبئية الغابرة، وإن انقطعت أسانيدھا التاريخيّة لدى القارئ العادي للتاريخ اليمني.

صحيح أن الإمام الهادي حاول إطفاء بعض الحرائق التي كانت مشتعلة بين القبائل يومها في صعدة وما حولها، في بداية أمره، ليكسب شهرة النجاح، وقد نجح في ذلك، إلا أنه استبدل عصبية السُلالية بالعصبية القبليّة، وبدا الأمر كحماري العبادي، قيل له: أي حماريك شر؟ قال: هذا، ثم هذا، مشيراً إلى الاثنين!! فلا فرق في المحصلة النهائية بين عصبية القبيلة أو عصبية السُلالة. وصحيح أنه أحدث تحولاً سياسياً ملموساً، ولو في حده الأدنى "لكن هذا التحول السياسي كان على السطح، ولا يمكن الاطمئنان إليه، ما لم يقم على أساس تطوير بُنيوي للمجتمع.."¹

رابعاً: خطر النظرية الهادوية على بعضها البعض

كما كانت الهادوية مُشكلةً ومعضلةً تاريخيةً كما أسلفت، ودمرت من اليمن واليمنيين الكثير، فإنها - أيضاً - قد فعلت في بني جلدتها ما لم تفعله أية نظرية سياسية في التاريخ الإنساني قاطبة. أقول هذا الكلام على إطلاقه، وأنا أتبع متأملاً مسيرة النظريات السياسية الحديثة والمعاصرة، كالنازية مثلاً.. النظرية المتطرفة عرقياً، والتي ترى في الجنس الآري أنه سيد الأجناس؛ هذه النظرية طحنت من أوروبا الملايين؛ لكنها لم تفعلْ باتباعها ما فعلت الهادوية بنفسها وأتباعها!

إلى جانب النازية: الفاشية الإيطالية وهي ابنة عمها من التطرف! مع فارق كونها قائمة على القومية، واستعادة مجد السليب؛ وبقدر ما أساءت لغيرها ودمرت منهم، إلا أنها قد حافظت

¹ - تأسيس الدولة الرئديّة في اليمن، مقارنة سوسولوجية لتجربة الهادي الرسي السياسية. عبد الملك العجري، مركز الرائد، ط:1، 2014م، 89.

على كيانها، على الأقل خلال فترة الصِّراع، لتحافظ على نفسها فيما بعد في إطارِ الدَّولةِ الجديدة بفكرها الجديد..

وإلى جانبها الاشتراكية، وهي النَّظَرِيَّةُ الاقتصاديَّةُ في أصلها الوضعي الفلسفي، والتي حوَّلتها "حنابله الشيوعيَّة" إلى دينٍ وعقيدةٍ وأيديولوجيا.. شكَّلت إمبراطوريَّةً مهولة، وانتهت إلى زوال، بسببِ تصلبها وحرْفيتها والوقوفِ عندَ زمنٍ معين؛ على الرغم من تجدد الزمن، وبسببِ حرفِ مَسَارِها عن المَهدفِ المرسومِ له أساسًا! ومع هذا فلم تطحنْ نفسها من الداخلِ كما فعلتْ نَظَرِيَّةُ البطينين! ناهيك عن التأميرِ العالمي الذي عَجَّلَ بسقوطها!

على صعيدِ الأديان، وفي المِسيحيَّةِ تحديدًا التي شَهدتْ مذاهبَ دينيةً تناحرتْ وتقاتلتْ حدَّ الجنون، إلا أن أغلبها كان بين الكاثوليك من جهة، والبروتستانت من جهةٍ أخرى، ولم يقع التناحر والقتل داخلَ المذهبِ الواحدِ إلا نادرًا وبصورةٍ خفيفةٍ جدًا!

ويكاد هذا الصِّراعُ يحتفي داخلَ اليهوديةِ على تعددِ مذاهبها وفِرَقها ونُحلها! أمَّا عن النَّظَرِيَّةِ الهادويَّةِ فقد كانَ اليمانيون أولًا وقودها في الداخل، وكان أبناءُ الهادويَّةِ وأتباعها أنفسهم وقودها بعد ذلك. بين كل معركةٍ ومعركةٍ، معركةٌ أخرى؛ وبين كل حربٍ وحرب، حربٌ ثالثة! حتى بدا السِّلْمُ هو الاستثناء، والحربُ هو الحالةُ الطبيعيَّةُ لليمنيين، منذُ دخلتْ هذا النَّظَرِيَّةُ أرضَ اليمن، على الأقل في الهضبةِ الشماليَّةِ، ولا ينكُرُ هذا إلا جاهلٌ أو مُكابِر! لقد أتت الهادويَّةُ على ابنةِ عمها "الإسماعيلية" من قواعدها، وأبادتها بوحشيةٍ لا مثيلَ لها، لأنها نافستها سياسيًا بالدرجةِ الأولى، قبل أن تتشكلَ المعارضاتُ اليمانية، دَعَاكَ من القول بأنها مخالفةٌ للدين، أو مناقضةٌ لأصوله، تلك دعايةُ المنتصرِ غالبًا!. ولأنَّها - أيضًا - متقدمةٌ كثيرًا على الهادويَّةِ المفرطةِ في أنانيتها وتسلطها! فإلى جانبِ قتلِ وإبادةِ رؤساءِ وأعلامِ هذا المذهب، تم - أيضًا - تشويهُ فكرهم والقضاءُ عليه وكان لم يكن.

ثم إنَّ السُّيوفَ الهاشميَّةَ خلالَ فترةِ تحكُّمِ هذه النَّظَرِيَّةِ قد نالتْ من الهاشميين أنفسهم مثلما نالتْ من غيرهم، ذلك لأنَّ شهوةَ الحكمِ ورغبةَ التسلطِ تعمي صاحبها عن إدراكِ الحقائقِ أو مراعاةِ أهلِ الحقوق، فهناك من قتلِ أخاه، وهناك من قتلِ أو تآمر على أبيه، وهناك من قتلِ فرادى وجماعات، بسببِ حبِ التسلطِ والسَّيطرةِ وتملكِ رقابِ الناس؛ ولذا فإن الإمام القاسم بن علي

العياني قد قاد بعض المعارك وقاتل فيها وعمره ثمانين عامًا..! ولا أرى الأديب أحمد بن محمد الشّامي إلا مدرّكًا تمام الإدراك لهذه الحقيقة حين نصّح بني جلدته من الهاشميين الابتعاد عن الحكم نهائيًا، حفاظًا على أنفسهم من الهلاك، وعلى غيرهم من الإهلاك والخسائر المتتابة منذ بواكير دعوتهم،¹ وإلى اليوم..

¹ - ذكر المؤرخ حسين مؤنس أن تفكير العلويين اتجه من أيام جعفر الصادق إلى أن يباعدوا السياسة، ولا يطلبوا الحكم، بسبب ما لقي رجالهم من الأذى في سبيله. ولقد ظل جعفر الصادق بعيدًا عن السياسة، ملتزمًا سمّت العلم والعلماء ما عاش؛ بل إنه رفض الخلافة عندما عرضها عليه أبو سلمة الخلال، وزير آل محمد وواحد من أكابر مؤسسي الدولة العباسية، ولكن شيعة علي وآله ظلوا يعلقون آمالهم على آل البيت. انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، الدكتور حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، ط: 12، 2015م، 136.

المبحث الثالث النَّظَرِيَّةُ وَالْمُسْتَقْبَلُ

يُقَالُ: إِنَّ قِيَمَةَ أَي شَيْءٍ مِنْ قِيَمَةٍ مَا يَعُودُ بِهِ. وَإِنَّ الشَّيْءَ يَسَاوِي ثَمَنَ مَا يَعُودُ بِهِ، كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْمَادِيُونَ. وَوَفَّقًا لِمَا ذَكَرَهُ أَحَدُ الْفَلَسِيفَةِ، فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَى. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى: لَا يَكُونُ الدِّينُ أُخْرَوِيًّا حَتَّى يَكُونَ دُنْيَوِيًّا.

أَتَكَلِّمُ هُنَا عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ كحتمية زمنية نحن متجهون إليه، سواء متخفين من أعباء الماضي أو مثقلين به. فما الذي يمكن أن تضيفه هذه النظرية للمستقبل؟

وحتى يكونَ الجوابُ على بصيرةٍ أقول: لكي نعرفَ ما الذي يمكنُ أن تُقدِّمَ في المستقبل، نستقرئ الماضي أولاً؛ لأنَّ الزمنَ سلسلةٌ متواليةٌ من الأحداث، كلُّ حلقةٍ فيها مكتملةٌ لما قبلها، وممهدةٌ لما بعدها، ومن الصَّعبِ فصلُ أية حلقةٍ فيها عن بعضها، وإلى هنا يكونُ قد اتضحت الخُطوطُ الأولى من الإجابة، أو استشرفنا ملامحها..

مرة ثانية.. ما الذي يمكنُ أن تضيفه النظرية الهادوية للمستقبل؟

في أي عملٍ من الأعمال يتساءلُ النَّاسُ دائماً: ما القيمةُ المضافةُ فيه؟ ما الجديدُ الذي أتى به؟ ما الجدوى العمليَّةُ منه؟ وهو تساؤلٌ مهمٌ يحدِّدُ الهدفَ، وقيسُ الغاية.

وتتخاطرُ التساؤلاتُ أكثر فأكثر.. ما النبعُ الذي تفجرَ منه؟ وما المسارُبُ التي تمشَى فيها؟ ثم ما المصب الذي إليه ينتهي؟!

لا بأس.. سأجيبُ وفي الحلقي مرارةً الغضاً.. مرارةً ما يزيدُ على ألفِ سَنَةٍ، ودَّعنا فيها النكباتِ بالمآسي، مَسْحُنَا دَمْعَةً بَعْبَرَةً.. تنهيدةً بزفرةٍ.. ألفَ سَنَةٍ وما نسترجعُ شهقتنا الطويلةَ التي لما نفقَ منها بعدُ، لنقولَ بعد هذا كله: إِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ قَدْ صَارَتْ مِنَ الْمَاضِي السَّحِيقِ. ولم يتوقف الأمر عند كونها فاشلةً فحسب؛ بل كانت مدمرةً، بكل ما تعني كلمة التدمير، معنى ومدلولاً وإشارة!

ألف سنة ونيف، دُمرت فيها معالمُ حَضَارَةٍ هِي من أرقى الحَضَارَاتِ الإنسَانِيَّةِ قَاطِبَةً؛ بل هِي أُمُّ الحَضَارَاتِ وَأَصْلُهَا. لَسْتُ مَبَالِعًا فِي هَذَا. وَمَنْ يُلْمُ وَإِنْ بِقَلِيلٍ مِنْ تَارِيخِ هَذَا الشَّعْبِ يَدْرُكُ ذَلِكَ، وَبِكُلِّ وَضُوحٍ..

ألف سنة ونيف، وَلَمْ تَتَيَمَّنْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ قَطُّ، وَيَبْدُو أَنَّ ذَلِكَ فِي عِدَادِ الْمُسْتَحِيلِ، عَلَى الْأَقْلَ خِلَالَ مِلْيُونِ سَنَةٍ قَادِمَةٍ، حَسْبَمَا تَوَكَّدُ مَوْشِرَاتُهَا النَّظَرِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ مَعًا!!¹
وَمَا يُنْسَبُ لِلشَّاعِرِ عَبْدِ اللَّهِ حَمْرَانَ، وَهُوَ يَخَاطَبُ دِهَاقِنَةَ الْإِمَامَةِ وَكِبْرَاءَهَا:

وهبناكم الحكم إذ كنتم	تهيمون في بقع خالية
وقلنا يمانون أهل لنا	ولا عاشت القيم البالية
وصرنا لكم في الملمات جنداً	وصرتم بنا قمماً عالية
مزجنا خلال السنين الطوال	دمانا بكم حرة غالية
ولكنكم رغم مر السنين	بقيتم على أرضنا جالية

النَّظَرِيَّةُ الْهَادَوِيَّةُ مُنذَ الْعَامِ 284 هـ هِي ذَاتُهَا الْيَوْمَ، لَمْ تَتَبَدَّلْ قَيْدَ أَنْمَلَةٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ التَّبَدُّلَاتِ الَّتِي لَا تَوْصَفُ، وَالتَّغْيِيرَاتِ الَّتِي لَا تُحْصَى، غَيْرَ قَابِلَةً لِلتَّطَوُّرِ مِنْ دَاخِلِ كَتَلْتِهَا الْمُصْطَمَةِ وَالْمَغْلَقَةِ عَلَى نَفْسِهَا.²

فِي الْقُرْنِ الثَّلَاثِ الْهَجْرِيِّ قَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ عَامٍ وَنَيْفٍ، قَالَ الْإِمَامُ الْهَادِي، الْمُنْظَرُ الْأَوَّلُ لِلجَمَاعَةِ:

الطعنُ أحلى عندنا من سلوة
كر الجوامس حين طال ظماها

¹ - من يقرأ "دامغة الدوامغ" للعلامة الأديب أحمد بن محمد الشامي، ردًا على "الدامغة" لأبي الحسن الهمداني، يدرك - بجلاء - صحة ما ذكرناه، من أن هذه الجماعة تعتبر نفسها فوق الشعوب والأوطان، وفوق كل البشر. وقد أحسن الشاعر والمؤرخ اليمني مطهر الإرياني في الرد عليه، والانتصار لكرامة اليمن واليمنيين، من خلال قصيدته الشهيرة "المجد والألم" في كتاب خاص بذلك. وعارض قصيدة الإرياني أيضًا وفي نفس السياق الشاعر محمد إسماعيل الأبارة في مغناة رائعة، مطلعها:

يمانيون يا دنيا مضينا.. بنور الله نهدي العالمينا

² - يعتبر الفقهاء: الشيخ بدر الدين الحوثي، والشيخ محمد عبد العظيم العمري ابن عمه، من أصدق مشائخ الزيدية/الهادوية تعبيرًا عنها وإفصاحًا بحقيقتها، وهي صفة تُحسب لهما، خلأًا لآخرين يناورن بين الصدق واللاصدق..

والروس تُحصدُ بالسيفِ ألد من بيضاء ناعمةٍ تجر رداها

وفي العام 1962م، وبما يزيد على ألف عام، وقف آخرُ عناقيدِ هذه النَّظَرِيَّةِ في الجامعِ خطيبًا، بعد أن حمد الله وأثنى، قائلاً: إذا كانَ أبي يفصلُ الرأسَ عن الجسدِ، فإني سأقطعُ الجسدَ نصفين!!¹

فالقتلُ هو القتلُ، مُسلسلُهُ لا ينقطع، والهدمُ هو الهدمُ، فعله لا ينقشع، والسِّجْنُ هو السِّجْنُ تُفَافَةٌ وفكرًا وسلوكًا، ومَن شابهَ أباه فما ظلم!

نظريةٌ عاشتُ طويلًا، ولكن عيشة الأشل، بين الحياة والموت، تصارعُ الأشباح.. القتلُ فيها دين، والسِّجْنُ عقيدة، والهدمُ ثقافة، والتخريبُ عبادة.. وهاتوا لي إمامًا واحدًا - وهم كثر - خلا حُكْمُهُ من قتلٍ وسجنٍ وتخريبٍ وهدمٍ. هيهات.. هيهات، فدون ذلك خرطُ القتاد!

لقد بدتُ متصلبةً خلالَ ما يزيد على ألف عام، وعجزتُ عن تجديدِ نفسها من الداخل، فتبددتُ، لأنَّ من لم يتجددُ يتبددُ. ليس ذلك فحسب؛ بل لقد عجزتُ عن إنقاذِ نفسها في الهلاك الأخير، مطلع ستينيات القرن الماضي، فخرجتُ خروج أم عمرو² وهي دولةٌ قائمة، فهل من المعقول أن تعود من أجداتها بعد طول موات؟! ربما انطبقَ عَلَيَّهَا ما أشار إليه الإمامُ أحمد نفسه في إحدى قصائده الزنوقية:

وكم أحمقٍ في النَّاسِ لا يعرفُ الهدى ولا الدينَ إلا بالفناءِ المُحْتَمِّ!3

اكتشفَ الآثاريون مباحِضَ الأطباءِ وسكاكينهم التي كانوا يفتحون بها الجماجمَ، أو يَشْفُونُ بها الصُّدُورَ، لإجراء العملياتِ الطبيَّةِ في العهودِ الفرعونيةِ في مصر، قبل آلاف السنين، إلا أن هذه

¹ - إشارة إلى الإمام البدر الذي دامت إمامته أسبوعًا واحد فقط، والرواية تجري على السنة الكثير، وخاصة الآباء ممن لا يزالون على قيد الحياة، وقد رواها الوالد المناضل يحيى مصلح مهدي في مذكراته، ص 73، ط: 2؛ مشيرًا إلى أنه كان موجودًا يومها، وقد سمعها منه مباشرة!

² - إشارة إلى البيت الشعري القائل: لقد ذهب الحمار بأمر عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار. وهو مثل يُضرب في الخروج بلا عودة.

³ - البيت ضمن قصيدة للسيف أحمد يصف فيها حربه وبطولاته مع الزرانيق في تهامة الذين وصمهم بأعداء الإله الذين حق عليهم الجهاد! وله قصيدة أخرى أيضًا يذم فيها قبائل حجور من حجة لأنها رفضت أوامره في القدوم إلى تهامة ونهبها، مطلعها:

كلما رمث أن تجود حجورُ بان خسرتها وآل الدبور.

الأدواتِ اليومَ قد أصبحتَ رهنَ المتاحفِ لإلقاءِ نظرةٍ عابرةٍ عليها فقط، لا رهنِ أدرجِ الأطباءِ اليومِ، مع أنَّ الإنسانَ هو الإنسانُ، والجمجمةُ هيَ ذاتُها الجمجمةُ أو الصدرُ؛ لكن فلسفةَ الحياةِ تقررُ أن لكلِّ زمنٍ أدواته الخاصَّةَ به.

وبقياسٍ بسيطٍ وسهلٍ جدًّا، فإنَّ أيَّ عاقلٍ لا يمكنُ أن يقبلَ أن تُجرى له عمليَّةٌ جراحيةٌ بتلكِ الأدواتِ القديمة؛ بل إنَّ مجردَ طرحِ ذلكِ عليه من السَّخافةِ بمكان!

ذاتُ الشَّأنِ اليومَ مع النَّظريَّةِ الهادويَّةِ التي فشلتْ منذُ بدايتها الأولى أن تكونَ أداةً لنظامٍ سياسيٍّ ناجحٍ ومتوازنٍ. فهل من العقلِ والمنطقي أن نستعيدَها اليومِ، باعتبارها أداةً سياسيَّةً لنحلِّ بها مشاكلَ العصر؟! الأمرُ يبدو سُخفًا!

ثمَّةُ أمرٌ آخر.. هذه النَّظريَّةُ لا تقبلُ القسمةَ على اثنين، ولا تقبلُ الآخرَ المختلفَ معها فيما تتقبلُ؛ فإمَّا.. وإمَّا..

بمعنى أوضح.. إمَّا النَّظريَّةُ كاملةً بأدبياتها كافَّةً التي تُعلي من شأنِ قومٍ، مقابلِ احتقارِ آخرين؛ وإمَّا لا نظريَّةَ البتة! لأنَّ النَّظريَّةَ هيَ الإمامةُ، والإمامةُ تعني الأفضليَّةَ والأحققيَّةَ والأقدميَّةَ. فإذا ما سقطَ هذا المفهومُ سقطتْ النَّظريَّةُ كاملةً، وفقدَ ادِّعياؤها كلَّ امتيازاتهم، ليصبحوا مثلَ أيِّ مواطنٍ عادي بلا نظريَّةٍ أو تنظيرٍ!! خلقًا من خلقِ الله.. وهو ما لا يرضونَ به، فالنَّفْسُ الإنسانيَّةُ - بطبيعتها - تسعى للتمييزِ وللسيطرة؛ إذ الطُّغيانُ سمةٌ أساسيَّةٌ في النفسِ، ولا يكبحُ هذا الطُّغيانَ إلا شرائعُ السَّماءِ أو قوانينُ البشرِ الصَّارمة. ثم إنَّ كلَّ إنسانٍ يرى في نفسه أنه صالحٌ للرئاسة، وذلكَ ممكنٌ مع قوَّةِ الشُّوكةِ ومواتاةِ الحالِ، كما يذهبُ إلى ذلكِ ابنُ خلدون. وقد صدقَ الحكيمُ العربي، المتنبي حينَ قال:

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإنَّ تجدُ ذا عفةٍ فلعله لم يظلم!

ولأنَّ هذه النَّظريَّةَ السِّياسيَّةَ قد استطاعتْ من وقتٍ مُبكرٍ أن تجعلَ من نفسها عقيدةً دينيةً مُرتبطةً بالسَّماءِ، تعاليمُها دين مقدس، وأهلُها أناسٌ فوق البشرِ، وما النَّاسُ إلا أتباعٌ، فإنَّ أمرَ مواجهتها يقتضي تصحيحًا للثقافة، وتحديدًا لمعالمِ الدين، الذي اصطبغَ - زورًا وبهتانًا - بتعاليمِ البشرِ وآرائهم، حتى غدا الأمرُ صعبًا أن تُفرقَ بينَ رأيِ الدينِ ورأيِ الفقيه. الدين، أو الشَّرعيَّة، كُمعطٍ

سماويِّ مُقدَّسٍ، والفقهُ كَرَامِيٍّ بَشَرِيٍّ قَابِلٍ لِلصَّوَابِ وَالخَطَأِ. وهذه واحدةٌ من أزمَاتِ الأُمَّةِ ومعضلاتها التَّارِيخِيَّةِ.

النَّظَرِيَّةُ مُشكَلَةٌ المَاضِي والحَاضِر، وهي مُشكَلَةٌ المَستقبَلِ أَيْضًا. ولن يبددَ دِياجِيرَ ظُلُمَتِهَا إِلَّا أنوارُ العِلْمِ، وأصوَاءُ المَعْرِفَةِ.

لهذا، كان العِلْمُ عدوَّها الأوَّل، وكانت المَعْرِفَةُ خِصْمَها اللدوُدُ على مر تاريخها، وسيظلان كذلك..

عبثًا.. أحاولُ التفتيشَ والتنقيبَ عن معلِّمِ حضاريِّ واحد، خلال ما يزيدُ على ألفِ عامٍ، يضارعُ مثلاً سدَّ مَأرب، أو عرشَ بلقيس، أو قصرَ عُمدان، فلم أجد..!

بل لست مبالعًا إذا قلتُ إِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ على امتدادِ تاريخها قد عجزتُ أن تأتيَ بما أتتُ به الدَّوْلَةُ الصُّلَيْحِيَّةُ في "جبلَةَ"، أو الرِّسُولِيَّةُ في "الجند" على قصرِ عهديهما، واللّتين خلّفتا بيئةَ اجتماعيَّةَ مدنيَّةَ سلميَّةَ إلى اليوم، بفعلِ ثَقَافَةِ السِّيَاسَةِ، وسِيَاسَةِ الثَّقَافَةِ التي اتبعتها هاتان الدولتان، خلافاً لما هو عليه الأمرُ في البيئَةِ الهَادَوِيَّةِ التي لا تزالُ آثارُها السِّيَاسِيَّةُ باقيةً إلى اليوم، في القبيلةِ الأقلِّ تمدُّنًا، والأقلِّ سِلميَّةً وحضاريَّةً..

ليسَ ذلكَ فحسب؛ بل لقد تم - بفعلِ حروبها المتواصلةِ وثاراتها المتبادلة - تدميرُ كثيرٍ من المعالمِ الأثريَّةِ والحضاريَّةِ التي تُعتبرُ ملكاً عامًّا للشعب، وجزءًا من ثروته القوميَّةِ وموروثه الثقافيِّ والحضاريِّ؛ بل حتى لقد طالتُ أياديها تدمير ما أنجزه الأتراكُ من بُنيِّ تحتيَّةٍ بمقاييسِ تلكِ المرحلة، وما تبعها!¹

إنَّ جفافَ السِّيَاسَةِ لا يقوى على مواجهةِ نضارةِ الثَّقَافَةِ لأَيِّ مُجتمع، مهما كان جبروتُ القوةِ السِّيَاسِيَّةِ، ولما كانتِ النَّظَرِيَّةُ الهَادَوِيَّةُ تطيرُ بِجناحِ واحد، وتنفسُ من رئةٍ واحدةٍ وهي السِّيَاسَةِ، فقد فشلتُ في التحليق، والوصولُ إلى الغايةِ المرجوةِ بأقلِّ الحَسائرِ، ذلكَ أنَّ الثَّقَافَةَ لأَيِّ مُجتمعٍ، وخاصةً في المجتمعاتِ العريقةِ هي إحدى ركائزِ التقدُّمِ والبناء، بانتقاءِ أرقى ما فيها، وتركِ أسوأ ما ترسَّبَ في أذهانِ النَّاسِ أو انطبعَ في وجدانهم منها. ولا يمكنُ تجاوزَ البُعدِ الثقافيِّ مطلقًا لأَيِّ شعبٍ

¹ - يذكر البعض أنه في فترة الإمام يحيى حدثت أزمة في الورق التي يكتب عليها، فاستخدم ما تبقى من أوراق الأرشيف التركي، وصادف أن وجه خادمه كتابة بشراء لجام للفرس أو للبعلة، على ظهر ورقة في باطنها توجيه من العامل الوالي التركي بإنشاء دار للصنائع!! وللقارئ أن يستغرب فارق التوجيهين!!

من الشعوب في لحظات التحول، إلا أن تكون هذه الشعوب طارئة، ومن الأمم التي لا تاريخ لها، ولهذا تكتسح العولمة اليوم بلداناً عربية ناشئة في المنطقة بشكلٍ مُتسارع، خلافاً لتأثيراتها "العولمة" في بلدانٍ قد تكون أقرب إلى الغرب من هذه الشعوب، كالصين والهند على سبيل المثال؛ وذلك نظراً لعراقه هاتين الدولتين الكبيرتين التاريخيتين، وثقافتهما المتنوعة.

الدولة، أو الحكومة هي التعبير الحقيقي عن حاجيات المجتمع وتطلعاته، ولم يكن اليمانيون يوماً ما بحاجة لأن تأتي سلطة ما من خارج كيانه لتقول له: أنا سيدك، أو لتجرجه إلى حروب توسعية تحت مسمى الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالجهاد في سبيل الله لا يكون إلا في أرض غير إسلامية، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأبي منكر أكبر من منكر قتل النفس، واستحلال دماء الناس وأموالهم!؛

لقد تاهت النظرية في السياسة، غاية، ووسيلة، غير آبهة بالأبعاد الأخرى من اجتماعية، وثقافية واقتصادية، فأفضت النتيجة إلى الصراع السياسي، كمنخرج حتمي لمدخلات النظرية، ولو تريت قليلاً منذ بواكيرها الأولى عند الضروريات الملحة والأساسية التي يتطلع إليها المجتمع لكانت قدمت لليمن ولليمنيين إنجازاً حضارياً رائداً، مواصلة ما انفصم من عرى الحضارة التي كانت قد أفلتت شمسها آنذاك، لا أن تقطع حبل الماضي كلياً، لتبدأ من جديد بفكرة وفكر لا يمت لليمن واليمنيين بصلة، دعك عما قيل من تشيع أهل اليمن قبل ذلك للإمام علي، كرم الله وجهه، ثم لأبنائه من بعده، فما يسمى بالتشيع اليمني قبل الهادي، لم يعد مجرد المناصرة لإمام ظلم، وظلم بنوه من بعده فقط، حرّكتها النخوة اليمنية.

هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن هذا التشيع، أو ما يسمونه كذلك، له بعد سياسي آخر، مُتمثلاً في تحالف اليمنيين الذين وجدوا أنفسهم - فجأة - خارج المعادلة السياسية الجديدة التي فرضتها متغيرات المرحلة في وسط الجزيرة من بعد وفاة الرسول ﷺ، في عملية إقصاء وتهميش سياسي مُتعمد لهم. هذا الإقصاء والتهميش له جذوره التاريخية، وهو ما لا ينبغي في إطار الدعوة الجديدة التي تركت كل النعرات السابقة وعدتها من الجاهلية، فلم يُخطئهم النظر السياسي أن يتحالفوا مع المعارضة القائمة لنظام الحكم الأموي، فالعباسي الأول معاً، وكان العلويون هم رأس

حربة هذه المعارضة، إلى جانب آخرين، الذين كانوا يرونهم من قوى المستقبل، أو القوى الناشئة التي ستنتصر لهم، أو على الأقل سيجدون ذاتهم من خلال نتيجة تحالفهم مع هذا الفريق الصاعد.

وبحكم نضاعة صفحة العلويين يومها التي لم تتلوث بسوءات السلطة والتسلط يومها، فقد كان هذا هو سر التقارب بين العلويين من جهة، واليمينيين من جهة أخرى. فاليمينيون في تلك المرحلة من تاريخهم أذكى من أن يُستغفلوا بأن يكونوا حطب حرب، أو وقود صراعات لا ناقة لهم فيها ولا جمل مستقبلاً. ومن يستقرئ ملاحم الفتوحات وأسماء التولي والولايات يجد اليمينيين قادة جيوش، وسفراء دول، وأمراء ولايات. ولا تزال آثار ومآثر اليمينيين إلى اليوم شاهدة على عظمة هذا التميز، في كثير من بلاد الشرق والغرب، وحيثما امتدت الفتوحات الإسلامية، حتى أن قلاعاً معروفة إلى اليوم في الأندلس وشمال أفريقيا تُسمى بأسماء يمينيين، كقلعة الهمداني، وقلعة الخولاني، كما ذكرنا سابقاً.

ومما يزيد هذا تأكيداً هو أن مسألة البطين، أو آل البيت، لم تكن قد تبلورت بعد في نظرية عقائدية إلا في وقت متأخر، منذ مجيء الهادي وابتداء حكمه نهاية القرن الثالث الهجري وما بعده؛ أمّا قبل ذلك فلم تكن إلا فكرةً سياسيةً عابرة، ليس لها هذه الصبغة التي عليها الآن.

أخيراً: أثبتت وقائع التاريخ وأحداث الزمن أن هذه النظرية ليست صالحة للحكم مطلقاً، نظراً لطبيعتها البنيوية من داخلها، كأية نظرية سياسية تلبس لبوس الدين أو القومية أو العرق، قابليتها للتنفيذ العملي محدودة. فهي من بعض نواحيها مثالية الفكرة بتلك الشروط الدقيقة والكثيرة. وهي من وجه آخر "نسبية التقييم" فيما يتعلق بمخالفة شروطها. فمن يكن عادلاً في رأي فلان هو ظالم من وجهة نظر إعلان. ومن هو كريم من وجهة نظر شخص، قد يكون بخيلاً أو شحيحاً من وجهة نظر شخص آخر، مع أن شرط الكرم في الإمام/ الخليفة/ الرئيس... لم يعد من الشروط الموضوعية اليوم، على أهميته سابقاً؛ لأن الدولة اليوم دولة مؤسسات، وحقوق الناس ارتبطت بها، ولم تعد مرتبطة بالرجل الأول في الدولة، الذي يترتب على مجله حرمان بعض الناس من حقوقهم، مثلما يترتب على كرمه استيفاؤها؛ ولم يعد الرئيس أو الإمام اليوم يوزع أصواع البر والشعر، ويقود الجيوش في نفس الوقت، كما كان سابقاً! وهذا ما يجعلنا نؤكد أن هذه النظرية من التاريخ لا من الحاضر، ناهيك عن المستقبل! تماماً كما هو الشأن مع نظرية "الفرشية" التي أصبحت

كذلك من وقت مبكر.! وبحسب "ماديسون": ما من قضيةٍ خبيثةٍ إلا وتخونُ نفسها. وكم هي خبيثةٌ هذه النظرية؟! وكم تخونُ نفسها؟! وكم تخونُ غيرها أيضاً؟!
إنَّها آلهُ العنفِ الكبرى في حدِّ ذاتها، تتشظى جنوناً في مختلفِ الاتجاهاتِ الاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ والنفسيَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ. الأعجبُ والأغربُ معاً تبريرُها للعنفِ بنصوصٍ تاريخيَّةٍ من داخلها، فشلتُ قديماً، غير مدركةٍ أنَّها اليومَ أكثرُ فُشلاً مع المتغيراتِ الجديدة، وأنَّ عدوانيتها ترتدُّ على ذاتها.. أي أنها الوجهُ الآخرُ للإرهابِ الذي هو مُشكلةُ العصر.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- الكتاب المقدس

- ابن الأمير وعصره، صورة من كفاح شعب اليمن، تأليف: قاسم غالب أحمد، حسين أحمد السياغي، محمد بن علي الأكوغ، عبدالله المجاهد الشماحي، محمود إبراهيم زايد، د.ن. د. ت.
- أحزاب المعارضة السياسيّة الدينية في صدر الإسلام، يوليوس فلهوزن، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1958م.
- أدب الطلب، محمد بن علي الشوكاني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1979م.
- إرشاد الطالب، بدر الدين الحوثي، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط:1، 1994م.
- أشتات، عبدالله البردوني، د. د. ط:2، 1995م.
- الأحكام السلطانية، الماوردي، مطبعة الحلبي، مصر، ط:3، 1973م.
- الأسس الفكرية للتناقضات في السُلطة الزيدية، دراسة تاريخية لظاهرة تعارض الأئمة الزيدية في اليمن، رسالة دكتوراة للباحثة سلوى علي قاسم المؤيد، نسخة منها بمكتبة مركز الدراسات والبحوث اليمني.
- الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط:1، 2003م.
- الإصلاح الديني في الإسلام، تراث محمد الشوكاني، برنارد هيكل، نقله إلى العربية: علي محمد زيد. جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط:1، 2014م.
- الأعمال الكاملة، الفكر والموقف، أحمد محمد نعمان، "الأطراف المعنية في اليمن" جمع وترتيب: لطفي فؤاد أحمد نعمان، ط:1، 2001م.
- الإمام الهادي يحيى بن الحسين وآرؤه العقديّة، دراسة نقدية مقارنة، د. عبد الحميد أحمد مرشد، مؤسسة النبأ الاجتماعيّة التنموية، ط:1، 2010م.

- الإمامة وخطرها على وحدة اليمن، مُجَّد محمود الزبيري، وزارة الثقافة والسياحة، 2004م.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عبد المنعم فريد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط:1، 2006م.
- الأمير، نيقولا ميكيافللي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ترجمة: أكرم مؤمن، د. ت.
- الأوضاع السياسيَّة الداخلية لليمن في النصف الأول من القرن التاسع عشر، صادق مُجَّد الصفواني، وزارة الثقافة والسياحة، ط:1، 2004م.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاضي مُجَّد بن علي الشوكاني، جمعه، مُجَّد بن مُجَّد بن يحيى زبارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1998م.
- البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين مُجَّد بن أحمد النهروالي، منشورات دار اليمامة، الرياض، 1967م، ط:1، 77.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام مُجَّد هارون، مكتبة الخانجي، بغداد، 1960م.
- التاريخ الاجتماعي للثورة اليمنية، رؤية سوسولوجية لتحول بناء القوة. د. عبد الملك المقرمي، دار الفكر المعاصر، ط:1، 1991م.
- التحف شرح الزلف، تأليف الإمام الحجة المجدد للدين، مجد الدين بن مُجَّد بن منصور المؤيدي، مكتبة أهل البيت، ط:4، 2014م.
- التطور الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، د. مُجَّد سعيد العطار، الجزائر، 1964م.
- الثقافة والثورة في اليمن، عبدالله البردوني، د. ن، ط:4، 1998م.
- الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبدالله مُجَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة كتاب الشعب، مصر..
- الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، الشهيد حميد بن أحمد بن مُجَّد المحلي، تحقيق: الدكتور المرتضى بن زيدي المحطوري الحسني، مكتبة مركز بدر ط: 1، 2002م.
- الحوثيون.. الظاهرة الحوثية، دراسة منهجية شاملة، أحمد مُجَّد الدغشي، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب اليمنية، ط:1، 2010م.

- الدر المنظوم في تراجم الثلاثة النجوم، إسماعيل بن حسين جغمان، تحقيق: زيد الوزير، مركز التراث والبحوث اليمني، 2002م.
- الرسالة الوازنة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين. يحيى بن حمزة، مكتبة دار التراث، صنعاء، ط:1، 1990م.
- الزيدية.. قراءة في المشروع وبحث في المكونات. عبدالله بن محمد حميد الدين، دار الرائد للدراسات والبحوث، ط:3، 2010م.
- السيرة الشريفة المنصورية، أبو فراس بن دعثم، تحقيق: عبدالغني محمود عبدالعاطي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط:1، 1993م.
- الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، دار الحدائث للطباعة والنشر والتوزيع، بالتعاون مع مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء. ط:1، 1986م.
- الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، فريد هاليداي، تعريب وتقديم: الدكتور محمد الرميحي، دار الساقى: ط:2، 2010م.
- الصراع السياسي والفكري في اليمن خلال العصر الأيوبي، محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الشويعر، الرياض، 1427هـ، ط:1.
- الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرية، د. عبد الغني محمود عبد العاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط:1، 2002م.
- الطريق إلى الحرية، مذكرات العزي صالح السنيدار، ط:2، 1998م.
- العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ. العلامة المحقق المجتهد الشيخ صالح المقبل، اليمني، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، ط:2، 1985م.
- العناية التامة في تحقيق مسألة الإمامة، الإمام عز الدين بن الحسن، "مخطوط"
- الفرار إلى جهنم، معمر القذافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:1، القاهرة 1996م.
- الفردية.. بحث في أزمة الفقه الفردي السياسي عند المسلمين، زيد بن علي الوزير، مركز التراث والبحوث اليمني، ط:1، 2000م.
- القبيلة والدولة في اليمن، د. فضل علي أبو غانم، د.ن. د.ت.

- اللطائف السننية في أخبار الممالك اليمنية، مُجَّد بن إسماعيل الكبسي، د.ت.
- المجموعة الفاخرة، مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، تحقيق: علي أحمد الرازحي، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط 1، 2000م.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971م، ط:1، 622.
- المغني، موفق الدين أبو مُجَّد بن قدامة المقدسي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط. 1972م.
- النبذة المشيرة إلى جُمَل من عيون السيرة في أخبار مولانا أمير المؤمنين وسيد المسلمين المنصور بالله رب العالمين القاسم بن مُجَّد بن علي عادت بركاته. "مخطوط" مكتبة اليمَن الكبرى، "نسخة منها بمكتب رئاسة الجمهورية".
- الهوية السِّيَاسِيَّة والحضارية لليمن في التَّاريخ القَدِيم وعصر الإسلام، د. صادق عبده علي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، ط:1، 2004م.
- الوثائق السِّيَاسِيَّة اليمَنِيَّة من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ، جمع وتحقيق: مُجَّد بن علي الأكوخ الحوالي، دار الحرية، بغداد، ط:1، 1976م.
- اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، د. د. ط:1، 1983م.
- اليمن الخضراء مهد الحضارة، مُجَّد بن علي الأكوخ الحوالي، مكتبة الجيل الجديد، ط:2، 1982م.
- اليمن عبر التاريخ، دراسة جغرافية تاريخية سياسية شاملة، أحمد شرف الدين، ط:2، 1964م.
- اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، المعروف بصاحب المواهب. د. مُجَّد علي دبي الشهاري، الجيل الجديد، ط:1، 2009م.
- اليمن وحضارة العرب، الدكتور عدنان ترسيبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط. د.ت.
- اليمن.. الإنسان والحضارة، القاضي عبدالله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحي، منشورات المدينة، بيروت، لبنان، ط:3، 1985م.
- اليمن.. الثَّورَة في الجنوب والانتكاسة في الشمال، د. مُجَّد علي الشهاري، دار ابن خلدون، بيروت، 1972م.
- اليمن.. الثَّورَة والحرب، إدجار أوبلانس، ترجمة: عبد الخالق مُجَّد لاشيد، مكتبة مدبولي، ط:2، 1990م.

- اليمن.. رحلة إلى صنعاء، رينزو مانزوني، الصندوق الاجتماعي للتنمية، اليمن، ترجمة: ماسيمو خير الله. ط:1، مارس 2011م.
- أيام وذكريات، د. حسن مُجَّد مكِّي، دار عبادي للنشر والدراسات، ط:1، 2008م.
- بهجة الزمن في تاريخ اليمن، يحيى بن الحسين بن القاسم بن مُجَّد، تحقيق: د. أمة الغفور عبد الرحمن علي الأمير، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط:1، 2008م.
- تاريخ الأدب العربي، طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط:4، 1981م.
- تاريخ التمدن الإسلامي، جورج زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.
- تاريخ العرب، الدكتور/ فيليب حتى، مطبعة دار الكشاف، بيروت، 1949م.
- تاريخ القبائل اليمنية، حمزة علي لقمان، دار الكلمة، صنعاء، ط:1، 1985م.
- تاريخ المذاهب الإسلامية، الإمام مُجَّد أبو زهرة، دار الفكر العربي، د. ن. د. ت.
- تاريخ اليمن الحديث، الدكتور حسين عبدالله العمري، ط:1، 1984م.
- تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي الأول، أحمد مُجَّد الشَّامي، دار النفائس، منشورات العصر الحديث، بيروت، ط:1، 1987م.
- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، عبدالواسع بن يحيى الواسعي، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، ط:2، 1991م.
- تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري، المسمى تاريخ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، عبد الإله الوزير، تحقيق: مُجَّد عبد الوكيل جازم، دار المسيرة، بيروت، ط:1، 1985م.
- تاريخ اليمن، المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، العلامة الشَّيخ عبدالواسع بن يحيى الواسعي اليماني، المطبعة السلفية ومكاتبها، القاهرة، 1346هـ.
- تاريخ مدينة صنعاء، أحمد عبدالله الرازي، تحقيق الدكتور حسين عبدالله العمري، دمشق، ط:1، 1981م.
- تأسيس الدولة الزيدية في اليمن، مقارنة سوسولوجية لتجربة الهادي الرسي السياسية. عبد الملك العجري، مركز الرائد، ط:1، 2014م.

- تكوين الدولة، روبرت ماكيفر، ترجمة الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، ط:2، 1984م.
- تكوين اليَمَن الحديث، د. سيد مصطفى سالم، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط:4، 1993م.
- ثورة 1948م، الميلاد والمسيرة والمؤثرات، مركز الدراسات والبحوث اليمني، "مجموعة باحثين وكتاب" الطبعة الثانية: 2004م.
- ثورة 26 سبتمبر في اليمن، إيلينا جولوبوفسكايا، دار ابن خلدون، بيروت، ط:1، 1982م.
- جزيرة العَرَب قبل الإسلام، بهان الدين دلو، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط:2، 2007م.
- حَضارة العرب، د. جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر. الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ط:؟، 2012م.
- حضرموت القَدِيمَة والمعاصرة، المركز اليمني للأبحاث الثقافية، ط:1، 1987م.
- حوار في الإمامة بين الإمام عز الدين بن الحسن والعلامة عبدالله بن مُجَدَّ النجري والعلامة علي بن مُجَدَّ البكري والعلامة صارم الدين إبراهيم الوزير، جمع وتحقيق: مُجَدَّ يحيى عزان، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، ط 1، 2003م.
- حوليات يمانية، اليَمَن في القَرْن التاسع عشر الميلادي، "مؤلف مجهول" تحقيق: عبد الله مُجَدَّ الحبشي، دار الحكمة، صنعاء، 1991م.
- حياة الأمير علي الوزير، أحمد بن مُجَدَّ الوزير، منشورات العصر الحديث، 1987م.
- دراسات في التراث اليمني، عبدالله بن مُجَدَّ الحبشي، دار العودة، بيروت، 1977م.
- دراسات في تاريخ الشَّرْق القديم، الدكتور أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، ط:2، 1963م.
- درر نحور الحور العين بسيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين، لطف الله جحاف، تحقيق: عارف مُجَدَّ عبدالله فارح الرعوي، وزارة الثقافة والسياحة، 2004م.
- ذخرة الأحياء في سيرة الشَّيْخ علي بن يحيى، مخطوط بأرشفيف المؤرخ حيدر علي ناجي.
- رحلة في العَرَبِيَّة السعيدة، نزيه مؤيد العظم، منشورات المدينة، ط:2، 1986م.
- روح الروح فيما حدث بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح، عيسى بن لطف الله شرف الدين، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفني، ط:1، 2003م.

- سوق شمر أنموذجا للأسواق العربيّة القديمة، د. فرات حمدان عبد المجيد، بحث غير منشور، الجامعة المستنصرية، بغداد.
- سيرة الإمام أحمد بن سليمان، سليمان بن يحيى الثقفي، تحقيق: الدكتور عبدالغني مُجّد عبدالعاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط:1، 2002م.
- سيرة الإمام يحيى بن مُجّد حميد الدين، المسماة كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، عبد الكريم أحمد مطهر، دراسة وتحقيق: أ. د. مُجّد عيسى صالحية، دار البشير، الأردن، ط:1، 1998م.
- سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، علي بن مُجّد عبيدالله العلوي، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط:2، 1981م.
- سيكولوجيا السلطة، سالم القمودي، مؤسسة الانتشار العربي، لندن - بيروت، ط:2، 2000م.
- شاهد على الحركة الوطنية، يحيى مصلح مهدي، سيرته ونضاله. مركز عبادي للدراسات والنشر، ط:2، 2011م.
- صُبح الأعشى، أبو العباس أحمد، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1913م.
- صفحة من تاريخ اليمَن الاجتماعي وقصة حياتي، مُجّد بن علي الأكوخ الحوالي، مطبعة الكتاب العربي، دمشق.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين. 50 لهيئة المصرية العامّة للكتاب، 2003م، د.ط.
- طيب أهل الكساء، محسن بن الحسن أبو طالب، تحقيق: عبدالله مُجّد الحبشي، صنعاء، د. ت.
- عهد أردشير، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صابر، بيروت، 1967م.
- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، يحيى بن الحسين بن القاسم بن مُجّد بن علي، تحقيق وتقديم: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة: د. مُجّد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ط، 1968م.
- فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، د. حسين العمري، دار الفكر، دار الحكمة اليمانية، ط:1، 1986م.
- قرشية الخلافة، تشريع ديني أم رؤية سياسية؟ مُجّد يحيى سالم عزان، مركز التراث والبحوث اليمني، ط:1، 2004م.

- قريش من القبيلة إلى الدولة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ط:1، 1993م.
- قضايا يمنية، عبدالله البردوني، ط:5، 1996م.
- كتاب الإكليل من أخبار اليَمَن وأنساب حمير، تصنيف: لِسَان اليَمَن أبي مُجَدِّد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، تحقيق: مُجَدِّد بن علي بن الحسين الأكوخ الحوالي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، 2004م.
- كتاب الشخصية المحمدية، معروف الرصافي، منشورات الجمل، ط:1، ألمانيا، 2002م، 264.
- كفاحي. أدولف هتلر. بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:3، 2014م.
- مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط:1، 2008م.
- مدينة تعز غصن نظير في دوحة التَّاريخ العربي، مُجَدِّد مُجَدِّد المجاهد، د.ط. 1997م.
- مذكرات الرئيس القاضي عبد الرحمن بن يحيى الإرياني، ط:1، 2013م.
- معارك حاسمة من تاريخ اليمن، حمزة علي لقمان، مركز الدراسات اليمنية، ط:1، 1978م.
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، الدكتور حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، ط:12، 2015م.
- معتزلة اليمن، دولة الهادي وفكره، علي مُجَدِّد زيد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، دار العودة، بيروت.
- مغامرات مصري في مجاهل اليمن، الدكتور مصطفى الشكعة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط:1، 1985م.
- مقدمة ابن خلدون، العلامة ابن خلدون، مطبعة أمير، إيران.
- ملوك العرب أمين الريحاني، دار الجيل، بيروت، ط:8، 1987م.
- من الأنين إلى الثورة، الدكتور عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط:1، 1983م.
- موسوعة الإمام الشافعي، كتاب الأم، مُجَدِّد بن إدريس الشافعي، توثيق وتنسيق: د. أحمد بدر الدين حسون، ط:1، دار قتيبة، ط:1، 1996م.
- هجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوخ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط:1، 1995م.

- هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، أحمد فضل العبدلي، دار العودة، بيروت، ط:2، 1980م.

- هذه هي اليمن، عبدالله الثور، دار العودة، بيروت، ط:2، د.ت.

- وثائق أولى عن الثورة اليمنية، المشير عبدالله السلال، القاضي عبدالرحمن الإرياني، القاضي عبدالسلام صبرة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:2، 1992م.

- وعاظ السلاطين، الدكتور علي الورد، دار كوفان للنشر، بيروت لبنان، ط:2، 1995م،

المجلات:

- مجلة البلاد اللبنانية، العدد 56، جماد الأولى، 1412هـ، الموافق تشرين ثاني 1991م.

- مجلة المسار، مركز البحوث والتراث اليمني، العدد:9، 2002م.

- مجلة دراسات تاريخية، دورية، فصلية، تصدر عن دائرة الدراسات والبحوث التاريخية، بمركز الدراسات والبحوث اليمني، العدد: الخامس، السنة الثانية، يناير - مارس، 2010م.

- مجلة سبأ، مجلة تاريخية، حولية، محكمة، تصدر عن قسمي التاريخ في كلية الآداب والتربية، - جامعة عدن، العدد التاسع، ديسمبر، 2000م.

الصحف

- صحيفة الأمة، الناطقة باسم حزب الحق، العدد 26، الخميس 19 ربيع الثاني، 1413هـ، الموافق، 15/10/1992م.

- صحيفة الأهالي، الثلاثاء، 24/11/2009م.

- صحيفة الناس، 24 نوفمبر، 2014م

- صحيفة الجمهورية، الثلاثاء، 9 أكتوبر، تشرين الأول، 2012م.

الفهرست

5	إهداء..
7	تقديم.
13	المقدمة.
25	مدخل عام.. اليمَن الحضاري في التَّاريخ القديم
الفصل الأول	
41	الجزور الفكرية والموجهات النظرية
43	المبحث الأول: الفكرة التي بنت مجدًا..
55	المبحث الثاني: الإمام زيد بن علي.. فكره ومعارضته لبني أمية
	المبحث الثالث: من التنظير إلى التطبيق..
73	الإمام الهادي عين على السُّلطة وعين على المذهب.
88	المبحث الرابع: سيكولوجيا النَّظَرِيَّة
94	المبحث الخامس: سيكولوجيا المُنظَر.
108	المبحث السادس: وارثو مجد الهادي.. ملوك أكثر من الملك.
الفصل الثاني	
113	المخرجات العملية للنظرية الهاديّة
115	المبحث الأول: احتقار وازدراء غير المنتمين لهذه السلالة
123	المبحث الثاني: حرمان أي مواطن من حق الوصول إلى الحكم
131	المبحث الثالث: خلق التراتبية الاجتماعيّة.
140	المبحث الرابع: التكفير واستباحة الأموال.
176	المبحث الخامس: الخروج والخروج المضاد.. الفوضى المقدسة.

الفصل الثالث

من مثالية الفكرة إلى برامجتيّة التنفيذ قراءة في الأدوات والآليات

205

207

المبحث الأول: الرّهائن..

211

المبحث الثاني: الدعايات والشّانعات

220

المبحث الثالث: تجهيل الشّعب..

246

المبحث الرابع: تخليق الصّراع الاجتماعي

الفصل الرابع

271

النظريّة والمستقبل

المبحث الأول: بين النّظريّة الهادويّة والنظريّات السّياسيّة الأخرى. نقاط الالتقاء وحدود الاختلاف

273

282

المبحث الثاني: الانعكاسات الشرطيّة للنظريّة

302

المبحث الثالث: النّظريّة والمستقبل.

310

المصادر والمراجع

الهَادَوِيَّة

بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الإِلَهِيَّةِ

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ دَعْوَةٌ لِقِرَاءَةِ التَّرَاثِ الْفَقْهِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ بِلَا تَعْصَبٍ وَلَا شَطَطٍ. قِرَاءَةٌ بِعَقْلِ يَقْتَاتُ الْعِلْمَ وَالْحَقِيقَةَ، وَبِرُوحِ أَنْوَارِ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَالْعِشْرِينَ.. لَا بِعَقْلِ جَامِدٍ يَقْتَاتُ ظُلُمَاتِ الْمَاضِي أَوْ بِرُوحِ تَعْيِشٍ عَلَى الْكِرَاهِيَّةِ وَالْأَثَرَةِ! إِنَّ الْكِتَابَ - بِاخْتِصَارٍ - دَعْوَةٌ لِقِرَاءَةِ نَاقِدَةٍ لِلْمَاضِي مِنْ أَجْلِ الْمُسْتَقْبَلِ.. لَا دَعْوَةٌ لِتَكْرِيسِ الْمَاضِي فِي الْحَاضِرِ، وَالْغُرُقِ فِي مُسْتَنْقَعَاتِهِ وَأَوْحَالِ صِرَاعَاتِهِ.

يُمَسِّكُ الْبَاحِثُ بِهَذَا الْخَيْطِ الْمَعْتَزَلِيِّ الْمَضِيءِ فِي الْفِكْرِ الزُّيْدِيِّ الْأَوَّلِ، حَتَّى يَصَلَ إِلَى ذُرَى النُّورِ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْهَجْرِيِّ / السَّابِعِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ وَمَا تَلَاهُ فِي فِكْرِ الْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ الْوَزِيرِ، وَالْعَلَامَةِ صَالِحِ بْنِ مَهْدِي الْمَقْبَلِيِّ، وَالْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْأَمِيرِ، وَالْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ الشُّوْكَانِيِّ..

لَقَدْ كَانَتْ كَوَاكِبُ ضَخْمَةٍ فِي مَدَارِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ عَامَّةً، حَتَّى قِيلَ: إِنَّ أَعْظَمَ عُلَمَاءِ الزُّيْدِيَّةِ مُتَسَنَّوْنَ، وَأَعْظَمَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ زَيْدِيُونَ! وَلَعَلَّ هَذِهِ الْمَقُولَةُ كَانَتْ عَلَى هَدْيِ الْعِبَارَةِ الشَّهِيرَةِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الزُّيْدِيَّةَ سُنَّةٌ الشُّيْعَةِ، وَشُيْعَةٌ السُّنَّةِ!



أروعة
للدراسات والترجمة والنشر

